نيكوس كازنتزاكي

زوربا اليوناني

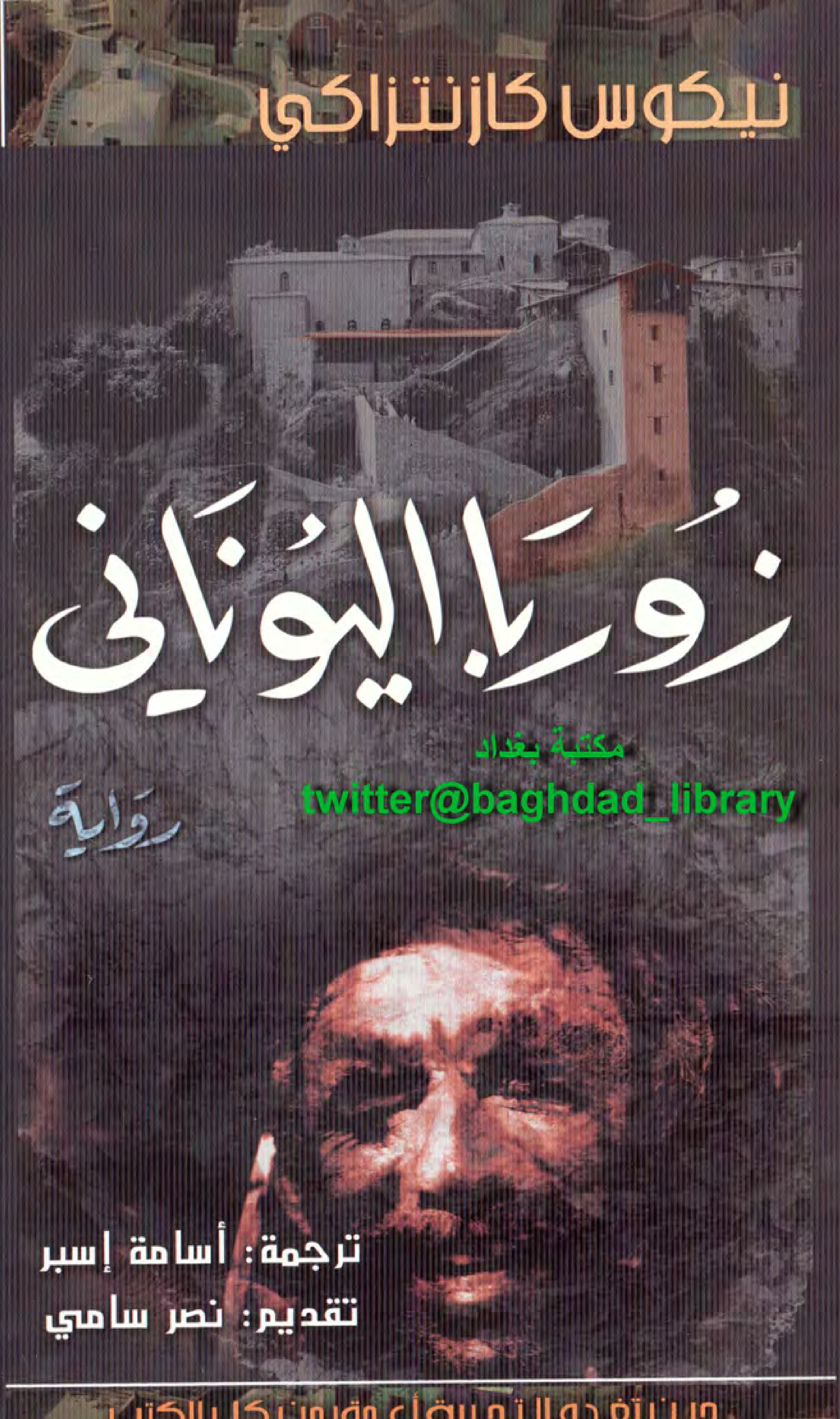

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

رواية

ترجمة: أسامة إسبر

تقديم: نصر سامي

حين تغدو التجربة أعمق من كل الكتب

مسكيلياني

نيكوس كازنتزاكي

زوربا اليوناني

ترجمة: أسامة إسبر

مراجعة: شوقي العنيزي ورمزي بن رحومة

مسكيلياني للنشر

twitter @baghdad_library

المؤلّف: نيكوس كازنتزاكي
عنوان الكتاب : زوربا اليوناني
ترجمة: أسامة إسبر
مراجعة: شوقي العنيزي ورمزي بن رحومة
تقديم: نصر سامي
خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة
تصميم الغلاف: الفنان رؤوف العرفاوي
الناشر: مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 22997848(216+) أو 531531622(966+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com
ر.د.م.ك: 978-9938-833-16-4

الطبعة الثانية (منقّحة): 2015

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

حين أزهرت بذرة «زوربا» في داخلي

لم أنس هذا الكتاب أبدا، منذ أن قرأته في سنواتي الأولى وأنا طالب بكلّية الآداب. لم أقرأه مرّة واحدة كما يقرأ النّاس عادة الكتب، بل قرأته قراءة معاشرة، توسّدته مرارا كثيرة في ذلك الليل القاسي في مبيت الطلبة الشّبيه بالمعتقل في كلّية الآداب بمنّوبة، وقرأته في المشرب الجامعي، حيث كانت تتحرّك أمامي شخصياته حيّة، بدم ولحم حقيقيّين، تحاورني وأحاورها. وقرأته في تواريخ وأماكن انتقلت إليها فيما بعد. أمّا الآن وقد مضت كلّ هذه السنوات فإنّني أجده، بإطلاق، الكتاب الأهمّ الذّي قرأته في حياتي.

كتاب شرب من المعارف أقصاها، ومن الخمور أعتقها وأغلاها، وجرّب من الأنثى أنضجها وأبهاها، ومن الحياة أسرّها وأغواها، لم يدر حول الحقيقة من بعيد، بل غمس فيها «سانتوره»، ولم يتحدّث عن النّساء بل جعلهنّ لحم الكتاب ودمه، أصلاً الكتابُ كلّه قصيدة مديح في المرأة المسكينة، والمتعبة، الفقيرة والمرتعبة من المصير، تلك التّي لم تحفل بها رواياتنا أبدا، ولم تصغ إليها نصوصنا الكبرى. أمّا هو فينصت وينصت، يتحوّل في إنصاته إلى إله سعادة، ولا يتوقّف عن أعطاء الهبات.

كتاب يوقظ الأسلاف جميعهم مرّة واحدة، يأخذك بدهشة ورفق، ولكنّه حين تنضج عيناك في الرؤية وقلبك في المحبّة ويداك في المسك يهزّك هزّا. تصبح ورقة صفراء أو زهرة لوز، أنت حرّ، المهمّ أنّك لست الإنسانَ نفسَه، الإنسان الذّي كان قبل القراءة. تعي أن الرّواية ليست فنّ حكي، ولا خرافة فقط، ولكنّها مادة تترقرق صافية من آلاف الكتب، تزهر

twitter @baghdad_library

يداك وأنت تحرّك الأوراق وتقرأ. أنا أزهرت مرارا مثل شجرة برقوق جبليّة، فيم العجب؟ نبتت على شفاهي لغة من صمت الغابات، وليل من كلمات الضّوء. وشقيت وأنا أقرأ. في مرّات كثيرة نشر الطلاب حولي قماشا وصعدوا فوق أغصاني لجمع الثّمرات. نعم تحوّلت شجرا مرّة وكثيرا من المرّات غيما.. رأيت أسلوبا لم أعهده إلاّ في أمّهات النصوص المؤسّسة الحارقة وفي ذلك النّوع من السّرد الشفوي الذّي يقال عند الموت بحرارة اللّوعة وألم الفقد. فهمت أنّ للرّواية أنهارا خفيّة، لا جنّات تماما، ولا نيرانًا، وفهمت أنّ فيها شخوصا، لا آلهة ولا شياطين، وفهمت أنّ القلم آلة غير صالحة لكتابة نصّ عظيم، لتكتب نصّا عظيما تحتاج إلى تلك الأسفنجة المغموسة في ماء الرّحمة الإسفنجة التّي يمرّرها الله على جبين المخطئين.

يكتب كأنّه يلقي بالبذور في لحم اللغة العجوز، كأنّه النّحل والرّياح في اللّقاح. شيء يحدث في العمق دون ضوضاء، فتخلق الحياة في ذلك الهدوء العظيم، لا يكتفي الرّاوي بتغييرها، ولا بتجميلها، بل يكشف لك ممكنات أخرى في ذاتك. يذكّرك بأنّك في الأصل حرّ ونقيّ ولك فكر، وروحك روح غير قابلة للامتهان، يذكّرك بأن لديك أفقا، وبأنّه واسع رغم ما تراه من سواد، وأنّه مزهر رغم ما تراه من رماد.. تحبّ فجأة كلّ ما تراه، حتّى العاجزين، حتّى العاهرات، حتّى الكبار والمسنّين والمعدمين، حتّى المصابين بالجذام، تراهم فجأة بشرا، وتحبّهم، وتشعر بأنّك أنت أيضا معرّض للعجز ومهدّد بالخوف والخسارات، وأنّ في الكلمات حلاّ سحريّا لأدواء الكون كلّها.

زوربا رجل أُمّيّ مثل أغلب الرّسل، نبتة بلا أرض، وثمرة بلا شجر، معرفته عصيّة عن التّصنيف، عاصية، مفاجئة، شديدة الإيمان، كافرة، محرقة، حارقة، استمدّها من الحياة نفسها، جرّبها، ولم يرثها عن غيره. تجده أحيانا فيلسوفا، وحين تطمئن إلى فلسفته يتحوّل إلى شاعر

أو إلى حكيم، وهو أيضا ذلك السّاخر العظيم من ملكوت العقل، والمطلقُ لقارات الحواس. يجعل ذلك من الكتاب، نهرا يجري في الدّواخل، لا خارجها، أحيانا تصرخ وأنت تقرأ: «لماذا لم أتصرّف هكذا»، وتغلق الكتاب وتحزن أيّاما. وأحيانا كثيرة تفرح فرحا عميقا وشجرة المعرفة تورق في رأسك وتُثمر. تشعر أنّ الفلسفة ليست بعيدة عنك، بل ربّما بدأت بعد القراءة فعل التفلسف، وربّما قرّرت أن تجرّب تلك الصياغات الرّائعة لفنّ الحبّ والمداعبة والإغواء والعشق التّي يطفح بها الكتاب، وأهمّ ما ستبدأ فيه دون شكّ هو البدء بعشق نفسك الّتي ستتحرّر نهائيا ولأوّل مرّة من الخوف ومن الفشل، إذ ستتعلّم أنّ الفشل ليس سوى كذبة كبيرة، الفاشلون أيضا هم مؤسّسو الجمال وزارعو الضّياء في ليل العالم.
بعد إكمال الكتاب ستعرف أنّ زوربا شخصيّة حقيقية، لن تكون لهذه المعلومة أيّة قيمة، لقد صار زوربا أكثر الشّخصيات تأثيرا فيك، ستراه الشّخص الأعظم في هذا الكون، ليس في ذلك أيّ قدر من المبالغة. إنّه التجسيد المطلق للإغواء والعشق، الإيروس بذاته وهو يلقي عطاياه في ليل الأجساد المعطوبة، غابة هو من اللذّات التّي لم تفتضّ، زهرة ضوء خضراء نديّة تنبت في جرح العالم، حزين، لكنّه لا يذكر الحزن، لا يعطيه القيمة اللاّئقة به، بل يقلب الحزن فرحا، يسقي شجرة الحزن فتنوّر فرحا، ولا يكتفي بالفرح، بل يرقص ويرقص معه البشر والأدوات والجمادات، ستجرّب تلك الرّقصة، أتحدّاك أن لا تجربّها كما جرّبناها نحن طلبة كلّية الآداب، تشعر بأنّك طائرٌ حينا، ونهرٌ حينا، وطاقةُ إيراق. زوربا شخص واقعي عرفه نيكوس في إحدى سفراته، تقرؤه كأنّك تراه، لأنّ نيكوس رسمه بفرشاة رامبرانت، فجعله محبّبا للنّفس في قماشة سرد قلّ أن تجد مثيلا لها في سحرها وتفصيلها وعمقها.

الطّرف الثّاني في الكتاب اسمه باسيل، أو «الرّئيس» وهو رجل مثقّف، ترك عالم النّاس وتعلّق بعالم الكتب، لديه الجمال والمكانة والمال، ولكنّه

twitter @baghdad_library

يرى الحياة ولا يحياها، عكس صديقه الجديد زوربا الذّي خبر الحياة وعاشها. يترافقان لفترة تكون كافية لكتابة كتاب لا مثيل له، نيكوس الكاتب يحتفي بزوربا السّاخر الأبديّ من الكتب، والقائل: «كتبك تلك أبصق عليها، فليس كل ما هو موجود، موجود في كتبك»، بطل يبصق على الكتب وكاتب أمضى زهرة عمره في تحبيرها، حوار يمتدّ على طول أربعمئة صفحة، لا تعرف من المنتصر فيه، هل هو البطل الذّي تحوّل من بشر إلى شخصية ورقيّة، أم الكاتب الذّي حوّله رجل ساخر من الكتب إلى «علامة مسجّلة» في ثقافات العالم. يرغب الرئيس في الاستثمار في مشروع، لكنّ زوربا يدفعه إلى مناجم الفحم، ويُضيع أمواله في صناعة مصعد لنقل الفحم. يفشل المصعد ، أمّا زوربا فلا يفشل أبدا، بل يرحل بأموال شريكه إلى المدينة لجلب أدوات المشروع.. كلّها أسباب فقط يسطّرها الرّاوي لعرض تصوّره لعالم غير العالم ولفكر غير الفكر. يركّب للمدينة التّي بلا قلب قلبا، يجعل لكلّ جسد معطوب ساقين ويملأ شتاءاته بلذّات بلا آخر. في إحدى الحانات، وسط الرّواية، يعطي أموال «الرّئيس» كلّها دفاعا عن كلّ الرّجولة في العالم، لهذا يصرف ماله على الغانية التّي رفضها في البداية، يعطي التالف من أجل الخالد، يعطي الزائل من أجل الباقي، أمّا نحن، فإنّنا نكتفي بصرير الأسنان المرعب الذّي يدور في عروقنا دوران الدمّ.

يعرض نيكوس كازانتاكي عبر زوربا ثقافة راسخة في القدم في مواجهة ثقافات أخرى آكلة، ضارية، غالبة، متوحّشة، موحشة، تصنع قيما جديدة طاحنة. يعرض الكتاب ثقافة روحانية لكنّها مغرقة في لذاذات الجسد، صوفية ولكنّها ترضع من ينابيع المادة. تناقضٌ يُدار باقتدار، ويؤلّف نصّا جامعا للشّعر والفلسفة والسّرد والموسيقى، نصّا متّقدا بالدّهشة، جُملُه حبلى بنار مُحرقة، وليلُه مسكون بفكر ثائر، يشبه تلك النّصوص الدّينيّة الكبرى في تاريخ الإنسانية.

يُوقظ الكتاب الأسلاف جميعهم مرّة واحدة، ويجمع بين خبرة الأديب والسّياسي ورئيس الحزب والوزير وخبرة الإنسان المدهش المغامر البسيط والنبيّ في آن. يجمع فلسفة الشّرق بهذا الزخم الخاص، المدهش، اللاّ محدود، الغرائزي، المتخم باللّذويّة والشّبق، المتحرّر. هذا الجمع الذّي قد يبدو متناقضا، لكنّه في الكتاب يبدو متآلفا، فنتساءل: «كيف استطاع نيكوس أن يبلغ بنا الحضيض والجنّة في آن؟ كيف مزج كلّ هذه الرّوافد في نصّ واحد؟ كيف استطاع أن يقودنا نحو الهوّة المسمّاة الحياة والموت التي تستوطننا؟» أسئلة كثيرة تتبادر إلى الذّهن، وأجوبتها تتواتر في سرد ناعم جريء قوي متدافع مغو، يسهر عليه كاتب أصبح اليوم أحد أعمدة السّرد العالمي.

في الفيلم المعروف بنفس الاسم، وهو تحفة مرئية للرّواية الخالدة، بلاغات عجزت الصورة عن نقلها، وهمسات ضاق عنها الكادر، وهمسات لم تسمعها عربة الكاميرا الصمّاء. في الرّواية، لا في الفيلم، تتدفّق بلاغة لا مرئيّة تجري منك مجرى النّفس، ترى فيها الواقع وقد مرّ بعين المبدع فصار عربة صور لا تكفّ عن فتنتنا وإدهاشنا. ليس غير زير نساء، في الخامسة السّتّين، ذلك هو زوربا. متمرّس في شغله، طموح، محبّ للعمّال، لهذا ينذرهم قبل انهيار المنجم، وبذلك يصبحون طوع أمره. هذا هو زوربا.. يهتمّ بالإنسان فقط، طين الله الذّي يحتاج دائما إلى تلك الإسفنجة الناعمة الرحيمة الّتي تُمرَّر في أوقات اليأس على الجبين المهموم.

في أوقات الحزن يتحوّل زوربا إلى مغنّ مقدوني جوّال وهو يحمل في يديه آلة السّانتوري، وعبر أوتارها يجعلك تحبّ الحزن القاسي وتنعم بالألم العظيم، وحين يثب في الهواء بأعوامه الكثيرة تتمنّى مثل الرئيس أن تثب مثله، وربّما وقفت مثله ورقصت، يرقص زوربا حتّى في الفجائع، فهل تقدر على مجاراته؟ يرقص أمام جثّة ابنه، فهل ترقص أنت حتّى

twitter @baghdad_library

لموت عصفور أو فراشة أو أيل؟ يرقص في الحزن لكي لا يميته الحزن والأسى، يرقص لأنّ اللغة لا تقول شيئا، فهل تجرّب في وضع مماثل؟ مجنون هو زوربا، لكنّه حرّ تماما. في أعماقه شيطان يوسوس له فيطيعه، فيترك للجسد السيّد حرّية السّخرية بالنظم والعادات والقيود، يرفض زوربا المواضعات كلّها ويرفض سجن العمر وسجن الوظيفة وسجن الكنيسة وسجن الثقافة، ومثل المعرّي، يختطّ لروحه دربا غير مسبوق.

أجمل ما في هذا الكتاب أنّك ستجد نفسك شبيها بزوربا، بل مثله تماما، رغباته هي نفسها رغباتك، لكنّه يحقّقها، فيما أنت تؤجّلها. ترغب في النّساء مثله ولو كنّ مسنّات بعض الشيء أو قبيحات أو مطلّقات، لكنّك لا تجدهنّ دائما، أو تستنكف معاشرتهنّ، فيما يتحوّل هو إلى إله حقيقيّ ليسعدهنّ ويعطيهن الأبدية كاملة. تتمنّى أنت لو كان لديك الوقت لتتعلّم العزف، فيما هو دون تعليم وبسنواته التّي تقارب السبعين يحوّل مآسي الكون إلى معزوفات تثير الموتى أنفسهم. وترنو نفسك إلى الرّقص لكنّك لا ترقص خوفا أو تعفّفا، فيما زوربا يداور كالرّيح تلك القرى والمدن بحركات قدميه الواثقتين. حتّى الأكل، فإنّك تريده، ولكنّك محروم منه، حتّى شرب النّبيذ فإنّك تحرم منه نفسك في الدّنيا وتتمنّى أن تناله في الآخرة، أمّا زوربا العظيم فلا شيء يردعه مطلقا، فاللذّات حتّى أقساها هي غايته، لا يوقفه حدّ ولا يثنيه سبب.

كتب باتريك زوسكيند في الفصل الذّي تناول فيه السّنوات الأخيرة من حياة الكاتب الألماني كلايست وقصة حبّه الفريدة التّي انتهت بانتحاره وإطلاق النّار على حبيبته ثمّ على نفسه، مجسّدا بذلك فكرته عن الأيروسيّة الانتحاريّة: «هنا تحلّ الفظاعة محلّ الاهتمام، عندما يرتمي أيروس بعنف في أحضان تاناتوس حتّى يبدو وكأنّه يريد أن ينصهر فيه». ما كتبه باتريك زوسكند في كتابه «عن الحبّ والموت» يصدق تماما على كتاب زوربا، إذ يتعانق الأيروس والتاناتوس في هذا الكتاب، في

مشاهد لا تنسى مثل مشهد قتل الأرملة، أو مشهد العجز عن التعبير باللّغة واستبدالها بالرقص في البار، أو مشاهد الحبّ الكثيرة، كلّها أبجديّات لنصّ أعمق هو نصّ الجسد الذّي خلق حرّا، ونما لديه الوعي بحريّته، فقرّر بشكل قطعي أن يتصرّف بكامل حرّيته وبكامل وعيه. بين هذا وذاك أنت نهب لمعرفة تنمو داخلك كالياسمينة، تطوّح بك، فتغويك، وتعدك، فتنشدّ لها، وكثيرا ما ترديك. للياسمينة سرّ، لا يتوفّر في غيرها من زهرات الأرض. الحقيقة أنّ زوربا لا يخاف الموت، وذاك سرّه، لهذا استطاعت لغته نفسها أن تنسى تاريخها المثقل بالتفاهة والسخف والمسخ، واستطاعت أن تعود إلى صفائها الأوّل، وبلاغتها الأولى. صارت لغة حيّة، نضرة، كلّ شيء تلمسه يتحوّل إلى صباح حقيقيّ، وكلّ حجر إلى زهرات برّية، وكلّ قارئ إلى شبيه بنبيّ. أيّ سحر يكمن في ليل الحرف وأيّ براءات مخبوءة؟ تتساءل، وتنصرف نفسك إلى البحث عن صديقة تبادلها القراءة، فليس قراءة الفرد كقراءة الاشتراك.

هذا الكتاب يعصف بطمأنينتك الكاذبة، أمّا شخصية زوربا فإنّها مثل الشّخصيات الكبرى في تاريخ السّرد كهاملت وأوديب وزرادشت وفلرنتينو أريتا وغولدومند وسدهارتا ومصطفي سعيد وسعيد مهران وزكريا المرسنلي.. تدهشك وتضعك أمام نفسك في مواجهة قدَرك، تنكشف لك فجأة الدّنيا بأسرارها وأساطيرها، تتساءل عن يقينياتك كلّها، تتذكّر أنّه كانت لك في الأصل علاقة بالشّجر والعشب والنمل والجمل، تتذكّر أنّ لحمك جزء من لحم العالم، وأنّ فكرك رفّة من رفّات مجهولة في أجنحة الغيب، تتذكّر أنّك لست وحيدا في الكون وأنّك في الأصل فيلسوف طبيعيّ، تتساءل عن الله، تحبّه في شجرة تزهر فجأة حين تسمع كلمات الحب. تتساءل وأنت تلتمّ على أساطيرك الصغيرة التّي كنت تجهلها وعلى حكاياتك التّي نسيتها: «هل ما عشته يستحقّ أن يسمّى حياة؟». يمكّنك زوربا من سكّين، وأنت تعرف اللّحم، ومن حجر،

twitter @baghdad_library

وأنت تعرف الزّاوية، ومن إنسانية، وأنت تبصر الذّئب. وبعد هذا كلّه فإنّ زوربا لاه كبير، ومجدّف، وهو في الآن نفسه أحد أكثر الشخصيات انغراسا في تربة الأديان السماويّة، تناقض في الظاهر، شبيه بما يحدث من تلاعب بين النّهار والليل.

زوربا الحقيقي الذّي عرفه نيكوس مات منذ زمن بعيد، لم يبق إلاّ زوربا المكتوب، هل يحدث ذلك فارقا؟ قارض الكتب ينتصر في مواجهة كاره الكتب، مفارقة مفصليّة في كتاب ينتصر لثقافة التجربة، لكنّ نيكوس الكاتب في جوهره يؤمن بأنّ ديونيسوس وهو يلهم العالم طقوس الابتهاج والنشوة، كان حبيسا لألوهية أبديّة مؤلمة، أن تشعر بالألم العاتي الممضّ، فذاك درس كبير، قدَرُك أن تواجه ألمك بنصّ أو بمعزوفة أو بقصيدة شعر أو بصرخة، هنا تتنزّل قوة نيكوس، إذ يدفع ببطله الفاني في مغامرات تذكّرك بمغامرين كثر، لكن ليس لاكتشاف قارات أو مسالك تجارة لحرير أو توابل، بل لمتع جديدة لم ترتكب، ولذنوب لم تقترف. يغرف من المتع أقصاها، نساء وشرابا، وحتّى وهو يموت، فإنّه يظلّ متشبّثا بنافذة الحياة الأبدية.

كتاب ساخر من كلّ شيء، يقلّب مشاعرك على نار اللهفة والمتع البعيدة والقريبة، ويجعلك تسير حاملا فأسك، يغويك بمرافقة الهدّامين. رواية تتّخذ من الرّواية قناعا لتمارس فعل التفلسف الخلاّق، وهي بعد ذلك كلّه ديوان شعر أو متن منسي لم يكتبه رواة الأناجيل.

عميقة هي هذه الرّواية في كلّ صفحاتها، لأنّها تعيد للغة نارها، وللحروف قدرتها على الخلق والإماتة، تعيد للإنسان صورته الأولى حين كان خيرا محضا، وحين استولد من أضلاعه الشّرور، وحين قرّر أن ضيعة الأبد لا تعنيه، بل صرّة حوّاء وسيقانها. وحين ترك ظلال الأبديّة الوارفة، وقرّر أن يعصر النبيذ بساقي فتاته، عميقة لأنّ زوربا مثله مثل باخوس إله الخمرة وإله المسرح، قرّر أن يجعل معبده مرقصا لكلّ نفس

معطوبة. والعمق له تصاريف بديعة، أهمّها الإلذاذ والإدهاش والإغواء. وأنت معها لا قادرًا على الحياد فتتركها وتذهب، ولا راغبًا كلّ الرّغبة في إكمالها لأنّها تتحدّاك وتحاورك بقوّة وتخلخل قناعاتك. وتقدّم إليك، لا نموذج الكمال النيتشوي العالي المفارق، بل النموذج البسيط المستغرق في حبّ الحياة، المؤمن باللذّات. لا تغريك بالسوبرمان، بل توقظ السوبرمان الدّاخلي الذّي رمته العادة بديدان الموت. لكنّ الأمر الذيّ ستنساق إليه دون تفكير هو تلك التعاليم «النّبويّة» المكتوبة بشاعرية عالية حول المرأة، لا المرأة الضعيفة الخائفة المستعبدة، ولا المرأة الشرّيرة، بل المرأة الّتي في جوهرها تتحرّك الحياة نفسها، وينسج الكون قماشات اللذّة. المرأة، نعم، هي إحدى أهمّ مواضيع الكتاب، أمّا النّبيذ، وأمّا الإصغاء لنبض الكون، أمّا الموسيقى، فتلك مواضيع مبهرة حقًا.

في الكتاب مشاهد يندر أن تجدها في مكان آخر، مشهد الحوار مع شجرة اللّوز، ومشهد الّشرنقة التّي عجّل الكاتب بتحوّلها إلى فراشة، ومشهد الحجارة التي تستعيد حياتها فوق المنحدرات، ومشاهد أخرى كثيرة، أقول مشاهد لأنّ الرّاوي لا يكتفي بالمتابعة بل يتحوّل إلى راء، يقول: «وبدأت المعجزة تقع أمام عيني»، والكتاب كلّه تقريبا مليء بجوّ أسطوريّ رؤياوي حدسي، لا أسماء، ولا مسمّيات، ولكن قاع النصّ يمور بمياه غَمْر رؤياويّة تضرب خلجانها عميقا داخل النّفس البشريّة.

هنا، لا شيء تافه مطلقا، لاشيء نجس، لا إنسان أفضل من إنسان آخر، هنا لاشيء جزئيّ بإطلاق، بل الكلّ منصهر في جوهر كلّي، لاشيء اسمه الظّاهر، وإن كان، فرؤيته لا تكون إلاّ في ملكوت الحس، يتقوّض الفصل بين الجزئيات والكليات، وينزّل المتعاليات إلى المجال الدنيويّ، حيث تتكلّم الشّجرة وهي تبسط كفّيها لتمسح بعطرها شفة الربيع، وحيث يئنّ العشب تحت قدمي الطّفل. «لم أقل شيئا»، يقول الراوي: «لكنّي شعرت بفرحة عميقة وقلت لنفسي هكذا يرى الحالمون والشعراء

twitter @baghdad_library

وأنت تعرف الزّاوية، ومن إنسانية، وأنت تبصر الذّئب. وبعد هذا كلّه فإنّ زوربا لاه كبير، ومجدّف، وهو في الآن نفسه أحد أكثر الشخصيات انغراسا في تربة الأديان السماويّة، تناقض في الظاهر، شبيه بما يحدث من تلاعب بين النّهار والليل.

زوربا الحقيقي الذّي عرفه نيكوس مات منذ زمن بعيد، لم يبق إلاّ زوربا المكتوب، هل يحدث ذلك فارقا؟ قارض الكتب ينتصر في مواجهة كاره الكتب، مفارقة مفصليّة في كتاب ينتصر لثقافة التجربة، لكنّ نيكوس الكاتب في جوهره يؤمن بأنّ ديونيسوس وهو يلهم العالم طقوس الابتهاج والنشوة، كان حبيسا لألوهية أبديّة مؤلمة، أن تشعر بالألم العاتي الممضّ، فذاك درس كبير، قدَرُك أن تواجه ألمك بنصّ أو بمعزوفة أو بقصيدة شعر أو بصرخة، هنا تتنزّل قوة نيكوس، إذ يدفع ببطله الفاني في مغامرات تذكّرك بمغامرين كثر، لكن ليس لاكتشاف قارات أو مسالك تجارة لحرير أو توابل، بل لمتع جديدة لم ترتكب، ولذنوب لم تقترف. يغرف من المتع أقصاها، نساء وشرابا، وحتّى وهو يموت، فإنّه يظلّ متشبّثا بنافذة الحياة الأبدية.

كتاب ساخر من كلّ شيء، يقلّب مشاعرك على نار اللهفة والمتع البعيدة والقريبة، ويجعلك تسير حاملا فأسك، يغويك بمرافقة الهدّامين. رواية تتّخذ من الرّواية قناعا لتمارس فعل التفلسف الخلاّق، وهي بعد ذلك كلّه ديوان شعر أو متن منسي لم يكتبه رواة الأناجيل.

عميقة هي هذه الرّواية في كلّ صفحاتها، لأنّها تعيد للغة نارها، وللحروف قدرتها على الخلق والإماتة، تعيد للإنسان صورته الأولى حين كان خيرا محضا، وحين استولد من أضلاعه الشّرور، وحين قرّر أن ضيعة الأبد لا تعنيه، بل صرّة حوّاء وسيقانها. وحين ترك ظلال الأبديّة الوارفة، وقرّر أن يعصر النبيذ بساقي فتاته، عميقة لأنّ زوربا مثله مثل باخوس إله الخمرة وإله المسرح، قرّر أن يجعل معبده مرقصا لكلّ نفس

معطوبة. والعمق له تصاريف بديعة، أهمّها الإلذاذ والإدهاش والإغواء. وأنت معها لا قادرًا على الحياد فتتركها وتذهب، ولا راغبًا كلّ الرّغبة في إكمالها لأنّها تتحدّاك وتحاورك بقوّة وتخلخل قناعاتك. وتقدّم إليك، لا نموذج الكمال النيتشوي العالي المفارق، بل النموذج البسيط المستغرق في حبّ الحياة، المؤمن باللذّات. لا تغريك بالسوبرمان، بل توقظ السوبرمان الدّاخلي الذّي رمته العادة بديدان الموت. لكنّ الأمر الذيّ ستنساق إليه دون تفكير هو تلك التعاليم «النّبويّة» المكتوبة بشاعرية عالية حول المرأة، لا المرأة الضعيفة الخائفة المستعبدة، ولا المرأة الشرّيرة، بل المرأة الّتي في جوهرها تتحرّك الحياة نفسها، وينسج الكون قماشات اللذّة. المرأة، نعم، هي إحدى أهمّ مواضيع الكتاب، أمّا النّبيذ، وأمّا الإصغاء لنبض الكون، أمّا الموسيقى، فتلك مواضيع مبهرة حقّا.

في الكتاب مشاهد يندر أن تجدها في مكان آخر، مشهد الحوار مع شجرة اللّوز، ومشهد الشّرنقة التّي عجّل الكاتب بتحوّلها إلى فراشة، ومشهد الحجارة التي تستعيد حياتها فوق المنحدرات، ومشاهد أخرى كثيرة، أقول مشاهد لأنّ الرّاوي لا يكتفي بالمتابعة بل يتحوّل إلى راء، يقول: «وبدأت المعجزة تقع أمام عيني»، والكتاب كلّه تقريبا مليء بجوّ أسطوريّ رؤياوي حدسي، لا أسماء، ولا مسمّيات، ولكن قاع النصّ يمور بمياه غَمْر رؤياويّة تضرب خلجانها عميقا داخل النّفس البشريّة.

هنا، لا شيء تافه مطلقا، لاشيء نجس، لا إنسان أفضل من إنسان آخر، هنا لاشيء جزئيّ بإطلاق، بل الكلّ منصهر في جوهر كلّي، لاشيء اسمه الظّاهر، وإن كان، فرؤيته لا تكون إلاّ في ملكوت الحس، يتقوّض الفصل بين الجزئيات والكليات، وينزّل المتعاليات إلى المجال الدنيويّ، حيث تتكلّم الشّجرة وهي تبسط كفّيها لتمسح بعطرها شفة الربيع، وحيث يئنّ العشب تحت قدمي الطّفل. «لم أقل شيئا»، يقول الراوي: «لكنّي شعرت بفرحة عميقة وقلت لنفسي هكذا يرى الحالمون والشعراء

twitter @baghdad_library

العظماء كلّ شيء وكأنّهم يرونه للمرة الأولى ففي صباح كل يوم يرون عالما جديدا أمام أعينهم، إنّهم لا يرونه حقا، بل يخلقونه». حساسيّة ميتا بشرية، تحكم الكتاب من أوّله إلى آخرة، تتسلّل إليك، فتغويك فتقنعك فتنساق إليها. الحياة في هذا الكتاب أعطية، لك أن تجعلها جنتك أو نارك. مع سؤال كهذا، تصبح اللغة قفصا، والحروف حبالا، للأرجوجة أو للمقصلة، لا فرق، لا فرق مطلقا.

تتساءل: «ما هي الرّوح؟»، «ما علاقة الرّوح بغيرها ممّا يشكّل هذا الوجود؟»، «ما الذّي يجري في الأعالي؟»، «من صنع كلّ هذه الأشياء؟ ولماذا؟»، «لماذا يموت النّاس؟»، تشكّ، هل هذه أسئلتك أو أسئلة نيكوس؟ ولا يجيبك أحد. زوربا ليس لديه الوقت، زمنه معلّق بين النّساء والنّبيذ والسّنتوري، فكيف يجد وقتا ليحرّك قلما؟ تستنتج ببساطة أنّ من يعيش ألغاز الحياة لا يجد الوقت لكتابتها، أمّا الذّين كتبوا فلأنّهم ما عاشوا شيئا أبدا؟ وفي النّهاية، فإنّ الّذي عاش ألغاز الحياة لم يكتب منها شيئا، وهو زوربا، ومن رأى وهو «الرّئيس»، فإنّه أيضا لم يكتب شيئا، بقي الرّاوي. فهو وحده الذّي عاش الالغاز كلّها وهو الذّي رواها. هل انتصر قارض الكتب؟ لا، هل انتصر كاره الكتب؟ لا، أيضا، لقد انتصر القارض والكاره، وهما الوجهان اللّذان يعكسان وجه الكاتب الكبير نيكوس كازنتزاكي.

زوربا مثل زارادشت، رواية تتحرّك داخل نظام مغاير لبيئتها الأساسيّة، ولطبيعتها، وهو نظام فلسفيّ تعوّدنا صرامته، مع نيتشة، وصعوبته مع فوكو، وعمقه مع كانط. هل يقترح علينا الفلاسفة نصوصا فلسفية في إهاب روائي ليقرّبوا فعل التفلسف من العوام؟ هل تمثّل هذه الرّوايات الحلّ الذّي يعتمده الفيلسوف ليمرّر فكره؟ مهما كانت الإجابة فإنّ هذه الكتب استطاعت أن تجعل بذرة الإنسانيّة تنبت في أديم اللغة، وتطرح في نفوس النّاس رياحها وأمطارها. الفكر الأوروبي بضفّتيه،

القسوة والقوّة والإنسان المخلّص مع نيتشة، والفطرة الإنسانية المبنيّة على الحسّ وانكشاف الجوهر مع نيكوس.

كتاب يقهر المتعالي الفلسفي، والمتعالي اللاهوتيّ، وأيّ متعال آخر، تصبح فيه النّفس البشريّة سفينة نوح، لإنقاذ الجوهر، لا القشرة. القشرة تحملها المياه، أمّا الجوهر، فإنّه يتمسّك بتأمّلاته، بإرثه، بتراثاته، بأسئلته. ظاحكا أو باكيا يعيد الجوهر ترتيب كونه الخاص، ليس مهمّا اللّون، وليست مهمّة الديانة، وليس مهمّا الجنس وليس مهمّا السنّ، المهمّ «على الرّوح أن تجد الرّوح في روحها، أو تموت هنا»، على رأي محمود درويش.

في رحلة الخلاص يواجه زوربا جسده، فلا يقصيه، ولا يراه بركة أدناس ولا كومة حقارات ولا حقل خطايا ولا حزمة أعباء وسجون وظلمات تحجب قطيرات الرّوح النوريّة، بل حلبة صراع، غايته تحقيق الحرّية، بأحدّ آلات الإنسان وأخطرها وهي اللّغة، لكن ليس فقط، بل بالفعل الحقيقي المتجسّد في الوجود. السخريّة هي إحدى آلاته الأخرى، التّجريحُ أيضا آلةٌ، الحبّ بتدرّجاته كلّها، هو أيضا آلة مهمّة. وفي هذا كلّه فإنّ زوربا أطلق في ليل الرّغبات حواسّه المتيقّظة، رأى الدّنيا بعين مغمضة وقلب مفتوح، وفجّر في السّرد ينابيع اللذّة كلّها. وهنا عرض أهمّ قضايا الإنسان المعاصر، عرضها كإنسان مهدّد بالعجز، وليس كنصف إله، فرأيناه يتألّم ويفشل وينعم بالصحبة والصداقة ويعمل ويحبّ، ويبذل عطاياه للغير، فانكشفت لنا ذات مرحة في ألم، ساخرة في جدّ، ممطرة في جفاف. متفلسفة ولكنّها محشوّة بتاريخها الخاص وثقافتها الخاصة.

يرحل زوربا مثل كل العظماء في التاريخ البشري، لا من أجل المال، بل من أجل الإنسان، ومثل بوذا، ومثل المسيح، يتمسّك بعلبة أدواته، ويجرح وجه العدم البارد، بأسئلته وأعماله. وفي فضاء المناجم القاسية، حيث

twitter @baghdad_library

تعرض مشاهد شديدة القسوة من حياة البشر، يمتشق سانتوره، ويعيد تمجيد القمر العالي في سمائه، ويليّل المعاني النّهارية. هل يستحقّ العالم عاملا آخر ينضمّ لجوقه العبيد الأزليّة؟ يجيب زوربا: «لا». لا، كبيرة، تقال مثل لطمة، أو عضّة، أو ضربة قادومة. يقرّر زوربا في رحلته أن يعبث بأوتار المجتمع السّاكنة، يوتّر النّفوس الخانعة، ويتمرّد بشكل كامل على كل المواضعات. وتحت ثقل أعوامه التّي تقارب السّبعين، لا يلوك مثل المعتوهين وقطّاع الطّرق نبات القات، ولا يلوّث يديه بأوساخ الحبر وورق الكتابة، بل يمعن في الفعل، يرغب أحيانا أن يطير، يرفع يديه، ويحرّك ساقيه بقوّة، ليؤلم جلد الأرض ويجعلها تفيق من إغفائها الأبدي. عبر الموسيقى والرّقص، ومن قبلهما، الفلسفة، يقف الفنّ ضدّ قوّة البلى والموت والشّيخوخة، ويقف الفرح والمرح والسخريّة أمام السّواد والخوف والجدّية والقدرية.

لا يستحقّ العالم عمّالا إضافيّين، مثل عمّال المنجم، ولا سادة مثل «الرّئيس»، فمن يحتاج إذن؟ هل يحتاج العالم إلى زوربا تحديدا؟ وإذا كان الجواب نعم، فهل المراد زوربا العاقل أو زوربا المجنون؟ زوربا الليليّ أو النّهاريّ؟ زوربا السماوي أو الأرضيّ؟ ماذا تحتاج بؤر العفن والطّين والخسّة والشيخوخة والكبر والأمراض والحقارات؟ هل تحتاج السّادة أم الرّاقصين والموسيقيين ومحبّي الفلسفة وزارعي فكرة التقويض والهدم؟ لا جواب، فكّر أنت، جدّيتك لن تجعلك ملاكا ولو أردت، وهدوؤك لن يجعلك مثقّفا، في الأصل أنت دودة، دودة، لا أكثر ولا أقلّ، بإمكانك أن تصير فراشة وتطير وتراقص الغيوم، وبإمكانك أن تموت دودة حقيرة.

ينسيك هذا الكتاب طعم الخوف، كلّ سنة في عمرك هي وسام، كلّما كبرت زادت قيمتك وتألّق نجمك، في كل يوم جديد، تنبت في ذراعيك شجيرات قويصة وزعتر جبلي وشيح، كل يوم جديد آخر ينمو في كبدك شجر الليمون وتترعرع سويقات النعناع البرّي، وفي اليوم الذّي يليه،

يأتي إليك النّاس ليقطفوا منك تفاحا وبرقوقا، لا تخف، تتقدّم أيّامك، تقترب من الكمال، تصبح لك قشرات زائلة، لا تتشبث بها، وجوهر يفيض ويفيض بأنواره على ليل العالم، عميان كثر لن يروه أبدا، لكن النّساء القصيرات مثلا، واللواتي أصابهن الحول أو الجذام أو اللواتي نسين أعمارهن على حبل الغسيل.. أولئك النساء وغيرهنّ سوف يشعرن بنورك الطاغي وحنانك الغامر. هناك في هذه الدّنيا من لم يفرح بزهرة برتقال واحدة في حياته، يا للقسوة؟ العالم منذور للهمّ والشّرور، لكنّ مُسّنا واحًدا مثل زوربا قادر على الحفاظ على السرّ، سرّ الحياة الأبدي، الحب الذّي لا يموت.

بدأت قصّة الكتاب بتعرّف نيكوس على زوربا، رجلان يتقابلان، شيء يحدث في حياتنا كلّ يوم، الفرق أنّ نيكوس كتب، أمّا نحن العمّال الذّين ملأنا العالم خوفا وأطفالا، أمّا نحن الذّين نفقد يوميا أجزاءً من أجسادنا ليغتني الأغنياء، أمّا نحن فإنّنا لا نجد الوقت لنعيش ولا لنكتب ولا لنعزف ولا لنعشق ولا لنبكي. اللّعنة، كيف استطعنا العيش في هذا الدّرك؟ يلتقيان، بمنجم، أو بحان، أو بحانوت. لا فرق، الرّواية، كالحياة، ليست هنا، بل في مكان آخر. تعقد حبكات صغيرة وتكشف، بداية مشروع، ويقع إفشاله، بداية أمل بشريّ تافه في الغنى، ولا يلبث أن يمّحي، ليس هناك إلاّ العواء وصرير الأسنان المرعب، أفق أيّها الإنسان، أفق، لا تبق عبدا للعمل، لا تبق نهبا للقشور. إذا كان لا بدّ من عمل، فليكن من أجل الجوهر. إذا كان لا بدّ من آلام، فليكن من أجل التحرّر التّام من أسر العاديّ ولوثة الاجتماع. الفلسفي يتغلّب في هذه التحفة الرّوائية على الرّوائي. لكنّه، وهو يروي، يفتح مسربا خصوصيّا لما يمكن أن يسمّى الخط التأمّلي أو الفلسفي في الرّواية.

نعلم أنّ زوربا ظلّ على علاقة بنيكوس، وأنّه أرسل له رسائل كثيرة. هذه هي الحقيقة، زوربا مجرّد رجل عاش ومات، ومشى بين النّاس،

twitter @baghdad_library

واشتغل بمنجم الغرانيت، وفشل مرارا، ثم اشتغل في المنغنيز، وفشل. تبدّدت حياته بين رقص ومجون وعزف. تاريخ من الفشل، ما الذّي يغري بكتابته؟ كيف استطاع نيكوس أن يجعل من عامل مناجم بسيط شخصيّة لا نظير لها؟ زوربا في الكتاب يهدر مثل سيل، يتألّق مثل كويكب صغير معلّق من أشفاره في سجن الفضاء، غامض خصب ملتبس، قادر على اختزال الأبدية في كلمة. وقادر على زرع قيمة حبّ الحياة وعدم الخوف من الموت. «يصلح زوربا ليكون دليلا روحيا»، يقول نيكوس، «ولو خيروني لاخترته».

عاش زوربا وسط السماد والقذارة، كالزّهرة، حلم بالحرّية، فاستنبت في دواخله بذرة ضوء، وسمّاها حرّية، هكذا، بكلّ بساطة. بجوارها نبتت قطع ذهب ومرجان وفيروز، وبدأت تثقل وتثقل، فاخترع الرّقص، واخترع الموسيقى، ليخفّ حمله. وخفّ فعلا. كان أمامه طريقان، طريق الضوء والحرّية وطريق الذهب والعبودية، شيء آخر كان يثقل ويثقل داخله وكان يشدّه لعرق مّا أو لرمز أو إله، لكنّه قرّر نهائيّا. لديّ طُرقٌ ثلاثةٌ الآن، الحرّية أو المال أو الغيب، طريق واحد للحرية، وطريقان للعبودية. ولقد اختار زوربا طريقه، واخترنا معه الطّريق.

نصر سامي

تونس 2015/1/22

- 1 -

التقيتُ به أوّل مرة في ميناء بيرايوس. كنتُ قد وصلتُ إلى المرفأ قصد السفر على ظهر السفينة إلى كريت. وكان الفجر على شفا البزوغ والمطر يتساقط. هبّتْ عاصفة قويّة رافعة رذاذ الموج إلى المقهى الذي كانت أبوابه الزجاجية مغلقة. وكان يفوح برائحة المريمية المخمّرة والكائنات البشرية وهي تلبّد النوافذ ببخار أنفاسها من شدّة البرد في الخارج. كان خمسة بحّارة أو ستة، من الذين أمضوا ليلتهم هناك، ملتفّين في ستراتهم البنيّة الضيّقة المصنوعة من وبر الماعز، يحتسون القهوة أو المريميّة ويحدقون عبر النوافذ الضبابية إلى البحر. وكانت الأسماك التي دوّختها اندفاعات المياه المضطربة قد لاذت بالأعماق منتظرة عودة الهدوء إلى السطح. ومثلها احتشد الصيادون في المقاهي منتظرين انتهاء العاصفة، فبعد أن تطمئن الأسماك ستعود إلى السطح من أجل الطعم. كانت أسماك موسى والخنزيريّ والورنك تعود من رحلتها الليليّة. و شيئا فشيئا بدأ الفجر يبزغ.

فُتحَ البابُ الزجاجي ودخل مراكبيّ أسمر، بدين، قصير القامة، عاري الرأس، رجلاه حافيتان، والطين يلطّخه من شعره إلى أخمص قدميه.

صاح بحّار عجوز يرتدي عباءة سماوية اللون: «مرحبًا! كوستاندي! كيف حالك؟»

بصق كوستاندي وأجاب بنزق: «وماذا تظنّ؟ مساء الخير أيّها الحان! صباح الخير أيّها المنزل! مساء الخير أيّها الحان! صباح الخير أيّها المنزل! هذا نوع الحياة التي أعيش. لا عمل مطلقاً!»

twitter @baghdad_library

بدأ بعض الحاضرين يضحك، فيما هزّ آخرون رؤوسهم وشتموا.

قال رجل له شارب كان قد استمدّ فلسفته من مسرح الظلّ: «إن الحياة في هذه الدنيا مثل حكم مؤبّد بالسجن. نعم، إنّها حكم بالسجن المؤبّد. اللعنة على هكذا حياة!».

اخترق ضوء شاحب أخضر مائلٌ إلى الزرقة ألواح المقهى الزجاجيّة المتّسخة، وأضاء الأيدي والأنوف والجباه. ثمّ قفز إلى الكنتوار وأضاء الزجاجات. فتلاشى في حضرته الضوء الكهربائي، حينها مدّ صاحب المقهى، متأرجحا بين اليقظة والنوم بسبب تلك الليلة البيضاء، يدَهُ وأطفأه.

سادت لحظة صمت. واستدارت الأعين كلّها نحو السماء المعكرّة. كان هدير الأمواج يُسمع متداخلا بقرقرة بعض النراجيل في المقهى.

تنهّد البحّار العجوز: «أتساءل ما الذي حدث للقبطان ليموني؟ ليكن الله في عونه!» نظرَ نحو البحر بحقد، وصاح به: «ليلعنك الله يا صانع الأرامل!» وعضّ شاربه الرماديّ.

كنتُ أجلسُ في إحدى الزوايا. شعرتُ بالبرد فطلبتُ كأسًا ثانيةً من المريميّة. كنت أرغب في النوم، ولكنّني غالبتُ النعاسَ والإعياءَ وأسى ساعات الفجر الأولى. نظرت عبر النوافذ المغطاة بالبخار إلى المرفأ المستيقظ وهو يضجّ بأصوات صافرات السفن وصيحات سائقي عربات النقل والبحارة. وفيما كنتُ أنظر، لفّت شبكة لامرئية منسوجة من البحر والجوّ والرحيل أشراكها المُحكمة حول قلبي.

كانت عيناي مثبّتتين على قيدوم السفينة الأسود وهيكلها ما يزال مغموراً بالظلام. بينما كان المطر يتساقط. ولكنّني استطعتُ أن أرى أعمدة المطر تربط السماء بالوحل.

كنت أنظر إلى السفينة السوداء، وإلى الظلال والمطر، فأخذت أحزاني تتشكّل. واستيقظت ذكرياتي. وفي الجو الرطب راحت تتحدّد ملامح

صديقي الحبيب عبر الكآبة والمطر. هل حدث هذا السنة الماضية؟ في حياة أخرى؟ أمس؟ حين جئت العام الماضي إلى المرفأ نفسه كي أودّعه؟ مازلت أتذكّر كيف تساقط المطر في ذلك الصباح أيضًا، وأتذكّر البرد والضوء المبكّر. وفي ذلك الوقت أيضًا كان قلبي مثقلاً.

كم هو مرير أن ننفصل ببطء عن الأصدقاء العظام! من الأفضل بكثير الانفصال عنهم دفعةً واحدة والعودة إلى العزلةِ مناخِ الإنسان الطبيعي. ومع ذلك، لم أستطع ترك صديقي، في ذلك الفجر الممطر. (فيما بعد، فهمتُ السبب، وللأسف كان بعد فوات الأوان.) صعدتُ معه إلى ظهر السفينة وجلست في مقصورة بين الحقائب المبعثرة. أمعنت النظر إليه لفترة طويلة، بينما كان يركّز انتباهه على مكان آخر، وكأنّني أرغب في حفر ملامحه في ذاكرتي ملمحا ملمحا: عيناه الخضراوان المائلتان إلى الزرقة، اللامعتان، وجهه المستدير الفتيّ، تعبيره الذكي والمزدري، وقبل كل شيء يداه الأرستقراطيتان بأصابعهما الطويلة والنحيلة.

باغتني في إحدى المرّات أحدّق فيه مطوّلاً وبلهفة. فاستدار بتلك التعابير الساخرة التي تتلبّسه حين يريد أن يخفي مشاعره. نظر إليّ وفهم. ولتجنب حزن الفراق سأل بابتسامة ساخرة:

«إلى متى؟»

« ما الذي تعنيه بإلى متى؟»

« إلى متى ستمضغ الورق وتلوّث نفسك بالحبر؟ لماذا لا تأتي معي؟ بعيدًا... هناك في القوقاز آلاف البشر من سلالتنا في خطر. لنذهبْ وننقذهم». بدأ يضحك وكأنه يسخر من غايته النبيلة.

«ربما لن نستطيع إنقاذهم. ولكنّنا سننقذ أنفسنا بالسعي إلى إنقاذ الآخرين. أليس هذا ما تردّده دائما أيّها المعلّم؟ «إنّ الطريقة الوحيدة كي تنقذ نفسكَ هي أن تناضل لإنقاذ الآخرين...» إذن، إلى الأمام،أيها المعلّم. أنت الذي تجيد المواعظ. لماذا لا تأتي معي!»

twitter @baghdad_library

لم أجب. فكرّتُ في أرض الشرق المقدسة، في أمّ الآلهة القديمة تلك، في الجلبة العالية لبرومثيوس الموثوق إلى الصخرة. كانت سلالتنا تصرخ موثوقة إلى هذه الصخور نفسها. وكانت معرضة للخطر من جديد. تنادي أبناءها كي يساعدوها. وكنتُ أصغي، بهدوء، كما لو أن الألم حلم والحياة مأساة شاملة، لن يندفع فيها أحد إلى خشبة المسرح ويشترك في الفعل إلا المغفّل.

ودون انتظار جواب، نهض صديقي. لقد أطلقت السفينة صفاراتها للمرة الثالثة. فمدّ لي يده وأخفى مشاعره ثانية بالمزاح.

«وداعاً أيها الفأر قارض الكتب!»

كان صوته يرتجف. فقد كان يعرف أنّه من العار ألاّ يكون المرء قادرًا على التحكم في مشاعره. فالدموع، والكلمات الرقيقة، والإيماءات الجامحة، والأمور الحميمة المشتركة، بدتْ له كلّها نقاط ضعف لا تليق بالإنسان. ونحن، اللذيْن كان أحدُنا مُولعا بالآخر ولعا شديدا، لم نتبادل أبدًا كلمة عاطفية واحدة. لقد لعبنا معا وجرح بعضُنا بعضا كوحشين مفترسين. كان هو الرجل الذكي الساخر المتحضّر؛ وكنت البربري. كان يمارس التحكم بالذات ويستنفد برقّة مشاعرَهُ كلَّها في ابتسامة. وكنت الجلف الذي يُطلق على نحو مفاجئٍ ضحكة بربرية خرقاء. ولكنّنا لم نتبادل كلمة عاطفيّة واحدة.

حاولتُ أيضًا أن أخفي عواطفي خلف ستار كلمة قاسية. ولكنّني شعرتُ بالعار. كلاّ، ليس بالعار تحديدا، وإنّما لم أنجح في الأمرفحسب. أمسكتُ يده. شددت عليها ولم أفلتها. فنظر إليّ، مندهشًا. ثمّ قال، محاولاً أن يبتسم: «هل بلغ بك التأثّر هذا الحدّ».

فأجبتُ بهدوء: » نعم».

«لماذا؟ ما الذي قلناه للتوّ؟ ألم نتفق حول هذه النقطة منذ سنوات؟ ما الذي يقوله أحبّاؤك اليابانيون؟ فودوشين! أنتاراكسيا، هدوء أولمبي، وعلى

الوجه قناع مبتسم وثابت. أمّا ما يحدث خلف القناع فذلك همّنا وحدنا».

«نعم»، أجبتُ مرة أخرى، محاولاً ألاّ أستخدم جملة طويلة. فلم أكن متأكداً من قدرتي على منع صوتي من الارتجاف.

ارتفع صوت جرس السفينة يطرد الزوّار خارج المقصورات. كان المطر يتساقط بهدوء، والجوّ ممتلئاً بكلمات الوداع العاطفية والوعود والقبل المطوّلة والوصايا المستعجلة التي بلا نفَس. كانت الأمهات يندفعن إلى الأبناء، والزوجات إلى الأزواج والأصدقاء إلى الأصدقاء وكأنهم سيغادرون إلى الأبد. كما لو أن هذا الفراق القصير يذكّر بالفراق الآخر، الكبير. وفجأة تعالى، في الجو المشبع بالرطوبة، صوت الجرس بهدوء من مقدّمة السفينة إلى مؤخّرتها، كجرس جنازة. فارتجفتُ.

مال صديقي إلى الأمام. وقال بصوت منخفض: «استمعْ. أينذرك قلبك بشرّ ما؟».

فأجبت مرة أخرى: «نعم».

«هل تؤمن بمثل هذه الترّهات؟»

فأجبتُ برباطة جأش: «كلاّ».

«حسنًا، إذن».

لم يكن هناك «حسنًا». فأنا لا أؤمن. ولكنّني كنت خائفاً.

لمس صديقي ركبتي بيده اليسرى بخفة، مثلما عوّدني في لحظات الفراق. كنت أحثّه على اتخاذ قرارٍ ما، وكان يعارض هذا، مغلقاً أذنيه رافضاً؛ ثمّ يقبل أخيرًا، وحينئذ يلمس ركبتي، كما لو أنه يودّ أن يقول: «حسنًا، سأقوم بما تريد، من أجل الصداقة....»

رفّتْ عيناه مرتين أو ثلاثاً، ثم حدّق فيّ من جديد. فقد فهم أنّني كنت مستاءً وتردّد في استخدام أسلحتنا المعتادة: الضحك، الابتسامات والمزاح. ثمّ قال: «حسنًا، جدًا. أعطني يدك. لو حصل أن واجه أحدنا خطر الموت...»

twitter @baghdad_library

وتوقّف كما لو أنّه شعر بالعار، بعد أن سخرنا معا ولسنوات طويلة من «التحليقات» الميتافيزيقية ووَضَعْنا النباتيين والروحانيين والثيوصوفيين ومحضري الأرواح في خانة واحدة.

«حسنًا؟»، سألتُ محاولاً أن أخمّن.

فأجاب بسرعة، لكي يخرج من الجملة المهلكة التي تفوّه بها:

لنأخذ الأمر على سبيل اللهو: «لو حدث أن تعرّض أحدنا لخطر الموت، فليفكّر في الآخر بتركيز بحيث يمكن أن يحذّره أينما كان... حسنًا؟». حاول أن يضحك، ولكنّ شفتيه بقيتا بلا حراك، كما لو أنهما تجمّدتا.

فقلت: «حسنًا».

وأسرع صديقي يضيف، محاذرا من أن يكون كشف عن مشاعره بشكل واضح:

«ولكنّني لا أؤمن بالتخاطر عن بعد وكلّ هذا...»

تمتمت: «لا تهتمّ. ليكن الأمر هكذا...»

«حسنًا، إذن، لنترك الأمر عند هذا الحدّ. اتفقنا؟»

«اتفقنا».

كانت تلك كلماتنا الأخيرة. تصافحنا بصمت، وتشابكت أصابعنا بحرارة، وفجأة انفكّت. سرتُ مبتعداً بسرعة دون أن ألتفت، وكأنّ أحدًا يطاردني. شعرتُ برغبة مفاجئة في إلقاء نظرة واحدة أخيرة على صديقي، ولكنّني قمعتها، وأمرت نفسي بأن أتابع نحو الأمام دون التفاتة واحدة.

إنّ الروح البشرية ثقيلة ومشوّشة، حبيسة في طين الجسد. ما يزال إدراكها متبلّدًا وغير مصقول. لا تستطيع أن تؤلّه أيّ شيء بوضوح، أو بيقين. آه لو كان في وسعها التخمين كم سيكون هذا الفراق مختلفًا.

بدأ الضوء يزداد انتشارًا. امتزج الصباحان. وبقيت سحنة صديقي المحبّبة، وقد صار في وسعي رؤيتها بوضوح أكبر الآن، ثابتةً وحزينة في

المطر وجوّ المرفأ. فُتحَ باب المقهى، هدر البحر، ودخل بحّار بدين وقصير بساقين منفرجتين وشارب متدلّ.

ودوّت الأصوات بمرح:

« أهلاً بالقبطان ليموني!»

«انسحبتُ إلى إحدى الزاويا، محاولاً تركيز أفكاري من جديد. ولكنّ وجه صديقي كان قد انحلّ في المطر.

كان الضوء يزداد. أخرج القبطان ليموني، الغريب الهادئ، سبحته الكهرمانية وشرع يتلو صلاة السبحة. كنت أصارع كي لا أرى أو أسمع متمسّكا أكثر فأكثر بالرؤية التي كانت تتلاشى. تمنّيت لو كان بإمكاني أن أعيش مرة أخرى لحظةَ ذلك الغضب الذي تصاعد في داخلي حين نعتني صديقي بـ«الفئر قارض الورق!» تذكّرتُ أنّ كل احتقاري للحياة التي كنت أحيا كان مُجسَّدًا في تلك الكلمات. كيف استطعت، أنا المولع بالحياة، أن أجعل نفسي عالقًا لفترة طويلة في هراء الكتب والأوراق المتّسخة بالحبر! في يوم الفراق ذاك، ساعدني صديقي كي أرى بوضوح فأراحني. أعرف الآن اسم ألمي، قد أستطيع أن أغزوه بسهولة أكبر. لم يعد مخادعاً أو غير مجسّد؛ اتخذ لنفسه اسماً وشكلاً، وأصبح من السهل عليّ أن أقاتله.

لا بدّ أنّ تعبيره تغلغل فيّ بصمت. ورحتُ أبحث منذ تلك اللّحظة عن حجّة كي أهجر أوراقي وأقذف نفسي في حياة الفعل. فقد استأت من تحمّل هذا الكائن البائس الذي يعيش على الورق والحبر. وقد سنحَتْ لي منذ شهر، الفرصة التي طالما تمنّيتها. فقد استأجرتُ على ساحل كريت، الذي يواجه ليبيا، منجمَ فحم حجري مهجورًا، وسأذهب الآن لأعيش مع رجال بسطاء ، وعمّال وفلاّحين، بعيدًا عن سلالة الفئران قارضة الورق!

تجهّزت للرحيل بإثارة بالغة، وكأنّ لهذه الرحلة أهميّةً غامضة. فقد قرّرتُ أن أغيّر نمط حياتي. وقلتُ لنفسي:

« لَمْ تَريْ إلى هذه اللّحظة سوى الظلّ وكنتِ في غاية الرضا به؛ أمّا

twitter @baghdad_library

الآن فسوف أقودك إلى الجوهر الحقيقي».

أخيرا أصبحتُ مستعدًّا. وعلى شفا الرحيل، وفيما كنتُ أنقّب في أوراقي، عثرتُ على مخطوط لم ينته بعد. فأخذته ونظرتُ إليه، مترددًا. كانت هناك لمدة عامين، في الأعماق القصية لكينونتي، رغبةٌ كبيرة، بذرة كانت تسرع في النموّ. وكنتُ أشعر بها طوال الوقت في أحشائي، تتغذّى بي وتنضج. كانت تنمو، تتحرك وتبدأ الرفس على جدار جسمي كي تخرج. لم أعد أملك الجرأة على تدميرها. لم أستطع. كان الوقت متأخّرًا للقيام بعملية إجهاض روحيّ كهذه.

فجأة، وفيما كنت أحمل المخطوط مترددًا، شعرتُ بارتسام ابتسامة صديقي في الجوّ، ابتسامة مؤلفة من السخرية والحنان. فقلت، وقد تملّكني الإحساس بوخزة ما: «سآخذه! لا حاجة لكي تبتسم!». غلّفته بعناية، وكأنّي أقمّطُ طفلاً، وأخذته معي.

تناهى إليّ صوتُ القبطان ليموني العميق والأجشّ. فأصختُ السّمع. كان يتحدّث عن أرواح الماء التي تسلّقت أثناء العاصفة صواري مركبه وراحت تلعقها.

كان يقول: «إنّها ناعمة ولزجة. وحين تمسك الكثير منها تشتعل النار في يديك. مسّدتُ شاربيّ، وهكذا في الظلام توهّجتُ كالشيطان. حسنًا، صعدتْ مياهُ البحر إلى مركبي وبلّلتْ حمولة الفحم. لقد أُشبع بالماء. بدأ المركب يميلُ؛ ولكن، وفي تلك اللحظة، تدخّل الله في مجرى الأمور وأرسل عاصفة رعدية حطمت كوى المخزن وسقط الفحم. امتلأ البحر بالفحم. وخفّ ثقل المركب، وعند ذلك انتصب من جديد ونجونا. هذا كلّ شيء!».

أخرجتُ من جيبي طبعة صغيرة من كتاب لدانتي كان رفيقي في السفر. أشعلتُ غليوني، أسندت ظهري إلى الجدار وجلست مرتاحا. تردّدتُ للحظة. في أيّ أشعار يجب أن أنغمس؟ في إيقاع الجحيم الملتهب، أم في ألسنة لهب المطهر المطهّرة؟ أم هل ينبغي أن أتجه مباشرة إلى

الحقل الأكثر سموًّا للأمل البشري؟ كان لديّ الخيار. وقد حملت كتاب الجيب لدانتي في يدي، مغتبطا بحريّتي. إنّ الأشعار التي سأختارها باكرًا في الصباح ستهَبُ إيقاعها ليومي كلّه.

واستسلمتُ لهذه الرؤيا المكثّفة لكي أقرّر، لكنّني لم أكن أملك الوقت. وفجأة، رفعتُ رأسي، متضايقًا. فشعرتُ نوعًا ما بأنّ هناك عينين تحدّقان في قمة جمجمتي؛ نظرتُ بسرعة إلى الخلف نحو الباب الزجاجي. وبسرعة الوميض عبر دماغي أمل مجنون: «سأشاهد صديقي مرّة أخرى». كنتُ مستعدًا للمعجزة، ولكنّها لم تحدث. كان هناك شخص غريب يقارب الستين من العمر، طويل جدًا ونحيل، جاحظ العينين، قد ضغط أنفه على اللّوح الزجاجيّ وراح ينظر إليّ. وكان يحمل تحت ذراعه صُرّة صغيرة مسطّحة قليلاً.

ما أثارني فيه أكثر من أيّ شيء آخر، هو عيناه الحزينتان، القلقتان، الساخرتان والمتوقدتان. أو هذا ما بدا لي، على أي حال.

حالما تشابكت نظراتنا، بدا وكأنّه يريد التأكّد من أنّني كنتُ حقًا الشخص الذي يبحث عنه، إلى أن مدّ هذا المجهول يده بحزم ودفع الباب. عبر بين الطاولات بخطى سريعة مرنة ووقف أمامي. ثمّ سألني:

«هل أنت مسافر؟ إلى أين إذن؟ أم إنّك تترك ذلك للعناية الإلهية؟»

«أنا ذاهب إلى كريت. لماذا تسأل؟»

«هل ستأخذني معك؟»

نظرتُ إليه بتمعّن. خدّان أجوفان، فكّ قويّ، وجنتان نائتتان، شعر شائب مجعّد، وعينان حادّتان متّقدتان.

«لماذا؟ ماذا أستطيع أن أفعل بك».

قال بازدراء: «لماذا! لماذا! ألا يستطيع الإنسان أن يفعل أيّ شيء من دون لماذا؟ فقط هكذا، لمجرّد اللذّة؟ حسنًا، خذني معك، مثلاً، كطبّاخ. أستطيع أن أعدّ أنواعًا من الحساء لا أظنّك سمعت بها من قبل ولا

twitter @baghdad_library

خطرت لك على بال...».

رحت أضحك. فقد أمتعتني حركاته وكلماته الصريحة الحادّة. وسرّني الحساء أيضًا. فلن يكون أمرًا سيئًا أن آخذ معي هذا الشخص الفوضويّ إلى ذلك الساحل البعيد المهجور. أنواع الحساء والقصص... بدا وكأنّه طاف البحار كثيرًا، إنّه أشبه بالسندباد البحريّ... ولقد راقني.

سألني بشكل مألوف وهو يهزّ رأسه الضخم: « بمَ تفكّر؟ ألديك ميزان؟ أنت أيضا توازن بين الربح والخسارة. تزن كلّ شيء حتى أدنى غرام، أليس صحيحا؟ هيّا، يا صديقي، قرّرْ. وتشجّع!».

كان ذلك العملاق المغفّل يقف فوقي، ولقد تعبت من رفع رأسي نحوه كي أتحدّث إليه. فأغلقتُ كتاب دانتي وقلت له: «اجلس. أترغب في كأس من المريمية؟».

فجلس. ووضع صُرّته بحذر على المقعد المجاور وأجاب باحتقار: «مريمية؟ أحضرْ لي كأسًا من الروم أيّها النادل!».

احتسى كأس الروم في جرعات صغيرة، مُبقيًا الجرعة في فمه وقتًا طويلاً كي يتلذّذ بها، قبل أن يتركها تنساب ببطء لتُدفّئ أحشاءه. قلت في نفسي لابدّ أنه من المنغمسين في الشهوات الحسّية أو أنّه ذوّاقة. وسألته: «ما مهنتك ؟».

«كلّ المهن، بالقدمين، واليدين أو الرأس، كلّ المهن. ولا ينقصني إلاّ أن أختار».

«أين عملتَ آخر مرة؟».

«في منجم. فأنا صاحب خبرة في المناجم، لو تدري. خبير في المعادن. أعرف كيف أعثر على العروق وكيف أشق الأنفاق وكيف أنزل إلى الآبار. ولا أخاف. كنت أعمل جيّدا. كنت رئيس العمّال، ولم أشكُ من أي شيء. ولكنّ الشيطان تدخّل في مجرى الأمور. في ليلة السبت الماضي، وببساطة

لأنّني رغبت في الأمر، اندفعت فجأة، أمسكت بربّ العمل، الذي جاء في ذلك اليوم كي يفتّش المكان، وضربتهُ...».

«ولكن لماذا ضربته؟ ما الذي فعله لك؟»

«لي؟ لا شيء مطلقًا! لقد كانت المرّة الأولى التي أشاهده فيها. بل إنّ المسكين احتفى بنا ووزّع علينا السجائر».

«لماذا إذن؟».

«آه، أنت تجلس هناك وتطرح الأسئلة فقط! لقد شعرت برغبة في ذلك. هذا كلّ ما حدث. تعرف قصّة زوجة الطحّان، أليس كذلك؟ حسنًا، لا تتوقّع أن تتعلّم التهجئة من قفاها، أليس كذلك؟ إن قفا زوجة الطحان هو العقل البشري».

قرأتُ تعريفات كثيرة للعقل البشري. وبدا لي هذا التعريف أكثرها إدهاشًا، وأعجبني. نظرتُ إلى رفيقي الجديد باهتمام حادّ. كان وجهه مجعّدًا، مُرهَقًا، كخشبة نخرها الدود. بعد بضع سنوات أوحى لي وجه آخر بالانطباع نفسه وبدا لي كأنّه من الخشب المتآكل المنخور. وكان وجه بانيت استراتي[1] Panait Istrati.

«وما الذي يوجد في صرّتك؟ مؤونة؟ ملابس؟ أم أدوات؟»

هزّ رفيقي كتفيه وضحك قائلا:

«تبدو لي منطقيّا جدّا في تفكيرك، مع احترامي لك».

وداعب الصُرّة بأصابعه الطويلة القاسية. ثمّ أضاف:

«كلاّ، إنه سنتور».

«سنتور؟ هل تعزف على السنتور؟».

«حين أفلس، أجول في الخمّارات وأنا أعزف على السنتور. أنشد أغاني ماسيدونيّة قديمة. ثم أدور بقبعتي وأملؤها بالنقود».

«ما اسمك؟»

---

(1) كاتب روماني مات من السلّ. كان يكتب بالفرنسية وكان الكتاب الذي حقق له شهرة واسعة هو «رجل بلا معتقدات» نُشر سنة 1933.

twitter @baghdad_library

«أليكسيس زوربا. أحيانًا يدعونني «جاروف الخبّاز»، لأنني طويل وهزيل ورأسي مسطح كفطيرة محلّاة. و يدعونني كذلك «مبدّد الوقت» لأنّني كنتُ، في يوم من الأيّام، أبيع البوبكورن. وهناك من يدعونني «العفنَ الفطريّ» لأنّني أينما حللت أسبّب الضرر-كما يقولون-ولي كنيات أخرى عديدة لكنّنا سنتركها لوقت آخر...».

«وكيف تعلّمت العزف على السنتور؟»

«كنتُ في العشرين من عمري. سمعتُ السنتور لأول مرة في أحد أعياد قريتي، هناك في سفح جبل الأولمب. سحرني. لم أستطع تناول الطعام لمدة ثلاثة أيام فسألني أبي رحمه الله ما الذي حدث لك؟ أجبت بأنني أريد تعلّم العزف على السنتور. قال: ألا تخجل من نفسك؟ هل أنت غجريّ؟ أتريد أن تصبح عازف آلة وترية؟ أجبت: أريد فقط أن أتعلّم العزف على السنتور! كان لديّ القليل من المال المدخّر من أجل الزواج. كنت ما أزال غلاما طائشا أعاني من الحرارة في دمي وأتوق إلى الزواج أنا الملعون المسكين. لكنّني أنفقت كل ما كان لدي واشتريت السنتور الذي تنظر إليه الآن. انطلقت به إلى سالونيكا حيث التقيت بتُركيّ يُدعى ريتسيب أفندي؛ كان أستاذا ماهرا رائعَ العزف على السنتور. ارتميتُ عند قدميه فقال لي: ما الذي تريده أيّها الكافر؟ فأجبت: أريد أن أتعلم العزف على السنتور. قال: حسنًا، ولكن لماذا ترمي نفسك عند قدميّ؟ أجبت: لأنّني لا أملك نقودًا أدفعها لك. قال: وأنت مجنون بالسنتور أليس كذلك؟ قلت: نعم. قال: حسنًا، يمكنك البقاء. لا حاجة بك كي تدفع لي. مكثتُ عامًا أدرس عنده. ليطهّر الله بقاياه. لا بد أنّه توفي الآن. أتمنّى إذا سمح الله للكلاب بالدخول إلى فردوسه، أن يفتح بابه لريستيب أفندي. بعد أن تعلّمت العزف على السنتور صرت رجلاً مختلفًا. حين أشعر بالإحباط، أو الإفلاس، أعزف عليه فيبهجني. حين أعزف تستطيع أن تتحدث إليّ، لكنني لا أسمع شيئًا، وحتى لو سمعت فإنني لا أستطيع التحدث. ليس من

الجيد أن أحاول عبثا، فأنا لا أستطيع!!».

«ولكن لماذا، يا زوربا؟»

«آه، ألا ترى؟ إنّه الهوس، ذاك هو الأمر».

فُتح الباب. واندفع صوت البحر مرة أخرى يملأ المقهى. تجمّدت أيدينا وأقدامنا من البرد. صارعت كي ألوذ بزاويتي أكثر ولففت نفسي بمعطفي. تذوّقت سعادة اللحظة. وقلتُ في قرارة نفسي: «إلى أين يجب أن أذهب؟ أنا هنا مرتاح تمامًا. ليت هذه الدقيقة تدوم سنوات».

نظرتُ إلى الرجل الغريب الذي أمامي. كانت عيناه مسمّرتين على عينيّ. عينان صغيرتان مستديرتان ببُؤبؤين داكنين وفي بياضهما عروق صغيرة حمراء. شعرتُ بهما تخترقانني وتفتشانني بنهم.

قلت: «حسنًا. تابع».

هزّ زوربا كتفيه الهزيلين مرة أخرى.

«دعك من هذا. هل تقدّم لي سيجارة؟»

قدمت له واحدة. أخرج ولاعة من جيبه وأشعلها. أغمض عينيه نصف إغماضة شاعرا بالرضا.

«هل أنت متزوّج؟»

أجاب بغضب: «ألستُ رجلاً؟ ألستُ رجلاً؟. إذن فأنا أعمى. وقد وقعت في الفخّ مثل جميع من سبقوني. فتزوّجت وسرت في المنحدر السيّئ. صرتُ ربّ أسرة، بنيتُ منزلاً، وصار لي أبناء، ومشاكل حقيقيّة. ولكن أشكر الله من أجل السنتور!»

«وكنت تعزف في بيتك كي تنسى همومك، أليس كذلك؟»

«آه يا صديقي من الواضح أنّك لم تعزف على أيّة آلة. ما الذي تتحدث عنه؟ في المنزل هناك أنواع قلقك كلّها. الزوجة. الأطفال. ما الذي ستأكله؟ كيف نرتب أمور الملابس؟ ما الذي ستصير عليه حالنا؟ إلى الجحيم! كلا، من أجل السنتور يجب أن تكون نظيفًا، وطاهرًا. إذا

twitter @baghdad_library

قالت زوجتي كلمات كثيرة، أو حتّى كلمة واحدة، فكيف تريد أن يكون لي قلبٌ لأعزف على السنتور؟ وإذا كان أطفالك جائعين ويصرخون بك، فلا تفكّر مجرّد التفكير في العزف! إذا أردت أن تعزف على السنتور فلا يجب أن يشغلك سواه، أتفهم؟».

نعم، فهمت. كان زوربا هو الرجل الذي بحثت عنه طويلاً بلا طائل. قلب حيّ، فم كبير نهم، روح عظيمة وحشيّة، غير مفصولة بعد عن أمّنا الأرض.

لقد انكشفت لي معاني كلمات مثل الفن، والحب والجمال والنقاء والهوى، عبر أبسط المفردات البشريّة التي أطلقها هذا العامل.

نظرتُ إلى يديه اللتين بإمكانهما استخدام المعول تماما كما السنتور. كانتا خشنتين، ومشقّقتين، ومشوّهتين وقويتين. وبرعاية ورقّة كبيرتين، كأنهما تعريّان امرأة، فتحتا الكيس وأخرجتا سنتورا قديما، صقلته الأعوام. كان كثير الأوتار، مزيّنًا بالنحاس والعاج وبشرابة من الحرير الأحمر. داعبته الأصابع الكبيرة تلك ، ببطء وحنان،كما تداعب امرأة من رأسها حتّى أخمص قدميها ثمّ سارعت بتغليفه كأنّها تخشى على جسد حبيب من أن يصيبه البرد.

في النهاية تمتم وهو يضعه بعناية على الكرسي: «هذا هو السنتور».

كان البحارة يقرعون كؤوسهم، يكادون ينفجرون من الضحك. والملاحون العجائز يربتون على ظهر القبطان ليموني بتودد.

«لا بدّ أنّك ذُعرت، أليس كذلك يا قبطان؟ وحده الله يعلم عدد الشموع التي وعدتَ بها القديس نيكولاس؟».

قطّب القبطان حاجبيه الكثّين.

«كلاّ، أستطيع أن أقسم لك، حين رأيت كبير ملائكة الموت أمامي، لم أفكّر في العذراء المقدّسة، ولا في القدّيس نيكولاس! فقط استدرتُ نحو سلاميس. فكّرت في زوجتي، وصحت: آه يا كاترينا، أتمنّى لو أنّني معك

في الفراش هذه اللحظة!».

انفجر البحّارة مرّة أخرى ضاحكين، ومعهم ضحك القبطان ليموني. ثمّ قال: «أي حيوان هو الإنسان. كبير الملائكة يحمل سيفه فوق رأسه، بينما ذهنه مثبّت هناك، فقط هناك وليس في أي مكان آخر! ليأخذه الشيطان كم هو خنزير!»

صفّق بيديه وصاح: «دورة للرفاق!».

كان زوربا يصغي بتركيز وأذناه الكبيرتان ممدودتان. استدار، نظر إلى البحّارة، ثم إليّ. وسأل: » هناك، أين؟ عمّ يتحدث ذلك الشخص؟»

لكنه فهم فجأة فقفز وصاح بإعجاب: «مرحى يا صديقي! إن أولئك البحّارة يعرفون السرّ. ولعلّ ذلك لكونهم يواجهون الموت ليلَ نهار».

ثمّ لوّح بقبضته الكبيرة في الجوّ. وقال:

«حسنًا، تلك قصّة أخرى. لنعد إلى العمل الآن. أأذهب أم أبقى. قرِّر».

قلت، وأنا أكبح نفسي بقوة كي لا أرتمي بين ذراعيه: «زوربا، اتفقنا! ستأتي معي. لديّ بعض الفحم في كريت. بوسعك أن تكون كبير العمال. في المساء سنتمدّد على الرمال. ليس لديّ في هذه الدنيا زوجة ولا أطفال ولا حتّى كلاب. سنأكل ونشرب سوية. ثم ستعزف على السنتور».

«إذا كنت في مزاج ملائم، أتسمع؟ إذا كنتُ في مزاج ملائم. سأعمل لك قدر ما تحبّ. أنا رجلك هناك. ولكنّ السنتور أمر مختلف. إنّه حيوان بريّ، يحتاج إلى الحرية. إذا كنتُ في المزاج الملائم، سأعزف. سأغنّي أيضًا. وسوف أرقص رقصة الزايمبكس[1]، والهاسابيكو (رقصة اللحّام)، والبنتوزالي (رقصة المحاربين الوطنية في كريت). ولكن، أقول لك، بوضوح ومن البداية، يجب أن أكون في المزاج الملائم. ليكن هذا في غاية الوضوح. إذا أجبرتني سينتهي كلّ شيء. وفيما يتعلّق بتلك الأمور، فيجب أن تُدرك، بأنني رجل».

«رجل؟ ما الذي تعنيه؟»

---

(1) رقصة ساحلية قبلية من آسيا الوسطى وتُدعى رقصة الزايمبكس.

twitter @baghdad_library

«حسنًا، أعني حُرًّا!».

طلبتُ كأس روم آخر.

صاح زوربا: «اجعلهما اثنين. ستشرب واحدًا أنت أيضا، ونقرع كأسينا على نخب الاتفاق. المريمية والروم لا يتلاءمان جيدًا. لكنّك ستشرب الروم دعما للاتفاق».

قرعنا كأسينا الصغيرين.كان ضوء النهار قد خيّم. والسفينة تطلق صفّاراتها. أشار إلىَّ الرجل الذي حمّل حقائبي في السفينة. فقلتُ وأنا أنهض: «ليكن الله معنا. لننطلق!»

أصغى حتّى أكملت جملتي ثمّ انحنى إلى الأمام، وضع السنتور تحت ذراعه، فتح الباب وخرج قبلي.

- 2 -

البحرُ، رقّةُ الخريف، جزرٌ تغتسلُ بالضوء، مطرٌ رائع ينشر حجابًا من الشفافيّة فوق عُرّي اليونان الخالد. سعيدٌ هو الإنسان الذي يحالفه الحظ قبل موته ويبحر في بحر إيجه!

كثيرة هي متعُ هذه الدنيا: النساء والثمار والأفكار. لكنّني أعتقد أنّ السفر عبر هذا البحر في الفصل الخريفيّ اللّطيف، ونحن نهمس باسم كلّ جزيرة، يقدّم من المتعة ما يحوّل قلب الإنسان إلى فردوس. فما من مكان آخر يمكن أن يمرّ فيه الإنسان من الواقع إلى الحلم بمثل هذه البساطة والهدوء. تتلاشى الحدود، ومن صواري السفن الأكثر قدمًا تنبثق الأغصان والثمار. هنا في اليونان تبدو الضرورة وكأنّها أمّ المعجزات.

توقّف المطر ظهرًا. بدّدت الشمس الغيوم وأطلّت لطيفةً، رقيقة، حديثةَ الاغتسال، داعبتْ بأشعتها المياه والأراضي الحبيبة. فوقفتُ في القيدوم مستسلمًا لسُكر المعجزة التي انكشفت على مدى البصر.

كان على متن السفينة يونانيون، شياطين ماكرون بأعين نهمة، وأدمغة تافهة كبضائعهم التي يساومون عليها طويلا، ثرثرة في السياسة ومخاصمات؛ بيانو غير متناسق الألحان؛ نساء شريفات وخبيثات. لقد كان يسود المشهد جوّ من البؤس القرويّ إلى درجة أنّ الرغبة الأولى التي تتملّكك هي الإمساك بالسفينة من طرفيها، وإغراقها في البحر، وهزّها بعد ذلك بعناية كي تسقط عنها جميع تلك الحيوانات التي تلوّثها من بشر وجرذان وصراصير ثم تُعوّمها من جديد، مغسولة، طريّة، فارغة.

ولكن أحيانًا كانت تعتريني الشفقة إزاء ذلك. شفقة بوذية، باردة

twitter @baghdad_library

كنتيجة قياسٍ ميتافزيقي. شفقة لا على البشر فحسب بل على العالم أجمع، العالمَ الذي يصارع ويصيح ويبكي ويأمَل، ولا يدرك أنّ كلّ شيء ليس سوى محاولة لاستحضار الأشباح من العدم. شفقة على اليونان، على السفينة، على البحر، وعليّ، على منجم الفحم، على مخطوطي غير المنتهي عن بوذا، وعلى كلّ تمازجات الضوء والظلّ تلك التي كانت تفاجئ صفاء الجوّ على حين غرّة لتلوّثه.

نظرتُ إلى وجه زوربا المشدود الشاحب. كان يجلس على لفّة حبال في المقدمة، يتنشّق ليمونة ويصغي بأذنيه الكبيرتين إلى بعض المسافرين وهم يتخاصمون الواحد منهم مع الملك والآخر مع فِنيزيلوس Venizelos. كان يهزّ رأسه ويبصق، ثمّ تمتم باحتقار:

«أقمار تافهة قديمة. ألا يخجلون من أنفسهم!»

«ما الذي تعنيه بأقمار قديمة يا زوربا؟»

«كلّ ذلك: الملوك، الديمقراطيات، الاستفتاءات العامة، النوّاب، الهراء».

كان زوربا قد تجاوز الأحداث المعاصرة كثيرًا فلم تعد تعني له أي شيء سوى قمامة قديمة. وأكيد أن الإرسال البرقيّ، والسفن البخارية والآلات، والدين والأخلاق الحالية كانت تبدو في ذهنه كبنادق قديمة صدئة. فقد كانت روحه تتقدم بشكل أسرع من العالم.

كانت حبال الصواري تصدر صريرًا، والشطآن تتراقص، وأصبحت النساء على ظهر السفينة أشدّ اصفرارا من قشر الليمون. لقد ألقين بأسلحتهنّ المؤلّفة من مستحضرات التجميل والمشدّات، ودبابيس الشعر والأمشاط. فشحبتْ شفاههنّ، وبدأت أظفارهن تزرقّ. العجائز السليطات اللسان بدورهنّ كنّ يفقدن ريشهن المستعار: الشرائط والحواجب المزيّفة والشامات، وحمّالات الصدر، وحين تشاهدهنّ وهنّ على شفا التقيؤ، تشعر بالقرف المشفوع بشفقة كبيرة.

زوربا بدوره اصفرّ، ثمّ اخضرّ. وكبت عيناه المتوقدتان ولم تعودا إلى ألقهما إلاّ مساءً حين أشار إلى دلفينين، يقفزان عبر المياه إلى جانب السفينة. وصاح بفرح: «دلافين».

لاحظتُ للمرة الأولى أن نصف سبّابة يده اليسرى مقطوع. فارتعدت وقد تملّكني نوع من الاستياء. وصرخت:

«ما الذي حدث لإصبعك يا زوربا؟»

أجاب، مستاءً من أنّني لم أظهر المزيد من المتعة برؤية الدلافين:

«لا شيء».

ألححت: «هل علقت يدك في آلة».

«ما الذي يجعلك تذكر الآلات؟ لقد قطعتها بنفسي».

«بنفسك؟ لماذا؟»

قال، هازًا كتفيه: «لا تستطيع أن تفهم أيها الرئيس. قلت لك إنني مارستُ المهن كلّها. مرّة كنت خزّافًا. كنتُ مولعًا بتلك الصنعة إلى درجة الجنون. أتدرك ما الذي يعنيه أن تتناول قطعة من الطين وتصنع منها ما تريد؟ تدير العجلة ويدور الطين، كأنه ممسوس بينما تقف أنت فوقه وتقول: سأصنع إبريقًا، سأصنع صحنًا، سأصنع مصباحًا وكلّ ما يخطر على بالي! هذا ما يجعلك رجلاً: الحرية!»

نسيَ البحر، لم يعد يعضّ الليمونة. وعاد الصفاء إلى عينيه من جديد.

سألته: «حسنًا، وماذا عن إصبعك؟».

«آه، لقد كانت تزعجني على الدولاب. وتتدخل دائمًا في وسط الأمور وتعرقل خططي. وهكذا أمسكت في أحد الأيام بالفأس...».

«ألم يؤلمك هذا؟».

«ما الذي تعنيه؟ لستُ جذع شجرة. أنا رجل. بالطبع آلمني. ولكنها تدخلت في طريقي أكثر من مرّة، فقطعتها».

twitter @baghdad_library

غربت الشمس وصار البحر أكثر هدوءًا. تناثرت الغيوم. شعّ نجم المساء، نظرتُ إلى البحر، إلى السماء، وبدأت أتأمل... أن تحبّ هكذا، أن تمسك بالفأس، وتقطع، وتشعر بالألم... ولكنني أخفيت انفعالي، وقلتُ مبتسمًا:

«إنّها معالجة سيّئة يا زوربا. ذكّرتني بالزاهد الذي رأى ذات يوم امرأة جميلة أوقعت الاضطراب في ذلك العضو من جسده-مثلما تروي الأسطورة الذهبية-فتناول الفأس...».

قاطعني زوربا، وقد حزر ما سأقول: » يا للأحمق يقطع ذلك! ما هذا الخرف،ذلك المسكين ليس عقبة مطلقا!»

ألححت: «ولكن يمكن أن يكون عائقًا كبيرًا».

«أمام ماذا؟».

«دخولك مملكة السماء».

نظر إليَّ زوربا مواربة، وقال ساخرا: «أيها الأحمق ذلك الشيء هو بالضبط مفتاح الفردوس».

رفع رأسه، نظر إليّ بتمعّن، وكأنّه يريد أن يرى ما الذي يدور في ذهني: حيوات مستقبلية، مملكة السماء، النساء، الكهنة. ولكن لم يبدُ قادرًا على جمع الكثير. فهزّ رأسه الشائب الكبير بحيطة، وقال:

«إن المبتورين لا يدخلون الفردوس». ثم صمت.

ذهبت كي أستلقي في مقصورتي وأخذت كتابًا. كان بوذا ما يزال يشغل أفكاري. قرأتُ الحوار بين بوذا والراعي الذي ملأ ذهني لبعض السنوات بالطمأنينة والأمن.

الراعي: وجبتي جاهزة، لقد حلبتُ نعاجي. باب كوخي مقفل، ناري موقدة. بوسعك أن تمطري قدر ما تشائين أيتها السماء.

بوذا: لم أعد في حاجة إلى الطعام والحليب. الريح مأواي، وناري مطفأة. بوسعك أن تمطري قدر ما تشائين أيتها السماء!

الراعي: لدي ثيران، لدي أبقار. أملك مروج أبي وثورًا يركب أبقاري. وأنت، أيتها السماء، بوسعك أن تمطري قدر ما تشائين.

بوذا: لا ثيران لي، لا أبقار، ولا مراع. لا أملك أيّ شيء، لا أخاف من أي شيء. وأنتِ،بوسعك أن تمطري قدر ما تريدين أيتها السماء.

الراعي: لدي راعية مطيعة مخلصة. كانت زوجتي لسنوات؛ وأشعر بالسعادة حين ألعب معها في الليل. فبوسعك أن تمطري قدر ما تشائين أيتها السماء!

بوذا: لي روح مطيعةٌ، حرةٌ. درّبتها لسنوات وعلّمتها أن تلعب معي. فبوسعك أن تمطري قدر ما تشائين أيتها السماء.

كان هذان الصوتان ما يزالان يتحدثان حينما أخذني النعاس. هبّت الريح ثانية، وراحت الأمواج تتحطم على زجاج الكوّة السميك في جانب السفينة. كنت أعوم كخيط دخان بين النوم واليقظة. هبّتْ العاصفة عنيفة، اختفت المروج تحت السيول، غرقتْ العجول الصغيرة والأبقار والثيران. حملت الريح سقفَ الكوخ بعيدًا، انطفأت النار، أطلقتْ المرأة صرخة وسقطتْ ميتة في الطين، وبدأ الراعي نواحه. لم أستطع سماع ما قاله، ولكنه كان يصيح بصوت مرتفع وكنتُ أغوص عميقًا في النوم، منزلقًا كسمكة عبر الأعماق المائية.

حين استيقظتُ عند بزوغ الفجر، كانت الجزيرة الرئيسيّة الكبيرة تمتدّ على يميننا مزهوّة وحشيّة. والجبال القرمزية الشاحبة، تبتسم عبر الضباب تحت شمس خريفيّة. وحول سفينتنا، كان البحر الأزرق النيلي مضطربًا ثائرا.

ظلّ زوربا ينظر إلى كريت متلهّفا وقد لفّ نفسه بسجّادة بنيّة. تحوّلت عيناه سريعا من الجبل إلى السهل، تبعتا الشاطئ، كانتا تُقلّبانه وكأنّ صاحبهما يعرف الساحل والأرض كلّها، ويسرّه أن يعيد استعراضهما في ذهنه من جديد.

twitter @baghdad_library

ذهبتُ إليه، لمستهُ على كتفه وقلت:

«من الواضح يا زوربا أنها ليست المرة الأولى التي تأتي فيها إلى كريت! فأنت تنظر إليها كصديق قديم».

تثاءب زوربا، وكأنه ضجر. وشعرتُ بأنه لا يرغب في الحديث.

ابتسمت قائلاً: «إن الكلام يضجرك، أليس كذلك يا زوربا؟»

أجاب: «ليس هذا بالضبط أيها الرئيس. إن الكلام مُتعِب لا غير».

«وما الذي يجعله مُتعِبا؟»

لم يُجب على الفور. طافتْ عيناه مرة أخرى ببطء فوق الشاطئ. لقد نام على ظهر السفينة، وشعره الرماديّ المجعّد مُبلّلٌ بالندى. وكانت الشمس المشرقة تضيء الغضون العميقة في خدّيه وذقنه ورقبته.

وأخيرًا تحرّكت شفتاه المتدلّيتان وكأنّهما شفتا تيْس: «في الصباح أجد صعوبة في فتح فمي، صعوبة كبيرة، أنا آسف».

وغرق مرة أخرى في الصمت، وثبّت عينيه الصغيرتين المستديرتين ثانية على كريت.

قُرع جرسُ تناولِ الفطور. وبدأت تبزغ من المقصورات وجوه صفراء مائلة إلى الخضرة. ووفدت بعض النساء، بلفافات شعرهنّ المحلولة، مترنّحات وهنّ يجرجرن أنفسهن من طاولة إلى أخرى. وكانت تفوح منهن رائحة القيء والكولونيا، ونظراتهنّ غائمة، وجِلة، وبلهاء.

كان زوربا يحتسي قهوته بتلذّذ. وهو جالس أمامي، يغمس الخبز المطليّ بالزبدة والعسل ويأكله. صار وجهه تدريجيًا أكثر تألقًا وهدوءًا، وصارت خطوطُهُ أكثرَ نعومة. راقبته خلسة وهو يخرج ببطء من غطاء نومه، ورأيت كيف شعّتْ عيناه بألق أكبر.

أشعل سيجارة، استنشق بمتعة وأخرج الدخان الأزرق من منخريه المُشعّرين. طوى ساقه اليمنى تحته وتربّع بطريقة شرقيّة. الآن أصبح بإمكانه الحديث بيسر. فبدأ الكلام:

«أ هذه هي المرة الأولى التي جئتُ فيها إلى كريت؟» (أغمض عينيه نصف إغماضة وجال بعيدا ببصره عبر الكوّة إلى جبل «إيدا»، الذي كان يمتدّ وراءنا). «كلا. ليست المرة الأولى. كنت في سنة 1896 رجلاً ناضجًا. كان شاربي وشعري بلونيهما الحقيقيين، أسودين كغراب. وكنت ما أزال محتفظا بكل أسناني الاثنين والثلاثين، كنتُ حين أسكر أبتلع المقبّلات أولاً ثم الطبق الرئيسي. نعم، لقد أمتعت نفسي بلا نهاية. ولكن في تلك الفترة بالذّات تدخّل الشيطان في مجرى الأمور فنشبتْ فجأة ثورة جديدة في كريت.

«كنتُ في تلك الأيام بائعًا متجوّلاً. أبيع السلع الصغيرة بين قرية وأخرى في مقدونيا، وبدلاً من النقود كنتُ أحصل على الجبن والصوف والزبدة والأرانب والذرة. فأبيع هذا كلّه وأجني ربحًا مُضاعفًا. وفي كلّ القرى التي كنت أبلغها حين يخيّم الظلام كنت أعرف أين أقضي الليل. كان لي في كلّ قرية أرملة رقيقة القلب-فليباركهنّ الربّ جميعا-! أمنحها مكبَّ خيوط، أو مشطاً، أو لفاعًا أسود، بالطبع، بسبب المرحوم الذي نُدب، وأنام معها. لم يكلّفني هذا الكثير!

«كلا ،لم يكلّفني الكثير، أيها الرئيس، فالحياة الطيّبة ليست باهظة الثمن! ولكن كما قلتُ من قبل، تدخّل الشيطان في مجرى الأمور وحملت كريت السلاح ثانية. فصرخت في نفسي: «إلى الجحيم هي ومصيرها! ألا يمكن أن تتركنا كريت الملعونة نحيا بسلام؟» وضعت جانبًا القطن والأمشاط، وحملت السلاح وانطلقتُ كي أنضمّ إلى المتمرّدين «.

صمت زوربا. كنا نتبع منحنى خليج رمليّ هادئ. وكانت الأمواج تنتشر هنا بهدوء دون أن تتكسّر تاركة فقط خيطاً نحيلاً من الزبد على طول الشاطئ. تفرّقت الغيوم، أشرقت الشمس، وصارت حدود كريت الخارجية القاسية، هادئة.

استدار زوربا وحدجني بنظرة ساخرة.

twitter @baghdad_library

«أراهن أيّها الرئيس على أنك تنتظر منّي أن أسرد على مسامعك كيف قطعت رؤوس الكثير من الأتراك وكم عدد الآذان التي خلّلتها في الكحول.. فتلك هي العادة الكريتيّة. حسنًا، لن أفعل! لا أرغب في ذلك لأنني أشعر بالعار. أي نوع من الجنون حلّ بنا؟ ... أنا أكثر تعقّلاً الآن، وأسأل نفسي: أي نوع من الجنون حلّ بنا جعلنا نرمي أنفسنا على إنسان آخر، لم يفعل بنا أي شيء، فنعضّه، نقطع أنفه، ننتزع أذنه، نجري عبر أحشائه.. وندعو طوال الوقت الإله الجبّار كي يساعدنا! ألا يعني هذا أننا نريد الإله الجبار أن يذهب ويقطع الأنوف والآذان ويمزّق البشر؟

«ولكن في ذلك الوقت كان دمي حارًّا في شراييني!وما كان في استطاعتي تفحّص المسألة: لماذا؟ وعمّ؟ كي يفكّر المرء في الأمور بشكل ملائم وعادل عليه أن يكون هادئًا ومُتقدّمًا في السنّ وبلا أسنان: حين تكون عجوزًا بلا أسنان، من السهل القول: اللعنة يا أولاد، يجب ألا تعضّوا! ولكن حين يكون الإنسان بأسنانه الاثنين والثلاثين كلّها... يكون وحشًا مفترسًا في شبابه؛ نعم، أيها الرئيس، يكون وحشًا مفترسًا يأكل البشر!».

هزّ رأسه موضّحا.

«آه، إنه يأكل الخراف، أيضًا، والدجاج والخنازير، ولكنّ بطنه لا يشبع إذا لم يأكل البشر».

ثمّ أضاف وهو يسحق سيجارته في صحن فنجان القهوة:

«كلا، بطنه لا يشبع. والآن ما الذي لدى البومة العجوز كي تقوله عن هذا؟».

لم ينتظر جوابًا. تابع وهو يتفحّصني: «أتساءل ما الذي بوسعك قوله؟».

«على ما يبدو لي، إن سيادتك لم تشعر بالجوع ولم تقتل أبدًا، لم تسرق أبدًا، ولم تمارس الزنا. ما الذي يمكن أن تعرفه عن العالم؟ لديك دماغ بريء ولم يشعر جلدك بالشمس أبدًا»، قال باحتقار واضح.

شعرتُ بالخجل من يديّ الحساستين، ووجهي الشاحب ومن حياتي التي لم تتلطخ بالطين والدم.

قال زوربا، وهو يمرّ بيده الثقيلة عبر الطاولة وكأنّه يمسحها بإسفنجة: «ليكن! ليكن!، ومع ذلك هناك شيء واحد، أريد أن أسألك عنه. لا بدّ أنك قرأت مئات الكتب، وربما تعرف الجواب...»

«تابع يا زوربا، ما هو؟».

«ثمَّتَ معجزة تحدث هنا، أيها الرئيس، نوع مضحك من المعجزات يحيّرني. إنّ كلّ تلك النذالات والسرقات وكلّ تلك المجازر التي ارتكبناها، نحن المتمرّدين، جاءت بالأمير جورج إلى كريت. جاءت بالحريّة!»

نظر إليّ وعيناه واسعتان من الدهشة.

تمتم: «إنه لغز، لغز كبير! وهكذا إذا كنا نريد الحريّة في هذا العالم السيئ، يجب أن نرتكب تلك الجرائم كلّها، ونقوم بتلك الخدع القذرة، أليس كذلك؟ لو ذكرت لك الأعمال الخسيسة والجرائم التي ارتكبناها، سيقف شعر رأسك. مع ذلك، ماذا كانت نتيجة هذا كلّه؟ الحرية! بدلاً من أن يزيلنا الله كلّنا بعاصفة رعدية، يمنحنا الحرية! لا أفهم هذا».

نظر إليّ، كأنه يطلب المساعدة. كان واضحا أنّ هذه المشكلة عذّبته كثيرًا وأنّه لم يفهمها.

سألني بألم: «هل تفهم؟».

أفهم ماذا؟ أقول له ماذا؟ إمّا أنّ ما نسمّيه الله غير موجود، أو أن ما ندعوه بالجرائم والأعمال الخسيسة ضروريّ للصراع ولتحرير العالم...

حاولت جاهدًا أن أعثر لزوربا على طريقة أخرى أبسط لشرح المسألة.

«كيف تنبت الزهرة وتنمو في السماد الحيواني والقذارة؟ افترض يا زوربا، أن السماد هو الإنسان والزهرة هي الحرية».

صاح زوربا خابطاً بقبضته على الطاولة: «ولكن البذرة؟ لكي تنبت الزهرة لابدّ من بذرة. فمن ذا الذي وضع بذرة كهذه في أحشائنا القذرة؟

twitter @baghdad_library

ولماذا لا تنتج هذه البذرة أزهارًا من الطيبة والشرف؟ لماذا تحتاج إلى الدم والقذارة؟».

هززتُ رأسي.

قلت: «لا أعرف»

«من يعرف؟»

«لا أحد»

صرخ زوربا يائسًا وهو يرمي ما حوله بنظرات متوحشة: «إذن ما الذي تتوقع مني فعله بقواربك كلّها، وآلاتك وقبّعاتك الأنيقة؟»

كان هناك مسافران أو ثلاثة من الذين أصيبوا بدوار البحر، يحتسون القهوة على طاولة قريبة، وقد بدأوا ينتعشون. وما إن شعروا بنزاعنا حتّى أرهفوا السمع.

أحسّ زوربا بالقرف إزاء ذلك فأخفض صوته. وقال:

«دعنا من هذا. فحين أفكّر فيه، أشعر برغبة في تحطيم كلّ ما تقع عليه يدي: كرسي، مصباح، رأسي أضربه بالجدار. ولكن ما الشيء الجيد الذي سأستفيده من ذلك؟ يجب أن أدفع مقابل الأضرار وأذهب إلى طبيب وأضمّد رأسي. وإذا كان الله موجودًا، فإنّ هذا أكثر سوءًا: فنحن مصنوعون لهذا بشكل دموي! لا بدّ أن يحدّق إليّ من الأعلى في السماء ويتضوّر ألمًا».

وهزّ فجأة يده وكأنّه يحاول التخلّص من ذبابة مزعجة. وقال بندم: «لا تهتمّ! كل ما أردت قوله لك هو هذا: حين وصلت السفينة الملكية مزيّنة بالرايات، وبدؤوا يطلقون زخات النار من المدافع، ووطأت قدما الأمير التربة الكريتية... هل سبق ورأيت شعبًا بأكمله أصابه الجنون لأنه رأى حريته؟ كلا؟ آه أيها الرئيس، لقد ولدتَ أعمى وستموت أعمى. أمّا أنا ولو عشتُ ألف عام، وحتى لو لم تبق مني سوى قطعة من اللحم الحي، فلن أنسى أبدًا ما شاهدته في ذلك اليوم! ولو كان في وسع الإنسان

أن يختار فردوسه في السماء، وفق ذوقه-وهكذا يجب أن يكون الأمر- فإنّني سأقول للربّ الرحيم: أيها الرب ليكن فردوسي كريت، مزيّنة بالآس والرايات واجعلِ اللحظة التي وطأت فيها قدم الأمير جورج التربة الكريتية تستمر قرونًا من الزمن! لا أرغب في غير ذلك».

صمتَ زوربا مرة أخرى. فتل شاربه، ملأ قدحا بالماء المثلج وجرَعَه دفعة واحدة.

«ما الذي حدث في كريت، يا زوربا؟ أخبرني».

فأجاب بعصبيّة: «لن أجهد نفسي في تزويق العبارات. لقد سبق وقلت لك يا صديقي. إنّ هذا العالم لغز والإنسان مجرد وحش كبير.

«وحش كبير وإله كبير. كان أحد أولئك المتمردين الأوغاد، ويدعى يورغا، يبكي، وقد جاء معي من مقدونيا. وهو أشبه بربطة محزومة بالحبال، خنزيرٌ حقيقيٌ نجس، فسألته: لماذا تبكي أيّها الخنزير؟ وكانت دموعي أنا أيضا تتدفق كالينبوع. «لماذا تبكي أيها الخنزير العجوز؟» كرّرت السؤال، لكنّه رمى ذراعيه حول عنقي وراح فقط ينتحب كطفل. ثم سحب ذلك الوغد البائس محفظته، وأفرغ في حضنه القطع الذهبية التي نهبها من الأتراك ورماها بقبضة يده في الجوّ!

أتفهم أيها الرئيس، هذه هي الحرية!»

نهضت وصعدتُ إلى ظهر السفينة، كي يجتاحني نسيم البحر القويّ. وفكّرت أنّ هذه هي الحرية. أن تهيم بشيء ما، أن تجمع قطع الذهب، وأن تنتصر فجأة على هذا الهيام وترمي الكنز إلى الرياح الأربع.

حرِّر نفسك من هوى واحد كي يهيمن عليك آخر أكثر نبلاً. ولكن أليس هذا شكلاً من العبودية أيضًا؟ أن يضحي الإنسان بنفسه من أجل فكرة، سلالة، أو من أجل الله؟ ألا يعني هذا أنه كلما كان النموذج أكثر رفعة تعالى قيد عبوديتنا؟ فنستطيع أن نستمتع بأنفسنا ونمرح في منطقة أوسع ونموت دون أن نضع حدًّا للقيد. هل هذا، إذن، ما ندعوه بالحرية؟

twitter @baghdad_library

في حوالى نهاية الأصيل رسونا قرب الشاطئ الرملي ورأينا رملاً أبيض منخولاً رائعًا، ودفلى ما تزال مزهرة، أشجار تين وخُرنوب، وبعيدًا إلى اليمين، هضبة رمادية طويلة ومنخفضة تخلو من الأشجار، تشبه وجه امرأة تستريح. وتحت ذقنها، وعلى طول عنقها، كانت تجري عروق فحم حجري بنيّة ضاربة في السواد؟

كانت هنالك ريحٌ خريفية تهبّ، وغيوم متناثرة تمرُّ ببطء فوق الأرض وتنعّم محيطها بالظلال. وثمّتَ أيضا غيوم أخرى تصّاعد في السماء مهدّدة. ظهرت الشمس واختفتْ، فبرق وجه الأرض وأظلم كوجه حيّ وقلق.

وقفتُ للحظة على الرمال ونظرتُ. كانت هناك عزلة مقدسة تمثل أمامي، مهلكة ولكنها مغرية، تماما مثل الصحراء. صعدتْ الأنشودة البوذية من التربة نفسها وشقّت طريقها إلى أعماق وجودي. «متى سأنزوي أخيرًا في عزلتي، وحيدًا، بلا رفقة، دون متعة أو أسى، فقط مع اليقين المقدس بأن كلّ شيء حلم؟ متى أنزوي قانعًا في الجبال بأسمالي من دون رغبات؟ متى سألوذ بالغابة حُرًا جسورًا وفي منتهى السعادة، مكتشفًا أن جسدي مجرّد مرض وجريمة، كهولة وموت؟ متى؟ متى؟ آه، متى؟»

تقدّم زوربا نحوي حاملاً سنتوره تحت ذراعه، و خطواته ما تزال غير ثابتة بعد.

قلتُ، محاولا إخفاء عواطفي: «هو ذا الفحم الحجري»، ومددت ذراعي نحو الهضبة التي تشبه وجه امرأة.

عبس زوربا دون أن ينظر حوله. وقال:

«فيما بعد، ليس هذا وقتًا ملائمًا أيها الرئيس. ينبغي أوّلا أن تتوقف الأرض. إنّها ما تزال تتحرّك تلك العاهرة! إنّها تتحرّك كظهر السفينة، لنذهب إلى القرية».

نطق بهذه الكلمات وانطلق بخطوات طويلة واثقة، محاولاً أن ينقذ وجهه.

ركض ولدان صغيران أسمران مثل الفلاّحين وحملا الحقائب. كان ضابط جمارك ضخم الجثة يدخّن النارجيلة في كوخ الجمارك. فحصنا من زاوية عينيه الزرقاوين، وألقى نظرة لامبالية إلى الحقائب، تحرك للحظة في كرسيّه وكأنه سينهض. ولكنه تراجع عن بذل مثل ذلك الجهد. ثمّ رفع أنبوب النارجيلة ببطء وقال بصوت نعسان: «أهلاً بكما».

جاء إليّ أحد الولدين. رفّ بعينيه الزيتونيّتين السوداوين وقال بنبرة ساخرة:

«إنه ليس كريتيًا. إنه شيطان كسول».

«أليس الكريتيون شياطين كسولة أيضًا؟»

أجاب الكريتي الشاب: «نعم... إنهم كذلك، ولكن بطريقة مختلفة».

«هل القرية بعيدة؟»

«على بعد طلقة نارية من هنا فحسب. انظر، خلف البساتين، عند الوادي. إنها قرية رائعة يا سيدي. وفيها كثير من الأشياء الجميلة: أشجار الخرنوب، الفاصوليا، الحبوب، الزيت والنبيذ. وهناك في الرمال، ينبت الخيار، والطماطم، والباذنجان والبطيخ الذي يبكّر بالنضج في كريت قبل أيّ مكان آخر. إن الرياح التي تهبّ من أفريقيا هي التي تجعله ينتفخ. وفي الليل، إذا جلست في البستان، تستطيع سماعه وهو يطقطق ويكبر».

كان زوربا يمشي في المقدمة، مترنّحا بعض الشيء. وكان رأسه ما يزال يدور. صرخت به:

«تشجّع يا زوربا! لقد تخطّينا الأمر. لا شيء نخشى بعد الآن!».

مشينا بسرعة. كانت التربة مختلطة بالرمل والأصداف. وبين الحين والحين تبرز أشجار الطرفاء في أماكن متفرّقة، وأشجار التين البريّ، وأجمة القصب، وبعض نباتات آذان الدب المرّة. كان الطقس شديد الحرارة والرطوبة، الغيوم تنخفض باطّراد، والريح تتلاشى.

مررنا قرب شجرة تين كبيرة ذات جذع مزدوج ملتو بدأ يتجوّف جرّاء

twitter @baghdad_library

مرور الوقت. توقف أحد الولدين وأشار إلى الشجرة العجوز بحركة من ذقنه. وقال:

«هي ذي تينة الآنسة!»

وفوجئت أنّ لكلّ شجرة، أو صخرة، في أرض كريت، قصّتها المؤسية.

«تينة الآنسة؟ من أين أتى هذا الاسم؟»

«في زمن جدّي، وقعت ابنة أحد الأعيان في غرام راع شاب. ولكن والدها عارض الأمر. بكت الشابة، صرخت وتوسّلت. ولكن العجوز لم يغيّر رأيه! وفي إحدى الليالي اختفى الاثنان. فُتّش الريف يوما ويومين وثلاثة وأسبوعا دون جدوى، ثم ملأت المكان رائحةٌ عطنة وهكذا تمّ اقتفاؤها فعُثر عليهما متعفّنين تحت شجرة التين هذه، وهما متعانقان».

انفجر الفتى ضاحكا. في حين أصبح في وسعنا سماع أصوات القرية. بدأتْ الكلاب في النباح، والنساء في الحديث بحدّة، وأعلنت الديكة عن حدوث تغيّر في الطقس. وسرتْ في الجو رائحة عناقيد العنب متصاعدة من الخوابي حيث كان الراكي يتخمّر.

صاح الفتيان وانطلقا: «هذه هي القرية!»

حالما درنا حول التل الرملي لاحت القرية الصغيرة على مدى البصر. بدتْ وكأنها تتسلّق جانب الوهد بجهد. منازل منخفضة بيضاء ذات مصاطب ملتصقة الواحد حذو الآخر. كانت بنوافذها المفتوحة كبقع سوداء، أشبه ما يكون بجماجم مبيضّة، مكوّمة بين الصخور.

لحقتُ بزوربا. قلتُ له:

«أتمنى أن تحسن التصرف ونحن ندخل الآن إلى القرية. يجب ألا يعرفوا سرّنا، يا زوربا. سنتصرف كرجلي أعمال جادّين. أنا المدير وأنت كبير العمال. إن الكريتيين لا يأخذون الأمور بخفّة. فما إن يقع نظرهم عليك، ويلتقطوا أي عيب فيك، حتّى يلصقوا بك لقبا ما. بعد ذلك،لن تستطيع التخلص منه، وستظلّ تجري ككلب رُبطت قِدْرٌ إلى ذيله «.

أمسك زوربا شاربيه بقبضته وغاص في تأمله. ثمّ قال أخيرًا:

«أصغ، أيها الرئيس، إذا كانت هناك أرملة في المكان فلا تخش شيئًا. وإن لم توجد...».

حينئذ، وفيما كنا ندخل القرية، اندفعت نحونا امرأة متسوّلة ملفّعة بالأسمال، ممدودة اليد. كانت شديدة السمرة، قذرة، ولها شارب أسود كثّ.

نادت زوربا وكأنها تعرفه: «مرحبًا يا أخي! مرحبا! هل لك روح؟»

توقف زوربا.

أجاب بجدية: «نعم،لي».

«إذن، أعطني خمس دراخمات».

فسحب زوربا من جيبه محفظة جلدية بالية. قدمها لها فيما انفرجت شفتاه المريرتان عن ابتسامة. والتفت قائلا:

«تبدو الأرواح رخيصة في هذه الأنحاء، أيها الرئيس! الروح الواحدة بخمس دراخمات!».

قفزت كلاب القرية نحونا، ومالت النساء فوق المصاطب كي يحدقن فينا، وتبعنا الأطفال صارخين. صرخ بعضهم بحدّة، وأصدر بعضهم أصواتًا كأبواق السيّارات، وركض آخرون أمامنا وهم ينظرون إلينا بأعينهم الكبيرة المليئة بالدهشة.

وصلنا إلى ساحة القرية، حيث عثرنا على شجرتي حور بيضاوين محاطتين بجذوع منحوتة بفظاظة تصلح كمقاعد. في الجهة المقابلة مقهى عُلقت فوقه يافطة ضخمة ذاوية: «مقهى الوقار ومجزرة الاحتشام».

سألني زوربا: «لماذا تضحك؟»

ولكنّه لم يُتِح لي الوقت للإجابة عن سؤاله. إذ خرج من باب المقهى/المجزرة خمسة عمالقة أو ستة يرتدون بنطلونات قصيرة ونطاقات

twitter @baghdad_library

حمراء. وصاحوا: «أهلاً بكما أيها الصديقان. تفضلا وتناولا كأسًا من الراكي. ما يزال ساخنًا من الخابية».

لعق زوربا لسانه وقال: «ما رأيك أيها الرئيس؟» استدار وغمزني. «هل نتناول كأسًا؟»

شربنا كأسًا أحرقت أحشاءنا. كان مالك المقهى/المجزرة عجوزًا رشيقًا وفظًا محتفظًا برونقه وشبابه، أحضر لنا مقعديْن.

سألتُ أين يمكن أن نسكن. فصاح أحدهم:

«اذهبا إلى نزل السيدة هورتانز».

عبّرت عن دهشتي قائلاً: «أتوجد امرأة فرنسية هنا؟»

«لا يعرف إلا الشيطان من أين هي؛ كانت في الأمكنة كلّها. تجنبت كلّ الأعمال الصعبة التي بوسعك التفكير فيها وتعلقت الآن بآخر عمل هنا وفتحت نزلاً».

صاح طفل: «وهي تبيع الحلويات أيضًا».

وقال شخص آخر: «إنها تتزيّن وتضع مساحيق التجميل. تلفّ شريطة حول عنقها... ولديها ببغاء».

سأل زوربا: «أرملة؟ هل هي أرملة؟»

أمسك مالك المقهى لحيته الشائبة الكثّة.

«كم عدد الشعرات التي تستطيع أن تحصيها هنا يا صديقي؟ كم عددها؟ حسنًا، إنها أرملة أزواج بهذا العدد. هل وصلتك الفكرة؟»

أجاب زوربا لاعقاً شفتيه: «وصلتني».

«يمكن أن تجعلك أرملَ أنت أيضًا!»

«انتبه إلى خطواتك، يا صديقي!» صاح عجوز فانفجر الجميع ضاحكين.

قُدّم لنا كأسان آخران أحضرهما إلينا مالك المقهى في صينية، مع خبز الشعير، وجبنة الماعز والإجاص.

«والآن اتركا هذين الشخصين وحدهما. يجب ألا يحلما بالذهاب إلى

نزل السيدة! سيمضيان الليل هنا!»

قال العجوز: «سأستضيفهما يا كوندومانوليو. فأنا ليس لدي أطفال. والمنزل كبير وفيه متّسع».

صاح مالك المقهى في أذن الرجل العجوز: «آسف يا عم أناغنوستي. لقد سبقتك في الكلام».

قال العجوز أناغنوستي: «إذن أنت تستضيف واحدًا وأنا سأستضيف الآخر، العم العجوز...».

أجاب زوربا مستفزًا: «أي عم عجوز؟»

قلتُ وأشرتُ إلى زوربا ألا يتضايق: «سنمكث سوية وسنذهب إلى نزل السيدة هورتينز».

«مرحبًا! مرحبًا! أهلا وسهلا!»

وظهرت عند شجرتي الحور امرأة صغيرة، قصيرة وممتلئة الجسم، بشعر مبيضّ بلون الكتّان كانت تتهادى على ساقيها المقوّستين، مادّة ذراعيها، وقد زيّن ذقنها حبّ خال بزغ منه شعر أشبه بوبر الخنزير. كانت ترتدي شريطة مخمليّة حمراء حول عنقها، وكان خداها الذاويان مغمورين بمسحوق بنفسجيّ. رقصت خصلة شعر مرحة على جبينها فجعلتها تبدو نوعًا ما كـ«سارة برنهارت»[1] في شيخوختها وهي تؤدّي دورها في «النسر».

«تسرّني رؤيتك يا سيدة هورتانز»، أجبتها وأنا أستعد كي أقبّل يدها، وقد حملني بعيدًا حسُّ دعابة طريف.

بدتْ الحياة على الفور وكأنها حكاية خرافية أو كأنها المشهد الافتتاحي في مسرحية «العاصفة» لشكسبير. كانت أقدامنا قد وطأت الجزيرة لتوها، وكنّا مبللين حتّى جِلْدِنا بعد واقعة السفينة، نستكشف

---

(1) سارة برنهارت (1844-1923): ممثلة مسرحيّة فرنسيّة عرفت بـ«ملكة المسرح التراجيدي الفرنسي»، ومن أبرز أعمالها مسرحية «النسر» التي تقمصت دور البطولة فيها سنة 1900. (المُراجعان)

twitter @baghdad_library

السواحل المدهشة، ونلقي التحايا على سكان المكان في احتفال. وبدتْ لي هذه المرأة هورتانز وكأنها ملكةُ الجزيرة، بدت نوعًا من عجول البحر المتلألئ الأشقر وقد طُرح نصفَ متعفّنٍ على الشاطئ. وخلفها ظهر شعب «كاليبان» برؤوسه المتسخة العديدة، الكثيفة الشعر والمسكونة بحسّ الفكاهة، وهو ينظر إلى العروس بكبرياء واحتقار.

أمّا زوربا، الأمير المتنكّر، فقد حدّق فيها هو الآخر، كما لو أنها رفيق قديم، سفينة حربيّة قديمة قاتلت في البحار البعيدة، وعرفتْ الهزيمة والنصر، تحطّمتْ حجراتها، تحطّمت صواريها، وتمزّقتْ أشرعتها. وهاهي تقف الآن مليئة بالتجاعيد التي غطتها بالمساحيق وأدوات التجميل، مستقيلةً على هذا الساحل قابعة تنتظر. والأكيد أنها كانت تنتظر زوربا، قبطان الندوب الألف. وسرّني أن أشاهد هذين الممثلين يلتقيان أخيرًا في هذا الديكور الكريتي الذي وُضع ببساطة على المسرح ودُهن بضربات كبيرة من فرشاة الإبداع.

قلتُ منحنيًا أمام هذه العجوز الأخصائية في تمثيل مشاهد الحب: «نريد سريرين، سريرين دون بقّ».

صاحت وهي ترميني بنظرة محرّضة: «لا يوجد بقّ! أعتقد ذلك».

وصاحت أفواه شعب «كاليبان» ساخرة: «آه، كلا!»

فرددت وهي تدوس على الأحجار بقدمها البدينة: «لا يوجد بقّ! لا يوجد!»

كانت ترتدي جوارب سماويّة اللون سميكة وزوجًا من الأحذية الرسمية الأنيقة ذات العقد الحريرية.

ومرّة أخرى زأرت أفواه «كاليبان»: «خلّصينا منك، أيتها الشادية الأولى! ليأخذك الشيطان!»

ولكن السيدة هورتانز كانت قد تحركت وفتحت لنا الطريق، وقد فاحت منها رائحة المساحيق والصابون الرخيص.

تبعها زوربا وهو يلتهمها بعينيه.

أسرّ لي: «انظر إلى هذا أيها الرئيس،انظر إلى الطريقة التي تؤرجح بها هذه البغيّ ردفيها، بلاف! بلاف! مثل نعجة بإلية من الدهن!»

سقطتْ قطرتان أو ثلاث قطرات كبيرة من المطر، غامت السماء. ولمع برق أزرق فوق الجبال. فتيات شابات ملفّعات في أرديتهنّ الصغيرة البيضاء المصنوعة من جلد الماعز، أسرعن الخطى وهنّ يقُدْن ماعز الأسرة وخرافها ويُعدنها من المرعى، بينما كانت النساء المقعيات أمام المواقد يشعلن نار المساء.

عضّ زوربا شاربه بنفاد صبر، دون أن يزيح بصره عن ردفيّ المرأة المتحرّكين.

وفجأة أطلق تنهيدة: «فلتذهب هذه الحياة إلى الجحيم! لن تخدعنا هذه المرأة أبدًا!»

twitter @baghdad_library

- 3 -

كان فندق السيدة هورتانز عبارة عن صف من الأكواخ المترابطة التي كانت تستخدم قديما للاستحمام. الأول هو الدكّان الذي تستطيع أن تشتري منه الحلويات والسجائر والفول السوداني وذبالات قناديل وكتيّبات لتعليم الأبجدية وشموعًا وبلسْمينة. في حين شكّلت أربعة أكواخ متلاحمة المهجع. وفي الخلف، في الساحة، يوجد المطبخ، ومكان غسل الثياب، وقن الدجاج وأقفاص الأرانب. وبالإضافة إلى ذلك زرعت شجيرات خيزران كثيفة وكمّثرى شائكة في الرمال الناعمة المحيطة. كان المكان كلّه يفوح برائحة البحر، والبراز والبول. ولكن، من وقت لآخر، كانت السيدة هورتانز تمرّ فيغيّر الجوّ رائحته وكأن أحدهم أفرغ إناء حلاق تحت أنفك.

حالما تمّ تجهيز الأسرّة ذهبنا ونمنا نومًا عميقًا حتى الصباح. لا أذكر الحلم الذي رأيته، ولكنني نهضتُ بخفّة ونشاط وكأنني انتهيتُ لتوّي من العوم في البحر؟

كان يومَ الأحد، ومن المنتَظَر أن يأتي العمال يوم الاثنين من القرى المجاورة ويبدؤون العمل في المنجم، وهكذا كان بوسعي اليوم أن أتنزّه حول الشواطئ التي قذفتني إليها القدر. وما إن طلع الفجر حتى انطلقت. عبرتُ الحدائق، تبعتُ حافّة البحر، تعرّفت سريعا إلى هواء البقعة ومياهها وترابها، قطفتُ أزهارًا بريّة، حتّى صارت راحتا كفيّ عابقتين بالزعتر البري والمرْيميّة والنعناع.

تسلقت هضبة ونظرتُ حولي. ريف غريب من الغرانيت وحجر الكلس شديد الصلابة. أشجار خرنوب داكنة وأشجار زيتون فضيّة، أشجار تين

twitter @baghdad_library

وكرمة. وفي الأودية المحميّة، بساتين برتقال، وليمون وزعرور بريّ، وقرب الشاطئ حدائق الخُضر الخاصة بالمطبخ. وإلى الجنوب، يمتدّ البحر المترامي الأطراف غاضبًا مزمجرًا وهو يندفع من إفريقيا عاضًا شاطئ كريت. وفي الجوار جزيرة رملية منخفضة تتوهّج بلونها القرمزي تحت أشعّة الشمس الأولى.

أعتقد أن هذا الريف الكريتي يشبه النثر الجيّد، المرتّب بعناية، النثر الرصين، والمتحرر من التكلّف، القويّ والمحكم. نثرٌ يعبّر عن كلّ ما هو ضروري بإيجاز، يخلو من ذلاقة اللسان، والخداع. يقول ما عليه قوله ببساطة وجُرأة. ولكن بين السطور الحادّة يستطيع المرء أن يميّز حساسية ورقّة غير متوقعتين؛ وفي الأودية المحميّة كانت أشجار البرتقال والليمون تعطّر الجوّ، ومن أفق البحر انبعث شِعرٌ لا يُستنفد.

تمتمتُ: «كريت... يا كريت....!» فخفق قلبي بسرعة.

نزلت عن التل إلى حافة الماء. حيث ظهرت فتيات يثرثرن، مرتديات شالات عنق بيضاء كالثلج ومنتعلات أحذية عالية صفراء وقد رفعن تنّوراتهنّ... كنّ ذاهبات لسماع القدّاس في الدير المنتصب هناك متألّقا بالبياض عند ساحل البحر.

توقفّتُ. وحالما شاهدنني، انطفأ ضحكهنّ. فما إن رأين رجلاً غريبًا حتّى تحوّل التعبير الذي على وجوههنّ إلى فقدان للثقة مشوب بالوحشيّة. اتخذن على الفور وضعًا دفاعيًا من قمّة رؤوسهن حتى أخمص أقدامهنّ، وقبضت أصابعهن بعصبية على بلوزاتهن المحكمة الشدّ بالأزرار. ثار الخوف في دمائهنّ. ذلك أنّ القراصنة كانوا قد قاموا بهجمات مفاجئة على طول الساحل الكريتي المواجه لأفريقيا، ناهبين النعاج، والنساء والأطفال. كانوا يقيّدونهم بنطاقاتهم الحمراء، ويرمونهم في قاع السفن ويبحرون كي يبيعوهم في الجزائر والإسكندرية وبيروت. نعم لقد ضجّ البحر بالبكاء على هذه السواحل المزيّنة بشرائط سوداء طوال قرون.

راقبتُ الفتيات وهنّ يتقدمن خائفات، متماسكات وكأنهنّ يردن أن يشكّلن حاجزًا لا يُخترق. كان ردَّ فعل غريزيًا، وضروريًا في الأزمنة الأولى ولكنه تكرر اليوم بلا سبب. و كأنّ ضرورة خفيّة أملتْ عليهنّ إيقاع حركاتهنّ.

حين مرّتْ الفتيات أمامي، تنحّيتُ جانبًا بهدوء، مبتسمًا. وعلى الفور، وكأنهنّ شعرن فجأة بأن الخطر الذي خفن منه مرّ منذ قرون، وأنهن استيقظن في عصرنا الآمن، توهّجت وجوههن، وتفرق خط القتال المتراص، ليلقين عليّ التحية بنبرات واضحة المرح. وفي الوقت نفسه، ملأت أجراس الدير البعيد الصاخبة الجوّ بأصوات الغبطة.

كانت الشمس قد أشرقت، والسماء صافية. جلستُ بين الصخور، جاثمًا كنورس على حافّة صخرية، وتأمّلتُ البحر. بدأ جسدي يشعر بالقوة، والجدة والطاعة. أمّا ذهني، فمن فرط تتبعه الأمواج، غدا هو نفسه موجة بلا مقاومة خاضعة لإيقاع البحر.

ثم بدأ قلبي ينتفخ. وصعدتْ في داخلي أصوات غامضة، متوسّلة، مهيبة. عرفتُ من كان يناديني. أينما كنتُ وحيدًا للحظة، كان هذا الكائن يصيح، متألّمًا من شعور سابق مريع، من انتشاءات ومخاوف مجنونة تنتظر أن أزيلها.

بسرعة فتحتُ كتاب دانتي، رفيقي في الترحال، كي لا أسمع أكثر، كي أطرد الشيطان المخيف. قلّبتُ الصفحات، قارئًا بيتًا من هنا وبيتًا من هناك، أو ثلاثية ، مسلمًا للذاكرة النشيد كلّه. ومن خلال هذه الصفحات الحارّة انبثقت أرواح الملعونين وهي تصيح، في منتصف الطريق نحو أعلى الصخور، حاولت الأرواح الجريحة أن تتسلق جانب الجبل شديد التحدّر. وإلى أعلى أيضا، انطلقتْ أرواح المباركين في حقول الزمرد، كحباحب مضيئة. تجولت من أعلى منزل القدر المريع إلى أدناه؛ تجولت بحُريّة في الجحيم، في المطهر، وفي الفردوس، وكأنني في منزلي. عانيتُ، انتظرت وتذوقت الغبطة، وقد حملتني بعيدًا تلك الأشعار العظيمة.

twitter @baghdad_library

أغلقتُ فجأة كتاب دانتي ونظرتُ إلى البحر. كان هناك نورس، يُسند صدره إلى المياه، ارتفع مع الأمواج ثمّ هبط، مسلمًا لها نفسه في متعة خالصة. وهناك أيضا صبيّ أسمر، حافي القدمين، ظهر على حافة الماء يغنّي أغاني حبّ. بدا وكأنّه يفهم الألم الذي تعبّر عنه، إذ بدأ صوته يبحّ، كصوت ديك صغير.

غُنّيتْ أشعار دانتي لمئات السنين في بلاد هذا الشاعر. وكما تجهّز أغاني الحب الفتيان والفتيات للحب، هكذا جهزت أشعار هذا الفلورنسي المتحمس شباب إيطاليا ليوم الخلاص. ومن جيل إلى آخر، كانوا يحاكون روح الشاعر ويحوّلون عبوديّتَهُم إلى حريّة.

وفجأة سمعتُ ضحكة ورائي فسقطتُ من المرتفعات الدانتية. نظرتُ حولي وإذا زوربا واقف خلفي، ووجهه كلّه مغمورٌ بالضحك.

صاح: «حسنًا، أيها الرئيس، هذه طريقة جيّدة للمتابعة! بحثتُ عنك لساعات، ولكن كيف أعرف أين أعثر عليك؟»

وحين رأى أنني بقيت صامتًا، تابع كلامه:

«لقد صرنا في منتصف النهار، الدجاجة طُبختْ؛ والمسكينة ستتحول إلى أشلاء، كما تعلم!»

«نعم، أعرف، ولكنني لستُ جائعًا».

تعجّب زوربا، صافعًا فخذيه: «لستَ جائعًا! ولكنك لم تتناول لقمة منذ الصباح. للجسد روح، أيضًا، فارأف به. امنحه شيئًا يأكله، أيها الرئيس، أعطه شيئًا؛ حمارنا الصغير، كما تعرف. إذا لم تُغذِّه، سيتركك متخبّطاً في منتصف الطريق».

لقد احتقرتُ متع الجسد لسنوات، ولو كان ممكنًا لأكلتُ خلسةً، كما لو أنني أرتكب فعلاً مشينًا. ولكن بما أن زوربا لم يتذمّر قلتُ:

«حسنًا، أنا قادم».

انطلقنا ناحية القرية. مرّتْ الساعات بين الصخور خاطفة كما يمرّ

الوقتُ بين عاشقين.

سألني زوربا مترددًا قليلاً: «هل كنتَ تفكّر بالفحم الحجري؟»

أجبتهُ ضاحكًا: «وبأي شيء آخر تتوقّع أنني سأفكّر. سنبدأ العمل من الغد. كان عليّ أن أجري بعض الحسابات».

قال فيما كان يشقّ طريقة بحرص: «وما هي نتيجة تلك الحسابات؟»

«يجب أن نستخرج بعد ثلاثة أشهر عشَرة أطنان من الفحم الحجريّ في اليوم كي نغطّي نفقاتنا».

نظر إليّ زوربا مرّة أخرى، هذه المرة بقلق. وبعد وهلة قال:

«ولماذا بحق الشيطان نزلتَ إلى البحر للقيام بالحسابات؟ اعذرني، أيها الرئيس، لطرح هذا السؤال، ولكنني لا أفهم. حين يكون عليّ أن أصارع الأرقام، أشعر أنه ينبغي أن أحشر نفسي في حفرة في الأرض، كي لا أرى أيّ شيء. أمّا إذا رفعتُ رأسي وشاهدتُ البحر، أو شجرة، أو امرأة - حتى ولو كانت عجوزا- فسوف تحترق جميع المبالغ والأرقام. ستنمو لها أجنحة ويكون عليّ أن أطاردها...»

قلتُ محاولا مضايقته: «ولكنّ الخطأ خطؤُكَ يا زوربا. فأنت لا تركّز».

«ربما أنت على صواب أيها الرئيس. يعتمد كلُّ هذا على الطريقة التي تنظر بها إلى الأمر. هناك حالات لا يستطيع حتى الملك سليمان الحكيمٍ أن... انظرْ، ذهبتُ مرة إلى قرية صغيرة. كان هناك جدٌّ في التسعين مشغولا بزراعة شجرة لوز. قلت: ماذا، أيها الجدّ! أتزرع شجرة لوز؟ استدار وهو منحن وقال: يا بنيّ، أنا أعمل وكأنني لن أموت أبدًا. أجبته: وأنا أعمل وكأنني سأموت في أيّ لحظة. من كان منا على صواب، أيها الرئيس؟»

نظر إليّ بانتصار وقال:

«كان هذا حيث أمسكتُ بك!»

بقيتُ صامتًا. إن مَمرّيْن منحدرين وشديديْ التحدّر يمكن أن يقودا إلى القمة نفسها. أن تتصرف كما لو أن الموت غير موجود، أو أن تتصرف

twitter @baghdad_library

مفكّرًا في الموت كلّ لحظة، ربما لن يختلف الأمر. ولكن حين طرح عليّ زوربا السؤال، لم أعرف ماذا أجيب.

قال زوربا بسخرية: «حسنًا. لا تقلق، أيها الرئيس، لا تستطيع الإجابة عن ذلك. دعنا نتحدث عن شيء آخر. الآن أنا أفكّر بالفرّوج والأرز المتبّل بالقرفة. البخار يتصاعد من دماغي تماما كما يحدث للأرز. دعنا نأكل أوّلاً، كي ندعم أنفسنا، ثم سنرى. كل شيء في الوقت المناسب. أمامنا الأرز الآن؛ لتصبح أذهاننا أرزًا. فغدًا سيكون الفحم الحجري أمامنا؛ وعندها تصبح أذهاننا فحمًا حجريًا! لا وجود لأنصاف الحلول ، كما تعلم».

دخلنا القرية. كانت النساء يجلسن في المداخل ويثرثرن. أمّا الشيوخ المتكئون على عكاكيزهم، فقد كانوا صامتين. وتحت شجرة رمّان مثقلة بالثمار جلست عجوز هزيلة متغضّنة تفلي شعر حفيدها من القمل.

أمام المقهى كان يجلس عجوز مستقيم القامة، بأنف معقوف ووجه ترتسم عليه ملامح القسوة والانقباض. كان منظره مميّزًا. إنّه مافراندوني، كبير القرية، وهو الذي استأجر لنا منجم الفحم الحجري. وقد جاء أمس إلى نزل السيدة هورتانز لكي يأخذنا إلى منزله. قال:

«إنها لفضيحة أن تنزلا في النزل كما لو أن القرية تخلو من الرجال».

كان جدّيًا، وزن كلماته بحرص كأحد القرويين البارزين. رفضنا. ولقد أهانه الأمر، ولكنه لم يلحّ.

قال حين رحل: «لقد قمتُ بواجبي. أنتما حرّان».

بعد وقت قصير أرسل إلينا قطعتي جبن، وسلة رمان، وكمية من الزبيب والتين، ودمجانة راكي. قال خادمه وهو ينزل الحمولة عن حماره الصغير:

«مع تحيات القبطان مافراندوني. لقد طلب مني أن أخبركما أنّها ليست في قيمتكما، ولكنّها رسالة خير».

حيّينا كبير القرية بمودة وإسهاب.

«أدعو لكما بطول العمر»، قالها وهو يضع يده على صدره. ثم صمت.

تمتم زوربا: «إنه لا يحب أن يتحدث كثيرًا. العكّاز العجوز».
قلت: «إنه متباه. ولكنّني أحبّه».
كنا قد وصلنا. وكان منْخَرَا زوربا يرتعشان بسعادة. حالما رأتنا السيدة هورتانز على العتبة أطلقت صرخة وجرت إلى المطبخ.
وضع زوربا الطاولة في الساحة تحت عريشة الكرمة العارية من الأوراق. قطع قطع الخبز السميكة، أحضر النبيذ ورتّب الطاولة. ثمّ نظر إليَّ مداورة وبمكر أشار إلى المائدة. فقد رتّبها لثلاثة أشخاص!
همس: «أترى يا رئيس؟»
أجبت: «نعم، أرى، أيها العجوز المتهتّك!»
قال وهو يلعق شفتيه: «إن الدجاجة العجوز هي التي تصنع المرق الطيّب. خذها مني».
تحرّك برشاقة وعيناه متوقدتان. ترنّم بأغاني حب قديمة.
«هكذا يجب أن نعيش، أيها الرئيس. استمتع بوقتك والدجاجة أمامك. وكما ترى، أنا أقوم بالأمور الآن كما لو أنني سأموت في اللحظة التالية. وأنا أقوم بها بسرعة، وهكذا لا أموت قبل أن أحصل على الدجاجة».
وهتفت السيدة هورتانز آمرة:
«إلى الطاولة!»
رفعت القدر ووضعته أمامنا. ولكنها وقفتْ وهي تلهث. كانت قد لمحت الصحون الثلاثة. فنظرتْ إلى زوربا محمرّةً من الخجل ورفّتْ بعينيها الصغيرتين الحادّتين والزرقاوين.
همس زوربا: «إنها ترتدي شورتًا ضيّقًا!»
ثم التفت إلى السيدة، باحترام بالغ وقال:
«يا حورية الأمواج الجميلة، لقد غرقتْ سفينتنا وقذفنا البحر في مملكتك. شرّفينا يا سيّدة البحار بمشاركتنا وجبَتنا!»
فتحت مغنية الكباريه العجوز ذراعيها وأطبقتهما ثانية كما لو أنها

twitter @baghdad_library

تودّ أن تعانقنا نحن الاثنين. تأرجحت برشاقة، حفت بي وبزوربا ثم ركضت ضاحكة إلى غرفتها. عادتْ حالاً وهي ترتعش مزدهية بمفاتنها ومرتدية أحسن ثياب لديها. كانت ترتدي فستانَ مخملٍ لمّاعًا قديمًا، مزيّنًا بشريط أصفر متآكل. صدارها مفتوحٌ بشكل مضيافٍ وعليه ثبّتت بدبّوس زهرة اصطناعيّة متفتّحة بشكل كامل. وتحمل بيدها قفص الببغاء الذي علّقته على عريشة الكرمة.

أجلسناها بيننا، زوربا على يمينها وأنا على يسارها.

أكلنا ثلاثتنا بنهم. لم نتفوّه بكلمة لوقت طويل. كنّا نغذّي الوحش ونطفئ ظمأه بالنبيذ. تحوّل الطعام حالاً إلى دم، صار العالم أجمل، وكانت المرأة إلى جانبنا تتحوّل شابّة مع كل دقيقة، وتجاعيد وجهها تختفي. أما الببغاء المعلق أمامنا في سترته الخضراء ونطاقه الأصفر، فقد مال إلى الأمام لكي يراقبنا. بدا كشخص صغير غريب ومسحور، أو كروح مغنيّة الكباريه العجوز بثيابها الخضراء والصفراء. وفوق رؤوسنا امتلأت الدالية فجأة بمجموعات كبيرة من العناقيد السوداء.

كانت عينا زوربا تدوران، فتح ذراعيه وكأنه يريد أن يعانق العالم كلّه.

صاح مندهشًا: «ما الذي يحدث أيّها الرئيس، نحتسي كأسًا صغيرًا من النبيذ فيدور العالم بجنون. آه، أيّها الرئيس، إن العالم غريب وعجيب! بشرفك، هل أنّ ما يتدلّى فوق رؤوسنا عناقيد عنب أم ملائكة؟ لا أعرف. ربّما هي لا شيء على الإطلاق، وربّما لا يوجد شيء أصلا، لا الفروج، ولا عروس البحر، ولا كريت! تكلّم، أيّها الرئيس، تكلّم، كي لا أفقد عقلي!»

دبّتْ الحيوية في زوربا. كان قد انتهى من الفروّج وبدأ ينظر إلى السيدة هورتانز بشهوانية. كانت عيناه تلتهمانها؛ نظرتا إليها من أعلى إلى أسفل، انزلقتا إلى صدرها المنتفخ وشرعتا تجسّانه وكأنّهما يدان. كانت عينا سيّدتنا الصغيرتان بدورهما تبرقان، أحبّتْ النبيذ وأفرغتْ منه عدة كؤوس. فقد أعادها الشيطان الشرير الذي في النبيذ إلى الأيام الجميلة

القديمة. هي ذي مرة أخرى رقيقة ومرحة وصريحة. نهضت وأوصدت الباب الخارجي كي لا يراها القرويون «البرابرة» كما تعوّدت أن تسمّيهم. أشعلت سيجارة، وبدأت تنفث أكاليل الدخان من أنفها الفرنسي الخانس.

في أوقات كهذه تُفتح أبواب وجود المرأة كلّها. ينام الحراس وتكون الكلمة اللطيفة قوية كالذهب أو الحب. وهكذا أشعلت غليوني وتفوّهتُ بكلمة لطيفة.

« سيدة هورتانز، إنك تذكّرينني بسارة برنهارت... حين كانت شابة. لم أتوقع أن أجد رشاقة كهذه، جمالاً ولطفًا، في هذا المكان البريّ. أي شكسبير ذاك الذي أرسلك بين البرابرة هنا؟»

تساءلَتْ، فاتحةً عينيها الصغيرتين الشاحبتين إلى آخرهما:

«شكسبير؟ أي شكسبير؟»

طار ذهنها عائدًا بسرعة إلى المسارح التي أمّتها. وفي رفة هدب، قامت برحلة في حفلات المقاهي، الكباريهات والحانات من باريس إلى بيروت، ومن هناك على طول ساحل الأناضول. فجأة تذكرت. كان هذا في الإسكندرية: مسرح كبير بثريّات، مقاعد فاخرة، رجال ونساء، ظهور عارية، عطور، أزهار. وفي الحال رُفعت الستارة وظهر رجل أسود مخيف...

سألَتْ ثانيةً بفخر، بعد أن تذكّرتْ: «أي شكسبير. أهو الذي يدعونه أيضًا عطيل ؟»

«هو نفسه. أيّ شكسبير، يا زنبقتي البيضاء، رماك على الصخور الوحشية؟»

نظرت حولها. الأبواب مغلقة، الببغاء نائم، والأرانب تتزاوج، كنا وحدنا. تأثرتْ وبدأت تفتح قلبها لنا مثلما تفتح صندوقا قديما، مليئا بالتوابل، ورسائل الحب المصفرة، والفساتين النادرة.

تحدثت اليونانية على الموضة، وهي تلحن في الكلمات وتمزج المقاطع اللفظية. ومع ذلك كنا نفهمها بشكل كامل. أحيانًا تعترضنا صعوبات

twitter @baghdad_library

كبيرة في قمع ضحكنا، و في أحيان أخرى -وكناً قد شربنا أكثر من اللازم- تفيض أعيننا بالدموع...

«حسبنًا، إن المرأة التي تنظرون إليها الآن لم تكن أبدًا مطربة حانات، كلا، آه! كنتُ فنانة مشهورة وارتديت ألبسة داخلية من الحرير بمخرّمات حقيقيّة. ولكن الحب...»

تنهّدت بعمق وأشعلت سيجارة أخرى من زوربا.

«لقد أحببتُ أميرالاً. نشبتْ ثورة في كريت مرة ثانية ورست أساطيل القوى العظمى في ميناء سودا. وبعد بضعة أيام رسوتُ هناك. آه، أية روعة! كان يجب أن تشاهدا الأميرالات الأربعة: الإنكليزي، والفرنسي والإيطالي والروسي. أشرطة ذهبية، أحذية جلد لمّاعة وقبّعات مريّشة، كديوك. ديوك كبيرة يمتدّ وزن كلّ منها من اثني عشر حجراً [1] إلى خمسة عشر. واللّحى! لحىً مجعّدة، حريرية، داكنة، جميلة، شائبة، حمراء. كم كانت رائحتها طيبة! لكلّ منها عطره الخاص. وقد استطعتُ أن أميز بينها في الظلام. فاحت إنكلترا برائحة الكولونيا، فرنسا بالبنفسج، وروسيا بالمسك، وإيطاليا، آه، إيطاليا كانت مغرمة بعطر البتشول. يا إلهي، أية لحى، أية لحى تلك التي كانت!

«غالبا ما كنّا نجتمع في سفينة الأميرال، ونتحدّث عن الثورة، هم في بدلاتهم غير المزرّرة وأنا في فستاني الحريريّ الملتصق بجسمي جرّاء إغراقهم له في الشمبانيا. كان ذلك في الصيف. كنّا نتحدّث عن الثورة، نتبادل حديثًا جديًّا، فأمسكُ بلحاهم وأترجّاهم ألا يقصفوا الكريتيين المساكين الأعزاء. نعم لقد رأيتهم عبر المنظار على صخرة قرب كانيا. فبدوًا صغارًا، في غاية الصغر، كنمل ببنطلونات زرقاء وأحذية صفراء، وهم يواصلون الصياح، حاملين الراية...».

سمعنا حركة في الخيزران المحيط بالساحة. توقفت المحاربة العجوز، مرعوبة. كانت عينان شريرتان صغيرتان تومضان بين الأوراق. لقد أحسّ

(1) الحجر وحدة وزن بريطانية تعادل 14 باونداً أو 6,3 كيلوغرامات.

فتيان القرية بأننا نقيم وليمة وكانوا يتجسّسون علينا.

حاولت مغنّية الحانة أن تنهض على قدميها، لكنها لم تستطع. كانت قد أفرطتْ في الطعام والشُرب، فعاودت الجلوس. التقط زوربا حصاة ورماها فتفرّق الفتيان صارخين.

قال زوربا مقرِّبًا كرسّيه منها: «تابعي يا حسنائي! تابعي، يا كنزي!»

«وهكذا قلتُ للأميرال الإيطالي - كنت أعرفه أكثر من الآخرين- وقد أمسكتُ لحيته: يا كانفارو -هذا كان اسمه- أرجوك يا حبيبي الصغير كانفارو، لا تقصفهم! لا تقصفهم!»

«كم مرة أنقذت المرأة التي تراها هنا في هذه الساحة الكريتيين من الموت! كم مرة كانت المدافع جاهزة وملقّمة وكنت أمسك لحية الأميرال ولا أسمح له بالقصف! ولكن أي شكر سبق وتلقيته من أجل هذا؟ انظر ماذا أتلقى بدلاً من الأوسمة...»

كانت السيدة هورتانز غاضبة من عدم امتنان البشر. ضربتْ الطاولة بيدها المجعّدة الناعمة. مدّ زوربا يده المدرّبة فوق ركبتيها المنفرجتين وأمسكهما، وقد حملته عاطفة تظاهر بها، وصاح:

«يا بوبولينتي[1] . رجاءً توقفي عن القصف!»

قالت سيدتنا الطيبة، وهي تبتسم: «أنزل يديك! من تظنّني؟» ثم خصّته بنظرة واهنة.

قال الفاسق المحترف: «هناك إله في السماء. لا تزعجي نفسك يا بوبولينتي. نحن هنا، يا حبيبتي، لا تخافي».

رفعتْ عروس البحر العجوز عينيها الزرقاوين الحادّتين نحو السماء حيث رأت ببغاءها الأخضر نائمًا في قفصه.

قالت بغرام: «كانفارو، كانفارو الصغير!»

فتح الببغاء عينيّه وقد عرف صوتها، أمسك بقضبان القفص وبدأ يصيح بالصوت الأجش لرجل غريق: «كانفارو، كانفارو!»

(1) بوبولينا: بطلة من أبطال حرب الاستقلال (1821 – 1828). قاتلت ببسالة في البحر.

twitter @baghdad_library

«إنه حاضر!» صاح زوربا، واضعًا مرة أخرى يديه على تلك الركبتين المكتهلتين اللتين شهدتا الكثير من الخدمة، وكأنه في هذه المرة يريد أن يمتلكهما. تلوّت مطربة الحانة العجوز في كرسّيها وفتحتْ ثانية شفتيها الصغيرتين المغضّنتين مجدّدا.

«أنا أيضًا صارعتُ بشجاعة صدرًا لصدر...ولكن الأيام السيئة أتت. حُرِّرتْ كريت، تلقّتْ الأساطيل الأوامر بالرحيل. فما الذي سيحدث لي؟ قلتُ، ممسكة اللحى الأربع. أين ستتركونني؟ لقد تعودت على العظمة، على الشمبانيا والفرّوج المشوي؛ تعوّدتُ على البحّارة الصغار الأنيقين الذي يقدّمون لي التحية ؛ سأصبح أرملة أربع مرات! ما الذي سيصير إليه حالي يا لورداتي وأميرالاتي؟

«آه، ضحكوا فحسب - هؤلاء رجال لك! قالوا لي ثمّ منحوني الكثير من الباوندات الإنكليزية والإيطالية، والروبلات والنابليونات[1]. حشوت بها جواربي وصداري وحذائي. وفي المساء الأخير بكيت وانتحبتُ كثيرًا حتّى أن الأميرالات أشفقوا عليّ. ملؤوا المغطس بالشمبانيا، غمسوني بها - كانت العلاقة حميمة آنذاك - وشربوا الشمبانيا من المغطس على شرفي. ثملوا وأطفأوا الأضواء...

«في الصباح استطعت أن أشم عطور الجميع في كل واحد منهم: البنفسج، والكولونيا، والمسك والبتشول. القوى العظمى الأربع: إنكلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا. لقد أمسكتُ بهم هنا، على ركبتيّ، وكنتُ أفعل بهم هكذا...»

رفعتْ السيدة هورتانز ذراعيها الصغيرين الممتلئين وحركتهما إلى الأعلى والأسفل، وكأنها تهدهد طفلاً في حضنها.

«هكذا! هكذا!»

«حين بزغ الفجر بدأوا يطلقون النار من بنادقهم. أحلف بشرفي، أطلقوا النار من بنادقهم، وجاء قارب أبيض باثني عشر رجلاً من أجل

(1) النابليون: عملة فرنسية (1814) تساوي عشرين فرنكاً.

نقلي ووضعي على الشاطئ».

أخرجت منديلها الصغير وبدأت تبكي، دون عزاء.

صاح زوربا منتشيًا: «يا بوبولينتي، أغمضي عينيك، أغمضي عينيك، يا كنزي. أنا كانفارو!»

ابتسمت سيدتنا الجيدة ابتسامة متكلّفة وقالت: «أنزل يديك. انظر إلى نفسك فحسب! أين الشارات الذهبية، القبعة ذات الزوايا الثلاث، اللحية المعطّرة؟ إيه، حسنًا إذن...»

ضغطت برقّة على يد زوربا ثم بدأت تبكي مرة أخرى.

صار الجوّ أكثر برودة. صمتنا لوهلة. كان البحر يتنهد خلف الخيزران. وأخيرًا هدأ. توقفت الريح، وغابت الشمس كي تستريح. عبرت بعض الغربان فوق رؤوسنا وصفقت بأجنحتها وكأن قطعة من الحرير قد مُزّقتْ، ولنا أن نتخيّل أنّه الثوب الحريري لبوبولينا الطيبة.

خيّم ضوء المساء كرشاش من الغبار الذهبي فوق الساحة. اشتعلت الشفتان الغريبتان للسيدة هورتانز وارتعشتا في النسيم المسائي وكأنهما أرادتا أن تطيرا وتحملا النار إلى رؤوس جيرانها. سقط الضوء الذهبي على صدرها نصف العاري، وركبتيها المنفرجتين اللتين سمنتا مع مرور الزمن، والخطوط التي في عنقها، وحذائها اللمّاع المهترئ.

ارتجفتْ السيّدة العجوز. مغمضة عينيها الصغيرتين، المحمرّتين من البكاء والنبيذ، نظرتْ إليّ أولاً ، ثم إلى زوربا، كانت شفتاه ظامئتين، وكان مسحورًا بصدرها. نظرتْ إلى كلّ منا نظرةَ تساؤل، محاولة أن تعرف مَنْ منّا كانفارو.

قال زوربا بهيام، فيما كان يضغط ركبته على ركبتها: «يا بوبولينتي، لا تقلقي، لا يوجد إله ولا شيطان. ارفعي رأسك الصغير، أريحي خدك على يدك وغنّي لنا أغنية. ليذهب الموت إلى الجحيم!»

كان زوربا مهتاجًا. فتل شاربه بيده اليسرى وطافتْ اليمنى فوق

twitter @baghdad_library

المغنيّة الثملة. كلماته بلا نفَس، وعيناه واهنتان. أكيد أنه لم يكن يرى أمامه تلك المرأة المومياء المتبرجة بإفراط، وإنما «النوع الأنثوي» كلّه، كما كان يسمّي النساء. اختفى الفرد، مُحيت الملامح، سواء كانت فتيّة أو كهلة، جميلة أو قبيحة. كانت تلك مجرد تنويعات غير هامة. فخلف كل امرأة يصعد الوجه الغريب المقدس والغامض لأفروديت.

كان هذا هو الوجه الذي يراه زوربا ويتحدث معه، ويرغب فيه. لم تعد السيدة هورتانز سوى قناع عابر شفاف مزّقه زوربا كي يقبّل الفم الأبدي.

«ارفعي عنقك الأبيض كالثلج، يا كنزي!» كرّر بصوته اللاهث المتوسّل. «ارفعي عنقك الأبيض كالثلج وغنّي لنا أغنية!»

أراحتْ المغنية العجوز خديها على يدها الممتلئة، والمتشققة من غسل الثياب؛ وقد ارتخت نظراتها. وأطلقتْ صرخة وحشية كريهة، ثم بدأت أغنيتها المفضلة «ما نفع اللقاء بك حين يولّي العمر» وكرّرتها عدة مرات فيما كانت تحدّق في زوربا بعينين واهنتين نصف مغمضتين، كانت قد قامت بخيارها مسبقًا.

قفز زوربا، ذهب إلى سنتوره، جلس على الأرض على الطريقة التركية، أخرج السنتور، ركزه على حضنه ومد يديه الكبيرتين.

وبدأ: «آه، آه! تناولي السكّين واذبحيني يا بوبولينا!»

حين بدأ الليل يخيّم، حين دار نجم المساء في السماء، وتصاعد صوت السنتور المسكر محرضًا أهداف زوربا، اتكأت السيدة هورتانز المحشوة بلحم الفروج والأرز واللوز المشوي والنبيذ، بكلّ بثقلها على كتف زوربا وتنهدت. حكّت نفسها بلطف بجانبيه العظميّين، ثمّ تثاءبت وتنهدت من جديد.

أشار زوربا إليّ وخفض صوته.

همس: «إنها في المزاج الملائم يا رئيس. كن صديقًا واتركنا وحدنا!»

- 4 -

في الصباح فتحتُ عينيّ فشاهدت زوربا يجلس قبالتي على طرف سريره وقدماه مثنيّتان؛ كان يدخّن مستغرقًا في تأمل عميق. وعيناه الصغيرتان المستديرتان تركزان على النافذة المروحية التي أمامه، وقد صبغها ضوء النهار الأول بالأبيض الحليبي. كانت عيناه منتفختين تماما وعنقه الطويل، العاري ممتدًا كعنق طائر صيد.

في المساء السابق نمتُ باكرًا، تاركًا إياه وحده مع الجنيّة العجوز.

قلت: «أنا ذاهب. متّع نفسك يا زوربا، حظًّا جيّدا!»

أجاب زوربا: «تصبح على خير أيها الرئيس. دعنا ننهي قضيتنا الصغيرة. عمت مساءً. نم جيّدًا، يا رئيس».

لقد حلاّ على ما يبدو مسألتهما الصغيرة، ذلك أنني سمعتُ أثناء نومي غزلاً مكتومًا، وقد اهتزّت الغرفة المجاورة وارتعشت لبعض الوقت. ثم غلبني النعاس مرة ثانية. وبعد منتصف الليل بوقت طويل، دخل زوربا حافيًا وتمدّد على سريره بهدوء كي لا يوقظني.

وها هو في الضوء الأول يحدق في المسافة بعينيه الباهتتين. كان ما يزال تحت تأثير نوع من الخدر، إذ لم يكن صدغاه قد تحررا بعد من النوم. كمن استسلم في هدوء وسلبيّة لمدّ داخليّ عسليّ المذاق.. كان عالم التراب كلّه، والماء، والأفكار والرجال يندفع ببطء نحو بحر بعيد، وكان زوربا يندفع معه بعيدًا، دون مقاومة، دون تشكيك، وهو سعيد.

بدأت القرية تستيقظ. سُمع صياحٌ مشوّش للديكة، والخنازير والحمير والبشر. أردتُ أن أقفز من سريري وأصيح: «هيا يا زوربا! لدينا عمل نقوم به اليوم!». ولكنّني شعرتُ أنا أيضًا بسعادة كبيرة في الاستسلام

twitter @baghdad_library

بصمت لتحوّل الشروق الوردي. ففي تلك اللحظات السحرية تبدو الحياة كلّها خفيفة كالفجر. تغيّر الأرض شكلها في الريح باستمرار، كسحابة ناعمة ومنتفخة.

مددتُ ذراعي؛ شعرتُ أنا أيضًا برغبة في التدخين. تناولت غليوني. نظرتُ إليه بودّ. كان غليونًا كبيرًا وثمينًا، مصنوعًا في إنكلترا. وهو هدية من صديقي صاحب العينين الخضراوين المائلتيْن إلى البنيّ والأصابع النحيلة المميّزة. حدث هذا في الخارج، منذ سنين. أذكر ذلك المساء كان على أهبة المغادرة إلى اليونان بعد أن أنهى دراسته. قال: «أقلع عن تدخين السجائر. تشعل واحدة، تدخّن نصفها وترمي ما تبقى. إنّ حبك يستمر للحظة فحسب. وذلك عيب. من الأفضل أن تدخّن الغليون. إنه كالزوجة المخلصة. حين تعود إلى الوطن، سيكون هناك، ينتظرك بهدوء. ستشعله وتراقب الدخان يعلو في الجوّ وستتذكّرني!»

كان الوقت ظهرا. وكنا نغادر متحف برلين، حيث ألقى نظرة أخيرة على لوحته المفضلة: «المحارب» للفنان رامبرانت، بخوذته البرونزية، وخدّيه الضامرين وتعبيره الكئيب العاكس لقوة الإرادة. تمتم وهو يحدّق إلى المحارب اليائس الذي لا يُقهر: «إذا حدث وأدّيت في حياتي فعلاً جديرًا بالإنسان، فأنا مدين له به ».

كنا في ساحة المتحف، نتكئ على عمود. وأمامنا تمثال برونزي لأمازونية عارية، تمتطي حصانًا بريًا برشاقة لا توصف. حطّ طائر رمادي صغير، يُدعى الذّعرة، للحظة على رأس الأمازونية، ثمّ استدار نحونا، رافعًا ذيله، مطلقًا صرخة ساخرة مرتين أو ثلاثًا، وطار بعيدًا.

ارتجفت، نظرتُ إلى صديقي وسألته: «هل سمعتَ ذلك الطائر؟ بدا كأنّه يقول لنا شيئًا، ثم طار مبتعدًا».

ابتسم صديقي وقال مقتبسًا بيتًا من أنشودة شعبية:

«إنه طائر، دعه يشدو؛ إنه طائر، فدعه يتكلم»

كيف حدث في هذه اللحظة، عند بزوغ الفجر، وعلى هذا الساحل الكريتي، أن تتاهت ذكرى كهذه إلى رأسي، مع ذلك الشعر الشجِيّ، وملأتْ نفسي بالمرارة؟

حشوتُ غليوني ببعض التبغ ببطء وأشعلته. لكلّ شيء في هذا العالم معنى خفيّ، هكذا قلت لنفسي. البشر والحيوانات والأشجار والنجوم، كلّها كتابات هيروغليفية؛ الويل لكلّ من تسوّل له نفسه أن يبدأ بفك شفرتها ومعرفة ماذا تعني... حين تراها، لا تفهمها. تعتقد أنهم حقًّا بشر، حيوانات، أشجار، نجوم. وفقط بعد سنوات، وفي وقت متأخر جدًا، تفهم...

المحارب الذي يرتدي خوذة من البرونز، صديقي المتكئ على عمود، طائر الذُّعرة وما قاله لنا، البيت من الأنشودة الكئيبة، كل هذا يمكن أن يكون له معنى خفيّ، هكذا أفكّر اليوم، ولكن ما الذي يمكن أن يكونه؟

تبعتْ عيناي الدخان وهو يلتفّ ويتحلّل في الضوء المنقّط. امتزج ذهني بالدخان وتلاشى ببطء في أكاليل سماوية. وبعد فاصل طويل، ومن دون أية عودة إلى المنطق، استطعتُ أن أرى بيقين كامل كيف ينشأ العالم وكيف ينمو وكيف يختفي. كنت قد انغمستُ مرة أخرى في بوذا، ولكن هذه المرة دون الكلمات الخادعة وألعاب الذهن البهلوانية الوقحة. إن هذا الدخان هو جوهر تعاليمه، تلك الدوائر المتلاشية هي الحياة التي تأتي بفقدان الصبر لتبلغ النهاية السعيدة في النرفانا السماوية اللون...

تنهدت بهدوء. وكما لو أن هذه التنهيدة أعادتني إلى اللحظة الحالية، نظرتُ حولي وشاهدت الكوخ الخشبي البائس، كانت هناك مرآة صغيرة معلقة على الحائط جعلتها أشعة الشمس الأولى تقدح بالشرر. وقبالتي، كان زوربا يجلس على فراشه، يدخن، مديرًا ظهره لي.

فجأة ومض اليوم السابق في ذهني، بحظوظه المأسوية/الكوميدية، رائحة عطر البنفسج الفائحة، الكولونيا، المسك، والبتشول؛ والببغاء، آه من ذلك الببغاء لكأنّه كائن بشري ممسوخ، يخبط بجناحيه على

twitter @baghdad_library

القضبان الحديدية لقفصه، مناديًا اسم عاشق سابق؛ وسفينة مكتهلة، هي ما تبقى من أسطول كامل، يروي حكاية معارك بحرية قديمة...

سمع زوربا تنهيدتي، هزّ رأسه ونظر حوله.

تمتم: «لقد تصرّفنا على نحو سيّئ أيّها الرئيس. لقد ضحكت، وهكذا فعلتُ أنا، والمسكينة تنظر إلينا. ثمّ غادرتَ، دون أية كلمات رائعة، كما لو أنها حقيبة قديمة عمرها ألف عام. يا للعار! إنّ هذا يخلو من اللباقة أيها الرئيس! ليست هذه الطريقة التي يتصرّف بها الرجل. إنها امرأة في النهاية، أليس كذلك؟ كائن ضعيف كثير التشكّي. كان عملاً جيدًا أنني بقيتُ كي أعزّيها».

أجبت: «ولكن ما الذي تعنيه يا زوربا؟ أتظن أنّ النساء كلهنّ لا يشغل ذهنهنّ إلا هذا؟».

» نعم، أيها الرئيس، لا يشغل أذهانهن شيء آخر. أصغ إليّ، الآن... فقد عاشرت الأنواع كلّها، وجرّبت الأشياء جميعها... ليس للمرأة شيءٌ آخر في رأسها. إنها كائن مريض، وكثير التشكّي، كما أقول لك. إذا لم تقل لها إنك تريدها وتحبّها، تبدأ بالبكاء. ربما لا تريدك مطلقًا، ربما تقرفها، وربما لو قلت لها شيئا تقول لا. هذه قصة أخرى. ولكن جميع الرجال الذين يشاهدونها يجب أن يرغبوا فيها. هذا ما تريده، الكائنة المسكينة، وهكذا عليك أن تحاول لِتَسُرّها!

«كان لديّ جدّة، كانت في الثمانين من عمرها. أية حكاية ستصنع حياة تلك العجوز! لا تشغل ذهنك، هذه أيضًا قصّة أخرى... حسنًا، لا بدّ أنها كانت في الثمانين، تعيش جالسة في الظلّ، ومقابل منزلنا كانت هناك فتاة شابة نضرة كالزهرة... كان اسمها كريستالو. وفي مساء كل سبت، كنّا نحن فتيان القرية نلتقي كي ننعم بكأس، وحين ينعشنا النبيذ. كنا نضع قطفة حبق خلف آذاننا، ويتناول أحد أبناء عمي غيتاره، ونبدأ الغناء. أي حب! أي هيام! خُرنا كالثيران! رغبنا فيها كلّنا، وكل يوم سبت

كنا نذهب كقطيع إليها كي تقوم بالاختيار.

«حسنًا، هل تصدق أيّها الرئيس؟ إنه لغز! في النساء جرح لا يلتئم أبدًا. إن جميع الجراح تندمل ما عدا ذلك الجرح - لا تعد إلى أي من كتبك - إن هذا الجرح لا يندمل أبدًا. لماذا؟ فقط لأن المرأة صارت في الثمانين، ما يزال الجرح ينزف.

«وهكذا كلّ يوم سبت كانت العجوز تجرّ فراشها إلى النافذة، تأخذ مرآتها الصغيرة وتمشط الخصلات الصغيرة من شعر الرأس الذي تبقى لها، وتفرقه بعناية. تنظر حولها بمكر، خشية ألاّ يراها أحد. إذا اقترب أي شخص، ستتراجع إلى الخلف وتنظر كما لو أن الزبدة لن تذوب في فمها، متظاهرة بأنها نائمة. ولكن كيف تستطيع أن تنام؟ كانت تنتظر الأغنية. في الثمانين! أنت ترى أي لغز هي المرأة يا معلّم! إنها الآن فحسب تجعلني أرغب في البكاء. لكنني كنتُ في ذلك الوقت متهوّرًا، فلم أفهم وضحكت للأمر كثيرا. تضايقتُ في أحد الأيام منها. انتقدتني بقسوة لأنني كنتُ ألاحق الفتيات، وهكذا قلتُ لها مباشرة وبشكل وقح: «ماذا تفعلين بحق السماء؟!! لماذا تفركين شفتيك بورق الجوز كلّ يوم سبت، وتفرقين شعرك؟ أفترض أنك تظنين أننا نأتي كي نغنّي لك؟ إننا نلاحق كريستالو. أنت مجرد جثة منتنة!»

«أتصدّق هذا يا رئيس! كان ذلك اليوم المرة الأولى التي عرفتُ فيها ما هي المرأة. انهمرتْ دمعتان من عيني جدتي. التفّت ككلب،وارتجف ذقنها. صحتُ: «كريستالو!» «كريستالو!» مقتربًا أكثر حتّى يمكن أن تسمعني بشكل أفضل. «كريستالو!».. إن الشبان وحوش مفترسة أيّها المعلّم، إنهم غير إنسانيين بالمرّة، ولا يفهمون. رفعتْ جدتي ذراعيها النحيلين إلى السماء وصاحت: «ألعنك من أعماق قلبي!» ومنذ ذلك اليوم بدأت صحتها تتدهور. تدهورت صحتها وبعد شهرين صارت أيامها معدودات. ثم حين كانت في نفسها الأخير رأتني. هسهست كسلحفاة

twitter @baghdad_library

وحاولت أن تمسكني بأصابعها الذابلة.«أنت من قضى عليّ. فلتحلّ عليك اللعنة يا ألكسيس، وتعاني كل ما عانيته!»

ابتسم زوربا.

قال فاتلاً شاربيه: «آه، لقد حلّتْ لعنة الساحرة العجوز عليّ. أنا في الخامسة والستين من عمري، على ما أعتقد، ولكن حتى لو بلغت المائة فإنني لن أتوقّف. سأظلّ أحتفظ بمرآة صغيرة في جيبي، وسأظل أركض وراء الجنس الأنثوي «.

ابتسم مرة أخرى، رمى سيجارته من النافذة، مدّد ذراعيه وقال:

«ارتكبتُ كثيرًا من الأخطاء الأخرى، لكن هذا هو الخطأ الذي سيقتلني».

قفز من سريره، وقال:

«يكفي كلّ هذا. لنوقف الثرثرة. سنعمل اليوم!»

ارتدى ثيابه بسرعة خاطفة، انتعل حذاءه وخرج.

حانيًا رأسي، تأمّلتُ كلمات زوربا، وفجأة تذكّرتُ بلدة بعيدة مقطوعة من كثرة الثلوج. كنتُ أحضر معرضًا لأعمال رودان، وتوقّفتُ كي أنظر إلى يد برونزية ضخمة،«يد الله». كانت تلك اليد نصف مغلقة، وفي راحة اليد كان رجل وامرأة منتشيان يتعانقان ويتصارعان.

جاءتْ فتاة ووقفتْ قربي. نظرتْ هي أيضًا إلى العناق الأبدي المقلق بين الرجل والمرأة وتأثرت به. كانت نحيلة وأنيقة اللباس؛ تمتلك ثروة من الشعر الجميل، ذقنًا جميلاً وشفتين رقيقتين. كرهتُ أن أتبادل الحديث معها، ولكنني لا أعرف ما الذي حثّني كي أستدير وأسأل:

«ما الذي تفكرين به؟»

تمتمتْ باستياء: «لو نستطيع أن نهرب فحسب!»

«وإلى أين نهرب؟ إن يد الله في الأمكنة كلّها. لا يوجد خلاص. هل تأسفين لذلك؟!»

«كلاّ من الممكن أن يكون الحب المتعة الأكثر تواترا على وجه الأرض. من الممكن ذلك. لكنّني الآن إذ أرى هذه اليد البرونزيّة أودّ لو أهرب».

«أ تفضّلين الحرية؟»

«نعم».

«ولكن، ما العمل إذا لم تكن حريتنا إلا حين نطيع تلك اليد البرونزية؟ وإذا لم يكن لكلمة «الله» ذلك المعنى الشائع الذي أسبغته عليها الجماهير؟»

نظرتْ إليّ قلقةً. كانت عيناها كامدتي اللون كمعدن الرصاص وشفتاها جافتين. قالت وهي تبتعد: «لا أفهم». ثمّ اختفت.

لم أفكر فيها أبدًا منذ ذلك الوقت. مع ذلك، أعتقد أنها واصلت حياتها عميقاً في قلبي، واليوم، في هذا الساحل الفارغ، عاودتْ الظهور، شاحبة وكئيبة.

نعم، لقد تصرّفتُ على نحو سيّئ. كان زوربا على صواب. وكانت تلك اليد البرونزية حجّة جيّدة. نجح الاتصال الأول، وتمّ تبادل الكلمات اللطيفة الأولى،وكان بوسعنا تدريجيًا أن نتعانق ونتوحّد دون أن يزعجنا أحد في يد الله. ولكنني انطلقتُ فجأة من الأرض إلى السماء، فأجفلت المرأة وهربَتْ.

كان الديك الكهل يصيح في فناء السيدة هورتانز. وكان ضوء الفجر الأول يمرّ الآن عبر النافذة الصغيرة. فقفزتُ من السرير، وخرجت.

وجدت العمّال وقد بدأوا يتوافدون بمعاولهم وعتلاتهم ومجارفهم. وسمعتُ زوربا يصدرُ أوامره. كان قد دخل في سياق العمل مباشرة،كما يليق برجل محنّك في قيادة الرجال، ويحبّ المسؤولية.

أخرجتُ رأسي من النافذة الصغيرة ورأيته يقف مثل أبله كبير وسط الرجال الثلاثين الغريبين،النحيلين، ضيّقي الخصور، والمسفوعين. كان ذراعه ممدودًا بشكل سلطوي، كلماته موجزة، واضحة. وبعد لحظة

twitter @baghdad_library

أمسك بعنق فتى صغير كان يتمتم ويتقدّم بتردّد. وصرخ:

«يبدو أنّ لديك شيئًا تقوله، أليس كذلك؟ حسنًا، قله بصوت مرتفع! لا أحبّ الغمغمة. يجب أن تكون في المزاج الملائم كي تعمل. إذا لم تكن كذلك، عد إلى الحانة!»

في هذه اللحظة ظهرتْ السيدة هورتانز بشعر مشعّث وخدّين منتفخين. لم تكن متبرّجة، بل كانت ترتدي عباءة متسخة وتسير في خفّ طويل ذي كعب منخفض. سعلتْ السعلة الخشنة للمطربين العجائز، كنهيق الحمار. توقّفتْ ونظرت بفخر إلى زوربا. صارتْ عيناها ضبابيتين. سعلتْ مرة أخرى، كي يلحظ وجودها، ومرّت قريبة منه، مؤرجحة ردفيها بدلال حتّى كادت تلمسه بكمّها العريض. ولكنه لم يستدر لينظر إليها. أخذ قطعة من كعك الشعير وحفنة زيتون من عامل وصاح: «والآن أيها الرجال ارسموا علامة الصليب باسم الله!»، ثم خطا بسرعة وقاد الرجال في صفّ نحل نحو الجبال.

لن أصف ها هنا العمل في المنجم. أحتاج إلى الصبر للقيام بهذا، وأنا لا أمتلك صبرًا. بنينا قرب البحر كوخًا من الخيزران وأغصان الصفصاف وصفائح النفط. كان زوربا يستيقظ عند طلوع الفجر، يمسك بمعوله ويذهب إلى المنجم قبل الرجال، يفتح نفقًا، يهجره، يعثر على عرق فحم متوهج ويرقص من الفرح. ولكن بعد بضعة أيام يضيّع العرق فيقذف نفسه على الأرض رافعًا ساقيه في الجو، وبيديه وقدميه يقوم بإيماءة للسماء متحدّيا.

بدأ العمل. لم يعد يستشيرني. فمنذ الأيام الأولى انتقلت الرعاية والمسؤولية من يديّ إلى يديه. كانت وظيفته إصدار القرارات وتنفيذها. وكانت وظيفتي هي أن أدفع ثمن الجرار المكسورة. وقد لاءمني هذا الترتيب كثيرًا. ذلك أنني أحسستُ أن هذه الأشهر ستكون الأسعد في حياتي. وبعد أن فكّرتُ في كل شيء، شعرتُ بأنني أشتري سعادتي بثمن بخس.

اعتاد جدي من ناحية أمي، والذي كان يعيش في قرية كريتية معتدلة الحجم، أن يأخذ مصباحه كل مساء ويتجول في الشوارع لعله يجد غريبًا قد وصل إلى القرية. كان يأخذه إلى بيته ويقدم له الطعام والشراب بإسراف، بعد ذلك يجلس على ديوانه، يشعل غليونه التركي الطويل، ويستدير إلى ضيفه وقد جاء وقته كي يدفع مقابل الضيافة ويقول بنبرة آمرة:

«تحدّث!»

«عمّا أتحدّث ، يا أب موستويورغي».

» ماذا أنت، من أنت، من أين أتيت، أية بلدات وقرى رأيت؟ كل شيء، أخبرني كل شيء. تكلّم الآن!»

ويبدأ الضيف حديثه عشوائيًا، متفوّهًا بالحقائق والأكاذيب، فيما جدّي، يجلس بهدوء على ديوانه، يدخّن غليونه، ويصغي بلهفة متتبعًا الغريب في أسفاره. وإذا ما أحب الضيف كان يقول له:

«يجب أن تمكث غدًا أيضًا. لن تذهب. ما يزال لديك أمور كي تتحدث عنها».

لم يغادر جدّي القرية أبدًا. لم يذهب حتى إلى كانديا أو كانيا. وكان يقول: «لماذا أذهب إلى هناك. يوجد كانديون وكانيون -لتحلّ البركة عليهم- يمرّون من هنا. إن كانديا وكانيا تأتيان إليّ، فما حاجتي للذهاب إلى هناك؟»

واليوم، وعلى هذا الساحل الكريتي، أواصل هوس جدّي. لقد عثرتُ أيضًا على ضيف بضوء مصباحي. أمنعه من الرحيل. يكلّفني أكثر من عشاء، لكنه يستحق ذلك. أنتظره كلّ مساء بعد العمل، أجعله يجلس قبالتي ونأكل سوية. يأتي الوقت الذي يجب أن يدفع فيه، وأقول له: «تحدّث!» أدخّن غليوني وأصغي. لقد استقصى هذا الضيف الأرض والروح البشرية بشكل كامل. وأنا لا أتعبُ أبدًا من الإصغاء إليه.

«تحدّث يا زوربا، تحدّث!»

twitter @baghdad_library

حين يتحدّث، تنتشر مقدونيا كلّها على الفور أمام ناظري، في تلك الفسحة الصغيرة بيني وبين زوربا، بجبالها وغاباتها وسيولها، ورجال عصاباتها، ونسائها المكافحات ورجالها طِوال القامة والأشداء. وكذلك جبل أثوس بأبرشياته الإحدى والعشرين، وترساناته، وسكّانه الكسالى ذوي الصدور العريضة. سيهزّ زوربا رأسه حين ينهي حكاياته عن الرهبان، مزمجرًا من الضحك: «ليحفظك الله، أيها الرئيس، من مؤخرات البغال ووجوه الرهبان!»

كان زوربا يتنزّه بي كلّ مساء في أنحاء اليونان، وبلغاريا والقسطنطينية. كنتُ أغمضُ عينيّ وأرى. فقد زار أنحاء البلقان المدمّر والمضطرب ورأى كلّ شيء بعينيه الصغيرتين الشبيهتين بعيني الصقر، عينيه اللتين تعوّد فتحهما مذهولا من كلّ بادرة. ذلك أن الأمور المألوفة، التي نعبُرها بلا مبالاة، تنهض فجأة أمام عيني زوربا كألغاز مخيفة. وحين كان يشاهد امرأة عابرة، كان يتوقّف مذعورًا، ويسأل:

«ما هذا اللغز. ما المرأة، ولماذا تجلعنا نلتفت إليها؟ أخبرني فحسب، ما معنى هذا؟»

يستجوب نفسه بالدهشة نفسها حين يشاهد امرأة، شجرة متبرعمة، كأسَ ماءٍ باردًا. يرى زوربا كلّ شيء يوميًا وكأنه يراه للمرة الأولى.

كنا نجلس البارحة أمام الكوخ. حين تناول كأسًا من النبيذ، ثمّ استدار إليّ مذعورًا:

«والآن أخبرني ما هذا الماء الأحمر أيها الرئيس! جِذلٌ قديم تنمو عليه أغصان، وفي البداية لا يوجد شيء سوى عنقود من الحبات الحامضة المتدلية. يمرّ الوقت، تنضجها الشمس، تصبح حلوة كالعسل، ثم تُدعى عنباً. ندوسها؛ نستخرج العصير ونضعه في براميل؛ تتخمّر وحدها، ونفتحها في يوم احتفالية القديس جون الشارب، لقد صارت نبيذًا. إنّها معجزة! تشرب العصير الأحمر، ويا للعجب! تكبر روحك، تكبر متجاوزة

الجثة، وتتحدى الله داعية إياه إلى معركة. والآن أخبرني، أيها الرئيس، كيف يحدث هذا؟»

لم أجبه. شعرتُ، فيما كنتُ أصغي إلى زوربا، أن العالم يستعيد جِدّته البدائيّة. جميع الأشياء اليومية البليدة استعادت الألق الذي كانت عليه في البدء، حين خرجنا من بين يدي الله. فالماء والنساء والنجوم والخبز عادت كلّها إلى أصلها البدائي الغامض وهبّتْ الزوبعة المقدسة مرة أخرى في الجوّ.

لهذا، كنتُ كلّ مساء أستلقي على الحصى، منتظرا زوربا بشوق شديد. وإذ أراه يبزغ فجأة من أحشاء الأرض ويقترب بجسده المتراخي، وخطواته الطويلة، وقد لوّثه الفحم وغطّاه الوحل حتّى بات يشبه فأرة ضخمة، كنتُ أحزر سيرَ العمل في ذلك اليوم. أستشفّ ذلك من هيئة جسده، وطريقته في خفض رأسه أو رفعها ومن حركات ذراعيه الكبيرتين...

في البداية ذهبتُ معه. راقبتُ الرجال. وحاولتُ أن أعيش نمط حياة مختلفًا، أن أهتمّ بالعمل، أن أعرف المادة البشرية التي وقعتْ بين يديّ وأن أحبّها، أن أشعر بالمتعة التي رغبتُ فيها طويلاً وهي التوقف عن التعامل مع الكلمات والانتقال إلى التعامل مع البشر الأحياء. وضعتُ خططاً رومانطيقية- إذا نجح استخراج الفحم الحجري- من أجل تكوين جماعة عمل مشترك يتقاسم أفرادها كلّ شيء، حيث نأكل الطعام نفسه سوية ونرتدي الثياب نفسها، كإخوة. كنت أبدعُ في ذهني نظامًا دينيًا جديدًا، خميرة حياة جديدة.

ولكنني لم أقرّر بعدُ إطلاعَ زوربا على مشروعي. فقد استاء من ذهابي وإيابي بين العمال، سائلاً ومتدخلاً ومنحازا للعامل باستمرار.

كان زوربا يزمُّ شفتيه ويقول:

» أيها الرئيس، ألا تودّ القيام بجولة خارج هذا المكان؟ إنّ الشمس

twitter @baghdad_library

والبحر، هناك رائعان!»

في البداية كنتُ ألحّ ولا أذهب. كنت أطرح أسئلة وأثرثر وأحاول الاطلاع على تاريخ كل عامل: كم لديه من الأطفال في انتظار أن يسدّ رمقهم، ومن الشقيقات في انتظار أن يتزوّجنَ، وكم من الأقرباء العجائز البائسين؛ أحاول الاطلاع على همومهم وأمراضهم وكلّ ما يقلقهم.

وكان زوربا يقول لي متجهّمًا: «لا تغص في تواريخهم هكذا، أيها الرئيس. ستستسلم بقلبك المرهف، وستحبهم أكثر مما هو ملائم لعملنا. وستجد أعذارًا لكلّ ما يفعلونه. ثم، لتساعدنا السماء، سيعملون بتعجّل، ويهملون عملهم. لتساعدهم السماء، أيضًا، من الأفضل أن تدرك هذا. حين يكون الرئيس قاسيًا يحترمه الرجال، ويعملون. وحين يكون متساهلاً، يتركون كل شيء، ويتراخون في العمل. هل فهمتني؟»

في مساء آخر، بعد العمل، رمى معوله في الكوخ وصاح فاقدًا الصبر:

«انظر إليّ، يا رئيس، توقّفْ عن التدخّل. فأنت تدمّر بالسرعة التي أبني بها. والآن ما كُلّ تلك الأمور التي كنت تقولها لهم اليوم؟ الاشتراكية والقمامة! هل أنت واعظ أم رأسمالي؟ يجب أن تقرّر!»

ولكن كيف أختار؟ فقد استهلكتني الرغبة الساذجة بأن أوحّد بين هذين الأمرين: العثور على تركيب تتآخى فيه الأضداد، وربح كل من الحياة الأرضية ومملكة السماوات. كان هذا يجري لسنوات، منذ طفولتي المبكرة. حين كنتُ ما أزال في المدرسة، نظّمت مع أقرب أصدقائي جمعية صداقة سرية - كان هذا هو الاسم الذي أطلقناه عليها- وفي عزلة غرفة نومي أقسمنا أنّنا سنكرّس أنفسنا طوال حياتنا لقتال الظلم. وانهمرت دموع عظيمة على خدودنا آنذاك، ونحن نقوم بالقسم واضعين أيدينا على قلوبنا.

مُثُلٌ صبيانية! ولكن الويل لكل من يضحك حين يسمعها! وحين أرى كيف أصبح أعضاء جمعية الصداقة أطباء دجّالين، ومحامين تافهين، وبقالين، وسياسيين منافقين، ينفطر قلبي. ويبدو لي مناخ هذا العالم

قاسيا فظًّا. ذلك أن البذور الأكثر قيمة لا تتفتّح فيه أو هي تختنق من النبات الطفيلي والقرّاص. أستطيع أن أرى اليوم بوضوح بالغ، فيما يخصّني أنا على الأقل، أن العقل لم يخنقني، والحمد لله! ذلك أنني ما أزال أشعر بالرغبة للانطلاق في رحلات على نمط رحلات دون كيخوتة.

في أيام الأحد، كنا أنا وزوربا نتزيّن بعناية، كما لو أنّنا شابان قابلان للزواج. كنا نحلق ذقنينا، ونرتدي قميصين بيضاوين نظيفين، ونذهب، عصرًا، إلى رؤية السيدة هورتانز. لقد كانت المسكينة تذبح لنا في كل يوم أحد دجاجة؛ وهكذا كنا نجلس ثلاثتنا؛ نأكل ونشرب؛ ومن حين لآخر،كانت يدا زوربا الطويلتان تصلان إلى صدر المرأة اللطيف، المضياف كصاحبته، وتداعبانه. وحين نعود بعد أن يخيّم الليل إلى الجزء الخاص بنا من الشاطئ، كانت الحياة تبدو بسيطة ومليئة بالنوايا الحسنة، تبدو عجوزًا ولكنها مستساغة ومضيافة جدًا على غرار السيدة هورتانز.

وفي أحد أيام الأحد تلك، وفيما كنا عائدين من الوليمة المتكررة، قرّرت أن أحدّث زوربا عن خططي. أصغى، فاغرًا فمه ومجبرًا نفسه على الصبر. ولكنه كان بين فينة وأخرى يهزّ رأسه الكبير غاضبًا. لقد جعلته كلماتي الأولى يصحو، غادرت الأبخرة دماغه فجأة. وحين انتهيتُ، نزع بعصبية شعرتين أو ثلاثاً من شاربه.

«اعذرني من قول هذا أيها الرئيس، لا أظنّ أن دماغك قد تشكّل بعد. كم عمرك؟»

«خمسة وثلاثون».

«إذن، لن يتشكّل أبدًا».

ثم انفجر يضحك حتّى بلغ بي الضيق أشدّه.

قلتُ: «أنت لا تؤمن بالإنسان، أليس كذلك؟»

«لا تغضب أرجوك، أيها الرئيس. كلا، لا أؤمن بأي شيء. إذا آمنتُ بالإنسان سأؤمن بالله، وسأؤمن بالشيطان، أيضًا. وهذا عمل كامل.

twitter @baghdad_library

ستختلط الأمور كلّها حينئذ، يا رئيس، وتسبّب لي الكثير من التعقيدات».

صمتَ، نزع قبعته، حكّ رأسه بعصبية وفتل شاربه من جديد، وكأنه ينوي نتفه. أراد أن يقول شيئًا ما، ولكنه كبح نفسه. نظر إليّ من زاوية عينه؛ ثمّ نظر إليّ ثانية وقرّر أن يتحدّث.

«إن الإنسان وحش»، قال ضاربًا الحصى بعصاه. «وحش عظيم». وسيادتكم لا تدركون هذا. يبدو أنّ كل شيء كان سهلاً بالنسبة إليك، ولكنك تسألني. أقول لك إنه وحش! إذا كنتَ قاسيًا معه يحترمك ويخشاك. إذا كنت لطيفًا معه، يقتلع عينيك.

«حافظ على مسافتك، أيها الرئيس! لا تجعل الرجال جسورين جدًا، لا تنطلق كي تقول لهم نحن متساوون، لدينا الحقوق نفسها، وإلا كن واثقا أنّهم سيدوسون على حقوقك؛ سيسرقون خبزك ويتركونك تموت من الجوع. حافظ على مسافتك يا معلّم، من أجل كل الأشياء الجميلة التي أتمناها لك!».

قلتُ ساخطًا: «ولكن ألا تؤمن بأي شيء؟»

«كلاّ، لا أؤمن بأي شيء. كم مرة يجب أن أكرّر لك هذا؟ لا أؤمن بأي شيء أو بأي شخص؛ أؤمن بزوربا فقط. ليس فقط لأن زوربا هو أفضل من الآخرين؛ إنه وحش كالآخرين! ولكنني أؤمن بزوربا لأنه الكائن الوحيد الذي تحت سلطتي، الوحيد الذي أعرفه. وكلّ ما تبقى مجرد أشباح. أرى بهاتين العينين، أسمع بهاتين الأذنين، أهضم بهذه الأحشاء. كل ما تبقى أشباح. وحين توافيني المنية، سيموت كل شيء. وسيذهب العالم الزوربوي كلّه إلى القاع!»

قلتُ ساخرًا: » يا لها من أنانية».

«لا أستطيع أن أقاوم هذا أيها الرئيس! هكذا هو الأمر. آكل الفول، أتحدّث فولاً؛ أنا زوربا، أتحدّث كزوربا».

لم أقل أي شيء. لسعتني كلمات زوربا كجلدات السوط. أعجبتُ لكونه

قويًا هكذا، يحتقر البشر إلى تلك الدرجة، وفي الوقت نفسه يريد أن يعيش معهم ويعمل.

نظر زوربا إليّ مواربة. ولكنّي استطعتُ أن أرى تحت ضوء النجوم ابتسامتَهُ وقد شقّت وجهَه حتّى أذنيه.

قال متوقفًا فجأة: «هل أسأتُ إليك أيها الرئيس؟» كنا قد وصلنا إلى الكوخ. نظر إليّ زوربا برقة وقلق.

لم أجب. شعرتُ أن ذهني كان متفقًا مع زوربا، ولكن قلبي قاوم، أراد أن يقفز خارج صدري ويهرب من الوحش، كي يشق طريقه الخاص.

قلتُ: «لا أشعر بالنعاس يا زوربا. اذهب أنت إلى النوم».

كانت النجوم تتلألأ، والبحر يتنهّد ويلعق الأصداف، ثمّتَ يراعةٌ تُضيء وتحت بطنها قنديلُها الإيروسي الصغير. وكان شعر الليل مبللاً بالندى.

خفضتُ رأسي، وغرقتُ في الصمت، دون أن أفكر في أي شيء. كنتُ متوحّدًا بالليل والبحر؛ وكانت روحي قد أنارت قنديلها الذهبيّ كاليراعة وجلست على الأرض الرطبة المظلمة، تنتظر.

كانت النجوم تسافر، والساعات تمرّ. وحين نهضتُ كنتُ قد نقشتُ في ذهني –دون أن أدري كيف– المهمة المزدوجة التي عليّ أن أنجزها على هذا الشاطئ:

أن أهرب من بوذا فأخلّص نفسي كلّها وأحرّر ذهني من قلق لا معنى له.

وأن أقيم اتصالا مباشرا وقويّا مع الرجال بدءًا من هذه اللّحظة...

قلتُ لنفسي: «حسنا.. ربّما لم يفت الأوان بعدا».

twitter @baghdad_library

- 5 -

«الجد أناغنوستي المختار السابق، يبلّغكما تحياته ويدعوكما إلى منزله لتناول الطعام. فاليوم سيأتي الخصّاء إلى القرية كي يخصي الخنازير. وبهذه المناسبة، فإنّ كايريا مارروليا، زوجة العجوز ستطبخ لكما «الأعضاء» خصّيصا. يصادف اليوم كذلك عيد ميلاد حفيدهم مينا، وسيسرّه أن تتمنيا له عيد ميلاد سعيدا».

إن الدخول إلى بيت فلاح من كريت لَمُتعةٌ عظيمة. فكل ما يحيط بك يكون أليفا لا محالة: الموقد ومصباح الزيت والطاولة، المقاعد المبعثرة والجرار المصطفّة على الحائط في انتظام.. وإبريق الماء العذب المعلّق على الجدار شمال المدخل، والعوارض الطافحة بعرائش السفرجل والرمّان والنباتات العطريّة من مريميّة ونعناع وفلفل أحمر وحصى بان وزعتر بريّ. نعم كلّ شيء يوحي بالألفة.

وفي نهاية الغرفة ثمّتَ سلّم ببعض الدرجات الخشبية يقود إلى المصطبة المرفوعة، حيث يوجد سرير على دعامة، وفوقه، الأيقونات المقدسة بمصابيحها المشتعلة أبدا. يبدو المنزل فارغًا، ولكنه يحتوي على كل ما هو مفيد، ذلك أن الإنسان الحقيقيّ يكتفي بالقليل من الأشياء.

كان يومًا رائعًا، جعلته شمس الخريف في غاية الرقّة. جلسنا أمام المنزل في حديقة الفلاح الصغيرة، تحت شجرة زيتون محمّلة بالفاكهة. وعبر الأوراق الفضية كان بإمكاننا رؤية البحر وهو يتوهج، هادئًا تمام الهدوء. وكانت سحب بخارية تمر باستمرار أمام الشمس وتجعل الأرض تبدو وكأنّها تتنفّس، حزينة الشهيق، مرحة الزفير، حزينة الزفير، مرحة الشهيق.

وفي نهاية الحديقة الصغيرة، داخل زريبة مقفلة، كان الخنزير

twitter @baghdad_library

المخصيّ يصرخ من الألم صامًا آذاننا، بينما كانت رائحة طبخ كايريا ماروليا على جمار الموقد تصل إلى أنوفنا.

اقتصر حديثنا على الموضوعات الأبدية: محاصيل الذرة، الكرمة، المطر وغيرها. وكنا مرغمين على الصياح أثناء الحديث لأن سمع العجوز كان ضعيفًا. أخبرنا بأنّه كان يملك «أذنا فخورة». وبأنّ حياة هذا الكريتي العجوز مباشرة ومسالمة، كحياة شجرة في وهد مخفيّ. وُلد، وترعرع وتزوّج. أنجب الأطفال وامتدّ به العمر ليرى أحفاده. مات عدد منهم، ولكن الآخرين عاشوا: وتم ضمان استمرارية الأسرة.

شيئًا فشيئًا بدأ العجوز يتذكر الأيام الخوالي، والحكم التركي، وأقوال والده، والمعجزات التي حدثت في تلك الأيام حين كان جنس النساء مؤمنا يخشى الله.

«إليكما، أنا الذي أحدّثكما، العجوز أناغنوسي! كانت ولادتي معجزة. نعم، معجزة! وحين أخبركما كيف حدث الأمر، ستُذهلان. ستقولان ليرحمنا الربّ وتذهبان إلى أبرشية العذراء مريم وتشعلان لها شمعة».

رسم إشارة الصليب، بصوت ناعم وطريقة لطيفة، وبدأ يروي حكايته:

«في تلك الأيام كانت هناك امرأة تركية غنية تعيش في قريتنا - اللعنة على روحها! وذات يوم حملت البائسة بطفل وحان وقت ولادتها. وضعوها على السرير ذي الدعامات وبقيتْ هناك تجأر كعجلة ثلاثة أيام بلياليها. ولكن الطفل لم يخرج. وهكذا قدمت لها إحدى صديقاتها -لتحل اللعنة على روحها أيضًا- نصيحة: تظافر هانم! يجب أن تستدعي الأم ماري من أجل المساعدة! هكذا يدعو الأتراك العذراء. أدعوها من أجل ماذا؟ صاحت تلك العاهرة تظافر. أدعوها؟ أفضّل الموت على ذلك! ولكن آلامها اشتدّتْ. ومرّ نهار آخر وليلة أخرى. كانت ما تزال تجأر، وما زال الطفل مستعصيًا. ما الذي يمكن فعله؟ لم يكن في وسعها تحمّل الآلام.

وهكذا بدأت تنادي بكل طاقتها: أيتها الأم ماري! أيتها الأم ماري! ولكن دون فائدة ذلك أن الآلام لم تتوقّف والطفل لم يخرج. وقالت صديقتها: ربما لا تستطيع أن تفهم التركية! وهكذا صرخت تلك العاهرة: أيتها العذراء الرومية! أيتها العذراء الرومية، اللعنة على الروم! تزايد الألم. قالت صديقتها: أنت لا تنادينها بالطريقة الملائمة، ولهذا لن تجيء. وهكذا بعد أن رأت المومس الوثنية آلامها صاحت حتّى كادت تفجر رئتيها: أيتها العذراء المقدسة ومباشرة انزلق الطفل من رحمها كما ينزلق الثعبان خارج الطين.

«حدث هذا في أحد أيام الأحد، وفي الأحد التالي عانت أمي من المخاض. تألّمت كثيرا هي أيضًا تلك المسكينة البائسة. كانت تتألّم وتصرخ: أيتها العذراء المقدسة! أيتها العذراء المقدسة! ولكنها لم تبلغ الخلاص. كان أبي يجلس على الأرض وسط الفناء. لم يستطع تناول الطعام أو الشراب بسبب معاناتها. لم يكن مسرورًا مطلقًا من العذراء المقدّسة. وكما ترى، في المرة الأخيرة التي نادتها فيها العاهرة تظافر حطّمت العذراء المقدسة عنقها كي تأتي وتجعلها تنجب. ولكن الآن... حين جاء اليوم الرابع، لم يعد أبي يستطيع السيطرة على نفسه. ودون تردد أخذ مذراته وذهب إلى كاتدرائية العذراء الشهيدة. لعلّها تعيننا! وصل إلى هناك، دخل إلى الكنيسة دون أن يرسم علامة الصليب، كان غضبه عارمًا، أغلق الباب وأرتجه خلفه، وتقدم مباشرة إلى الأيقونة. «انظري هنا أيتها العذراء المقدسة. هنا زوجتي كرينيو، تعرفينها، أليس كذلك؟ ينبغي أن تعرفيها، فهي تحضر لك الزيت كل سبت، وتشعل مصابيحك، زوجتي عانت من آلام المخاض ثلاثة أيام بلياليها وهي تناديك! بالطبع لو كانت العاهرة «تضافر»، إحدى تلك المومسات التركيات، لذهبتِ وحطّمت عنقك من أجلها. ولكن زوجتي كرينيو مسيحية ولهذا صمَمْتِ أذنيك عن سماعها! لو لم تكوني العذراء المقدسة للقّنتك درسًا بقبضة هذه المذراة!»

twitter @baghdad_library

«ودون كثير من اللغط، ودون أن يحني لها رأسه كثيرًا، أدار ظهره لها وكان على وشك الرحيل. ولكن، عظيم هو الربّ، عندها أصدرت الأيقونة ضجة مزعجة كما لو أنها كانت تنشقّ. دعني أخبرك إذا كنت لا تعرف ذلك: إن الأيقونات تصدر ضجة كهذه حين تقوم بالمعجزات. فهم والدي على الفور. رجع ثانية، ركع، رسم إشارة الصليب وصاح: «لقد أذنبتُ بحقك أيتها العذراء مريم وتفوّهتُ بأشياء كثيرة كان يجب ألا تخرج مني، ولكن لننس هذا».

ما إن عاد إلى القرية حتى سمع الأنباء الطيبة.

«ليطيل الله عمره، يا كوستاندي. لقد أنجبتْ زوجتك غلامًا! كان هذا الغلام أنا، أناغنوستي. ولكنني ولدتُ بأذن سمعها ضعيف. ذلك أن والدي، جدّف، كما قلت لكما حين اتّهم العذراء بأنها صماء.

«وهكذا حدث الأمر، أليس كذلك؟ لا بدّ أن العذراء قالت. «حسنًا، انتظر فحسب، سأجعل ولدَك أصمَّ، هذا سيعلّمك كيف تجدّف!».

رسم العم أناغنوستي إشارة الصليب.

قال: «ولكن هذا لا شيء. الحمد لله! كان في وسعها أن تعميني أو تجعلني مجنونًا أو أحدب، بل كان في وسعها -ليحفظنا الله- أن تجعلني فتاة. هذا لا شيء مطلقًا، وأنا أنحني لقداستها!»

ملأ الكؤوس وقال وهو يرفع كأسه: «لتدم نعمتها!»

«نخبك يا عمّ أناغنوستي. آمل أن تعيش حتى سن المائة كي ترى أحفاد أبنائك. «

جرع العجوز كأسه دفعة واحدة، ومسح شاربه وقال:

«هذا يكفي. يجب ألا أطلب الكثير. هذا يكفي. لقد حانت ساعتي. أنا عجوز، يا صديقيّ، أعضائي عاجزة، لا أستطيع – وإن كنت أرغب في ذلك كثيرًا – أن أبذر بذرة من أجل مزيد من الأطفال. وهكذا ما الذي سأفعله بالحياة؟»

ملأ الكؤوس من جديد، سحب من حزامه بعض الجوز والتين المجفّف الملفوف بأوراق الغار، تقاسمها معنا، ثمّ قال:

«لذا منحتُ كلّ شيء أملكه لأبنائي. لقد حلّ بنا البؤس، نعمْ حلّ بنا. ولكنني لا أفتقر إلى شيء. فالله يملك كل ما نحن في حاجة إليه!»

صاح زوربا في أذن العجوز: «يمكن أن يكون لدى الله كل ما نحتاجه يا عم أناغنوستي. يمكن أن يملّك الله، ولكن ليس نحن. إن هذا العجوز الشحيح لا يمنحنا شيئًا!»

وبّخه الشيخ بحدّة: «لا تقل هذا! لا تلمه! إن هذا المسكين يعتمد علينا هو أيضًا، كما تعلم!»

في هذه اللحظة دخلت الجدة أناغنوستي بصمت وخضوع حاملة الطبخة المحتفى بها في صحن فخّاري، ومعها إبريق كبير مليء بالنبيذ. وضعتهما على الطاولة وبقيت واقفة بيدين مشبوكتين وعينين منخفضتين.

شعرتُ ببعض المقت من اضطراري لتذوق هذه المقبلات، ولكن من ناحية أخرى، لم أمتلك الجرأة على الرفض. كان زوربا يراقبني من زاوية عينه ويستمتع بعدم ارتياحي.

قال مؤكّدا: «إنه أطيب صحن يمكن أن ترغب فيه أيها الرئيس. لا تكن موسوسًا».

ضحك العجوز أناغنوستي ضحكة خفيفة.

«في الواقع هذه هي الحقيقة، جرّبه واكتشف بنفسك. إنه يذوب في الفم! حين زار الأمير جورج -باركه الله- الدير هناك على الجبل، حضّر له الرهبان وليمة ملكية على شرفه، وقدّموا اللحوم للجميع ما عدا الأمير، الذي قُدّم له صحن مليء بالحساء. تناول الأمير ملعقته وبدأ يحرك حساءه وسأل مندهشًا: ما هذه الفاصولياء. إنها حبوب فاصولياء بيضاء، أليس كذلك؟ قال له رئيس الدير العجوز، ضاحكًا: جرّبها يا صاحب السيادة. جرّبها وسنتحدث عنها فيما بعد. تناول الأمير ملعقة،

twitter @baghdad_library

اثنتين، ثلاثاً، أفرغ الصحن ولعق شفتيه. قال: ما هذا الصحن الرائع؟ يا لها من فاصولياء طيبة! إنها طيبة كالأدمغة! أجاب رئيس الدير ضاحكا: إنها ليست أدمغة يا صاحب السموّ. وهي ليست فاصولياء! لقد خصينا ديكة الحي كلّها!».

غرز العجوز شوكته في لقمة أخرى وهو يزأر من الضحك.

قال: «صحن ملائم للأمراء. افتح فمك».

ملأ الكؤوس ثانية وشرب نخب حفيده، وقد تألّقت عيناه.

سألته: «ماذا تريد لحفيدك أن يصبح يا عم أناغنوستي. قل لنا حتّى نتمنى له».

«ماذا أستطيع أن أتمنى له، يا ولدي؟ أن يسلك الطريق الصحيح، أن يصبح رجلاً مستقيمًا، ربّ أسرة؛ أن يتزوّج هو أيضًا ويكون له أولاد وأحفاد. وأن يشبهني أحد أولاده حتّى يقول العجائز: ألا يبدو مثل العجوز أناغنوستي ـ ليطهّر الله روحه! ـ كان رجلاً جيداً!».

نادى زوجته دون أن ينظر إليها: «المزيد من النبيذ يا ماروليا، املئي الإبريق ثانية!»

في هذه الأثناء استسلمت بوابة السياج الصغيرة لضربة قوية من الخنزير الذي اندفع مُدمدما إلى الحديقة.

قال زوربا بشفقة: «إن هذا يؤذيه، هذا الوحش المسكين!»

قال العجوز الكريتي، وهو يضحك: «بالطبع يؤذيه. لنفترض أنهم فعلوا هذا بك، ألن يؤذيك؟»

تململ زوربا على كرسّيه وتمتم مرعوبًا: «ليُقطع لسانك أيها العمود العجوز الأصمّ!»

ركض الخنزير أمامنا ونظر إلينا بغضب.

قال العم أناغنوستي الذي ارتفعت معنوياته من قطرة النبيذ التي شربها: «أعتقد أنه يعرف أننا نأكل عضوه!»

ولكننا، واصلنا بهدوء وقناعة تناول الطعام والنبيذ الأحمر و كأننا من أكلة لحوم البشر، فيما كنا نحدق عبر الأغصان الفضية لشجرة الزيتون نحو البحر، وقد صبغه الغروب بلوّن القرنفل.

في الغسق غادرنا منزل العجوز. وكان زوربا بعد أن ثمل وارتفعت معنوياته يريد أن يتحدث أيضًا:

«ما الذي كنت تقوله أول أمس، أيها الرئيس؟ كنت تقول إنك تريد أن تفتّح أعين الناس. حسنًا، فقط اذهب وافتح عيني العجوز أناغنوستي! أرأيت كيف كان على زوجته أن تتصرف أمامه، منتظرة أوامره، ككلب يتسوّل؟ اذهبْ الآن فحسب وعلِّمْهم أنّ للنساء حقوقًا مساوية للرجال، وأنّ تناول قطعة من الخنزير بينما ما يزال هذا الحيوان حيًّا يئنّ أمامكَ عمل وحشيٌّ، وإنه لجنون شكر الله لأن لديه كل شيء بينما أنت تتضور جوعًا حتى الموت! أي نفع سيخرج به المسكين أناغنوستي من هرائك التفسيري كلّه؟ ستسبّب له مزيدا من الإزعاج فحسب. وما الذي ستخرج به الأم العجوز أناغنوستي؟ سيكون صبًّا للزيت في النار: ستبدأ المشاجرات العائلية، سترغب الدجاجة بأن تصبح ديكًا، سيحدث شجار بين الطرفين فيتطاير ريشهما...! دع الناس يعيشون أيها الرئيس؛ لا تفتح أعينهم. ولنفترض أنك فعلت هذا، فما الذي سيرونه؟ أبقِ أعينهم مغلقة، ودعهم يحلمون!»

صمتَ للحظة وحكّ رأسه. كان يفكّر.

وأخيرًا قال: «إلا إذا،إلا إذا...»

«إلا إذا ماذا؟ قلها!»

«إلا إذا تمكّنت من فتح أعينهم كي تريهم عالمًا أفضل من الظلمة التي يتخبّطون فيها حاليًا... هل تستطيع؟»

لم أكن أعرف. كنتُ واعيًا تمامًا بما سيُدمّر. ولم أعرف ما الذي سيُبنى على الأنقاض. لا أحد يستطيع أن يعرف هذا بأية درجة من

twitter @baghdad_library

اليقين، على ما أعتقد. إن العالم القديم ملموس وصلب، نعيش فيه ونصارعه في كل لحظة. لأنّه موجود، بينما عالم المستقبل لم يولد بعد، فهو مخادع، وزئبقيّ، مصنوع من ذات الضوء الذي نُسجت منه الأحلام والأخيلة كغيمة تتقاذفها رياح عنيفة: الحب، الكراهية، الخيال، الحظ، الله... لا يقدر أعظم نبيّ على الأرض أن يمنح البشر أكثر من كلمة سرّ، وكلما كانت كلمة السرّ أكثر غموضًا، كان النبيّ أكثر عظمة.

نظر إليّ زوربا بابتسامة ساخرة ضايقتني.

أجبت: «أستطيع أن أريهم عالماً أفضل».

«أتستطيع؟ حسنًا، لنسمع منه!»

«لا أستطيع شرحه؛ لن تفهم».

قال زوربا، هازًا رأسه: «هذا يعني أنه ليس لديك واحدٌ كي تظهره! لا تعتبرني ساذجًا، أيها الرئيس. إذا قال لك أي شخص إنني مغفّل، فهو مخطئ. ربما لا أملك ثقافة أعلى من ثقافة العم العجوز أناغنوستي، ولكنني لست غبيًا مطلقًا! حسنًا، إذا كنتُ لا أستطيع الفهم، ما الذي تتوقعه من المسكين وزوجتِه مغلقةِ الرأس؟ وماذا عن جميع أمثالهم في هذه الدنيا؟ أليس لديك سوى المزيد من الظلمة كي تريها لهم؟ لقد رتبوا أمورهم بشكل جيد حتى الآن؛ لديهما أبناء، وأحفاد. وإذا جعلهم الله صمًّا أو عميانًا، يقولون: الحمد لله! هم مرتاحون لبؤسهم. فدعهم ولا تقل شيئًا».

ولزمنا الصمت. كنّا نعبر حديقة الأرملة. توقف زوربا للحظة وتنهّد، ولكنه لم يقل شيئًا. لا بد أن المطر تساقط. فقد فاحت في الجوّ رائحة ترابية طازجة. بزغتْ النجوم الأولى. كان القمر الجديد يشعّ ناشرا حوله ظلاً رقيقًا من الصفرة المخضرّة. وكانت السماء تطفح بالعذوبة.

قلت في نفسي: «إنّ هذا الرجل لم يذهب إلى المدرسة فلم تنحرف دماغه! عاش التجارب من كلّ لون فانفتح ذهنه واتّسع قلبه أكثر دون أن

يفقد شيئا من شجاعته البدائيّة. المشكلات التي نراها نحن معقّدة وبلا حلّ، يحسمها هو بضربة سيف واحدة مثلما فعل سلفه الإسكندر الأكبر حينما قطع العقدة الغوردية[1]. من الصعب بالنسبة إليه أن يخطئ هدفه، أو يتزحزح عنه لأنّه يستند إلى الأرض بكامل جسده من القدمين إلى أعلى الرأس. إن المتوحشين الأفارقة يعبدون الثعبان لأنّه يلمس الأرض بكلّ جسده فيعرف جميع أسرار العالم. يعرفها ببطنه، بذيله، وبرأسه. يلمسها، ويتّحد بها فيغدو كلاّ واحدا مع الأم. وكذلك كان زوربا. أمّا نحن المفكرين فلسنا سوى طيور فارغة الرأس تحلّق في الفضاء.

كانت النجوم تتكاثر في السماء قاسية، متوحّشة، تحتقر الإنسان ولا تشعر بأيّ شفقة عليه.

توقفنا عن الحديث. كان كلانا ينظر برعب إلى السماء. في كل ثانية يضيء نجم جديد في الشرق وينتشر الحريق.

وصلنا إلى كوخنا. لم تكن لديّ أدنى رغبة في تناول الطعام، فجلستُ على صخرة قرب البحر. أشعل زوربا النار، أكل، همّ بالمجيء والجلوس إلى جانبي، ولكنه غيّر رأيه واستلقى على فراشه ونام.

كان البحر في غاية الهدوء. وتحت زخات النجوم المضيئة كانت الأرض تستلقي صامتة بلا حراك. لم ينبح أي كلب، ولم يصرخ أي طائر ليلي. كان صمتًا مخيّما، خطيرًا، مؤلّفًا من آلاف الصرخات البعيدة الكامنة في أعماقنا إلى حدّ أنّنا لا نسمعها. ولم أستطع أن أميّز سوى نبض دمي في صدغيّ وفي عروق عنقي.

أنشودة النمر! فكّرتُ، وارتجفتُ.

في الهند،حين يخيّم الليل، تُنشد أغنية حزينة ورتيبة بصوت منخفض، أغنية بطيئة وحشية كالتثاؤب البعيد لوحش مفترس،أنشودة

---

(1) عقدة أحكم شدّها غورديوس ملك فريجيا. وقد زعموا أنه لن يحلّها إلا سيّد آسيا المقبل. فلما وصل الإسكندر المقدونيّ في زحفه عبر آسيا الصغرى إلى غورديوم عاصمة فريجيا قطعها بضربة من سيفه عام 333 قبل الميلاد. ومنذئذٍ أصبحت العقدة الغوردية مرادفةً لكل مشكلة لا تُحلّ إلا بعمل حاسم.

twitter @baghdad_library

النمر. يرفرفُ قلبُ الإنسان ويَنشُد مخرجًا فيما هو ينتظر راجفا متوترا.

حين فكّرتُ بتلك الأنشودة المخيفة، مُلئ الفراغ الذي في صدري بالتدريج. عادتْ أذناي إلى الحياة، وصار الصمتُ صرخة. بدا وكأنّ الروح نفسَها نُسجت من الترنيمة ذاتها. فكانت تفلت من الجسد.. تفلت كي تصغي.

انحنيت، وملأتُ راحة كفي بماء البحر، بلّلتُ جبيني وصدغيّ. شعرتُ بالانتعاش. وفي أعماق كينونتي، كان صدى الصرخات يتردد، على نحو مهدِّد، مشوّش، نافد الصبر: بات النمر في داخلي يزمجر.

وفي الحال سمعتُ الصوتَ بوضوح. كان صوت بوذا.

سرتُ بسرعة على حافة الماء، وكأنني أرغبُ في الهروب. ذلك أنني حين أكون وحيدًا في الليل ويسود الصمت، كنت أسمع صوته لبعض الوقت.. في البداية يكون حزينا وشاكيا كترنيمة جنائزيّة ثم يصبح غاضبًا، موبّخًا، وآمرًا. والآن هوذا يرفس داخل صدري كطفل آن أوان خروجه من الرحم.

لا بدّ أنه منتصف الليل. تجمّعتْ سحبٌ سوداء في السماء، قطرات كبيرة من المطر سقطتْ على يديّ. ولكنني لم أكترث. كنتُ منغمسًا في جوّ مشتعل؛ استطعتُ أن أشعر بلسان لهب ينبعث من الصدغين.

اقتنعت وأنا أرتجف بأن الوقت قد حان. فالعجلة البوذية تحملني بعيدًا؛ حان الوقت كي أحرّر نفسي من هذا العبء المعجز.

عدتُ بسرعة إلى الكوخ وأشعلتُ المصباح. حين سقط الضوء على زوربا ارتعش جفناه ففتح عينيه وراقبني وأنا أنحني على ورقة وأكتب. تمتم بشيء ما لم أسمعه، ثمّ استدار بفظاظة في السرير وغرق في الحلم من جديد.

كتبتُ بسرعة، كنتُ على عجلة من أمري. كان بوذا مستعدًا بشكل كامل في داخلي وكان في وسعي رؤيته يخرج من دماغي كشريطة زرقاء

مغطاة بالرموز. كانت تخرج بسرعة وكنت أحاول أن أحاكيها بيأس. كتبتُ؛ صار كلّ شيء بسيطًا، في غاية البساطة. لم أكن أكتب، بل كنتُ أنسخ. كان عالم بأكمله يظهر أمامي، مؤلفًا من العطف والإنكار والجوّ: منازل بوذا، النساء في الحريم، العربة الذهبية، اللقاءات الثلاثة المشؤومة بين العجوز، والمريض، والموت. الهرب، حياة الزهد، الخلاص، إعلان الخلاص. كانت الأرض مغطاة بأزهار صفراء؛ بالشحاذين والملوك وهم يرتدون أردية بلون الزعفران؛ خفّت الأحجار، والأشجار واللحم. وصارت الأرواح بخارًا، والبخار روحًا، والروح لا شيء... بدأتْ أصابعي تؤلمني، لكنني لم أتوقف، لم أستطع. كانت الرؤية تمرّ بسرعة وتتلاشى؛ وكان عليّ أن أمسك بها.

وفي الصباح وجدني زوربا نائمًا، ورأسي على المخطوط.

twitter @baghdad_library

- 6 -

كانت الشمس قد صعدتْ درج الفضاء وقطعت مسافة لا بأس بها حين استيقظتُ وأنا أشعر بتصلّب في يدي اليمنى، من حمل القلم طويلاً. لم أستطع أن أطبق أصابعي. فقد هبّتْ عليَّ العاصفة البوذية وتركتني متعبًا خاويًا.

انحنيتُ كي ألتقط الأوراق التي تبعثرتْ على الأرض. لم أمتلك القوة ولا الرغبة كي أنظر إليها كما لو أنّ كل ذلك الاندفاع المفاجئ للإلهام كان مجرّد حلم لم أعد أرغب في رؤيته مسجونًا في كلمات تسيء إليه.

بدأ المطر يتساقط خفيفًا، وبصمت. كان زوربا قد أشعل الموقد قبل أن يغادر، فأمضيتُ الصباح كلّه ملتفًّا أمام النار، ويداي فوقها، لم آكل شيئًا ولم أتحرّك قيد أنلمة، فقط أصغيت إلى مطر الفصل الأول، وهو يتساقط بنعومة.

لم أكن أفكّر في أي شيء. ملتفًا ككرة، كخلد في تربة رطبة، كان دماغي يستريح. استطعتُ سماع تمتمات الأرض وقضمها الخفيف، والمطر المتساقط، والبذور وهي تنتفخ. كان في وسعي الإحساس بالسماء والأرض يتزاوجان كما في الأزمنة الأولى حين كانا يتزوجان كرجل وامرأة وينجبان الأطفال. كان في وسعي سماع البحر أمامي، على طول الشاطئ كلّه، يزمجرُ كوحش مفترس ويلعق بلسانه كي يطفئ ظمأه.

كنتُ سعيدًا، أعرف هذا. صحيح أنّنا حين نعيش سعادة ما، نعاني صعوبةً في الوعي بها. ولا ندرك أنّنا كنّا سعداء إلا بعد أن تتبخّر السعادة وتتحوّل إلى ذكرى. أمّا أنا على ذلك الشاطئ الكريتي فقد كنت أعيش السعادة وكنت أعرف أنني سعيد.

twitter @baghdad_library

البحر الهائل، الأزرق، القاتم يمتدّ يمينًا نحو شواطئ أفريقيا. وغالبًا ما كانت تهبُّ ريح جنوبية حارة جدًا، تُدعى الليفاس، قادمة من الرمال المشتعلة البعيدة. فيعبق في الصباح برائحة كرائحة البطيخ الأحمر؛ وظهرًا يكتسي بالضباب ويهدأ، وتغدو تموجاته الخفيفة كأثداء لم تنضج بعد؛ وفي المساء يتنهّد ويصير لونه مزيجا من الورد، والباذنجان، والنبيذ، والزرقة القاتمة.

في الأصيل كنت أتسلّى بمَلْء يدي بالرمل الناعم الشاحب وأتركه ينزلقُ حارًا وديعًا عبر أصابعي. إن اليد ساعة رمليّة تجري عبرها حياتنا وتضيع. تضيع وأنا أتملّى البحر، مصغيا إلى زوربا، وأشعر بصدغيّ ينبضان من السعادة.

تذكّرتُ ما حدث مع ابنة أخي الصغيرة ألكا، في الرابعة من عمرها، حين استدارتْ إليّ ونحن ننظر عشيّة رأس السنة إلى واجهة محلّ مليئة باللّعب وقامت بملاحظة فائقة للعادة: «يا عمّ أوغري، أنا سعيدة جدًا فقد نبت لي قرنان!» ذُهلتُ. أية معجزة هي الحياة وكم تتشابه الأرواح كلّها حين تُرسل جذورها عميقًا وتلتقي وتتوحّد! ذلك أنني تذكّرتُ على الفور بوذا منحوتًا من الأبنوس، رأيته في متحف بعيد. لقد حرّر بوذا نفسه واستحمّ في متعة غامرة بعد سبعة أعوام من الألم. كانت الشرايين على جانبيّ جبينه منتفخة وكأنّها انفجرت خارجة من الجلد وصارتْ قرنين قويين ملتفّين، كنابضيْن من الفولاذ.

توقّف المطر الرائع عن التساقط عند نهاية الأصيل وصحا الجوّ. شعرتُ بالجوع وسرّني ذلك لأن زوربا سيأتي الآن ويشعل النار ويبدأ طقس الطبخ اليومي.

كان زوربا يقول أغلب الأحيان وهو يشعل النار: «ثمّتَ شيء آخر يمنحك الإحساس بالتجدّد الدائم، علاوة على المرأة –عليها اللعنة– إنّه الطعام«.

شعرتُ في هذا الساحل للمرة الأولى كم هو رائع تناول وجبة. وفي

المساء يشعل زوربا النار بين حجرين ويقوم بالطهي. بدأنا نتناول الطعام والشراب وصارت المحادثة حميمة أكثر. أدركتُ أخيرًا أن تناول الطعام وظيفة روحية وأن اللحم والخبز والخمر هي المواد الخام التي يُصنع منها الذهن.

بعد عمل يومه الشاقّ، وقبل الطعام والشراب، يكون زوربا بليدًا، ملاحظاته مضجرة، وأكون مضطرًا لإجباره على الكلام. تكون حركاته فاترة ومترددة. ولكن حالما يزوّد المحرّك بالوقود، حالما يشغّله، فإن الآلة الطاحنة المنهكة لجسمه تعود إلى الحياة مرة أخرى، تحصل على السرعة وتنطلق في العمل ثانية. تتوقّد عيناه، يطفح بالذكريات، تنمو الأجنحة على قدميه ويبدأ الرقص.

«أخبرني ما الذي تفعله بالطعام الذي تأكله وسأقول لك من أنت. يحوّل البعض طعامهم إلى دهون وسماد، ويحوّله البعض الآخر إلى عمل وحسٍ فكاهة طريف، وقيل لي إن آخرين يحوّلونه إلى إله. وهكذا يجب أن يكون هناك ثلاثة أنواع من الرجال. لست من الأسوأ بينهم، أيها الرئيس، ولست الأفضل. أنا في مكان ما بين الاثنين. فما آكله أحوّله إلى عمل وحسٍ فكاهةٍ جيد. وليس هذا سيئًا جدًا في النهاية!».

نظر إليّ بمكرٍ وضحك. ثمّ أردف:

«بالنسبة إليك يا رئيس، أعتقد أنك تبذل ما في وسعك كي تحوّل ما تأكله إلى إله. ولكنك لا تنجح في هذا تمامًا، وهذا يعذّبك. إن الشيء نفسه الذي يحدث لك حدث للغراب».

«ما الذي حدث للغراب، يا زوربا؟»

«حسنًا، لقد اعتاد أن يسير باحترام وعلى نحو ملائم كغراب. ولكن خطر له في أحد الأيام أن يحاول السير كحمامة. ومنذ ذلك الحين لم يستطع طوال حياته أن يتذكّر طريقته في السير. اختلط عليه الأمر، ألا ترى؟ كان فقط يعرج».

twitter @baghdad_library

□ □ □

رفعتُ رأسي. سمعتُ وقع خطى زوربا وهو يصعد من النفق. وبعد لحظات رأيته يقترب بوجه طويل عابس، ويداه متدليتان على جانبيه في يأس.

قال ببرودة: «مساء الخير أيها الرئيس».

«أهلاً زوربا. كيف سار العمل اليوم؟»

لم يجب.

قال: «سأشعل النار وأحضّر الطعام».

أخذ قبضة حطب من الزاوية، ثمّ خرج ورتّب حزمة الحطب فنيًّا في كومة بين حجرين وأشعلها. وضع قِدْرَ الفخار عليها، سكب بعض الماء، رمى البصل والبندورة والأرز وبدأَ يطهو. في غضون ذلك، وضعتُ الغطاء على طاولة مستديرة منخفضة، قطعت قطعًا سميكة من الخبز ومن الدمجانة، وملأتُ بالنبيذ إناء القرع المزخرف الذي منحه لنا العم أناغنوستي حال وصولنا.

ركع زوربا أمام الإناء، حدّق في النار وبقيَ صامتًا.

قلتُ فجأة: «هل رُزقتَ بأطفال يا زوربا؟»

نظر حوله.

«لماذا تطرح عليّ هذا السؤال. لقد رزقتُ بفتاة».

«متزوّجة؟»

بدأ زوربا يضحك.

«لماذا تضحك يا زوربا؟»

قال: «يا له من سؤال! بالطبع متزوّجة. ليست معتوهة. كنتُ أعملُ في منجم للنحاس قربَ برافيشتا في تشالسيديس. وتلقّيتُ في أحد الأيام رسالة من شقيقي ياني. آه، نعم! نسيتُ أن أخبرك أن لديّ أخًا حسّاسًا مقرضًا للنقود لا يغادر منزله، وهو من روّاد الكنيسة المنافقين،

عمود حقيقيّ للمجتمع... إنه بقّال في سالونيكا. كتب إليّ قائلاً: «أخي الغالي أليكسيس، لقد ضلّتْ ابنتك فروسّو؛ لقد لطّخت اسمنا بالعار. لديها عشيق، ولقد أنجبت منه طفلاً. لقد حُطّمت سمعتنا. سأذهبُ إلى القرية لكي أذبحها».

«وما الذي فعلتهُ، يا زوربا؟»

هزّ زوربا كتفيه.

«قلت: آه من النساء! ثم مزّقتُ الرسالة».

حرّك الأرز، وضع بعض الملح، وابتسم.

«ولكن انتظر، سترى الجانب المضحك من المسألة. بعد شهرين أو ثلاثة تلقّيتُ رسالة أخرى من أخي السخيف كتب فيها: لتنعم بالصحة والسعادة يا أخي العزيز. لقد أنقذ شرفنا، وبوسعك أن ترفع رأسك عالياً فقد تزوّج الرجل فروسّو».

نظر زوربا نحوي. وعلى وهج سيجارته استطعتُ أن أرى عينيه تتألقان. هزّ كتفيه ثانية. وقال باحتقار لا يُعبّر عنه:

«آه من الرجال!».

ثم واصل بعد برهة:

«ما الذي تستطيع توقّعه من النساء؟ أن ينجبن الأطفال من أول رجل يقعن في مصيدته. وما الذي يمكننا أن ننتظر من الرجال؟ أن يقعوا في الفخ. احفظ ذلك يا رئيس!»

أنزل الإناء عن النار وشرعنا نتناول وجبتنا المسائية.

غاص زوربا عميقًا في التفكير مرة أخرى.

كان هناك شيء يضايقه. نظر إليّ، فتح فمه وأغلقه ثانية. وفي ضوء مصباح الزيت استطعتُ أن أشاهد النظرة المتضايقة القلقة في عينيه.

لم أقدر على تحمّل رؤيته في هذه الحالة. فقلتُ:

«هناك شيء تريد أن تخبرني به يا زوربا. حسنًا، انطق به الآن؛

twitter @baghdad_library

ستشعر بالتحسن بعد ذلك».

بقي زوربا صامتًا. التقط حصاة صغيرة ورماها ببعض القوة من النافذة.

«اترك الحصى وتحدّث!»

مدّد زوربا عنقه المغضّن.

«هل تثق فيّ، أيها الرئيس؟» سألني، وهو ينظر في عينيّ بقلق.

أجبته: «نعم يا زوربا. إنك لا تخطئ في كل ما تفعله. حتى لو أردت ذلك، لا تستطيع. إنك كأسد، أو يجب أن أقول كذئب. إن ذلك النوع من الوحوش لا يتصرف وكأنه خروف أو حمار؛ إنه لا يخون طبيعته أبدًا. وأنت، أنت زوربا من شعر رأسك إلى أخمص قدميك».

هزّ زوربا رأسه. وقال:

«ولكنني لم أعد أعرف أين نحن ذاهبون!»

«أنا أعرف. لا تقلق حِيال ذلك. فقط تابع سيرَكَ!»

«قل هذا ثانية، يا رئيس، كي تشجّعني». صاح.

«تابع سيرَكَ!»

شعّتْ عينا زوربا. وقال:

«الآن أستطيع أن أخبرك. كنتُ أضع في ذهني خطة كبيرة في هذه الأيام القليلة الأخيرة، فكرة جنونية!».

«هل تحتاجٍ إلى أن تسألني؟ هذا ما جئنا إلى هنا من أجله: كي نطبّق الأفكار عملياً».

مدّ زوربا عنقه، نظرَ إليّ بمتعة وخوف.

صاح: «تحدّثْ بوضوح أيها الرئيس! ألم نأت إلى هنا من أجل الفحم؟»

«كان الفحم مجرّد ذريعة لا غير، حتّى لا يتدخل الناس في شؤوننا ويعتقدون أننا مقاولون جادّون، فلا يضربوننا بأقراص البندورة. أتفهم يا زوربا؟»

ذُهل زوربا. حاول جاهداً أن يفهم؛ لم يستطع أن يؤمن بسعادة كهذه. اقتنع على الفور. اندفع نحوي وأمسكني من كتفي وسألني بتوتر: «هل ترقص؟ هل ترقص؟»

«كلا».

«كلا؟»

وأسبل ذراعيه مشدوها. ثمّ قال بعد لحظة:

«حسنًا. إذن سأرقص، يا رئيس. اجلس بعيدًا، كي لا أصطدم بك».

قفز خارجاً من الكوخ، خلع حذاءه، ومعطفه، وصدريته، رفع بنطلونه حتى ركبتيه، وبدأ الرقص. كان وجهه ما يزال أسود من الفحم. و عيناه تلمعان.

غرق في الرقص تماما، صفّق بيديه وقفز في الجوّ، دار نصف دورة وسقط على ركبتيه وهما في وضع انثناء، ثمّ قفز ثانية وساقاه ملتصقتان وكأنه مصنوع من المطّاط. وفجأة قام بقفزات عالية في الجوّ، كمن يريد أن يقهر قوانين الطبيعة ويطير بعيدًا، حتّى لَيشعر المرء أن في جسده العجوز روحًا تصارع كي تحمل الجسد وترمي نفسها مثل شهاب في الظلام. إنّها روح عنيدة تدفع الجسد حالما يعود للسقوط، بما أنه لا يستطيع أن يبقى طويلاً في الجوّ؛ وتقذفه ثانية بلا شفقة، ربّما أعلى قليلا هذه المرة، ولكنّ الجسد المسكين يسقط ثانية، بلا نَفَس.

غضّن زوربا جبينه؛ وتلبّستْ وجهَهُ حدّةٌ مرعبة. فلم يعد يصرخ بل يحاول بفكّيه المشدودين أن يبلغ المستحيل. فصحتُ:

«زوربا! زوربا! هذا يكفي!»

لقد خفت ألاّ يقدرَ جسده العجوز على تحمّل عنفٍ كهذا فيتشظّى إلى ألف قطعة ويتبعثر في الجهات الأربع.

ولكن ما نفع صياحي؟ كيف يمكن لزوربا أن يسمع صرخاتي من الأرض؟ صارتْ أعضاؤه كأعضاء طائر.

twitter @baghdad_library

تابعتُ رقصته الوحشيّة البائسة بقلق. حين كنتُ طفلاً اعتدتُ أن أترك خيالي يحلّق وأروي لأصدقائي أكاذيب رهيبة كنتُ أصدّقها أنا نفسي.

سألني صديقي في المدرسة في أحد الأيام: «كيف مات جدّك؟»

ابتكرتُ أسطورة على الفور، وكلما اخترعت صدقت أكثر.

«كان لجدي لحية بيضاء وكان يرتدي حذاء مطاطيًّا. في أحد الأيام قفز من سطح منزلنا، ولكن حين لامستْ قدماه الأرض قفز ككرة وارتفع أعلى من المنزل، وواصل الارتفاع إلى أن اختفى بين الغيوم. هكذا توفّي جدّي».

بعد أن لفقّتُ الأسطورة، كنتُ كلما ذهبتُ إلى كنيسة القديس ميناس الصغيرة ورأيت في قاع الفاصل الأيقونيّ صعود المسيح إلى السماء، أشير إليه وأقول لرفاقي:

«انظروا! هذا هو جدّي بحذائه المطاطيّ!».

والآن، في هذا المساء، بعد أعوام كثيرة، وفيما أشاهد زوربا يقفز في الجوّ، عشتُ حكايتي الطفولية ثانية برعب، وكأنّني أخشى أن أشاهد زوربا وهو يختفي بين السحب.

صحتُ: «زوربا! زوربا! هذا يكفي!»

جلس زوربا أخيرًا على الأرض، وهو يلهث. كان وجهه متألّقًا وسعيدًا. شعراته الشائبة تلتصق بجبينه، والعرق يجري على خديه وذقنه، مختلطًا بغبار الفحم.

انحنيتُ فوقه بقلق.

قال، بعد لحظة: «أشعر بالتحسّن لأني فعلتُ هذا. كأنني كنتُ أنزف. والآن أستطيع أن أتحدّث».

عاد إلى الكوخ، جلس أمام الكانون ونظر إليّ بتعبير متألّق.

«ما الذي حدث لك وجعلك ترقص هكذا؟»

«ما الذي أستطيع فعله أيها الرئيس؟ كانت متعتي تخنقني. وكان عليّ أن أجد مخرجًا ما. وأي نوع من المخارج كنت تريده لي؟ كلمات؟ بف!»

«أية متعة؟ إذن فكلّ ما قلته لي منذ لحظة، قد قلته... هكذا، هباءً دون أن تفهمه أنت نفسك؟ لم نأت إلى هنا من أجل الفحم، هذا ما قلته لي.. هذا ما قلته، أليس كذلك؟ جئنا إلى هنا كي نمضي الوقت ونقودهم إلى المسار الخاطئ حتّى لا يظنّوا أننا مجنونان فيقذفوننا بالطماطم! ولكن حين نكون وحيدين معًا ولا يستطيع رؤيتنا أحد، نستطيع أن نضحك ونستمتع. أليس هذا صحيحًا؟ أقسم أن هذا ما أردتهُ، أيضًا، ولكنني لم أدركه على نحو ملائم. فكّرتُ أحيانًا بالفحم الحجريّ، وأحيانًا أخرى ببوبولينا العجوز، وأحيانًا بك... تشوّش ذهني. حين كنتُ أخرج من النفقِ كنت أقول إنّ الفحم هو ما أريد! وصرتُ فحمًا. ولكن فيما بعد، حين أنجز العمل، حين كنتُ ألهو بتلك الخنزيرة الكهلة - ليحالفها الحظ الجيد!- قلت في نفسي: لتُشنق كل أكياس الفحم وأرباب العمل وزوربا معهم بتلك الشريطة الصغيرة التي تزيّن بها عنقها! ثم حين كنتُ وحيدًا ولا شيء أفعله، فكّرتُ بك، يا ربّ عملي، فانفطر قلبي. ثقل عليّ ضميري. فصحتُ: إنه عار يا زوربا! عار عليك أن تخدع ذلك الرجل الطيب وتأكل أمواله. متى ستتوقّف عن هذه النذالة يا زوربا؟ ألم تكتفِ؟! أقول لك، أيها الرئيس،لم أعرف أين كنتُ. كان الشيطان يجرّني على طريق، والله على طريق آخر؛ وبينهما الاثنين، شُطرت نصفين. والآن، ليباركك الله، قلتَ شيئًا عظيماً وأستطيع أن أراه الآن بكل وضوح. لقد رأيت، ولقد فهمت! نحن متّفقان! لنبدأ. كم بقي معك من النقود؟ سلّمها لي! دعنا نصرفها!»

مسح زوربا جبينه ونظر حوله. كانت بقايا عشائنا ما تزال على الطاولة. مدّ ذراعه الطويل إليها.

قال: «بعد إذنك، أيها الرئيس، ما أزال جائعًا».

twitter @baghdad_library

تناول قطعة خبز، بصلة وحفنة من حبّات الزيتون.

أكل بشراهة، رفع إناء الخمر فتدفّق النبيذ الأحمر عبر حنجرته دون أن يلمس الإناء شفتيه. لعق زوربا لسانه؛ لقد شبع.

قال: «هذا أفضل».

غمزني بعينه وسألني:

«لماذا لا تضحك؟ لماذا تنظر إليّ بهذه الطريقة؟ هكذا أنا. ثمّتَ شيطان يصرخ داخلي، وعليّ أن أنفّذ ما يأمرني به. كلما شعرتُ بنفسي مختنقا من عاطفة ما، يأمرني: ارقُصْ! فأرقُصُ. وأشعر بالتحسّن! مرة حين توفّي صغيري ديميتراكي، في تشالسيديس، نهضتُ كما فعلتُ منذ لحظة ورقصتُ. اندفع الأقرباء والأصدقاء الذين شاهدوني أرقص أمام الجثة كي يوقفوني. قالوا إن زوربا فقد عقله. ولكنني لو لم أرقص في تلك اللحظة لكنتُ جننت من الحزن. لأنه كان ولدي الأوّل وكان في الثالثة من عمره ولم أستطع تحمّل فقدانه. تفهم ما أقوله أيها الرئيس، أليس كذلك؟ أم أنني أتحدث مع نفسي؟»

«أفهم يا زوربا، أفهم؛ أنت لا تتحدث مع نفسك».

«مرة أخرى... كنتُ في روسيا آنذاك... نعم، كنتُ هناك أيضًا، للعمل في المناجم، قرب نوفو روسيك... تعلّمتِ خمس أو ستّ كلمات روسية، كافية للعمل فحسب: كلا؛ نعم؛ خبز؛ نبيذ؛ أحبك؛ تعالي؛ كم تريد؟... ولكنني صادقتُ بلشفيًا روسيًا. كنا نذهب كل مساء إلى الحانة في المرفأ، فنحتسي عددًا جيدًا من زجاجات الفودكا وكان هذا يجعلنا في مزاج جيد. وحين نشعر بالتحسّن تغمرنا رغبة في الحديث. أراد أن يخبرني كلّ شيء حدث له أثناء الثورة الروسية، وأردت أن أخبره عن تجاربي... سكرنا سوية وصرنا شقيقين.

«توصلنا إلى ترتيب الأمور بالإيماءات قدر المستطاع. كان يجب أن يتحدث أولاً. وحالما كنت أعجز عن فهمه، أصيح به أن يتوقّف، فينهض

عندها ويرقص. أتفهمني، أيها الرئيس؟ كان يرقص ما يريد أن يقوله لي. وفعلتُ الأمر نفسه. أي شيء كنا نريد قوله بلساننا قلناه بقدمينا ويدينا وببطننا وبصرخات وحشية: هاي! هاي! هوب لا! هو هي!

«بدأ الروسي يتحدّث كيف حملوا البنادق؛كيف اندلعت الحرب؛ كيف وصلوا إلى نوفو روسيك. وكما قلت لك، حين أعجز عن متابعته أصيح به أن يتوقّف. عندها يقفز الروسيّ مباشرة، ويواصل رقصه! كان يرقص كمجنون. كنتُ أراقب يديه وقدميه وصدره وعينيه فأفهم كل شيء. كيف دخلوا نوفو روسيك؛ كيف نهبوا الحوانيت؛ كيف اقتحموا المنازل وخطفوا النسوة. في البداية بكت الفاجرات وخدشن وجوههنّ بأظفارهنّ وخدشن الرجال أيضًا، ولكنهن رُوّضن بالتدريج، أغمضن أعينهنّ وعوين من اللذّة. كنّ نساء، وأيّ نساء...

«ثمّ بعد ذلك يجيء دوري. وبعد أن أتفوّه ببعض كلمات فحسب كان الروسي يصيح بي أن أتوقّف -ربما لأنّه كان أصمّ قليلا ودماغه لا يعمل على نحو ملائم- وكان هذا كل ما كنت أنتظره. فأقفز، وأدفع الكراسي والطاولات بعيدًا وأبدأ الرقص. آه يا صديقي المسكين، لقد انحدر البشر كثيرًا، ليأخذهم الشيطان! لقد دفعوا بأجسادهم إلى الصمت وما عادوا يتفوهون إلا بأفواههم. ولكن ما الذي تتوقع أن يقوله الفم؟ ما الذي يمكن أن يقوله لك؟ لو كان في وسعك فقط أن تشاهد كيف كان الروسي يصغي إلى سكناتي كلّها، وكيف كان يتبع كل شيء! كنتُ أرقص مصائبي؛ ورحلاتي؛ وزيجاتي؛ والمهن التي تعلّمتها: كنتُ حجّارًا ومعدّنًا وبائعا متجوّلاً وخزّافًا، ورجل عصابات، عازف سنتور، مدربَ صقور، بائع بزر، حدادًا؛ مهرّبًا؛ كيف رُميتُ في السجن؛ كيف هربتُ؛ وكيف وصلتُ إلى روسيا...

«حتى هو، ذلك الغبي، استطاع أن يفهم كلّ شيء. لقد تحدّثت قدماي ويداي، وكذلك شعري وثيابي. وتحدّث أيضا سكّين الجيب المتدلية من

twitter @baghdad_library

حزامي. حين كنت أنتهي، كان ذلك الغبي الضخم يعانقني بذراعيه؛ نملأ كأسينا بالفودكا مرة أخرى؛ فنبكي ونضحك ونحن متعانقان. وحين يطلع الفجر كنا نفترق ونذهب مترنحين إلى النوم. وفي المساء نلتقي مرة أخرى.

«أتضحك؟ ألا تصدّقني، أيها الرئيس؟ أنت تقول بينك وبين نفسك: ما هذه الحكايات التي ينسجها السندباد البحري؟ هل يمكن التحدّث بالرقص؟ ومع ذلك أجرؤ وأقسم أنه هكذا يجب أن تتحادث الآلهة والشياطين.

«ولكنني أرى أنك تشعر بالنعاس. أنت حسّاس جدًا. لا تمتلك قوّة. اذهب إلى النوم وغدًا سنتحدّث عن هذا. لدي خطةّ، خطّة رائعة. سأخبرك عنها غدًا. سأدخّن سيجارة أخرى. يمكن أن أسبح قليلاً في البحر. أنا ملتهب. يجب أن أطفئ النار. عمت مساءً!»

حاولت أن أنام لوقت طويل. لقد ضاعت حياتي كما ظننت. فقط لو أستطيع تناول خرقة وأمسح كل ما تعلّمته، كل ما رأيته وسمعته، وأذهب إلى مدرسة زوربا وأبدأ الأبجدية العظيمة الحقيقيّة! أي طريق مختلف سأختار. يجب أن أبقي حواسّي الخمس مدرّبة على نحو تام، وجسدي كلّه أيضًا حتّى يستمتع ويفهم. يجب أن أتعلّم الركض، والمصارعة، والسباحة، وركوب الخيل، والتجديف، وقيادة سيارة، وإطلاق النار من بندقية. يجب أن أملأ روحي بالجسد. وفي نهاية المطاف يجب أن أصالح في داخلي هذين الخصمين الأبديين.

جالسًا في فراشي، فكّرتُ في حياتي التي ضاعت بشكل كامل. كنتُ أستطيع أن أميّز عبر الباب المفتوح زوربا قابعا وحده في ضوء النجوم. كان يجلس على صخرة،كطائر ليلي. حسدتهُ. إنه هو الذي اكتشف الحقيقة، كما أعتقد. إنه الممرّ الصحيح.

لو عاش زوربا في عصور أخرى أكثر بدائية وإبداعا لكان زعيم

قبيلة. ولَمَرَّ في المقدّمة فاتحًا الطريق بسيفه. أو ربما كان شاعرًا جوّالاً مشهورًا يزور القلاع فيصغي الجميع لوُرْداتٍ وسيداتٍ وخدمًا إلى كلماته بإعجاب... أمّا في عصرنا الجاحد، فها هوَ يطوف جائعًا حول الأسيجة كذئب أو ينحدر إلى أن يصبح مهرّج كاتب ما.

رأيتُ زوربا ينهض فجأة. تعرّى من ثيابه ورماها على الحصى ثم غاص في البحر. لبضع لحظات، وفي ضوء القمر الشاحب، استطعتُ أن أشاهد رأسه الكبير يظهر ويختفي. وبين فينة وأخرى كان يُطلق صرخة، وينبح ويعوي ويصيح كالديك. لقد عثرتْ روحه في هذا الليل المقفر على روابط أخوّة مع الحيوانات.

بلطف، ودون أن أعي ذلك، أخذني النعاس. وفي اليوم التالي، عند الفجر، رأيت زوربا وهو يبتسم بارتياح، قادمًا كي يسحبني من قدمي.

قال: «انهض أيها الرئيس، ودعني أخبرك عن خطّتي. هل تصغي؟»

«إنّني أصغي».

جلس على الأرض كما يفعل الأتراك وبدأ يشرح كيف سيقيم مصعدا علويًّا من قمة الجبل إلى الساحل؛ بهذه الطريقة نستطيع أن نحضر الأخشاب التي نحتاجها من أجل دعامة المنجم، ونستطيع بيع ما تبقى كخشب للبناء. قررنا أن نستأجر غابة صنوبر تنتمي إلى الدير، ولكن تكاليف النقل كانت باهضة ولم يكن العثور على بغال كافية بالأمر المتيسّر. وهكذا اقترح زوربا أن نبني مصعدا بالحبال الضخمة والأعمدة والبكرات.

وحين انتهي من الشرح، سألني: «اتفقنا؟ هل ستوقّع؟»

«حسنا، سأوقّع، يا زوربا، اتفقنا».

أوقد الكانون، ووضع الركوة على النار، وأعدّ لي القهوة، رمى سجادة على قدميّ كي لا أصاب بالبرد، وخرج مقتنعًا.

قال: «سنحفر الليلة نفقًا جديدًا. لقد عثرتُ على عرق جميل! عرق من الماس الحيقيقيّ الأسْوَد!»

twitter @baghdad_library

فتحتُ مخطوط بوذا، وشققتُ طريقي أنا أيضًا عبر أنفاقي الخاصة. كتبتُ طوال النهار، وكلما تقدّمتُ، كنت أشعر بالخلاص. ويغمرني مزيج من المشاعر المشوّشة: الراحة، الكبرياء، القرف. ولكنّني تركتُ الأثر يمتصّني، فقد كنت على يقين من أنّني حالما أنهي هذا المخطوط وأختمه سأكون حُرًا.

شعرتُ بالجوع فأكلتُ بعض حبات الزبيب واللوز وقطعة خبز. كنت أنتظر عودة زوربا محمّلا بكلّ المتع التي تبعث النشوة في قلب إنسان: الضحك الصافي، الكلمة اللطيفة، والأطباق الطيّبة.

ظهرَ في المساء، وحضّر الوجبة. أكلنا ولكنّ ذهنه كان في مكان آخر. جثا على ركبتيه، وغرس في الأرض قطعا صغيرة من الخشب ، ثمّ سحب خيطا، وعلّق عود كبريت ببكرات صغيرة وراح يبحث عن المنحدر المناسب، كي لا ينهار كلّ شيء.

قال لي: «إذا كان المنحدر شديد الانحدار سيخيب أملنا. يجب أن نعثر على المنحدر الدقيق. ومن أجل ذلك،أيّها الرئيس، نحتاج إلى بعض الأدمغة وإلى النبيذ».

قلتُ ضاحكًا: «لدينا الكثير من النبيذ، ولكن بالنسبة إلى الأدمغة...»

انفجر زوربا ضاحكًا.

قال وهو ينظر إليّ بعطف: «هناك بعض الأمور التي تفهمها أيّها الرئيس».

جلس كي يستريح، وأشعل سيجارة.

لقد عاد إليه مرحه من جديد وانحلّت عقدة لسانه فانطلق يثرثر.

قال: «إذا نجح المصعد نستطيع أن ننقل الغابة كلّها إلى هنا. نستطيع أن نفتح مصنعًا، ونصنع ألواح الخشب والدعائم والمنصات؛ ستغمرنا النقود. وحينها نستطيع أن نبني سفينة ثلاثية الصواري ثم نتوقّف عن العمل ونبحر حول العالم!»

وطافت أمام عيني زوربا نساء في مرافئ بعيدة، وبلدات، وإشراقات، وأبنية عملاقة، وآلات، وسفن.

» لقد وخطني الشيب، أيّها الرئيس، وبدأت أسناني تتململ، لا وقت لديّ كي أضيعه. أمّا أنت فشاب، وما تزال قادرًا على التحلّي بالصبر. ولكن لا قدرة لي أنا على ذلك. بشرفي، كلما تقدّمتُ في السنّ صرتُ أكثر وحشية! كذبَ من قال إنّ التقدّم في العمر يجعل الإنسان رصينًا! فحين يرى الموتَ قادمًا لن يمدّ عنقه ويقول: اقطعْ رأسي، من فضلك، حتّى أستطيع الذهاب إلى السماء! كلما تقدّمت في السنّ، ازددت تمرّدا. لن أستسلم أبدًا؛ مازلت أريد أن أغزو العالم».

نهض وأخرج السنتور.

قال: «تعال هنا أيّها الشيطان. ما الذي تفعله بحق الجحيم معلقًا على الحائط دون أن تتبس ببنت شفة؟ دعنا نسمعك وأنت تغنّي!»

لا أتعب أبدًا من رؤية زوربا وهو يزيل القماش الذي يلفُّ به السنتور بحذر ورقة. فيبدو وكأنه يقشّر ثمرة تين أرجوانية أو يعرّي امرأة.

وضع السنتور في حضنه، انحنى فوقه، مسّ الأوتار بخفّة وكأنه يستشيره عن اللحن الذي يجب أن يغنّي، ويتوسّل إليه كي يستيقظ، أو كأنّه يحاول إغراءه لكي يرافق روحه المتجوّلة المتعبة من العزلة. حاول أن يؤدي أغنية. لكنها لم تخرج صحيحة نوعًا ما؛ هجرها وبدأ أخرى؛ صرّتْ الأوتار وكأنّها متألّمة، أو كأنّها لا ترغب في الغناء. اتكأ زوربا على الحائط، مسح جبينه الذي كان قد بدأ يتعرّق فجأة. وتمتمَ، ناظرًا برهبة إلى السنتور: «إنه لا يرغب في ذلك!»

غلّفه مرة أخرى بعناية، وكأنّه حيوان بريّ يخشى أن يعضّه. ثمّ نهض ببطء وعلّقه على الحائط.

تمتم ثانية: «إنه لا يريد. ويجب ألاّ نجبره».

جلس مرة أخرى على الأرض، وضع بعض الكستناء بين الجمار وملأ

twitter @baghdad_library

الكأسين بالنبيذ. شرب، ثم أردف الكأس بثانية، وقشّر حبّة كستناء قدّمها لي.

سألني: «أتفهم شيئا أيها الرئيس. إن الأمر يتجاوزني. يبدو لي أنّ لكل شيء روحًا بما في ذلك الحطب والأحجار والنبيذ الذي نشربه والأرض التي نخطو عليها. كل شيء... كلّ شيء أيها الرئيس!» ورفع كأسه: «نخبك!»

أفرغه في جوفه ثم ملأه. وتمتم:

«أية حياة عاهرة وكريهة هذه! مثل العجوز بوبولينا!»

بدأتُ أضحك.

«أصغِ إليّ أيّها الرئيس، لا تضحك. إن الحياة هي تمامًا مثل العجوز بوبولينا. إنها عجوز، أليس كذلك؟ حسنًا، ولكنها لا تفتقر إلى البهار. تعرف خدعة أو خدعتين كافيتيْن لجعلك تنزل عن كرسيّك الهزّاز. إذا أغمضتَ عينيك، ستعتقد أن بين ذراعيك فتاة في العشرين. إنها في العشرين، أقسم لك بذلك، حين تكون مستعدًا بالفعل وتطفئ الضوء.

«لا فائدة من قولك لي إنها مفرطة النضج، عاشت حياة سريعة وكانت تسترسل في المرح الصاخب مع الأميرالات والبحارة والجنود والفلاحين ورجال المسرح الجوالين والكهنة ورجال الإكليروس ورجال الشرطة وأساتذة المدارس وقضاة الصلح! إذن ماذا؟ ماذا عنها؟ إنها تنسى بسرعة، تلك المومس العجوز. لا تستطيع أن تتذكر أيًّا من عشّاقها القدامى. وكلّ مرة -ولست أمزح هنا- تصبح حمامة صغيرة وجميلة، إوزّة بيضاء ناصعة، حمامة صغيرة، تحمرّ خجلاً، نعم تفعل هذا، تحمرُّ ويرتجف كيانها كلّه، وكأنها المرة الأولى! أي لغز هي المرأة، أيها الرئيس! حتى ولو سقطتْ ألف مرة، فإنها تنهض ألف مرة عذراء. ولكن كيف هذا؟ ستقول. لأنها لا تتذكّر.

قلتُ كي أغيظه: «حسنًا ولكنّ الببغاء يتذكّر يا زوربا. دائماً يكرّر اسمًا

ليس اسمك. ألا يزعجك أن تسمع ذلك الببغاء يصرخ في كل مرة تصل فيها إلى السماء السابعة: كانفارو! ألا ترغب أبدًا بأن تمسكه من عنقه وتخنقه؟ حان الوقت كي تعلّمه أن يصرخ: زوربا! زوربا!».

فصاح زوربا، وهو يسدّ أذنيه بيديه الكبيرتين: «آه، آه، آه، يالَقصر نظرك. لماذا تريد أن أخلع رقبته؟ إنّني أحب أن أسمعه يردد ذلك الاسم! في الليل تعلّقه العاهرة العجوز فوق السرير وما إن يرانا ذلك الشيطان الصغير منسجمين وعيناه تثقبان الظلمة التي تلفّنا ، حتّى يبدأ النذل بالصراخ: كانفارو! كانفارو!

«أقسم لك أيّها الرئيس، ولكن كيف يمكنك أن تفهم هذا أنت الذي لوّثتك تلك الكتب اللعينة، أقسم لك بأنّني أشعر على الفور بنعلين من الجلد اللمّاع في قدميّ، وبالريش على رأسي ولحية حريرية تعبق بعطر البشتول على ذقني.

صباح الخير! مساء الخير! أتأكل المعكرونة؟[1] أُصبح كانفارو حقّا. وأتسلق إلى بارجة الأميرال الخاصة بي المثقوبة بألف طلقة وبعيدا... تشتعل المراجل! ويبدأ الرشق بالمدافع!»

ضحك زوربا من قلبه. أغمض عينًا ونظر إليّ بالأخرى. وقال:

«يجب أن تسامحني أيّها الرئيس، ولكنّني شبيه بجدي ألكسيس -رحمه الله ! - لقد كان يجلس كلّ مساء، وقد بلغ المئة من العمر، أمام بابه ويديم النظر إلى الفتيات الذاهبات إلى البئر. لم يكن في وسعه أن يرى جيدًا، ولهذا كان يدعو الفتيات إليه ويقول: أي واحدة منكن؟ زينيو، ابنة ماستراندوني. اقتربي إذن ودعيني ألمسك. اقتربي، لا تخافي! فتمسك رغبتها في الضحك وتقترب منه طائعة، حينها يرفع جدي يده إلى وجهها ويجسّه ببطء.. بحنان.. بشراهة.. وتنساب دموعه. سألته مرة: لماذا تبكي يا جدي؟ أجابني: آه.. ألا تظنّ أنّ هناك ما يدعو إلى

---

(1) مكتوبة بالإيطاليّة في النصّ الأصلي. (المترجم)

Buon giorno! Buona sera! Mangiate macaroni!

twitter @baghdad_library

البكاء يا بُني، حين أحتضر ببطء وأترك خلفي هذا الحشد من الفتيات الجميلات؟»

تنهّد زوربا وقال: «آه يا جدّي المسكين! كم أفهمك الآن! فغالبًا ما أقول لنفسي: آه يا للبؤس! ماذا لو أنّ كلّ الجميلات يمُتن في الوقت نفسه الذي أموت فيه أنا! ولكن أولئك القذرات سيواصلن الحياة ويستمتعن، ويأخذهنّ الرجال بين أذرعهم، ويقبّلوهنّ، وستكون يا زوربا حينها ترابا يطأنه بأقدامهنّ!»

سحب بعض حبات الكستناء من النار، قشّرها، وقرعنا كأسينا. بقينا وقتًا طويلاً نشرب ونمضغ ببطء كأرنبين كبيرين، وفي الخارج كان هديرُ البحر يتناهى إلى أسماعنا بوضوح.

- 7 -

بقينا صامتين قرب الموقد إلى ساعة متأخّرة من اللّيل. شعرتُ مرّة أخرى كم السعادة شيء زهيد وبسيط: كأس نبيذ، حبّة كستناء مشويّة، كانون بائس صغير، صوت البحر. لا شيء آخر. وكل ما هو مطلوب للسعادة هنا، والآن قلب بسيط وقنوع.

سألت: «كم مرة تزوّجتَ يا زوربا؟»

كنا في مزاج جيّد، ولم يكن السبب الأساسي إفراطنا في الشرب فحسب بل تلك السعادة التي تسكننا، تلك السعادة العصيّة على الوصف. لم نكن أكثر من حشرتيّن صغيرتيّن فانيتيّن تتمسّكان بقشرة الأرض، وكنّا نحسّ ذلك بعمق، كلانا بطريقته، لقد وجدنا زاوية ملائمة قربَ البحر، خلف بعض الخيزران، وألواح الخشب وصفائح النفط الفارغة، حيث جلسنا شبه متعانقين، وأمامنا بعض الأشياء الجميلة والطعام، وفي داخلنا الهدوء والحب والأمان.

لم يسمع زوربا سؤالي. من يعرف في أيّ محيطات خارج مدى صوتي كان ذهنه يبحر؟ مددتُ ذراعي ولمستهُ برؤوس أصابعي.

سألته ثانية: «كم مرة تزوّجتَ يا زوربا؟»

أجفل. إذ سمع هذه المرة. وأجابني، محرّكًا يده الكبيرة:

«ما الذي تغوص فيه الآن؟ أتظنّ أنني لستُ رجلاً؟ ارتكبتُ الحماقة الكبيرة كالجميع. هذا توصيفي للزواج، فليسامحني المتزوّجون! نعم، ارتكبتُ الحماقة الكبيرة، وتزوّجتُ!»

«نعم، ولكن كم مرة؟»

حكّ زوربا رأسه بقوّة.

twitter @baghdad_library

قال أخيرًا: «كم مرة؟ بصدق مرة واحدة، مرة واحدة وإلى الأبد. وبنصف صدق مرتين. وبكذب ألف، ألفين، ثلاثة آلاف مرة. كيف تتوقّع مني أن أحسب؟»

«حدّثني قليلاً عن زواجك يا زوربا فإن غدًا يوم السبت، وسنحلق ذقنينا ونرتدي أفضل ثيابنا ونذهب إلى نزل بوبولينا العجوز من أجل وقت جيد وفتاة سيئة! هيّا أخبرني الآن!»

» ماذا تريدني أن أخبرك؟! هذه الأشياء ليست جديرة بالسرد، أيها الرئيس! إن الزواج الصادق لا طعم له؛ إنه طبق بلا فلفل. ماذا تريدني أن أخبرك؟! عن أنّه ليس هناك أيّ لذة في التقبيل حين يرنو إليك القدّيسون من أيقوناتهم ويمنحونك بركاتهم. نقول في قريتنا «إن أطيب اللحم هو المسروق». أمّا زوجتك فليست لحمًا مسروقًا. والعلاقات غير الشريفة، كيف تريدني أن أتذكّرها الآن؟ هل تحتفظ الديكة بدفاتر حسابات؟ أتتصوّر هذا؟! ومع ذلك، عندما كنت شابا كنت معتادا على أخذ خصلة شعر من كلّ امرأة تنام معي. كنت دائمًا أحمل معي مقصًّا. حتى حين كنتُ أذهب إلى الكنيسة، كنتُ أحمل المقصّ في جيبي! نحن رجال في النهاية؛ وأنت لا تعرف ما يمكن أن يحصل، أليس كذلك؟

«بهذه الطريقة جمعتُ مجموعة من خصل شعر النساء. كانت هناك خصل سوداء، وأخرى شقراء، وأخرى بلون الزنجبيل، وبعض الخصل البيضاء. ولكثرة ماجمعتُ حشوت بها وسادة. وحين جاء الصيف قرفت منها فقد أخذت تتعفّن فأحرقتها «.

بدأ زوربا يضحك.

قال: «كان هذا سجلّي أيها الرئيس، ولقد أُحرقَ. ولكنني كنتُ متخمًا حتى أسناني بهذا. اعتقدتُ أنه لن يكون هناك الكثير، ثم اكتشفت أنْ لا نهاية لذلك. وهكذا رميتُ المقصّ بعيدًا».

«ماذا عن الزواج نصف الصادق يا زوربا؟»

تنهّد قائلاً: «آه،أيتها السّلافيات الرائعات! إنّه لسحر خاصّ، أتمنّى أن يعشن ألف عام! أيّة حريّة تلك! لا شيء من قبيل: أين كنت؟ لماذا تأخّرت؟ أين نمت؟ لا يسألنك أبدا أسئلة كهذه، وعليك أن لا تسأل أيضا... إنّها الحرية. وأيّة حريّة كانت!»

مدّ يده ليتناول كأسه، أفرغها وقشّر حبّة كستناء. مضغ وقال:

«كانت إحداهنّ تُدعى سوفينكا، والأخرى نوسّا. التقيت بسوفينكا في قرية صغيرة قرب نوفوروسيسك. حدث ذلك في الشتاء والثلوج تتساقط. حين ذهبت للبحث عن عمل في منجم، وتوقفتُ في تلك القرية. كان يوم السوق وجاء الرجال والنساء من كل القرى التي في الجوار لكي يبيعوا ويشتروا. كانت المجاعة رهيبة والبرد حادًّا. والناس يبيعون كل ما لديهم، حتى أيقوناتهم! كي يشتروا الخبز.

«كنتُ أتجوّل في السوق حين رأيتُ فلاحة شابة تقفز من عربتها. فاجرة، طولها ستة أقدام، عيناها زرقاوان كالبحر، بفخذين وردفين في غاية الروعة. أقول لك إنها رمكة[1] حقيقية!... توقفت مذهولاً. آه يا زوربا المسكين، آه يا زوربا البائس، قلتُ لنفسي.

«بدأتُ أتبعها وأنظر... لم أستطع أن أزحزح عينيّ عنها! كان يجب أن تنظر إلى ردفيها وهما يتأرجحان كجرسي كنيسة في عيد الفصح! لماذا تذهب للبحث عن المناجم، أيّها المغفّل؟ قلتُ لنفسي. لماذا تضيّع الوقت الثمين هناك، يا ديك الرّياح الملعون؟ هنا المنجم الذي تبحث عنه: ادخل وافتح الأنفاق!

«توقّفت الفتاة، بدأت تساوم، اشترتْ حملاً من الحطب، رَفَعته -يا يسوع، أيّ ذراعين!- ورمته في عربتها! اشترت بعض الخبز وخمس أو ست سمكات مُدخَّنة. قالت: كم سعر هذا؟ إنه كثير... نزعت خرصيها الذهبيين كي تدفع. بما أنه لم يكن لديها نقود كانت ستمنح قرطيها الذهبيين. قفز قلبي إلى فمي. أأنا من يجعل امرأة تمنح قرطيها،

(1) فرس تُتخذ للاستيلاد وتحسين النسل.

twitter @baghdad_library

وحليّها، وصابونها المعطّر، وزجاجاتها الصغيرة من الخزامى؟... إذا منحتَ كلّ هذا... سينتهي العالم! وكأنك تنتف ريش الديك. هل لديك قلب كي تنتف ريش ديك؟ أبدًا! كلا، طالما أن زوربا حيّ، قلتُ لنفسي، إن هذا لن يحدث. فتحتُ حقيبتي ودفعتُ. كان هذا هو الوقت الذي صارت فيه الروبلات قطعًا من الورق. كان في وسعك أن تشتري بغلاً بمائة درهم، وبعشَرة تشتري امرأة.

«وهكذا دفعتُ. استدارت الفتاة ونظرتْ إليّ من زاوية عينها. أمسكت يدي كي تقبّلها. ولكنني سحبتُ يدي. من حسبتني؟ عجوزًا؟ صاحت: شكرًا لك، شكرًا لك! وقفزت إلى عربتها. أمسكت بالعنان ورفعت سوطها. قلت لنفسي: زوربا، انتبه يا صديقي، إنها ستنزلق من بين أصابعك! بقفزة واحدة كنتُ إلى جانبها في العربة. لم تقل أي شيء. لم تنظر حتى حولها. لسعة سوط وكنا منطلقين.

«في الطريق، أدركت أنني أريدها لي. استطعتُ أن أستخدم ثلاث كلمات بالروسية، ولكن في هذه المسائل لم تكن هناك حاجة لقول الكثير. تحدثنا مع بعضنا البعض بأعيننا، وأيدينا، وركبنا. لا حاجة كي نحوم حول الموضوع. وصلنا إلى القرية وتوقّفنا أمام منزلها. ترجّلنا. دفعت الفتاة بوابة الفناء بكتفها وفتحته فدخلنا. أنزلنا حمولة الحطب في الفناء، أخذنا السمك والخبز ودخلنا الغرفة. كانت امرأة عجوز تجلس قرب الموقد الفارغ مرتجفة. كانت مكسوّة بالأسمال والخرق وجلود الخراف، ولكنها كانت ترتجف. كان البرد قارسًا إلى درجة أن أظفارك يمكن أن تتساقط. انحنيت، ووضعتُ حمل ذراع من الحطب في الموقد وأشعلتُ النار. نظرتْ إليّ المرأة العجوز وابتسمتْ. قالت لها ابنتها شيئًا ما، ولكنني لم أفهم. جعلت النار تضطرم؛ اقتربت منها العجوز فانتعشت قليلاً.

«في غضون ذلك، كانت الفتاة تعدّ المائدة. أخرجتْ بعض الفودكا؛

فشربناها. وضعت السامور على النار وأعدّت الشاي. أكلنا ومنحنا المرأة العجوز حصّتها. ثم أعدّت السرير واضعة أغطية نظيفة، أشعلت مصباح العذراء المقدسة الأيقوني ورسمت إشارة الصليب ثلاث مرات. ثم أشارتْ إليّ؛ ركعنا سوية أمام المرأة العجوز وقبّلنا يدها. وضعت العجوز يديها ناتئتي العظام على رأسينا وغمغمتْ شيئًا. ربما باركتنا. شكرتها قائلاً بالروسية: سباسيبا! سباسيبا! وفي قفزة واحدة كنتُ في السرير مع الفتاة!»

صمتَ زوربا. رفع رأسه وحدّق في المسافة فوق البحر.

قال بعد وهلة: «اسمها سوفينكا...» ثم صمت مرة أخرى.

قلتُ نافد الصبر: «حسنًا! حسنًا!»

«لا يوجد حسنًا! أي هوس لديك، أيها الرئيس، بمثل هذه الكلمات: «حسنًا» و«لماذا» و«ثمّ»! لا يجوز الحديث عن هذه الأشياء. إن المرأة ينبوع عذب. تنحني فوقه، فتشاهد صورتك معكوسة وتشرب؛ تشرب إلى أن تطقطق عظامك. ثم يأتي آخر، ويكون ظامئًا، أيضًا؛ ينحني فوقها، يرى صورته ويشرب. ثم يأتي ثالث... نبع عذب، هذه هي المرأة، وهي بدورها كانت كذلك...».

«هل تركتها بعد ذلك؟»

«ما الذي تتوقّعه؟ إنها نبع، كما قلتُ لك، وأنا عابر. عدتُ مرة أخرى إلى المنطقة. مكثتُ معها ثلاثة أشهر. ليحمها الله! لا شيء لديّ أقوله ضدّها! ولكن بعد ثلاثة أشهر تذكّرتُ أنني كنتُ أبحث عن منجم فقلتُ لها في صباح أحد الأيام: «لدي بعض العمل الذي أقوم به يا سوفينكا. يجب أن أذهب»».

قالت سوفينكا: «حسنًا، اذهب. سأنتظرك شهرًا. إذا لم تعد سأكون حرّة. و أنت أيضا، ليباركك الله!». وهكذا ذهبت.

«وعدتَ بعد شهر...»

twitter @baghdad_library

قال زوربا: «ولكنك تبدو غبيًا، أيها الرئيس، كيف أعود! إنهنّ لا يتركنك هادئا، العاهرات! بعد عشرة أيام قابلتُ نوسا في كوبان».

«أخبرني عنها! أخبرني!»

«في وقت آخر، أيها الرئيس، يجب أن ألا نخلط بينهنّ، المسكينات! نخبك يا سوفينكا!»

أفرغ كأس النبيذ. ثم اتكأ على الحائط وقال:

«حسنًا! سأخبرك الآن عن نوسا. لقد توقّدت روسيا في دماغي الليلة. سوف أروي لك القصة!

مسح شاربيه وحرّك الجمار.

«كما أخبرتك، قابلتها في قرية كوبان في الصيف، بين جبال من البطيخ الأصفر والأحمر. كنتُ أقطف واحدة بين الفينة والأخرى ولا أحد يقول شيئًا. أقسمها نصفين وأدخل وجهي فيها.

«كلّ شيء متوفّر في روسيا، أيها الرئيس، يوجد من كل شيء أكوام. انتقِ وخذ ما تريد! وليس فقط البطيخ الأصفر والأحمر وإنما السمك والزبدة والنساء. تعبر، تشاهد بطيخة حمراء، فتأخذها، وقد ترى امرأة فتأخذها هي أيضا. الأمور هناك لا تجري مثلما هو الحال هنا في اليونان، حيث تُقذف أمام المحاكم لمجرّد انتزاعك القطعة الأصغر من قشر البطيخة، وحالما تلمس امرأة يندفع شقيقها شاهرًا سكّينًا كي يصنع منك النقانق! آه، ليذهب هذا الحشد البائس من المتسوّلين إلى الجحيم! يجب أن تذهب إلى روسيا إذا أردت أن تَخْبرَ معنى العيش كَلُورد.

«كنتُ مارًّا في كوبان فرأيتُ امرأة في أحد البساتين. أحببتُ نظرتها. يجب أن تعلم أيها الرئيس، أن المرأة السلافية ليست مثل اليونانيات النحيلات والحسودات اللواتي يبعنك الحب قطرة بعد قطرة، ويفعلن كلّ ما في وسعهنّ كي يخدعنك ولا يقدّرنك حق قدرك ويغششنك في الوزن. كلا، أيها الرئيس، إن السلافية تقدّرك حق قدرك، في النوم

والحب والطعام. إنها أقرب إلى وحوش الحقل والأرض نفسها. تمنح، وتمنح بكرم، إنها ليستْ شحيحة في الأمر كأولئك اليونانيات المساومات. سألتها: «ما اسمك؟» وكما ترى تعلمت من خلال النساء قليلاً من اللغة. فأجابت: «اسمي نوسا، وأنت ما اسمك؟» قلت: «اسمي ألكسيس. أحببتك كثيرًا يا نوسا». نظرتْ إليّ بتمعّن كما تفحص حصانًا قبل أن تشتريه. قالت: «لستَ عشبة ضارة. لديك أسنان جيدة، شارب كبير، ظهر عريض، ذراعان قويتان. أحبك». لم نقل شيئًا آخر، لم يكن هذا ضروريًا. توصّلنا إلى تفاهم في لحظة. كان يجب أن أذهب إلى بيتها في ذلك المساء في أحسن ملابسي. سألتني نوسا: «ألديك عباءة مخططة بالفرو؟» «نعم ولكن في هذه الحرارة... ». لا تهتم. أحضرها، ستبدو جميلة».

«وفي ذلك المساء جهّزتُ نفسي كعريس ووضعتُ عباءتي على ذراعي، أخذتُ أيضًا عصا بقبضة فضية كانت لدي وذهبت. كان منزلاً ريفيًا كبيرًا بأبنية خارجية وأبقار ومعاصر ومراجل فوق النار. سألتها: ما الذي يغلي هنا؟ أجابت إنه عصير البطيخ الأحمر. ثم سألت ما الذي يغلي على النار الأخرى فأجابتِ إنه عصير البطيخ الأصفر. قلتُ لنفسي: أية بلاد هذه! أتسمع هذا؟ عصير البطيخ الأحمر والأصفر! هذه أرض الميعاد! وداعًا أيّها الفقر! هنيئًا لك يا زوربا، لقد حالفك الحظ في هذا الموقف كفأرة في رطل جبن!

«وصعدتُ الدرج. كان درجا خشبيًا ضخمًا ويصدر صريرًا. وفي أعلاه وقف والدا نوسا. كانا يرتديان بنطلونين قصيرين وأحزمة حمراء بشرّابات طويلة. كانت جميلة، في الواقع. وفتح صاحبا الوجهين اللذين يشبهان وجه القرد ذراعيهما وطوقاني بالضمّ والقبل حتّى اغتسلت باللعاب. تحدّثا معي بسرعة عالية؛ فلم أفهم الكثير، ولكن ماذا يهم ؟ كان من الواضح من تعابيرهما أنهما لا يضمران لي أي شرّ.

«دخلتُ إلى الغرفة فما الذي رأيته؟ موائد تئنّ تحت الطعام والشراب،

twitter @baghdad_library

كسفن كبيرة مبحرة. كان الجميع يقفون: الأقرباء، النساء، الرجال، وفي المقدمة نوسا، متزيّنة، بفستانها المسائي، وثدياها مشرعان في الجو مثل حيزوم السفينة. كانت تمتلك شبابًا وجمالاً مذهلين. ترتدي منديلاً أحمر فوق شعرها، وفوق قلبها منجل ومطرقة مطرّزان. فقلتُ لنفسي: زوربا! أيّها المذنب الذي لا سبيل لتوبته؟ أهذا هو الجسد الذي ستطوّقه بذراعيك الليلة؟ ليسامح الله والدك ووالدتك اللذين قذفا بك إلى هذا العالم!

«رمينا جميعًا أنفسنا على الطعام بلهفة، نساءً ورجالاً. أسرفنا في تناول الشراب، أكلنا كالخنازير وشربنا كالأسماك. سألتُ والد نوسا الجالس قربي وقد تصاعد البخار من جسمه لشدّة إفراطه في الطعام: أين الكاهن كي يباركنا؟ أجابني واللعاب يتطاير من فمه: لا يوجد كاهن هنا. إن الدين أفيون الشعوب.

» قال هذا ونهض، نفخ صدره، أرخى حزامه الأحمر ورفع ذراعه طالبًا صمت الجميع. كان يحمل كأسًا مليئًا إلى حافته وينظر في عينيّ مباشرة. ثم بدأ يتحدث؛ موجّها خطابه إليّ. ما الذي كان يقوله؟ لا أحد يعرف سوى الله! تعبتُ من الوقوف. وشعرتُ بضجر كبير، فجلستُ وضغطتُ ركبتي على ركبة نوسا التي كانت إلى يميني.

إن العجوز لن يتوقف عن الكلام، كان العرق يتدفق منه. وهكذا اندفع الجميع إليه وعانقوه كي يجعلوه يتوقف عن التحدث. ففعل. أشارت إليّ نوسا بأنّ دوري في الحديث قد حان.

نهضتُ بدوري وألقيتُ خطابًا، نصفه بالروسية ونصفه الآخر باليونانية. ما الذي قلته؟ اللعنة عليّ إن كنت أعرف. أتذكر فقط أنّني غنيّتُ في النهاية بعض الأغاني الكلفتية الخاصة بقطاع الطرق، ودون وعي، بدأت أعوي:

نزل الكلفتيون من التلال،
كلٌّ منهم لصّ!

لم يعثروا على أية خيول
ولكنهم عثروا على نوسا!
وكما ترى أيها الرئيس، غيّرتُ الأغنية كي تلائم الظرف.
ذهبوا بعيدًا
(بعيدًا يذهبون، يا أمي).
آه نوسا
آه نوسا!
آي!
وحين لفظتُ كلمة آي رميتُ نفسي على نوسا وقبّلتها.

وهذا ما كانت تريده تمامًا. فاندفع بعض الشبان الأشداء من ذوي اللحى الحمراء، وكأنّني أعطيتهم الإشارة التي ينتظرونها، أو كأنّهم كانوا ينتظرون هذه الإشارة فحسب، وأطفأوا الأضواء.

بدأت النساء العاهرات بالصراخ لأنهن كن خائفات. ولكن في الحال، وفي الظلمة، بدأن يقهقهن. أحببن أن يُلْمسن ويضحكن.

لا أحد يعرف ما حدث سوى الله أيها الرئيس، وأظنه لم يعرف، لأنه لو عرف لكان أرسل صاعقة لإحراقهم. كانوا جميعًا مختلطين، رجالا ونساءً، متدحرجين على الأرض. ورحت أبحث عن نوسا، دون جدوى؟ فعثرتُ على امرأة أخرى وقمت بالعمل معها.

وعند بزوغ الفجر نهضتُ كي أغادر مع امرأتي. كان الجو ما يزال مظلمًا، ولم أستطع أن أرى بوضوح. أمسكتُ قدمًا، سحبتها. كلا، لم تكن نوسا. أمسكت قدمًا أخرى. كلا! سحبتُ ثالثة وأمسكت رابعة وخامسة وفي النهاية بعد إزعاج لا نهاية له عثرتُ على قدم نوسا، شددتهُ، وخلّصتها من ثلاثة شياطين كبار كانوا يزحفون فوق الفتاة المسكينة، وأيقظتها. قلت: نوسا، لنذهب! أجابت: لا تنس عباءتك، هيّا لنذهب. وانطلقنا».

قلتُ بعد أن رأيت أن زوربا صمت مرة أخرى: «حسنًا؟»

twitter @baghdad_library

«عشتُ معها ستة أشهر. ومنذ ذلك اليوم ـ وليكن الله شاهدًا على كلامي! ـ لم أخش أي شيء. لا شيء سوى شيء واحد هو أن يمحو الشيطان أو الله تلك الأشهر الستة من ذاكرتي. أتفهم؟ يجب أن تقول إنك تفهم».

أغمض زوربا عينيه. بدا متأثّرًا جدًا. كانت هذه هي المرة الأولى التي رأيته فيه متأثرًا إلى هذه الدرجة بذكرى من الزمن القديم.

سألته بعد بضع لحظات: «لا بدّ أنك أحببتَ نوسا كثيرًا؟»

فتح زوربا عينيه وقال: «ما تزال شابّا، أيها الرئيس، ما تزال شابًا، لا تستطيع أن تفهم! حين يشيب شعرك مثل شعري، سنتحدث ثانية عن هذا، عن هذه القصّة الأبديّة «.

«أي قصّة أبديّة؟»

«أيّ قصّة؟ المرأة بحق الشيطان! كم مرة يجب أن أقول لك إن المرأة قصّة أبديّة. الآن أنت مثل ديك صغير يقفز على الدجاجات قفزتين ثم ينفخ صدره، يقف على المزبلة ويبدأ بالصياح. إنّه لا ينظر إلى الدجاجات، بل إلى أعرافهنّ! حسنًا، ما الذي يمكن أن يعرف عن الحب؟ ليأخذه الشيطان!»

بصق على الأرض بازدراء. ثم أدار رأسه بعيدًا، لم يرغب في النظر إليّ.

سألته ثانية: «حسنًا يا زوربا، ماذا عن نوسا؟»

أجاب زوربا، مُحدّقًا في المسافة فوق البحر:

«حين عدتُ إلى المنزل في مساء أحد الأيام، لم أعثر عليها. لقد رحلتْ. كان قد وصل جنديٌّ أنيق إلى القرية فهربتْ معه. انتهى الأمر! انشقّ قلبي نصفين. ولكنّ هذا المخادع الْتأم من جديد. لا بدّ أنك رأيت تلك الأشرعة ذات البقع الحمراء والصفراء والسوداء المخيطة بخيط قنّب سميك لا يتمزق حتى في أعتى العواصف. هذا ما يشبهه قلبي. ثقوب لا تُحصى ورقع لا تُعَد: إنّه لم يعد يخشى شيئًا أبدًا!»

«وهل تحمل أيّ ضغينة على نوسا يا زوربا؟»

«لماذا؟ في وسعك أن تقول ما تشاء، إن النساء شيء مختلف، أيها الرئيس... شيء مختلف. إنها ليست كائنًا بشريًا! لماذا أحمل ضغينة عليها؟ إن المرأة شيء لا يُفهم، وقوانين الدولة والدين كلّها فهمَتْها خطأ. يجب ألا تتصرف هكذا حيال المرأة. إنها قاسية جدًا وغير عادلة. لو حدث وسننتُ القوانين فإنني لن أسنّ القوانين نفسها للرجال والنساء. عشر، مائة، ألف وصية للرجل. الرجل رجل، في النهاية؛ يستطيع تحمل الأمر. ولكن لا قانون واحدًا للمرأة. كم مرة عليّ أن أقول لك هذا أيها الرئيس؟ إن المرأة كائن بلا قوة. لنشرب نخب نوسا! ونخب المرأة!.. وليمنحنا الله نحن الرجال المزيد من العقل!».

شربَ، رفع ذراعه و فجأةً خفضها بقوّة و كأنه يهوي بفأس. وعاد يقول:

«إما أن يمنحنا نحن الرجال مزيدًا من العقل وإمّا أن يجري علينا عملية. وإلا، صدّقني، فإنّنا هالِكون».

twitter @baghdad_library

- 8 -

تساقط المطر في اليوم التالي وامتزجتْ السماء بالأرض في رقّة لا حدود لها. تذكّرتُ نقشًا هندوسيًا ضئيل البروز من الحجارة الرمادية القاتمة. كان النقش يصوّر رجلاً يطوّق امرأة بذراعه متوحّدًا معها بكثير من العذوبة والاستسلام بشكل يحدث انطباعا لدى المرء، بعد أن أتى الزمن على الجسدين وصقلهما، بأنه يرى حشرتين متعانقتيْن والمطر الناعم يتساقط عليهما. وبالشكل الحميم ذاته كانت الأرض تتشرّبه بلذّة وتمهّل.

كنتُ أجلس أمام الكوخ وأراقب الأرض تظلمُ ولون البحر يميل إلى الأخضر الفوسفوري. لم ألمح أي شخص من طرف الشاطئ إلى طرفه الآخر، لم ألمح شراعًا ولا طائرًا. فقط كانت رائحة الأرض تدخل عبر النافذة المفتوحة.

نهضتُ ومددتُ يدي إلى المطر كشحّاذ. شعرتُ فجأة برغبة في البكاء. حزن ما، ليس حزني ولكنه أعمق وأكثر غموضاً، كان يتصاعد من الأرض الرطبة: الهلع ذاته الذي يشعر به حيوان مسالم إذ يحدّق فجأة، ورغم أنّه لا يرى أيّ شيء، يرفع رأسه ويشمّ في الجو الذي حوله رائحة الوقوع في الفخّ دون أن يستطيع الهرب.

أردتُ أن أطلقَ صرخةً، عارفًا أنها ستريح مشاعري، ولكنني خجلتُ من ذلك.

كانت السحبُ تزدادُ انخفاضًا. نظرتُ عبر النافذة؛ فإذا قلبي ينبض برقّة. أية رغبة شهوانية في الحزن تستطيع أن تولّدها فيكَ تلك الساعات من المطر الخفيف. الذكريات المرّة كلّها تصعد إلى السطح: فراق

twitter @baghdad_library

الأصدقاء، ابتسامات النساء التي انطفأت، الآمال التي فقدتْ أجنحتها كفراشة لم تبق منها سوى الدودة، وتلك الدودة زحفتْ على ورقة قلبي وراحت تقضمها.

وشيئا فشيئا ظهرتْ صورةُ صديقي المنفيّ إلى القوقاز عبر المطر والتراب المشبع بالماء. تناولتُ قلمي، انحنيتُ فوق الورقة، وبدأتُ أتحدّث معه كي أمزّق شبكة المطر وأتمكّن من التنفّس.

صديقي العزيز

أكتبُ إليك من شاطئ معزول في كريت حيث اتّفقتُ أنا والقدر على أن أمكث عدة أشهر لكي ألعب دور الرأسماليّ. وإذا حالف النجاح لعبتي، فسأقول آنذاك إنها لم تكن لعبة، بل إنّني اتخذت قرارًا كبيرًا وغيّرتُ نمط حياتي.

تتذكر كيفَ دعوتني، وأنت تهمّ بالمغادرة، بالفأر قارض الورق. لقد أغاظني ذلك كثيرًا فقرّرتُ أن أهجر كتابتي على الورق لبعض الوقت - إلى الأبد؟ - وأن أرمي بنفسي في حياة الفعل. استأجرت منجمًا يحتوي على الفحم الحجري؛ استأجرتُ عمّالاً وأحضرتُ معاول ومجارف ومصابيح الأسيتيلين، والسلال، والعجلات. فتحتُ أنفاقًا ودخلتُ فيها. فعلتُ هذا كلّه كي أغيظك. وبعد الحفر وشقّ ممرات في الأرض، صار الفأر خلدًا. آمل أن أحظى بموافقتك على هذا التحوّل.

إن متعي هنا عظيمة، لأنها بسيطة جدًا وتنبع من العناصر الأبديّة: الجوّ النقيّ، الشمس، البحر ورغيف الحنطة. في المساء يجلس أمامي سندباد بحريّ فائق للعادة على الطريقة التركية ويتحدّث. وحين يتحدّث يكبر العالم. وأحيانًا، حين لا تكفي الكلمات، يقفز ويرقص. وحين لا يكفي الرقص يضع سنتوره على ركبتيه ويعزف.

يعزفُ أحيانًا لحنًا وحشيًّا فتشعر بأنك تختنق لأنك تدركُ على الفور أن حياتك بلا لون، بائسة، وغير جديرة بالإنسان. وأحيانا يعزف لحنًا

كئيبًا فتشعر أن حياتك تعبر، وتنساب كالرمل من بين أصابعك، وأنّ الخلاص مجرّد وهم.

إن قلبي يتحرك في صدري جيئة وذهابًا كالمكّوك. فهو ينسج تلك الأشهر القليلة التي أمضيها في كريت وأنا أعتقد - وليسامحني الله- أنني سعيد.

يقول كونفوشيوس: «إن كثيرين ينشدون سعادة أعلى من الإنسان؛ وينشد آخرون سعادة أدنى منه. ولكن السعادة على مقاس الإنسان». هذا صحيح. وخلاصته إذن أنّ لكلّ امرئ سعادة على مقاسه. وهكذا هي يا طالبي ومعلّمي سعادتي اليوم. إنّني أقيسها بقلق، ثم أقيسها ثانية، لأعرف تحديدا منزلتي في هذه اللحظة. لأنّك تعرف تمام المعرفة أن منزلة الإنسان متغيّرة على الدوام.

كيف تتحوّل روح الإنسان حسب المناخ، والصمت، والعزلة، أو الرفقة التي يعيش بينها!

فلا يبدو لي البشر حين أنظر إليهم من موقعي المنعزل كالنمل، بل على العكس، يبدون مثل وحوش كاسرة، مثل ديناصورات، وزواحف مجنّحة، تعيش في جوّ مشبع بحمض الكربونيك وخضرة كثيفة متآكلة تشكّل منها الخلق. غابة لا تُفهم، غابة عبثية.

إن مفاهيم مثل «الأمم» و«السلالة» التي أنت مولع بها، ومفهومي «الأمة المتفوّقة» و«الإنسانية» اللذين أغرياني، يكتسبان هنا القيمة نفسها تحت النَفَسِ الكُليّ القوّة للدمار. نشعر أننا صعدنا إلى السطح كي نطلق بعض المقاطِع، وأحيانًا ليس مقاطع، وإنما مجرد أصوات غير مصقولة: مثل آه ونعم! نُدمَّر بعدها كليّا. وحتى الأفكار الأكثر سموًّا، إذا شُرِّحتْ، فإنها ستبدو مجرد دمى محشوّة بقشور النّخالة، ويُعثر داخل القشور على نابض مختف.

أنت تدرك جيّدا أن هذه التأملات القاسية، لا تستطيع أن تدفعني

twitter @baghdad_library

إلى الاستسلام، إنّها، على النقيض من ذلك، مادّة سريعة الاشتعال لابدّ منها لِشعلتي الداخلية. وكما يقول معلّمي بوذا فقد: «رأيت». وبما أنّني رأيت، وفي رفّة هدب، فقد حصلت على الرؤية. وفي رفة هدب، تصالحتُ مع المُخرج اللامرئي برغبة ومرح، وأستطيع من الآن فصاعدًا أن ألعب دوري على الأرض إلى النهاية، بتماسك ودون تثبيط للهمّة. وما دمتُ رأيت فقد اشتركت أنا أيضا في العمل الذي أمثّله على مسرح الله.

وهكذا، ماسحًا المسرح الكوني، أستطيع أن أشاهدك هناك، في تلك المعاقل الخيالية للقوقاز تلعبُ دورك أيضًا؛ أستطيع أن أراك وأنت تقاتل كي تنقذ آلاف الأشخاص من سلالتنا المعرّضين لخطر الموت. إنّك بروميثيوس آخر يجب أن يعاني من عذابات حقيقيّة وهو يقاتل القوى المظلمة للجوع والبرد والمرض والموت. ولكنّك تغتبط أحيانًا، لما فيك من كبرياء، من أن قوى الدمار المظلمة عديدة ولا تُقهر: وهكذا يصبح هدفك في أن تكون بلا أمل تقريبا أكثر بطولة وتكتسبُ روحك عظمة أكثر مأسَوية.

أكيد أنه يجب أن تعتبر الحياة التي تعيشها حياة سعيدة. وبما أنك تعدّها هكذا، فهي كذلك. ولقد فصّلتَ سعادتك أيضًا على مقاس منزلتك؛ ومنزلتك الآن - شكرًا لله - أكبر من منزلتي. إن المعلّم الجيّد لا يرغب في مكافأة أكبر من هذه: أن يكوّن طالبًا يتجاوزه.

بالنسبة إلي، أنا أنسى دومًا، أنتقصُ من نفسي، أفقد طريقي، و ما إيماني غير فسيفساء من عدم الإيمان. أشعرُ أحيانًا أنني يجب أن أعقد صفقة: أن أعيش لحظة وجيزة وأمنح ما تبقّى من حياتي مقابلا لها. ولكنّك تمسك الخوذة بقوّة ولا تنسى أبدًا، حتى في أعذب لحظات الحياة، نحو أيّ جهة قررت أن تمضي.

أتَذكُرُ اليوم الذي عبرنا فيه إيطاليا في طريقنا إلى اليونان؟ قرّرنا وقتها أن نذهب إلى منطقة بونتوس، التي كانت آنذاك في خطر. نزلنا

من القطار بسرعة في بلدة صغيرة، ولم يكن لدينا سوى ساعة واحدة كي نلحق بالقطار الآخر. ذهبنا إلى حديقة كثيفة الأشجار قرب المحطة. كانت هناك أشجار ذات أوراق عريضة، أشجار موز تنمو، وخيزران من اللون المعدني الداكن، وكان النحل يحتشد فوق غصن مزهر، يرتجف سعيدا وهو يراه يمتصّ الزهر.

طفنا في نشوة صامتة، وكأنّنا في حلم. فجأة، عند منعطف الممر المزهر، ظهرت فتاتان تقرآن كتابًا وهما تتابعان طريقهما. لم أعد أتذكّر إن كانتا جميلتين أو بسيطتين. أذكر فقط أن إحداهن كانت جميلة، والأخرى داكنة، وكلاهما ترتدي بلوزة ربيعية.

وبالشجاعة التي يمتلكها المرء في الأحلام، اقتربنا منهما وقلت: «مهما كان الكتاب الذي تقرآنه سنناقشه معكما».كانتا تقرآن غوركي. ثم، بسرعة بالغة، ذلك أننا لم نكن نمتلك سوى النذر القليل من الوقت، تحدثنا عن الحياة والفقر وثورة الذهن والحب..

لن أنسى أبدًا متعتنا وحزننا. شعرنا بأنّنا كنا صديقين قديمين للفتاتين المجهولتين وعاشقين أيضا؛ صرنا مسؤولين عن روحيهما وجسديهما، واستعجلنا، ذلك أنه بعد لحظات قليلة سنغادرهما إلى الأبد. وفي الجو المتذبذب استطعنا أن نشمّ الاغتصاب والموت.

وحين وصل القطار مُصفّرا، بدأنا. قفزنا وكأنّنا استيقظنا من حلم. وتصافحنا. كيف يمكن أن أنسى القبضة المحكمة واليائسة لأيدينا، والأصابع العشر التي لم ترغب في الانفصال. كانت إحدى الفتاتين شاحبة جدًا، وكانت الأخرى تضحك وترتجف.

وأذكر أنني قلتُ لك وقتها: «ما الذي تعنيه اليونان، والوطن، والواجب؟ إن الحقيقة هنا!» وأجبت: «إن اليونان، والوطن، والواجب لا تعني أي شيء. غير أنّنا من أجل هذا اللاّشيء سنذهب طواعية إلى الموت».

ولكن لماذا أكتب لك هذا ؟ أكتبه حتّى ترى أنني لم أنس أيًّا من

twitter @baghdad_library

اللحظات التي عشناها سويّة. وأيضًا كي أحظى بفرصة التعبير عمّا لا أستطيع أن أكشفه لك أبدًا حين نكون سوية بسبب عادتنا الجيدة أو السيئة في كبح مشاعرنا.

لم تعد الآن أمامي ولا تستطيع أن ترى وجهي، وبما أنني في هذه اللّحظة لا أجازف بالظهور لطيفًا أو سخيفًا، أستطيع أن أقول لك إنني أحبك بعمق كبير.

أنهيتُ رسالتي. لقد تحدّثتُ مع صديقي وشعرتُ بالراحة. ناديتُ زوربا، وكان جالسًا على صخرة كي لا يتبلل وهو يجرّب مصعده. وصحت:

«تعال يا زوربا، لنذهب في نزهة إلى القرية معًا».

«مزاجك رائق، أيها الرئيس، ولكنّها تمطر. ألا تستطيع الذهاب وحدك؟»

«أستطيع، غير أنّي لا أريد أن أفقد هذا المزاج. وإذا ذهبنا سوية فلن أغامر بشيء. هيّا».

ضحك قائلا:

«أنا سعيدٌ لأنّك بحاجة إليّ. لنذهب، إذن».

ارتدى معطفه الصوفيّ الكريتي ذا القبّعة المدبّبة الذي أهديته له، وسرنا عبر الطين متجهين نحو الطريق.

كان المطر يتساقط، قمم الجبال مخبأة، ولا ريح هناك لتهبّ. توهّجت الحصى. واختنقت هضبة الفحم الحجريّ بالضباب، وكأنّ حزنا بشريا يغلّف وجه النسل الأنثويّ جعلها تبدو في أعيننا كامرأة فقدت وعيها تحت المطر.

قال زوربا: «إن قلب الإنسان يعاني حين يهطل المطر. ويجب ألا نلومه على ذلك أيها الرئيس. إنّ لهذا المسكين البائس روحًا، هو أيضًا».

وقف عند سياج من الأشجار وقطف أولى أزهار النرجس البريّ الصغيوة. نظر إليها مليًّا وكأنّه لا يستطيع الكفّ عن رؤيتها، أو كأنه يرى

النرجس للمرة الأولى. استنشقها مُسبلا جفنيْه، وشمّها، ثم قدّمها إلي، قائلا:

«ماذا لو كنا نعرف، أيها الرئيس، ما تقوله الحجارة والمطر والأزهار. ربما كانت تنادينا ولا نسمعها. متى ستُفتح آذان الناس، أيها الرئيس؟ متى ستنفتح أعيننا كي نرى؟ متى سنفتح أعيننا كي نعانق كل شيء: الحجارة والمطر والأزهار والرجال؟ ما رأيك بهذا؟ وما الذي تملكه كتبك كي تقوله عنه؟»

قلتُ، مستخدما تعبير زوربا المفضّل: «ليأخذها الشيطان! هذا ما تقوله، ولا شيء آخر!»

أمسكني زوربا من ذراعي.

«سأخبرك عن فكرة خاصة بي، أيها الرئيس، ولكن يجب ألا تغضب. اجمع كتبك كلّها في كومة وأحرقها! بعد ذلك، من يعرف، فلا أراك مغفّلا، أنت من النوع الملائم... يمكن أن نصنع منك شيئًا ما!»

قلتُ لنفسي: «إنه على صواب. إنه على صواب ولكنني لا أستطيع».

تردّد زوربا وفكّر. ثم قال:

«هناك شيء واحد أستطيع رؤيته...»

«ما هو؟ قل!»

«لا أعرف تماما، يبدو لي هكذا، إنّني أفهم شيئا ما. ولكن إذا حاولتُ أن أخبرك، سأقوم بذلك على نحو سيئ. في أحد الأيام حين أكون مرتاحًا سأرقصه لك».

بدأ سقوط المطر يزداد شدّة. وصلنا إلى القرية. كانت هناك فتيات صغيرات يسقن الخراف عائدات من المرعى؛ و الفلاحون يزيلون النير عن ثيرانهم ويغادرون الحقول نصفَ محروثة؛ والنساء يركضن وراء الأطفال في الشوارع الضيّقة. لقد عمّ القرية ذعرٌ مبهج حين بدأ المطر يهطل. أطلقت النساء صرخات حادّة وأعينهن تضحك؛ وعلى لحى

twitter @baghdad_library

الرجال المتصلّبة وشواربهم المرفوعة إلى أعلى تعلّقت قطرات كبيرة من المطر. واستيقظت رائحة قويّة من التراب والأحجار والعشب.

دخلنا المقهى كجرذين مبلّلين. كان مكتظًّا. بعض الرجال يلعب الورق، وآخرون يتجادلون بأعلى أصواتهم وكأنهم يتنادون من جبل لآخر. وحول طاولة صغيرة في الطرف الأقصى كان كبار القرية يسنّون القانون: العم أناغنوستي بقميصه الأبيض ذي الكمّين العريضين؛ مافراندوني، الحادّ والصامت، يدخّن نرجيلته، وعيناه مثبّتتان إلى الأرض؛ أستاذ المدرسة متوسّط العمر، النحيل، والمهيب يتكئ على عصاه السميكة ويصغي بابتسامة متواضعة إلى عملاق كثيف الشعر عاد لتوّه من كانديا وراح يصف أعاجيب المدينة الكبيرة. أمّا مالك المقهى، الواقف وراء منصّته، فقد كان يصغي ويضحك وهو يراقب آنية القهوة الموضوعة على الموقد.

حالما رآنا العم أناغنوستي نهض. وقال:

«تعالا وانضمّا إلينا يا ابنيّ البلد. إن سفاكيانو نيكولي يخبرنا عن كلّ ما شاهده وسمعه في كانديا. إنه مضحك جدًا. هيّا!»

استدار إلى مالك المقهى وقال:

«أحضرْ كأسيّ راكي يا مانولاكي!»

جلسنا. وحين شاهد الراعي البريّ غريبين حاضرين، انسحب إلى صَدَفته ولاذ بالصمت.

قال أستاذ المدرسة كي يدفعه إلى الكلام: «حسنًا يا زعيم نيكولي، ألم تذهب إلى المسرح، أيضًا؟ أخبرنا كيف وجدته؟»

مدّ سفاكيانو نيكولي يده الكبيرة، أمسك كأس نبيذه، وتجرّعه كي يستنهض الشجاعة. وصاح:

«وكيف لا أذهب إلى المسرح؟ بالطبع، فعلت ذلك! كنت أسمعهم يقولون دائما كوتوبولي هنا، كوتوبولي هناك. وهكذا في مساء أحد الأيام رسمتُ إشارة الصليب وقلت: حسنًا، لماذا لا أذهب وأراها بعينيّ؟ فمن

تكون بحق الشيطان هذه الممثلة اليونانية المشهورة كي يقوموا بكل ذلك اللغط حولها ؟».

سأله العم أناغنوستي: «ما الذي رأيته أيّها الشاب؟ أخبرنا، بحق الله!».

«حسنًا، قسمًا بروحي، لم أر الكثير من أي شيء. تسمعهم جميعًا يتحدّثون عن هذا «المسرح»، وتقول بينك وبين نفسك: «الآن سأشاهد شيئًا ما». ولكن، أقول لكم، إنكم تبدّدون نقودكم. كان المسرح عبارة عن مقهى كبير مستدير، كالرحى، مليء بالكراسي والأضواء والناس حتّى ليكاد ينفجر. لم أعرف أين كنتُ وبهَرَتني الأضواء فلم أستطع أن أرى شيئا. قلتُ بيني وبين نفسي: «إلى الشيطان، لابدّ أنّ في الأمر مقلبا؛ سأرحل». وفي اللّحظة ذاتها أمسكتني فتاة لعوب كطائر الذُّعرة من يدي. قلتُ لها: إلى أين تأخذينني؟ ولكنها راحت تسحبني من يدي دون أن تهتمّ بما أقوله ثم استدارت نحوي أخيرًا وطلبت مني الجلوس. وهكذا جلستُ. فكّروا بالأمر فحسب. لا شيء سوى الناس أمامي وخلفي وإلى جانبيّ، وحتى السقف. قلت لنفسي إنني سأختنق إذ لا وجود للهواء. ثم استدرتُ إلى جاري وسألته: أتستطيع أن تخبرني يا صديقي من أين ستخرج تلك المغنيّات؟ فقال لي وهو يشير إلى ستار: «لماذا، مِنَ الداخل، هناك.»

«وكان على صواب، فسرعان ما رنّ جرسٌ وأزيحتْ الستائر وكانت هناك كوتوبولي كما يسمّونها، أمامك على خشبة المسرح. ولكن لا تسألني لماذا يسمّونها الدجاجة: حسنًا، إنها امرأة، بكل أجزائها. فقط تستدير وتهز ذيلها إلى أعلى وأسفل وحين يكتفون من هذا يبدؤون بالتصفيق بأيديهم وتعدو خارجة بسرعة».

اهتزّ القرويون من الضحك. كان سفاكيانو نيكولي مغتاظًا وبدا محمرّ الوجه من الخجل. استدار إلى الباب.

قال كي يغيّر الموضوع: «انظروا إلى المطر المتساقط».

twitter @baghdad_library

تبعتْ أعين الجميع إشارته. وفي تلك اللحظة مرّتْ امرأة راكضة وقد أسبلت شعرها على كتفيها ورفعت تنّورتها السوداء إلى الركبتين. كانت مكتنزة، متمايلة وثيابها ملتصقة بجلدها كاشفة عن جسد صلب مثير.

جفلتُ. وقلت في نفسي أي صيد هو هذا؟. بدتْ لي رشيقة وخطيرة، تلتهم الرجال.

أدارت المرأة رأسها للحظة وألقت نظرة سريعة حائرة داخل المقهى.

«يا للعذراء المقدسة!» قال شاب غرٌّ بلحية ناعمة متدلية كان يجلس قرب النافذة.

«اللعنة على تلك المغوية!» زأر مانولاكاس، شرطيّ القرية. «اللعنة عليك؛ تضرمين النار في الرجل ثم تتركينه يحترق!».

بدأ الشاب الجالس قرب النافذة يدندن بهدوء، تردّد بادئ الأمر ثمّ علا صوته شيئا فشيئا وصار أجشّ:

لوسادة الأرملة رائحة السفرجل

أنا أيضًا عرفتُ ذلك العطر ولم أعد أستطيع النوم.

صاح مافراندوني، ملوّحًا بأنبوب نرجيلته.

صمت الشاب. مال عجوز نحو الشرطي مانولاكاس وهمس:

«لقد غضب عمّك. إذا حدث ووقعتْ بين يديه فإنه سيفرم المسكينة إلى قطع. ليرحمها الله!».

قال مانولاكاس: «آه أيها العجوز أندروليو. يبدو لي أنك أيضا تتعقب تنّورة الأرملة. أيها القندلفت! ألا تشعر بالخجل؟»

«كلّا! استمعْ إليّ. ليَحْمِها الله! لعلّك لم تلاحظ نوع الأطفال الذين يُولدون في القرية مؤخرًا؟ ... إنّهم جميلون كالملائكة. أتستطيع أن تقول لي لماذا؟ حسنا، لتباركْ إذن هذه الأرملة، فهي عشيقة جميع أهل القرية: فأنت تطفئ مصباحك وتتخيّل أن ما بين ذراعيك ليست امرأتك، وإنما الأرملة. ولهذا السبب تنتجُ قريتك للعالم أطفالاً في غاية الجمال!».

وبعد لحظة صمت قال العجوز أندروليو:

«إنّ الفخذين اللّذين يكتب لهما معانقتها لَمحظوظان! آه، يا صديقي، لو أنني كنتُ في العشرين فقط مثل الشاب بافلي، ابن مافراندوني!».

قال أحدهم وهو يضحك: «والآن سنرى مع من ستعود إلى المنزل!»

استدار الجميع نحو الباب. كان المطر يتساقط بغزارة. وكانت المياه تتدفق فوق الأحجار. وبين فينة وأخرى كان البرق يلمع عبر السماء. ولم يعد زوربا يحتمل وقد اندلعت النيران فيه منذ مرور الأرملة. فتنهّد قائلاً لي:

«إن المطر يتوقّف أيها الرئيس، فلنذهب!»

ولكنّ فتى حافي القدمين مشعّث الشعر بعينين كبيرتين متوحشتين ظهر على الباب. هكذا تمامًا كان رسّامو الأيقونات يصوّرون القديس يوحنّا المعمدان، بعينين مضخّمتين جدًا من الجوع والصلوات. وبمجرّد ظهوره صاح عدّة أشخاص،ضاحكين:

«مرحبًا، ميميكو!»

كان لكل قرية مهرّجها وإذا لم يوجد واحد فإنهم يخترعونه لكي يمضوا الوقت. وهكذا كان ميميكو مهرج قريته.

قال ميميكو بصوته الخنثوي: «يا أصدقائي! يا أصدقائي! لقد فقدت الأرملة سورميلينا نعجتها. ثمّتَ مكافأة مؤلّفة من جالون من النبيذ لكل من يعثر عليها!»

صاح العجوز مافراندوني: «اخرجْ! اخرجْ!»

فالتفّ ميميكو مرعوبًا في زاوية قرب الباب.

قال العم أناغنوستي شاعرًا بالأسف عليه: «اجلسْ يا ميميكو، تناول كأسًا من الراكي كي تدفئ نفسك. ما الذي سيحدث لقريتنا لو لم يكن لدينا أبله».

ظهر على العتبة شابٌّ يبدو شديد النحول وعيناه زرقاوان. كان يلهث،

twitter @baghdad_library

وشعره الذي كان منبسطًا إلى جبهته، يبلله ماء المطر.

صاح مانولاكاس: «مرحبًا يا بافلي! مرحبًا يا ابن العم! تفضّل بالجلوس».

نظرَ مافراندوني إلى ولده وعبسَ.

قال لنفسه: «أهذا ولدي؟ هذا التافه الحقير الصغير! من أورثه ذلك بحق الشيطان؟ أودّ لو ألتقطه من قفا عنقه وأرميه على الأرض كأخطبوط!».

كان زوربا كقطة على آجرّ حارّ. فقد ألهبتْ المرأة حواسّه، ولم يعد يتحمّل البقاء داخل هذه الجدران الأربعة.

كان يهمس كل ثانية: «لنذهبْ أيها الرئيس. سننفجر في هذا المكان!»

بدا له وكأنّ الغيوم قد تناثرتْ والشمس قد أشرقتْ.

استدار إلى مالك المقهى وسأل متظاهرًا باللامبالاة: «من تكون تلك الأرملة؟»

أجابه كوندومانوليو: «فرس استيلاد».

وضع أصابعه على شفتيه وألقى نظرة ذات مغزى على مافراندوني، الذي ثبّتَ عينيه مرة أخرى على الأرض.

كرّر: «فرس. لنتوقّف عن الحديث عنها، خشية أن تحلّ علينا اللعنة!»

نهض مافراندوني ولفّ الأنبوب حول عنق نرجيلته. وقال:

«اعذروني، أنا ذاهب إلى المنزل. اتبعني، يا بافلي!»

قاد ولده بعيدًا. مرّا أمامنا وسرعان ما اختفيا تحت المطر. نهض مانولوكاس أيضًا وتبعهما.

استقرّ كوندومانوليو على كرسيّ مافراندوني.

قال بصوت منخفض كي لا يسمعه من يجلس إلى الطاولات المجاورة: «يا للمسكين مافراندوني! سيموت من الغضب. مصيبة كبرى حلّت بمنزله. لقد سمعتُ بافلي بأذني وهو يقول البارحة لوالده إنه إذا لم تصبح زوجة له فإنه سينتحر. ولكن تلك العاهرة لا تريده. قالت له

اغربْ عن وجهي وامسحْ مَخاطك».

كرّر زوربا: «لنذهب». ولدى كل كلمة تقال عن الأرملة كانت إثارته تزداد قوة.

بدأ الديك يصيح؛ ولم يكن المطر غزيرًا جدًا. فقلتُ، ناهضًا:

«هيّا بنا، إذن».

قفز ميميكو من زاويته وخرج بعدنا.

كان الحصى يتوهّج؛ والماء يبدو أسود وهو يسيل من الأبواب؛ وخرجت العجائز الضئيلات حاملات سلالهن للبحث عن الحلازين.

جاء ميميكو إليّ ولمس ذراعي. وقال:

«سيجارة يا سيدي. ستجلب لك الحظ الجيّد في الحبّ».

أعطيته سيجارة. مدّ يدًا نحيلة أحرقتها الشمس.

«أعطني ولاّعة أيضًا»

أشعلتُ له السيجارة؛ سحبَ نَفَسًا إلى رئتيه وبعينين نصف مغمضتين، نفخ الدخان من منخريه. ثمّ تمتم:

«أنا الآن سعيد كباشا!»

«إلى أين أنت ذاهب؟»

«إلى حديقة الأرملة. قالت إنها ستقدم لي بعض الطعام إذا نشرتُ الأنباء عن نعجتها».

سرنا بسرعة. كانت هناك فرجات بين الغيوم. وكانت القرية كلّها مغسولة من جديد، تبتسم.

سأل زوربا متنهّدًا: «هل تحب الأرملة يا ميميكو».

ضحك ميميكو.

«ولماذا يجب ألاّ أحبّها يا صديقي؟ ألم أخرج من بالوعة كالجميع؟».

قلتُ منذهلاً: «من بالوعة؟ ما الذي تعنيه يا ميميكو؟»

«حسنًا، من أحشاء الأم».

twitter @baghdad_library

ذُهلتُ. إنّ شخصًا كشكسبير فقط وفي لحظاته الأكثر إبداعية يمكن أن يعثر، كما اعتقدتُ، على تعبير يجسّد واقعية خاما كهذه كي يصوّر لغز الولادة المظلم والمقيت.

نظرتُ إلى ميميكو. كانت عيناه كبيرتين ومنتشيتين وفيهما حَولٌ ضئيل.

«كيف تُمضي أيامك يا ميميكو؟»

«وكيف برأيك؟ أعيش كلوردا! أستيقظ في الصباح، آكلُ كسرةَ خبز يابس. ثم أقوم بأعمال غريبة للناس، في أي مكان، أي شيء، أقوم برحلات، أنقل السماد، أجمع روث الأحصنة، ولديّ قصبة صيد. أعيش مع عمتي، الأم لينيو، النادبة المحترفة. يجب أن تعرفها، الجميع يعرفونها. لقد التُقطتْ لها صورة. في المساء أعود إلى المنزل، أشربُ إناء من الحساء وقطرة من النبيذ، إذا كان متوفّرًا. إذا لم يكن متوفّرًا أشرب ما يكفي من مياه الله لجعل بطني ينتفخ كالطبل. ثم، تصبحون على خير!».

«ألن تتزوّج يا ميميكو؟»

«ماذا؟ أنا؟ لستُ معتوهًا! أي شيء تسأل عنه الآن يا صديقي؟ هل يجب أن أُسرج نفسي بالمتاعب؟ تحتاج المرأة إلى حذاء! أين أعثر عليه؟ انظر، أسير حافي القدمين!»

«أليس لديك أي حذاء؟»

«من تظنّني؟ بالطبع أملك! توفّي رجل العام الماضي فسحبت عمتي الحذاء من قدميه. أنتعله في عيد الفصح ثم أذهب إلى الكنيسة كي أحدق في الكاهن. ثم أخلعه، وأعلقه حول عنقي، وأعود إلى المنزل»

«ما الذي تحبّه أكثر من أي شيء آخر يا ميميكو؟»

«أولاً الخبز. آه، كيف لا أحب هذا! هشّ وساخن، ولاسيّما خبز الحنطة. ثم النبيذ. وأخيرا النوم».

«ماذا عن النساء؟»

«إف! آكل وأشرب وأنام، كما قلت. وكلّ ما تبقى يسبّب المشكلات».

«والأرملة؟»

« دعها للشيطان. هذا أفضل ما تفعله... فُكّ عنّي أيها الشيطان».

بصق ثلاث مرات ورسم علامة الصليب.

«هل تستطيع القراءة؟»

«انظر إليّ! أنا لستُ مغفّلاً! حين كنتُ صغيرًا جُررتُ إلى المدرسة، ولكنني كنتُ محظوظًا. أُصبتُ بعدوى بالتيفوس وصرتُ أبله. وهكذا نجحتُ في التخلص من الدروس».

وضجر زوربا من أسئلتي. فلم يكن في وسعه التفكير بأي شيء سوى الأرملة.

قال بعد أن أمسكني من ذراعي: «أيها الرئيس...»، ثم استدار إلى ميميكو وأمره بأن يتابع سيره قائلاً: «لدينا شيء نتحدّث عنه».

قال: «أيها الرئيس... هذا هو الأمر الذي أعتمد عليك فيه. والآن لا تلحق العار بالنوع الذكري! إنّ الشيطان أو الرحمان يرسل لك قطعة الخيار هذه. لديك أسنان. حسنًا، اغرزها فيها. مدّ ذراعيك وخذها! لماذا منحنا الخالق يديْن؟ كي نأخذ الأشياء! إذن خذها! لقد رأيتُ عددًا كبيرًا من النساء في زمني. ولكن هذه الأرملة الملعونة تجعل أبراج الكنائس تهتزّ!»

أجبت غاضبًا: «لا أريد أيّ مشاكل!».

شعرتُ بالغيظ لأنّني في قلب قلبي رغبتُ أيضًا في ذلك الجسد الكلي القدرة الذي عبرني كوحش بريّ في الحرارة يقطر مسكًا.

قال زوربا منذهلاً: «لا تريد مشاكل! إذن، صلِّ، ما الذي تريده أيضًا؟»

لم أجبه.

واصل زوربا: «الحياة نفسُها مشكلة. أمّا الموت فلا. أن تحيا، هل تعرف ماذا يعني ذلك؟ يعني أن تفكّ زنّارك وتبحث عن المشكلات!»

twitter @baghdad_library

بقيتُ صامتًا. أعرف أن زوربا على حق، ولكنني لم أتجاسر. لقد سارت حياتي على المسار الخطأ، وصار اتصالي بالرّجال الآن مجرّد مناجاة للذات. لقد انحدرتُ كثيرًا حتّى أنّني إذا اضطررتُ للاختيار بين الوقوع في حب امرأة وقراءة كتاب عن الحب، أختار الكتاب.

واصل زوربا كلامه: «لا تحسب أيها الرئيس. اترك أرقامك وحدها، حطّم الميزان البغيض، أغلق دكّانك. لقد حان الوقت الآن كي تنقذ روحك أو تخسرها. اسمعْ، أيها الرئيس، خذْ منديلاً، اربط به باوندين أو ثلاثة، اجعلها ذهبية، لأن الورقية لا تبهر؛ وأرسلها إلى الأرملة مع ميميكو. علّمه ماذا يقول: «يرسل إليك صاحب المنجم أفضل أمنياته وهذا المنديل الصغير. إنه فقط شيء صغير، كما قال، أمّا حبّه فكبير. وإذا ما ضاعت النعجة فلا تكترثي؛ أنا هنا، لا تخافي! لقد رآك تمرّين قرب المقهى فمرض ولا أحد غيرك يداويه!».

ثم في المساء نفسه تقرع الباب. يجب أن تطرق الحديد وهو حامٍ. قلْ لها إنك أضعتَ طريقك. الظلام مخيّم، هل تتكرّم وتعيرك قنديلاً. أو أنك شعرتَ بدوخة مفاجئة وبحاجة إلى كأس ماء. أو من الأفضل أن تشتري نعجة أخرى وتأخذها إليها وتقول: انظري يا سيدتي. إليك بالنعجة التي فقدتها. أنا من عثر عليها. وتمنحك الأرملة -استمع إلى هذا يا رئيس- تمنحك المكافأة وتدخل إلى... آه يا إلهي، لو أستطيع فقط أن أركب فرسك وراءك -أقول لك، يا رئيس، إنك ستدخل الجنة على ظهر الحصان. إذا كنتَ تبحث عن أيّ جنة أخرى غير هذه، يا صديقي المسكين، فإنها لا توجد! لا تصغِ إلى ما يقوله لك الكهنة، ما من جنة أخرى!»

لا بدّ أننا كنا نقترب من حديقة الأرملة، ذلك أن ميميكو تنهّد وبدأ يغنّي أحزانه بصوته المتلعثم:

نبيذ للكستناء، عسلٌ للجوز

فتاة جميلة للشاب، وشابٌّ للفتاة الجميلة.

خطا زوربا بساقيه الطويلتين، ومنخراه يرتعشان. توقّف فجأة، سحبَ نفَسًا عميقًا. نظر إليّ مباشرة في عينيّ. وقال:

«حسنا؟...»

وانتظر بلهفة.

أجبتُ بقسوة: «هذا ما سأفعله».

وسرّعتُ سيري.

هزّ زوربا رأسه وقال شيئًا لم أسمعه.

حين وصلنا إلى الكوخ، جلس متصالب القدمين، ووضع سنتوره على ركبتيه وخفض رأسه، واستسلم لتأمل عميق. بدا وكأنه كان يصغي، ورأسه على صدره، إلى أغان لا تُحصى محاولا اختيار واحدة تكون الأكثر جمالاً ويأسًا بينها كلّها. قام باختياره في النهاية وبدأ أغنية تفطر القلب. كان بين فينة وأخرى ينظر إليّ بانحراف. شعرتُ أنّ ما لم يستطع قوله، بل ما لم يتجرأ على أن يقوله لي في كلمات، كان يحاول قوله بالسنتور. إنني كنتُ أبدّد حياتي، إنني أنا والأرملة كنا مجرّد حشرتين تعيشان لثانية تحت الشمس ثم تموتان إلى الأبد. وبعد ذلك لاشيء! لا شيء!

قفز زوربا. أدركَ فجأة أنه يُتعبُ نفسه عبثًا. اتكأ على الجدار، أشعل سيجارة، وبعد لحظة، تحدّث.

«سوف أطلعك على سرّ أيها الرئيس كشفه لي مرة حاجّ تركي في سالونيكا... سأبوح به لك، حتى ولو لم يفعل أي شيء جيد.

«في ذلك الوقت كنتُ بائعًا متجوّلًا في مقدونيا. كنتُ أذهب إلى القرى كي أبيع بكرات الخيطان والإبر وحيوات القديسين ونبات البنزْويّنْ والفلفل. كنتُ أمتلك صوتًا نادرًا آنذاك... كنتُ بلبلاً حقيقيًّا. يجب أن تعرف أن النسوة يستسلمن أيضًا للصوت. وما الذي لا يستسلمن له أولئك العاهرات! وحده الله يعرف ما الذي يجري في دواخلهنّ! يمكن أن تكون دميمًا كالخطيئة، أعرج أو أحدب، ولكن إذا كُنتَ ذا صوت عذب

twitter @baghdad_library

وتجيد الغناء فإنّك تفقدهنّ عقولهنّ كليًّا.

«كنتُ أبيع أيضًا في سالونيكا ولقد دخلتُ إلى الأحياء التركية. ويبدو أنّ صوتي سحرَ امرأة مسلمة غنيّة، ابنة باشا، إلى حدّ أنّها لم تعد تستطيع النوم. فطلبت شيخًا عجوزًا وملأت يديه بالمجيديات. قائلة له: أمان! اذهبْ واطلب من البائع الجوّال أن يأتي. أمان! يجب أن أراه. لا أستطيع أن أتحمّل أكثر.

«جاء الشيخ كي يعثر عليّ وقال: اسمع أيها الرومي العجوز. تعال معي. قلتُ: كلا. إلى أين تريد أن تأخذني؟ ثمّتَ ابنة باشا كماء النبع. تنتظرك في غرفتها. هيا، أيها الرومي الصغير! ولكنني عرفتُ أنهم قتلوا في الليل بعض الكفار المسيحيين في الأحياء التركية. فقلت: كلاّ لن أذهب. قال: ألا تخشى الله أيها البائع المتجوّل؟ قلت: ولماذا؟ قال: أيها الرومي الصغير إن من يستطيع أن ينام مع امرأة ولا يفعل يرتكب ذنبًا عظيمًا. يا ولدي، إذا دعتكَ امرأة كي تشاطرها فراشها وامتنعت عن الذهاب، فإن روحك ستُدمَّر! ستتنهّد تلك المرأة أمام الله يوم القيامة، وتنهيدة تلك المرأة ستلقيك في الجحيم مهما كنت ومهما كانت أعمالك رائعة».

تنهّد زوربا. ثمّ قال:

«إذا كان الجحيم موجودًا سأذهب إليه، وهذا سيكون السبب. ليس لأنني سرقتُ وقتلتُ أو مارستُ الزنا، كلا! إن كل هذا لا شيء. سأذهبُ إلى الجحيم لأنه في إحدى الليالي في سالونيكا انتظرتني امرأة في سريرها ولم أذهب إليها...»

نهض، أوقد النار وبدأ يطبخ وجبتنا. نظر إليّ من زاوية عينه، ابتسم بازدراء. وتمتم:

«تستطيع أن تقرع إلى الأبد باب رجل أصمّ!» وانحنى وبدأ ينفخ الحطب الرطب بغضب.

- 9 -

ازدادت الأيام قصرًا، وأصبحت الشمس تغرب بسرعة، ونحو نهاية كل أصيل كان القلب يضطرب. خيّم علينا رعبٌ بدائيٌّ، رعب أسلافنا الذين كانوا يراقبون الشمس في الشتاء وهي تنطفئ قبل أوانها كلّ يوم. «غدًا ستتلاشى إلى الأبد»، لا بدّ أنهم فكّروا في ذلك يائسين، وأمضوا اللّيل كلّه في ذرى الخوف والارتجاف.

كان زوربا يشعر بهذا القلق بشكل أكثر عمقًا وبدائيّة منّي. وكي يهرب منه لم يكن يغادر أنفاق المنجم إلى أن تشعّ النّجوم في السماء.

عثر على عرق من الفحم الحجريّ الجيّد، ليس فيه كثير من الرماد، قليل الرطوبة غنيّ بالحريرات. فسرّه ذلك. فقد كانت الأرباح تعبر مخيّلته فجأة وتُحدث تحوّلات مدهشة، وتصير أسفارًا ونساءً ومغامراتٍ جديدة. كان ينتظر نافدَ الصبر اليوم الذي يكسب فيه ثروة، ليصبح جناحاه كبيرين بما يكفي كي يطير بعيدا.. و«الجناحان» هنا كناية زوربا عن النقود. وهكذا كان يمضي ليالي بأكملها مجرّبًا سكّة الألياف الخاصة به ناشدًا على الدوام المنحدر الملائم للجذوع الثلاثة كي تتحرك نحو الأسفل ببطء وبلطف وكأنّ الملائكة تحملها على حدّ تعبيره.

وفي أحد الأيام، تناول ورقة كبيرة وبعض أقلام الرصاص الملوّنة ورسم الجبل والغابة والخطّ، والجذوع المتدلية المثبتة بالحبال، ولكل منها جناحان سماويان. وفي الخليج الصغير المستدير رسم قوارب سوداء وبحارةً خُضرا، كببغاوات صغيرة، وقوارب محمّلة بجذوع أشجار صفراء. رُسم الرهبان في كل زاية من الزوايا الأربع، وأخرج من أفواههم شرائط حمراء طُبع عليها بأحرف كبيرة سوداء: «عظيم هو الله ورائعة أعماله!»

twitter @baghdad_library

ظلّ زوربا أيّاما وهو يشعل النار ويجهّز وجبة المساء بسرعة. وما إن ننتهي من تناول الطعام حتّى يجري إلى القرية ويعود بعد وهلة مقطّبًا.

كنتُ أسأله: «أين كنتَ يا زوربا؟»

وكان يقول كي يغير الموضوع: «لا تهتم أيها الرئيس»

وحين عاد في مساء أحد الأيام، سألني قلقًا:

«هل يوجد إله: نعم أم لا؟ ما رأيك، أيها الرئيس؟ وإذا كان يوجد إله -وكلّ شيء ممكن - كيف تظنّ أنه سيبدو؟»

هززتُ كتفيّ.

«أنا لا أمزح، أيها الرئيس. أفكّر في الله وكأنه مثلي تمامًا. فقط هو أكبر وأقوى وأكثر جنونًا. وهو خالد، داخل الصفقة. يجلس على كومة من جلود الخراف وكوخه السماوي ليس مصنوعًا من صفائح النفط القديمة، ككوخنا، وإنما من السحب. في يده اليمنى يحمل سكّينًا أو ميزانًا، كلاّ -إن تلك الأدوات الملعونة هي للجزّارين والبقّالين- إنّه يحمل إسفنجة كبيرة مليئة بالماء، كسحابة ممطرة. على يمينه الجنة وعلى يساره النار. تأتي روح من الأرواح؛ وتكون المسكينة الصغيرة عاريةً تمامًا، لأنها أضاعت عباءتها -أعني جسدها- وترتجف. ينظر الله إليها، ضاحكًا في سرّه، ولكنه يلعب دور الروح الشريرة ويزأر: تعالي إلى هنا أيتها اللعينة!

«ويبدأ التحقيق. ترمي الروح العارية نفسها أمام قدمي الله وتصيح طالبةً الرحمة ثمّ تبدأ في تعداد خطاياها. تعدّ وتعدّ... مردّدةً كلامًا فارغًا لا نهاية له، وهي تظنّ أنّ الله سيرى في هذا أمرا جيّدا فإذا بالضجر يتملّكه فيتثاءب ثم يصيح: توقّفي بحق السماء! فقد صدعت رأسي! وفي لمح البصر وبمسحة واحدة من الإسفنجة يمحو كلّ خطاياها. ويقول لها: اغربي من هنا، هيّا اركضي إلى الجنة! اسمح لها بالدخول هي أيضًا يا بطرس!

«لأن الله كما تعلم سيد عظيم وهذا ما تعنيه كلمة سيد: الصفح!»

تذكّرتُ أنني اضطررت للضحك في ذلك المساء فيما كان زوربا يسكب كلامه الهراء العميق. ولكن «سيادة» الله تلك كانت تأخذ شكلاً وتنضج في داخلي، رحيمة وكريمة وكلّية القوّة.

وفي مساء آخر، حين كان المطر يتساقط، وكنا جالسين حول الموقد في الكوخ نشوي الكستناء، استدار زوربا إليّ وتصفّحني مليًّا وكأنّه كان يحاول فكّ لغز كبير. وفي النهاية لم يعد قادرا على تمالك نفسه، فقال:

«أريد أن أعرف أيّها الرئيس ما تستطيع أن تراه فيّ؛ لماذا لا تمسكني من أذني وتشدّها؟ أخبرتك أنهم سمّوني العفن لأنني أينما ذهبت لا أترك أبدًا حجرًا فوق آخر... إن شؤونك ستذهب إلى الخراب والدمار. اطردني».

أجبته: «أنا أحبك. اترك الأمر هنا».

«ولكن ألا تدرك أيّها الرئيس أنّ وزن دماغي ليس صحيحًا؟ ربما وزنه زائد قليلاً، ربما ناقص قليلاً، ولكن الوزن الصحيح غير موجود بالتأكيد! انظر الآن، هذا شيء ستفهمه: لم أكن قادرًا على الاستراحة أيّاما وليالِيَ بسبب الأرملة. كلا، ليس لأجلي؛ كلا، أقسم لك أن هذه ليست هي الحالة. ليأخذها الشيطان، هذا ما أقوله. لن ألمسها أبدًا، وهذا شيء آخر أكيد. ليست نوعي المفضّل... ولكنّني لا أريدها أن تضيع على الجميع. لا أريدها أن تنام وحدها. لن يكون هذا سليمًا، أيها الرئيس؛ لا أستطيع تحمّل هذه الفكرة. وهكذا أتجوّل في الليل حول حديقتها. لهذا تراني أختفي وتسألني إلى أين أذهب. ولكن هل تعرف لماذا؟ كي أرى إن كان هناك من سيدخل وينام معها؛ وعندها يرتاح ذهني».

فبدأت أضحك.

«لا تضحك أيها الرئيس! إذا نامت امرأة وحدها فإن هذا خطأنا نحن الرجال. أنت تعرف أنّه علينا جميعًا أن نروي ذنوبنا يوم القيامة. سيغفر

twitter @baghdad_library

لنا الله ذنوبنا كلّها، كما قلنا من قبل، ستكون إسفنجته جاهزة. ولكن لن يصفح عن تلك الخطيئة. الويل للرجل الذي يستطيع أن ينام مع امرأة ولا يفعل هذا! الويل للمرأة التي تستطيع أن تنام مع رجل ولا تفعل هذا! تذكّر كلمات الحاجّ».

صمتَ قليلا ثمّ سأل فجأة:

«حين يموت شخص، هل يستطيع أن ينبعث ثانية؟»

«لا أعتقد هذا يا زوربا».

«ولا أنا. ولكن لو استطاع، عندئذ فإن أولئك الرجال الذين كنتُ أشير إليهم، أولئك الذين رفضوا أن يخدموا، الفارّين من الحب، سيعودون من جديد إلى الأرض، ولكن أتعرف كيف سيعودون ؟ ... في هيئة بغال!»

صمتَ ثانية وغرق في التفكير. وفجأة توقدت عيناه. وقال وقد أثاره اكتشافه:

«من يعرف، فلعلّ جميع البغال التي نراها اليوم في العالم هي أولئك الأشخاص أنفسهم، المبتورون والفارّون، الذين كانوا أثناء فترة حياتهم رجالاً ونساء دون أن يكونوا كذلك حقّا. ولهذا انقلبوا بغالاً، لهذا يرفسون دائمًا. ما رأيك أيها الرئيس؟»

أجبتُ ضاحكًا: «إن دماغك ناقص. هيّا، أحضر السنتور!»

«لا أقصد الإساءة، أيها الرئيس، ولكن لن يكون هناك سنتور الليلة. وإذا ما تواصلت ثرثرتي فلأنّ لديّ مخاوف كثيرة في ذهني. فالنفق الجديد -ليأخذه الشيطان- يزعجني. وها أنت تتحدث معي عن السنتور...»

ثم سحب الكستناء من الرماد، قدّم لي حفنة، وملأ كاسينا بالراكي.

قلتُ قارعًا كأسه: «أدعو الله أن يجعل الميزان يرجح على الجهة الملائمة».

صحّح زوربا: «إلى اليسار! إلى اليسار! ذلك أن اليمين لم ينتج حتى

الآن أي شيء جيد».

ابتلع السائل الناري في جرعة واحدة واستلقى في سريره. ثمّ قال: «غدًا سأحتاج إلى قوّتي كلّها. سأقاتل ألف عفريت. عمتَ مساء».

□ □ □

في اليوم التالي، عند بزوغ أول ضوء، اختفى زوربا داخل المنجم. لقد أحرز الرجال تقدّمًا في حفر النفق على طول العرق الجيّد. وراح الماء يتسرّب عبر السقف و الرجال يتعثرون في الطين الأسود.

منذ يومين طلب زوربا جذوع أشجار كي يقوّي النفق. ولكنه كان قلقًا. لم تكن الدعامات كبيرة كما ينبغي وبغريزته العميقة التي جعلته يشعر بكل ما يجري في تلك المتاهة تحت الأرض وكأنّه يصغي إلى جسده، أحسّ أن الدعامات غير آمنة. واستطاع أن يسمع الصرير، كلّ صرير ضئيل، غير مسموع للآخرين كان يسمعه كما لو أن دعامات السقف تئنّ تحت الثقل.

كان هناك شيء آخر زاد من قلق زوربا، إذ حالما همّ بدخول المنجم مرّ بابا ستيفانوس على بغله منطلقًا بسرعة بالغة إلى دير في الجوار كي يمنح السرّ المقدّس الأخير لراهبة محتضرة. ولسوء الحظ كان زوربا يملك ما يكفي من الوقت قبل أن يتحدث مع الراهب ليبصق على الأرض ثلاث مرات ويقرص نفسه.

أجاب بتجهّم على تحية الراهب: «صباح الخير يا أبتاه».

ثم أضاف بصوت أخفض قليلاً: «لتحلّ لعنتك عليّ!»

شعر أن تلك التعاويذ لم تكن كافية، ودخل بعصبيّة إلى النفق الجديد.

انبعثتْ رائحة ثقيلة من الفحم الحجري والأسيتيلين. وكان الرجال قد بدؤوا بتعزيز العضادات الداعمة للنفق. قال لهم زوربا صباح الخير بطريقة فظّة وقاسية. ثمّ رفع كمّيه وبدأ يعمل.

بدأت مجموعة من الرجال تُعمل معاولها في العرق وتكوّم الفحم الحجري عند أقدامها، فيما كان آخرون يجرفونه إلى الأعلى وينقلونه

twitter @baghdad_library

إلى الخارج في عربات يد صغيرة.

توقّف زوربا فجأة، وأشار إلى الرجال أن يحذوا حذوه، استمع بإصغاء. وكما يتوحّد الراكب مع حصانه والقبطان مع سفينته، توحّد زوربا مع المنجم. استطاع أن يشعر بتشعبات الأنفاق كشرايين في دمه، وما لم تستطع أن تشعر به كتل الفحم السوداء، شعر به زوربا بوضوح بشريّ واع.

بعد أن أصغى بدقة بأذنيه الكبيرتين المشعرتين حدّق في النفق. كنتُ قد وصلتُ في تلك اللحظة. استيقظتُ مجفلاً، وكأنّ نذيرا ما، كأنّ يدًا ما حثّتني، فارتديتُ ثيابي بسرعة واندفعتُ خارجًا، دون أن أعرف لماذا أسرع هكذا، أو إلى أين أنا ذاهب. ولكن جسدي سلك طريق المنجم دون تردد. وصلتُ في تلك اللحظة حين كان زوربا ينظر ويصغي بقلق.

قال بعد وهلة: «لا شيء. فكّرت للحظة... لا تهتمّوا. إلى العمل، يا أولاد!»

استدار، ورآني فزمّ شفتيه.

«ما الذي تفعله في مثل هذا الوقت الباكر هنا أيها الرئيس؟»

جاء إليّ. وهمس:

«لماذا لا تصعد وتستنشق بعض الهواء النقيّ أيها الرئيس؟ يمكنك المجيء والقيام بدورة صغيرة هنا في يوم آخر».

«ما المسألة يا زوربا؟»

«لا شيء... لقد تخيّلتُ أمورًا. عبر كاهنٌ طريقي، كان هذا أول شيء هذا الصباح. اذهب بعيدًا».

«إذا كان هناك أي خطر، ألن يكون من العار أن أغادر؟»

أجاب زوربا: «نعم».

«هل تغادر؟»

«كلا».

«حسنًا، إذن!».

«ما على زوربا أن يفعله هو شيء، وما يجب أن يفعله الآخرون شيء آخر! ولكن إذا كنت تشعر بأنه من العار أن تغادر. فلا تفعل. ابقَ هنا. هذا شأنك!»

تناول مطرقة ثقيلة ووقف على رؤوس أصابع قدميه كي يدقّ بعض المسامير في دعائم السقف. أخذتُ مصباحًا غازيًّا من موقع ورحت أسير جيئة وذهابًا في الوحل، ناظرًا إلى العرق الأسود البرّاق. لا بدّ أن غابات هائلة قد ابتُلعتْ منذ ملايين السنين. هضمتْ الأرض أولادها وحوّلتهم. تحوّلتْ الأشجار إلى لينيت واللينيت إلى فحم، وجاء زوربا...

علّقت المصباح ثانية في المسمار وراقبتُ عمل زوربا. كان مستغرقًا بشكل كامل في مهمته؛ لم يكن يفكّر في أي شيء؛ كان متوحّدًا مع الأرض، والمعول والفحم. كان هو والمطرقة والمسامير متوحّدين في الصراع مع الخشب. عانى من سقف النفق المنتفخ. تشاجر معه بغزيرة أكيدة لا تخطئ، وضرب محراثُه بحدّة مواطنَ الضعف التي يمكن أن تُقهر منها. بدا لي حينها وهو مغطّى بالأوساخ وبؤبؤا عينيه وحدهما يومضان، وكأنّه غدا فحما خالصا أو كأنّه يموّه في هذا الاتجاه ليكون قادرا على مقاربة خصمه لا شعوريا ومن ثمّتَ يخترق دفاعاته الداخليّة بسهولة.

صحتُ، وقد حملني بعيدًا إعجاب ساذج: «برافو، يا زوربا! اذهب إليه!»

لكنه حتى لم يلتفت. كيف يمكن أن يتحدث في تلك اللحظة إلى الفأر قارض الورق وهو الذي يحمل في يده عقب قلم رصاص بدلا من المعول؟ كان مشغولاً، لم يرغب في الحديث. قال في مساء أحد الأيام: «لا تتحدّث معي وأنا أعمل. يمكن أن أنطق بكلمات لاذعة! قلت: «لماذا يا زوربا؟».

«لماذا؟ ها أنت تمطرني بأسئلتك من جديد! مثلما يفعل الأطفال! كيف يمكن أن أشرح لك؟ إن عملي يستحوذ عليّ بشكل كامل، أكون

twitter @baghdad_library

مشدودًا ومتوتّرًا من الرأس إلى القدمين، ومثبّتًا إلى الحجر أو الفحم أو السنتور. إذا لمستني فجأة أو تحدّثتَ معي وحاولتُ أن أستدير، يمكن أن أسبّ. أتفهم الآن؟»

نظرتُ إلى ساعتي. كانت الساعة قد شارفت على العاشرة.

قلتُ: «إنه وقت استراحة الغداء يا أصدقائي. لقد تجاوزتم الوقت».

رمى العمال أدواتهم على الفور في الزاوية، مسحوا عرق وجوههم واستعدّوا لمغادرة النفق. كان زوربا مستغرقًا في عمله بشكل كامل، ولهذا لم يسمع. وحتّى لو سمع، فإنه ما كان ليتحرك من هناك. ووقف مرة أخرى مصغيا بقلق.

قلتُ للرجال: «لحظة، دخّنوا سيجارة».

أجفل زوربا فجأة. ألصق أذنه إلى قاطع النفق. وفي ضوء المصابيح الغازيّة، استطعت أن أرى فمه الفاغر الملتوي.

فصحت: «ما الأمر يا زوربا؟»

ولكن في تلك اللحظة بدا وكأن سقف النفق كلّه يهتزّ فوقنا.

وصاح زوربا بصوت أجشّ: «اخرجوا! اخرجوا!»

جرينا نحو المخرج، ولكننا ما أن وصلنا إلى الإطار الخشبي الأول حتى انفجر فوق رؤوسنا صخب صرير أكثر قوّة. كان زوربا في غضون ذلك يرفع جذع شجرة كبير كي يستخدمه كدعامة للأخشاب التي كانت تنهار. لو نجح في الأمر بسرعة، فإنّه سيسند السقف بضع ثوان ويمنحنا الوقت الكافي للهرب.

«اخرجوا!» صاح زوربا مرة أخرى، ولكن صوته كان مكتومًا هذه المرة كما لو أنه يخرج من أعماق الأرض.

وبالجبن الذي يصيب الرجال في اللحظات الحرجة، اندفعنا إلى الخارج كلّنا وقد نسينا زوربا. ولكن بعد بضع ثوان، جمّعتُ شجاعتي وعدتُ إلى النفق.

صحت: «زوربا! زوربا!»

اعتقدت على الأقل أنني صحتُ. أدركتُ فيما بعد أن صرختي لم تغادر حنجرتي. ذلك أن الخوف خنق صوتي.

غلبني العار. قفزتُ إلى الأمام وذراعاي ممدودتان. كان زوربا قد أنهى تثبيت الدعامة وكان يركض، وينزلق في المستنقع،نحو المخرج. شبه زاحف في الظلام واصطدم بي جرّاء اندفاعه، ومن دون إرادة منّا، سقط كلانا بين ذراعي الآخر.

وصاح بصوت مخنوق: «يجب أن نخرج! لنخرج! لنخرج!»

ركضنا ووصلنا إلى الضوء. كان العمال الذين دبّ فيهم الذّعر متجمعين عند المدخل ويحدّقون في الداخل.

وسمعنا ضجة صرير ثالثة وكأنّ عاصفة ما تنقضّ كي تشقّ شجرة. ثم فجأة سمعنا زئيرًا مخيفًا كهزيم الرعد. هزّ جانب الجبل وانهار النفق.

صاح الرجال وهم يرسمون إشارة الصليب: «أيها الإله الجبار!»

صاح زوربا غاضبًا: «لقد تركتم معاولكم في الأسفل!»

لم يقل الرجال أي شيء.

صاح ثانية، بغضب: «لماذا لم تخرجوها معكم. لقد بلّلتم سراويلكم من الخوف. أراهن! أنّ الأدوات قد أتلفت. اللعنة؟»

قلتُ واقفًا بينهم: «آه يا زوربا! ليس هذا وقت الانزعاج على المعاول. لنكن شاكرين أن الرجال كلهم آمنون وأقوياء! شكرًا لك يا زوربا، إننا جميعًا ندين بحياتنا لك».

قال زوربا: «أنا جائع. فما حصل أفرغني تماما».

تناول جراب مؤونته من فوق الحجر الذي وضعه عليه، فتحه وأخرج بعض الخبز والزيتون والبصل والبطاطا المسلوقة وإناء نبيذ صغير مصنوعًا من اليقطين. وقال وفمه مليء:

twitter @baghdad_library

«هيّا يا أولاد، لنأكل!»

بلع طعامه بسرعة كما لو أنه فقد الكثير من القوّة بشكل مفاجئ ويريد أن يتزوّد بالوقود ثانية.

أكل وهو مائل إلى الأمام، دون أن يتحدث. تناول إناء النبيذ، رمى رأسه إلى الخلف وترك الخمرة تتدفق عبر حنجرته الظامئة.

تشجّع العمّال أيضًا، فتحوا جرابات مؤونتهم وبدؤوا تناول طعامهم. جلسوا متصالبي الأرجل حول زوربا، وأكلوا، ناظرين إليه. أرادوا أن يرموا أنفسهم على قدميه ولكنهم كانوا يعرفون أنه فظّ وغريب فلم يتجاسر أيٌّ منهم على الحركة.

أخيرًا، قرّر «ميشيليز» وهو أكبرهم أن يتكلّم وكان له شارب كبير أبيض. فقال:

«لو لم تكن هناك أيها المعلم الطيب أليكسيس لكان أطفالنا يتامى الآن».

«اطبق فمك!» قال زوربا، وفمه مليء.

فلم يغامر أحد آخر بالتفوّه بكلمة.

- 10 -

«من الذي خلق إذن متاهة الشك هذه، معبد الوقاحة هذا، وهذا الدنّ من الخطايا، هذا الحقل المبذور بآلاف الخدع، هذه البوابة المفضية إلى جهنّم، هذه السلّة التي تفيض براعةً فنيّة، هذا السمّ الممزوج بطعم العسل، هذا العقد الذي يقيّد الفانين بالأرض: المرأة؟»

كنتُ أنسخ ببطء وصمت هذه الأنشودة البوذية، جالسًا على الأرض قربَ الموقد المشتعل، مجرّبًا تعويذة بعد أخرى، على أمل أن أطرح من ذهني صورة جسد المرأة المبلل بالمطر، تلك الصورة التي لازمتني في ليالي الخريف مارّة عبر الهواء الرطب جيئة وذهابا أمام عيني بردفين مهتزّين. فمنذ انهيار النفق، الذي كاد يقتلني، أحسستُ بالأرملة في دمي. كانت تناديني كوحش مفترس ضاغطة موبّخة. وهي تصيح:

«تعال! تعال! إن الحياة تمضي في ومضة. تعال بسرعة، تعال تعال قبل أن يتأخر الوقت كثيرًا!»

كنتُ أدرك جيّدا أنّ هذا هو «مارا»، روح الشرّ، في شكل امرأة بفخذين وردفين قويين. فقاتلته. وخصّصتُ وقتي لتأليف كتابي «بوذا» بالطريقة نفسها التي كانت للبدائيين وهم ينحتون بحجر مدبّب الرأس في كهوفهم أو يرسمون بالأحمر والأبيض الوحوش المتضورة جوعًا والمفترسة التي كانت تطوف حولهم. حاولوا هم أيضًا أن يثبّتوا هذه الوحوش بسرعة على الصخر بالنقش والرسم. ولو لم يفعلوا هذا، لقفزت عليهم الوحوش.

منذ ذلك اليوم الذي نجوت فيه من الانهيار المميت، والأرملة تعبر بلا توقّف فضاء عزلتي الملتهب، تغريني وتؤرجح ردفيها بشهوانية. أثناء النهار أكون قويًّا، يكون ذهني متيقّظًا وأنجح في طردها. وأكتب في أي

twitter @baghdad_library

قناع ظهَرَ الغاوي لبوذا، وكيف اتخذ شكل امرأة، كيف ضغط بثدييه الصلبين على ركبتي الناسك، وأخيرا كيف رأى بوذا الخطر، وعبّأ كلّ قواه وهزمَ الشرّير.

كانت كل جملة أكتبها توفّر لي طمأنينة جديدة، وأتشجّع، وأشعر بالشرّير ينسحب، وقد طردته تعويذة الكلمة كليّة القدرة. كنت أصارع طوال النهار بكلّ قواي، أمّا في الليل فإنّ عقلي يلقي بأسلحته، لتنفتح الأبواب الداخلية وتدخل الأرملة.

وفي الصباح كنتُ أستيقظ مستنفدًا ومهزومًا، ويبدأ الصراع من جديد. أحيانا أرفع رأسي عن الورقة، فأرى النهار يلفظ آخر أنفاسه؛ والنور يتقهقر مطرودا؛ ليخيّم الظلام فجأة على المكان. كانت الأيام تتداعى، وعيد الميلاد يقترب. خضت الصراع بكلّ ما أملك من قوّة. وقلتُ لنفسي: لستُ وحيدًا. قوة كبيرة، هي نور النهار، تقاتل مثلي. هي أيضًا تُهزم أحيانًا، وتنتصر أحيانًا أخرى. ولكنها لا تيأس. وأنا أصارع وآمل مع النور!

بدا لي، وقد منحتني هذه الفكرة الشجاعة، أنّنى في قتالي ضدّ الأرملة، كنتُ أيضًا أطيعُ إيقاعًا كونيًا عظيمًا. هذا هو الجسد الذي اختارته المادّة الماكرة، لتقهر ببطء -مثلما اعتقدتُ- اللهبَ الحُرّ الذي يومض في داخلي وتطفئه تماما. قلتُ لنفسي: إن القوة التي تحوّل المادة إلى روح مقدسة لا تُهزم. ذلك أن جميع البشر يملكون في داخلهم عنصرًا من الزوبعة المقدسة ولهذا يستطيعون أن يحوّلوا الخبز والماء واللحم إلى فكر وعمل. كان زوربا مصيبًا: «قل لي ما الذي تفعله بما تأكل وسأقول لك من أنت!».

وهكذا كنتُ أحاول بألم أن أحوّل تلك الرغبة العنيفة بالجسد إلى بوذا.

قال لي زوربا في عشية عيد الميلاد: «ما الذي يشغل بالك أيها الرئيس؟

لا تبدو في خير حال». وكان يمتلك فكرة ذكيّة عن العفريت الذي كنتُ أصارعه.

فتظاهرتُ بأنني لم أسمع ولكن زوربا لم يستسلم بسهولة.

وقال: «أنت شابٌّ يا رئيس».

وفجأة صارت نبرة صوته مرّة وغاضبة.

«أنت شابٌّ وفظّ، تأكل جيدًا، تشرب جيدًا، تتنفّس هواء بحريًا منعشًا، وتخزّن الطاقة، ولكن ما الذي تفعله بكل هذا؟ تنام وحيدًا، وهذا سيء جدًا للطاقة! اذهبْ إلى هناك الليلة ـ نعم، لا تخسر وقتًا! إن كل شيء بسيط في هذه الدنيا يا رئيس. كم مرة يجب أن أقول لك؟ هيّا اذهب ولاتعقّد الأمور!»

كان مخطوط «بوذا» مفتوحًا أمامي وكنت أقلّب الصفحات فيما كنت أصغي إلى كلمات زوربا وقد أدركت أنها كشفت لي ممرًا مؤكدًا وجذابًا وإنسانيًا جدًا كي أسلكه. ومعها كانت روح «مارا» القوّاد البارع، تنادي مرة أخرى.

أصغيتُ دون أن أتفوّه بكلمة وواصلت تقليب صفحات المخطوط ببطء. صفّرتُ كي أخفي عاطفتي. ولكن زوربا رآني صامتا، فانفجر فجأة:

«إنها عشية عيد الميلاد، يا صديقي، أسرعْ، اذهب إليها قبل أن تذهب إلى الكنيسة. إن المسيح سيولد الليلة، أيها الرئيس، اذهبْ ونفّذ معجزتك، أيضًا!»

نهضتُ، متضايقًا. وقلت:

«هذا يكفي يا زوربا. كلّ شخص يتبع ميله. إن الإنسان كالشجرة. أنت لا تتخاصم أبدًا مع شجرة تين لأنها لا تثمر الكرز، أليس كذلك؟ إذن، هل يجدي ذلك؟! إنه منتصف الليل تقريبًا. لنذهب إلى الكنيسة ونشاهد المسيح يولد بأنفسنا».

وضع زوربا قبعته الشتوية السميكة على رأسه. وقال بحزن: «حسنًا،

twitter @baghdad_library

إذن! لنذهب! ولكنني أريدك أن تعرف أن الله سيكون أكثر سرورًا لو ذهبتَ الليلة إلى الأرملة، مثل كبير الملائكة جبريل. لو اتبع الله الممر نفسه مثلك أيها الرئيس، لما ذهب أبدًا إلى مريم ولما وُلد المسيح أبدًا. ولو سألتني أي مسار يتبع الله سأقول لك إنه المسار الذي يؤدي إلى مريم. إن مريم هي الأرملة».

وصمت منتظرا إجابتي دون جدوى. ففتح الباب بقوّة، وخرجنا.

أخذ يضرب الحصى بطرف عصاه في غضب. وكرّر بإلحاح:

«نعم، مريم هي الأرملة!»

قلت: «دعنا نذهب الآن ولا تصرخ!»

مشينا بخطو جيّد في اللّيل الشتويّ. كانت السماء صافية والنجوم تبدو كبيرة وهي معلّقة بانخفاض في السماء مثل كرات من النار. وكان الليل، ونحن نشق طريقنا على الشاطئ، يشبه وحشًا كبيرًا أسود يستلقي على حافة الماء.

قلتُ لنفسي: «منذ هذه الليلة سيبدأ الضوء الذي أجبره الشتاء على التراجع بالقتال وينتصر. كما لو أنه وُلد في هذه الليلة مع الإله الطفل».

احتشد القرويون كلّهم داخل الكنيسة الدافئة والمعطّرة. وقف الرجال أمام النساء، بأذرع متصالبة. وكان الكاهن الطويل ستيفانوس في حالة مزرية بعد فترة صيامه التي استمرت أربعين يومًا. ظهر مرتديًا حلّة القدّاس الذهبية الثقيلة وكان يجري هنا وهناك في خطى كبيرة، مؤرجحًا مبخرته، منشدًا بأعلى صوته وبسرعة كبيرة كي يرى المسيح يولد ويعود إلى المنزل من أجل حساء سميك ونقانق لذيذة المذاق ولحوم مدخّنة...

لو قالت النصوص المقدسة: «اليوم يبزغ النور»، فإن قلب الإنسان لن يقفز، ولما صارت الفكرة أسطورة وغزتْ العالم. إنّها ما كانت لتعبّر إلاّ عن مجرد ظاهرة فيزيائيّة عادية ولما ألهبت مخيلتنا، أعني روحنا. ولكن

النور الذي وُلد في الشتاء صار طفلاً والطفل صار إلهًا، ولمدة عشرين قرنًا أرضعَتْ روحنا ذلك...

انتهى الطقس الصوفيّ بعد وقت قصير من منتصف الليل. لقد وُلد المسيح. وركض القرويون الجائعون والسعداء إلى المنزل، كي يعدوا وليمة ويشعروا في أعماق أحشائهم بلغز التجسّد. إن البطن هي الأساس الصلب؛ الخبز والخمر واللحم هي المستلزمات الضرورية؛ وبالخبز والخمر واللحم فقط يستطيع المرء أن يخلق الإله.

كانت النجوم تشعّ كبيرة كالملائكة فوق قبة الكنيسة البيضاء. وكان درب التبّانة يتدفق كجدول من جانب في السماء إلى آخر. ونجم أخضر يومض فوقنا كزمرّدة. فتنهّدتُ، وقد صرتُ فريسة لعواطفي.

استدار زوربا إليّ.

«أتصدّق هذا أيها الرئيس؟ أتؤمن بأن الله صار إنسانًا ووُلد في اصطبل؟ أتصدق هذا، أم أنت فقط تسخر منا؟».

أجبتُ: «من الصعب الإجابة يا زوربا. لا أستطيع القول إنني أؤمن بذلك أو لا أؤمن. ماذا عنك؟»

«لا أستطيع أن أقول أيضًا. وكما ترى، حين كنتُ طفلاً كانت جدتي تروي لي الحكايات، لم أصدّق كلمة منها. ومع ذلك كنت أرتجف من العاطفة، ضحكتُ وبكيت، وكأنني صدقتها. حين نمَتْ لحية على ذقني، تخليت عنها فحسب، واعتدتُ أن أضحك عليها؛ ولكنّني أعتقد الآن في شيخوختي، أنني أصبح سهل القياد - إيه يا رئيس؟ - بطريقة ما أؤمن بها ثانية... إن الإنسان لغز!»

سلكنا الطريق الذي يقود إلى نزل السيدة هورتانز وسرنا خببًا كحصانين جائعين بوسعهما شمّ الاصطبل.

«إن الآباء المقدّسين بارعون، كما تعلم!» قال زوربا. «يدخلون إليك عبر بطنك، فكيف تستطيع الهرب منهم؟ يقولون إنك يجب أن تمتنع

twitter @baghdad_library

عن تناول اللحوم والنبيذ طيلة أربعين يومًا؛ ينبغي أن تصوم فحسب. لماذا؟ كي تتوق إلى اللحوم والنبيذ. آه، الخنازير السمينة، يعرفون جميع الحيَل!».

وحثّ خطاه وقال:

«لنتحرك أيها الرئيس، لا بدّ أن الديك قد نضج!»

حين وصلنا إلى غرفة سيدتنا الطيبة، بسريرها الكبير المغري، وجدنا الطاولة مفروشة بغطاء أبيض، وفوقها كان الديك الرومي يتصاعد منه البخار وهو مستلق على ظهره منفرج الساقين. ومن الموقد المشتعل تنبعث حرارة لطيفة.

كانت السيدة هورتانز قد لفّتْ شعرها وارتدت رداءً فضفاضًا طويلاً بلون قرمزي باهت بكمين ضخمين ومخرّمات بالية. وحول عنقها المتجعّد كانت هناك شريطة ذات لون أصفر فاتح محكمة الشدّ، بعرض إصبعين. والأهم من هذا وذاك أنّها كانت قد رشّت نفسها بعطر زهر الليمون بسخاء.

قلت في نفسي: ما أعظم تناغم الأشياء على هذه الأرض! وما أعظم تناغم الأرض مع القلب البشري! ها هي مغنية الحان العجوز التي عاشتْ حياة سريعة بشكل كامل، وقد رُميتْ الآن على هذا الشاطئ المنعزل، تحشد في هذه الغرفة البائسة كل العناية المفرطة المقدّسة ودفء الأنوثة.

الطعام الوافر والمحضّر بعناية، الموقد المشتعل، الجسد المدهون والمتبرج، عطر زهر البرتقال. بأيّ سرعة وأيّ بساطة تحوّلتْ هذه المتع الجسديّة الصغيرة والإنسانية جدًا إلى مُتع روحية عظيمة!

قفز قلبي فجأة في صدري. وشعرتُ، في ذلك المساء المقدس، أنني لستُ وحدي هنا على هذا الشاطئ المهجور. كان هناك كائن أنثويّ يتقدّم نحوي مليئًا بالإخلاص، وبالرقة والصبر: كانت الأم، والأخت، والزوجة. وشعرتُ فجأة، أنا الذي اعتقدتُ أنني لا أحتاج إلى أي شيء، أنني أحتاج

إلى كلّ شيء. لا بدّ أن زوربا شعر بعاطفة مشابهة، فما إن دخلنا الغرفة حتى اندفع إلى مغنيّة الحانة المتبرّجة وضمّها.

صاح: «لقد وُلد المسيح! تحياتي لك، أيّتها الأنثى!»

واستدار إليّ، ضاحكًا.

«أترى، يا رئيس، أي مخلوق ماكر هو المرأة! تستطيع حتّى أن تلفّ الله حول إصبعها الصغير!»

جلسنا إلى الطاولة؛ والتهمنا الأطباق بنهم وشربنا النبيذ. وإذ شبعت أجسادنا وأثيرتْ أرواحنا من المتعة. دبّتْ الحيوية في زوربا. فصاح:

«كلْ واشرب. كل واشرب أيها الرئيس وحمِّ نفسك! غنِّ أيضًا، يا فتاي، غنِّ كالرعاة: المجد للأعلى، المجد للأدنى... ولد المسيح، هذا شيء هائل. اشرعْ في الغناء واجعلْ الله يسمعك ويغتبط».

كان قد استعاد معنوياته تمامًا، ولا شيء يوقفه الآن.

«لقد وُلد المسيح يا سليمان الحكيم، أيّها الكاتب البائس! لا تذهب وتنتقي الأشياء بإبرة! هل وُلد أم لا؟ هو؟ بالطبع وُلد، لا تكنْ سخيفًا. إذا تناولتَ مُكبّرًا ونظرت إلى المياه التي تشربها، على حدّ عبارة مهندس قالها لي في أحد الأيام، فسوف ترى هذه المياه مليئة بالديدان الصغيرة التي لا تستطيع رؤيتها بالعين المجردة. سترى الديدان وتمتنع عن الشرب. لن تشرب وستتلوى من العطش. حطِّمْ مُكبّرك، أيها الرئيس، وستتلاشى الديدان الصغيرة وتستطيع أن تشرب وتنتعش!»

استدار نحو رفيقتنا المبهرجة، رفع كأسه المليء وقال:

«يا بوبولينا العزيزة، يا رفيقتي القديمة في السلاح، سأشربُ نخبك! لقد رأيتُ الكثير من التماثيل الحيزوميّة في حياتي؛ كانت مثبتة بالمسامير في حيزوم السفينة، ممسكة بأثدائها، وخدودها وشفاهها مطلية بالأحمر الناري. لقد أبحرتُ في البحار كلّها، دخلتُ المرافئ كلّها، وحين تتحطّم السفن تأتي إلى اليابسة، وإلى آخر أيامها تبقى مستندة إلى حائط حانة

twitter @baghdad_library

البحار حيث يأتي القباطنة كي يشربوا. يا بوبولينتي، الليلة، وأنا أراك على هذا الشاطئ، وبطني مليء بكل الأشياء الطيبة وعيناي مفتوحتان حتى النهاية، تبدين لي كتمثال مقدمة سفينة كبيرة. وأنا آخر مرفأ لك، يا دجاجتي، أنا الحانة التي يأتي إليها قباطنة البحر كي يشربوا. تعالي، اتكئي عليّ، انشري أشرعتك! إنّني أشربُ هذا الكأس من النبيذ الكريتي في صحتك، يا جنيّتي البحريّة!»

فبدأت السيدة هورتينز تبكي، متأثّرة، ومهزومة، واتكأت على كتف زوربا الذي همس في أذني:

«كما ترى أيها الرئيس، إن خطابي الرائع سيقودني إلى بعض المشاكل. لن تتركني العاهرة أذهب اليوم. ولكن ها أنت هناك، أنا متأسف على هذه الكائنات المسكينة، نعم، أشعر بالشفقة عليها!»

صاح بصوت مرتفع لعروس بحره: «لقد وُلد المسيح! نخبك!»

دفع ذراعه تحت ذراع سيّدتنا وشربا كأسيهما سوية؛ الذراعان متشابكتان، وهما يتبادلان النظرات بنشوة.

لا بدّ أن الفجر لم يكن بعيدًا حين تركتُهما معا في غرفة النوم الصغيرة الدافئة وسلكتُ الطريق إلى المنزل. كان القرويون قد أكلوا وشربوا جيّدًا، بينما كانت القرية نائمة بأبواب ونوافذ مغلقة، تحت نجوم الشتاء الكبيرة.

كان الجوّ باردًا، والبحر يدوّي. وكانت الزُّهرة ترقص في الشرق باهتياج. سرتُ محاذيًا حافة الماء ألعب لعبتي مع الأمواج. هي تقترب وتكاد تبللني وأنا أركض بعيدًا. كنتُ سعيدًا وقلتُ لنفسي: «هذه هي السعادة الحقيقية: ألا تملك طموحًا وأن تعمل كحصان وكأنّك مسكون بأنواع الطموح كلّها. أن تعيش بعيدًا عن البشر، ألاّ تحتاجهم، ومع ذلك تحبهم. أن تشارك في احتفالات عيد الميلاد، وبعد الأكل، والشرب جيدًا، تهرب وحدك بعيدًا عن الشراك كلّها، أن تملك النجوم فوقك، الأرض

إلى يسارك، والبحر إلى يمينك: وأن تدرك فجأة أن الحياة أنجزت في قلبك معجزتها الأخيرة: صارت حكاية خرافية».

كانت الأيام تمرّ. حاولتُ أن أواجهها بشجاعة، صحتُ ولعبتُ دور المغفّل، ولكنّني كنت أشعر في أعمق أعماق قلبي بأنني حزين. طوال أسبوع الاحتفالات هذا، أثيرتْ الذكريات وملأت صدري بموسيقى بعيدة وأشخاص محبوبين. ولقد كنتُ مرّة أكثر انذهالاً من حقيقة المثل القديم:

«ليس قلب الإنسان سوى حفرة مليئة بالدم، حفرة على ضفتّها يرتمي الأحباب الذين يموتون ليشربوا حتى يعودوا إلى الحياة من جديد.. لذا فإنّ أحبّ النّاس إليك ذلك الذي ينهل أكثر من دمك»

عشية رأس السنة. جاءت فرقة من أطفال القرية وهم يحملون قاربًا ورقياً إلى كوخنا. وبدؤوا ينشدون ترانيم رأس السنة بأصواتهم الحادّة المرحة.

القديس باسل العظيم وصل من قيصرية[1]. مدينته الأصلية.

كان يقف هنا على هذا الشاطئ الكريتي الصغير قرب البحر الأزرق النيلي. اتكأ على عصاه فتغطّتْ عصاه فجأة بالأوراق والأزهار. وصدحتْ أنشودة رأس السنة:

كل عام وأنتم بخير، أيها المسيحيّون!
أيّها السيد، ليمتلئ منزلك بالحنطة، وزيت الزيتون والنبيذ؛
ولْتدعم زوجتك كعمود رخام سقفَ بيتك
ولْتتزوج ابنتك وتنجب تسعة صبيان وأنثى
ولْيُحرّرْ هؤلاء الأبناء القُسْطَنْطينيّة، مدينة ملوكنا!

أصغى زوربا، مسمّرًا من الدهشة. كان يمسك بدُفّ الأولاد ويقرعُه بجنون.

راقبتُ وأصغيتُ دون أن أتفوّه بكلمة واحدة. استطعتُ أن أشعر بورقة أخرى تسقط من قلبي، بمرور عام آخر، وأنا أخطو خطوةً أخرى نحو

(1) مدينة قديمة كانت عاصمة فلسطين في عهد الرومان.

twitter @baghdad_library

الحفرة السوداء.

«ما الذي حدث لك، أيها الرئيس؟» سأل زوربا، بين الغناء بأعلى صوته، سوية مع الأطفال، والدق على الدُفّ. «ما الذي حدث لك يا رجل؟ تبدو أكبر بسنوات، ووجهك رماديّ. هذا يجعلني أتحول إلى ولد صغير مرة أخرى. لقد وُلدتُ من جديد، مثل المسيح. ألا يولد كلّ عام؟ كذلك أنا!»

استلقيتُ في سريري وأغمضتُ عينيّ. كان قلبي في مزاج وحشيّ في تلك الليلة؛ لم أرغب في الكلام.

لم أستطع النوم. شعرتُ بأنّه عليّ مراجعة أفعالي في تلك الليلة. راجعتُ حياتي كلّها، فبدتْ مضجرةً، خاليةً من التماسك، مترددةً، وشبيهةً بالحلم. تأمّلتها بيأس. ومثل سحابة شبيهة بالصوف تهاجمها الرياح من الأعالي، كانت حياتي تغيّر شكلها باستمرار. تناثرتْ مزقا، أعيد إصلاحها، تحوّلتْ. صارت: إوزّة، كلبًا، عفريتًا، عقربًا، قردًا. وكانت السحابة تتمزق، رياح السماء تدفعها و قوس قزح يطلق عليها النار.

بزغ الفجر. لم أفتح عينيَّ. كنتُ أحاولُ تركيز قوّتي كلّها على رغبتي الجامحة في اختراق قشرة الذهن إلى القناة المظلمة الخطيرة التي تُنقل عبرها القطرات كلّها لكي تمتزج بالبحر. كنتُ متلهّفًا كي أمزّق الحجاب وأرى ما الذي يجلبه لي العام الجديد...

«صباح الخير يا معلّم. كلّ عام وأنت بخير!»

أعادني صوتُ زوربا إلى الأرض بوحشية. فتحتُ عينيّ في الوقت المناسب تمامًا لكي أرى زوربا يرمي عبر مدخل الكوخ رمّانة كبيرة. تناثرت بذورها التي تشبه الياقوت ووصلتْ إلى سريري. التقطتُ بعضها وأكلتها، فانتعشتْ حنجرتي.

«آمل أن نربح الكثير وتخطفنا عذراوات جميلات!»

صاح زوربا بمرح. اغتسل وحلق ذقنه وارتدى أفضل ثيابه. ارتدى بنطلونًا قماشيًا أخضر وسترة خشنة مُحاكة في المنزل، رمى فوقها معطفًا قصيرًا نصف مخطط من جلد الماعز. وقد اعتمر قبّعته الروسية ولفّ شاربيه. ثمّ قال:

«أيها الرئيس، سوف أظهر في الكنيسة كممثّل للشركة. لن تكون من مصلحة المنجم أن يفكّروا بأننا بناؤون أحرار. لن يكلّفني هذا شيئًا وسيساعد في تمضية الوقت».

انحنى ورفّتْ عيناه. ثمّ همس:

«ربّما سأرى الأرملة هناك أيضًا».

الله، مصالح الشركة، والأرملة اختلطوا بانسجام في ذهن زوربا. سمعتُ خطواته الخفيفة تغادر. قفزتُ. كُسرت الأحجية، وسُجنتْ روحي في سجن الجسد من جديد.

ارتديتُ ثيابي وذهبتُ إلى حافة الماء. سرتُ بسرعة. كنتُ مرحًا، كما لو أنني نجوتُ من خطر خطيئة. إنّ رغبتي غير المحتشمة في ذلك الصباح كي أتطفل وأعرف المستقبل قبل أن يولد بدت لي فجأة وكأنّها انتهاك للمقدّسات.

تذكّرتُ كيف عثرتُ في صباح أحد الأيام على شرنقة في لحاء شجرة، في اللّحظة عينها التي كانت فيها الفراشة بصدد ثَقْبِ غلافها مستعدّة للخروج. انتظرتُ برهةً، ولكن ظهورها استغرق وقتًا طويلاً، فانحنيتُ فوقها بعصبيّة وأخذت أدفئها بأنفاسي. كنتُ أدفئها بنفاد صبر، وبدأت المعجزة تحدث أمام عينيّ، أسرع من الحياة. فقد فُتح الغلاف، وراحت الفراشة تزحف ببطء. لن أنسى أبدًا الرعب الذي تملّكني حين شاهدتُ كيف كان جناحاها مطويين إلى الخلف ومفتتين؛ حاولت الفراشة البائسة بكل جسدها المرتجف أن تنشرهما، وحاولتُ بدوري وأنا منحنٍ فوقها، مساعدتها عبثًا. كانت في حاجة إلى أن تفقس بصبر ويجب أن يكون نشر

twitter @baghdad_library

الجناحين سيرورة طبيعية في الشمس. أمّا الآن فقد فات الأوان. لقد أجبرت أنفاسي الفراشة على الظهور مفتّتةً كلّها قبل أوانها. فصارعتْ بيأس وبعد بضع ثوان نفقتْ في راحة يدي.

أعتقد أن جسدها الصغير هو أشدّ ما يثقل على ما ضميري. لأنّ انتهاك قوى الطبيعة العظيمة -وأنا أدركُ ذلك جيّدا اليوم- خطيئة أخلاقية قاتلة. يجب ألاّ نستعجل، ألاّ نفقد الصبر، وأن نطيع الإيقاع الأبدي بكلّ ثقة.

جلستُ على صخرة كي أستوعب فكرة رأس السنة الجديدة هذه. آه، فقط لو تستطيع تلك الفراشة أن ترفرف أمامي من جديد وتدلني على الطريق!

- 11 -

استيقظتُ سعيدًا كما لو أنني تلقّيتُ هدايا رأس السنة الخاصة بي. كانت الريح باردة، والسماء صاحية، والبحر متوهّجًا.

سلكتُ الممرّ إلى القرية. كان القدّاس قد شارف على الانتهاء. وبينما أنا أسير على الدرب، تساءلتُ، بسذاجة، من سيكون أوّل شخص سألتقي به في عيد رأس السنة هذا، محظوظاً كان أم غير محظوظ؟ قلتُ لنفسي: أتمنى لو كان طفلاً صغيرًا بذراعين محمّلين بألعاب رأس السنة الخاصة به؛ أو عجوزًا نشيطًا بقميص أبيض بكمّين مليئين مطرّزين، راضيًا وفخورًا بأنه قام بواجبه على الأرض بشجاعة. وكلما كنتُ أقتربُ من القرية كان اضطرابي يزداد.

وفجأة تخاذلت ركبتاي. فتحْتَ أشجار الزيتون، وبخطوة قافزة على طول طريق القرية، في لباس أحمر، وبمنديل أسود فوق الرأس، ظهرَ الشكلُ الرشيق ذو الخصر النحيل للأرملة!

كانت مشيتها المتموّجة مشية فهد أسود، وبدا لي كأنّ رائحة مسك حادّة تُقطّر في الجوّ. لو كان في وسعي الهرب لفعلت! شعرتُ أنه حين يغضبُ هذا الوحش فإنه لن يشفق على أحد وأن الأمر الوحيد الذي يمكن فعله هو الهرب. ولكن كيف؟ كانت الأرملة تقترب باطّراد. وبدا كأنّ الحصى تُطحن تحت أقدام جيش يسير فوقها. شاهدتني، فهزّتْ رأسها، انزلق منديلها وظهر شعرها، أسود برّاقًا كالسّبج. خصّتني بنظرة متراخية وابتسمتْ. كانت في عينيها عذوبة وحشيّة. عدّلتْ وضع منديلها بسرعة، وكأنها خجلتْ من جعلي أرى أحد أعمق أسرار المرأة: شعرها.

أردتُ أن أتحدّث إليها، وأتمنى لها عامًا سعيدًا، ولكن حنجرتي

twitter @baghdad_library

كانت مشدودة بإحكام، تماما مثلما حدث في اليوم الذي انهار فيه النفق وتعرّضتْ حياتي للخطر. ارتعشتْ الخيزرانات التي تحيط بحديقتها في الريح، ورمت شمسُ الشتاء أشعتها على شجرات الليمون والبرتقال بأوراقها الداكنة. كانت الحديقة برمّتها متألّقة كالفردوس.

توقّفتْ الأرملة، مدّتْ ذراعها وفتحتْ البوّابة. كنتُ أعبرها في تلك اللحظة تمامًا. نظرتْ حولها، رفعتْ حاجبيها ناظرة إليّ.

تركتْ البوابة مفتوحة ورأيتها تختفي خلف أشجار البرتقال، مؤرجحة ردفيها وهي تسير.

أن تدخل من البوابة وترتجها، أن تجري خلفها، تحملها من خصرها ودون كلمة تجرّها إلى فراشها الكبير سيكون موقفًا رجوليًا! كان هذا ما سيفعله جدّي، وما سيفعله حفيدي كما آمل! ولكنني وقفتُ هناك كعمود، أزن الأمور وأفكّر...

تمتمتُ مبتسمًا بمرارة: «في حياة أخرى، في حياة أخرى ما سأتصّرف بطريقة أفضل من هذه!»

انغمستُ في النجاسة الخضراء شاعرًا بثقل على روحي وكأنني ارتكبت خطيئة مميتة. وتسكّعت هنا وهناك. كان الجوّ باردًا وكنتُ أرتجف. وعبثا حاولت أن أطرد من أفكاري ردفيْ الأرملة المتأرجحين وابتسامتها وعينيها وثدييها، لقد كانت تعود بلا انقطاع وكنتُ أختنق.

لم تكن الأشجار قد أورقتْ بعد، ولكنّ البراعم كانت مليئة بالنسغ وكانت تنتفخ وتتفتّح. وفي كلّ برعم تستطيع أن تشعر بالحضور المركّز للأغصان الفتيّة، والأزهار، والثمار الموعودة، الكامنة منتظرةً في استعداد للخروج إلى الضوء. صباحًا مساءً وفي قلب الشتاء، كانت معجزة الربيع العظيمة تنمو بصمت وسريّة تحت القشرة الجافّة.

فجأة أطلقتُ صرخة فرح. فقد أزهرت قبالتي في تجويف محميّ من الريح شجرةُ لوز جريئة في قلب الشتاء، فاتحة الطريق للأشجار الأخرى كلّها ومبشّرة بالربيع.

تحرّرتُ من الكبت الذي شعرتُ به. أخذتُ نفَسًا عميقًا من عطرها الفلفلي نوعًا ما. غادرتُ الطريق وجلستُ تحت أغصانها المزهرة.

ومكثتُ هناك وقتًا طويلاً، دون أن أفكّر في أيّ شيء، حرًّا من الهموم وسعيدًا. كانت هذه هي الأبدية وكنتُ جالسًا تحت شجرة في الجنة.

وفجأة أخرجني صوتٌ فظ مرتفع من هذه الجنة.

«والآن ما الذي تفعله منعزلاً هناك أيها الرئيس؟ كنتُ أبحث عنك في كلّ مكان. لقد شارفتْ الثانية عشرة، هيّا!»

«إلى أين؟»

«إلى أين؟ تسألني إلى أين؟ إلى خنزير العجوز بالطبع، الخنزير الوليد المشويّ! ألستَ جائعًا؟ إن الخنزير الصغير قد خرج من الفرن لتوّه! يا لها من رائحة... تجعل لعابك يسيل! هيّا!»

نهضتُ، وربتُّ على الجذع القاسي لشجرة اللوز المليء بالألغاز والذي اجترح معجزة الإزهار هذه. انطلق زوربا بخطوات خفيفة لا يلوي على شيء، متوقّدًا بالحماس وجائعًا. فحاجات الإنسان الجوهرية: الطعام والشراب والنساء والرقص لا تُستنفد أبدًا ولا تتبلّد في جسده القويّ المتلهّف.

كان يمسك في يده قطعة مسطحة ملفوفة بورق قرنفليّ ومربوطة بخيط ذهبيّ اللّون.

سألته مبتسمًا: «لا بد أنها هدية بمناسبة رأس السنة؟»

ضحك زوربا محاولاً أن يخفي عاطفته.

قال دون أن يستدير: «حسنًا، هكذا، لا يكون لديها مجال للشكوى، المرأة المسكينة! ستتذكر ماضيها المجيد... إنها امرأة وقد قلنا ذلك من قبل، إذن هي كائن يندب حظّه دائمًا...».

«أهي صور؟»

«سترى... سترى؛ لا تكن مستعجلاً جدًا! لقد صنعتها بنفسي. هيّا، من الأفضل أن ننطلق».

كانت شمس الظهيرة تمسّد العظام. والبحر يتدفأ بسعادة تحت

twitter @baghdad_library

الشمس. وبعيدا بدتْ الجزيرة الصغيرة غير المسكونة، الجزيرة المغلّفة بالضباب الخفيف، وكأنها تخرج من البحر وتحلّق.

اقتربنا من القرية، واقترب زوربا منّي، أخفض صوته. وقال:

«أتعرف أيها الرئيس، أنّ الشخص المعنيّ كان في الكنيسة؟ كنت أقف في المقدمة قرب قائد المرتّلين حين رأيتُ فجأة الأيقونات المقدسة تتلألأ. المسيح، العذراء المقدسة، الحواريّون الاثنا عشر، كلّ شيء شعّ... فتساءلت في نفسي راسمًا إشارة الصليب: ما السرّ في ذلك، أهي الشمس؟ وحين نظرتُ حولي رأيت الأرملة!»

قلتُ مستعجلاً: «حسنًا يا زوربا. هذا يكفي».

ولكن زوربا ركض خلفي.

«لقد رأيتها عن قرب أيها الرئيس. لديها شامة على خدّها كافية لدفعك إلى الجنون! سرّ آخر من تلك الأسرار: الشامة التي على خدود النساء».

فتح عينيه مذهولاً.

«ألاحظتَ أيها الرئيس؟ إن بشرتها رقيقة وناعمة، وفجأة تُطالعُك شامة سوداء! حسنًا، هذا كلّ ما تحتاج إليه! ما يجعلك مجنونًا! أتفهم أيها الرئيس؟ ما الذي تقوله كتبك عن هذا؟»

«ليأخذها الشيطان!»

ضحك زوربا، مسرورًا من نفسه.

قال: «هذه هي المسألة! هذه هي المسألة. بدأت تُدرك...»

لم نتوقّف عند المقهى بل تابعنا طريقنا.

كانت سيدتنا الطيبة قد طبخت لنا خنزيرًا يافعًا في الفرن ووقفت تنتظرنا على عتبة منزلها، وهي تضع كعادتها شريطة صفراء اللون حول عنقها. كانت رؤيتها هكذا مثقلة بالمساحيق وعلى شفتيها طبقة سميكة من اللون القرمزي، كافية لإزعاج أي شخص. أتُراها في الحقيقة تمثال حيزوم؟ ما إن رأتنا حتّى تحرّك جسدها على إيقاع المسرّة، ورقصتْ

عيناها الصغيرتان بفحش في رأسها ثم استقرّتا على شاربي زوربا الملتفّين.

وحالما أغلق الباب الخارجي خلفنا أمسكها زوربا من خصرها. وقال: «كلّ عام وأنت بخير يا بوبولينتي! انظري ماذا أحضرتُ لك!» ثمّ قبّل عنقها السمين المجعّد.

دُغدغتْ عروس البحر العجوز للحظة، ولكنها لم تفقد وعيها. كانت عيناها مثبّتتين على الهدية. أمسكتها، فكّت الخيط الذهبي، نظرتْ في الداخل وأطلقتْ صرخة فرح.

ملتُ إلى الأمام لأرى ما هي: على قطعة الكرتون السميكة رسم النذل زوربا بالألوان الحمراء والذهبيّة والرماديّة والسوداء أربع سفن حربية كبيرة، مزيّنة بالرايات، تبحر في بحر قاتم. وأمام السفن، كانت عروس البحر السيدة هورتانز تعوم على الموج، عارية، بيضاء، بشعرها المتدفّق وثدييها المكشوفين، وذيلها ذيل السمكة الحلزونيّ، وحول عنقها شريطة صفراء! كانت تحمل أربعة خيوط مجرجرة خلفها السفن الحربية الأربع وقد رفرفت فوقها أعلام بريطانيا وروسيا وفرنسا وإيطاليا. وفي كل زاوية من الصور تتدلى لحى شقراء، وحمراء، وبيضاء، وسوداء.

فهمتْ المغنّية العجوز على الفور. وقالت وهي تشير بفخر إلى الصورة: «أنا!»

ثمّ تنهّدتْ، مُضيفة:

«آه! أنا أيضًا، كنتُ قوّةً عظمى فيما مضى!»

نزعت مرآة مستديرة صغيرة من فوق سريرها، قرب قفص الببغاء، وعلّقتْ مكانها لوحة زوربا. وقد بدت وجنتاها شاحبتين تحت طلاء المساحيق الكثيف.

في تلك الأثناء، أسرع زوربا إلى المطبخ، يدفعه الجوع. وعاد بطبق الخنزير اليافع، ثمّ وضع زجاجة نبيذ على المائدة أمامه وملأ ثلاثة كؤوس.

twitter @baghdad_library

صاح مصفقًا بيديه الاثنتين: «هيّا تناولا الطعام! لنبدأ بما هو رئيسيّ، بالبطن. وبعد ذلك، يا حبيبتي، سنعتني بما في الأسفل!»

ولكن الجوّ اضطرب من تنهّدات عروس بحرنا العجوز. ففي كل رأس سنة لديها هي أيضًا يوم قيامة صغير خاصّ بها... كانت تستعيد تفاصيل حياتها السابقة، تزنها وتراها مثيرة. فتحْتَ شعر هذه المرأة الذي يفقد كثافته، مدن كبيرة، ورجال، وفساتين حريرية، وزجاجات شمبانيا ولحى معطّرة كانت تنبعث من قبور ذاكرتها في جميع المناسبات المقدسة.

تمتمَتْ بخجل: «لا شهيّة عندي للطعام مطلقًا....»

ركعَتْ أمام الموقد وحرّكت الجمار. وانعكس على وجنتيها المترهّلتيْن ضوء النار الشاحب. انزلقت خصلة شعر عن جبينها فأحرقها اللهب. وسرَتْ في الغرفة رائحة الشّعر المحترق المقرفة.

تمتمَتْ مرة أخرى، بعد أن رأت أننا لم نكترث بما قالته:

«لن آكل... لن آكل...»

فشدّ زوربا قبضته بقوّة وقد فقد صبره. وبقي لحظة متردّدا دون قرار. فهو يستطيع أن يتركها تتذمّر ما شاءت، بينما نظلّ نحن نلتهم الخنزير المشويّ. ويستطيع أيضًا أن يرمي نفسه على ركبتيها، ويمسكها بذراعيه ويهدئها بكلمات لطيفة. راقبتُ وجهه المسفوع ورأيتُ، فوق ملامحه المتحرّكة، موجات انفعالاته المتضاربة.

وفجأة استقرّتْ تعابيره. لقد وصل إلى قرار. فركع إلى جانبها وأمسك ركبتيها قائلا بنبرة تفطر القلب:

«إذا لم تأكلي يا ساحرتي الصغيرة، فسينتهي كلّ شيء. ارأفي بهذا الخنزير المسكين، يا حبّي، وكلي هذه القدم الصغيرة الطيّبة!» ودفع في فمها القدم الهشة المغطاة بالزبدة.

ثمّ حضنها بين ذراعيه، ورفعها عن الأرض، ووضعها بلطف على كرسيّها بيننا نحن الاثنين. وقال:

«كلي، كلي يا كنزي، كي يأتي القدّيس باسيل إلى قريتنا! وكما تعلمين، إذا لم تأكلي فإنه لن يأتي إلينا! سيعود إلى بلاده، إلى قيصرية. ويسترجع قرنَ الحبر والورق والكعك وهدايا رأس السنة وألعاب الأطفال، وحتى هذا الخنزير الصغير! إذن افتحي فمك الصغير يا بوبولينتي وكلي!»

مدّ إصبعين ودغدغها تحت ذراعها. فطفحت الجنيّة العجوز بالمتعة، مسحتْ عينيها الصغيرتين المحمرّتين وبدأت تشغل نفسها بمضغ قدم الخنزير الهشّة...

في تلك اللحظة تمامًا بدأ قطّان عاشقان يمُوآن على السطح فوق رؤوسنا. كان في موائهما نبرة كراهية غير قابلة للوصف، وكان الصوت يعلو ويخفت، بشكل مُهدِّد. وبدآ فجأةً يخدشان السقف بوحشية، ويمزق كلاهما الآخر إلى نتف...

«مياو... مياو...» قال زوربا، غامزًا الجنيّة العجوز.

فابتسمتْ وضغطتْ يده تحت الطاولة. واسترختْ حنجرتها وبدأتْ تأكل بشهيّة.

دارت الشمس، وتغلغلتْ أشعتها عبر النافذة الصغيرة وحطّت على قدمي سيّدتنا الطيّبة. كانت الزجاجة قد فرغتْ، وفتل زوربا شاربيه كشاربي قط بريّ واقترب من السيّدة هورتانز. فشعرت وهي متقوقعة على نفسها، مرتجفة، وقد غاص رأسها بين كتفيها، بأنفاسه الدافئة التي تفوح منها رائحة الخمر.

قال زوربا ناظرًا إليّ: «والآن ما هذا اللغز الآخر، أيها الرئيس؟ كلّ شيء يسير عكس طبيعته. فحين كنتُ طفلاً بدوت كرجل عجوز صغير. كنتُ غبيًّا، لم أتحدّث كثيرًا ولكن كان لي صوت شخص كبير. قالوا إنني كنتُ مثل جدّي! ولكن كلما ازداد سنّي، ازداد تهوّري وطيشي. بدأت أقوم بأمور وحشية حين صرتُ في العشرين. آه، لا شيء ذا بال، فقط الأمور نفسها كالأشخاص الآخرين في تلك السنّ. وحين بلغتُ الأربعين بدأتُ

twitter @baghdad_library

أشعر بأنني شابٌّ فعلاً وقمتُ بالمغامرات الأكثر جنونًا. والآن أنا فوق الستين، في الخامسة والستين أيها الرئيس، ولكن لا تبحْ بهذا السرّ، حسنًا، أنا الآن فوق الستين، كيف أستطيع أن أشرح لك؟ بصدق، لقد صَغُر العالم بالنسبة إليّ!»

رفعَ كأسه واستدار بوقار نحو سيدته. وقال بصوت مهيب:

«نخبك يا بوبولينا. أدعو الله أن تنموَ لك في هذا العام بعضُ الأسنان وحاجبان أنيقان، وجلد جديد له عطر الدرّاقة! وأن تتخلصي من كل تلك الشرائط الدميمة! وأن تحدث ثورة في كريت وتعود القوى العظمى الأربع ثانية. يا عزيزتي بوبولينا، بأساطيلها... وأن يكون لكل أسطول أميراله ولكل أميرال لحيته الكثّة والمعطّرة. وأن تنبعثي من الأمواج مرّة أخرى، يا عزيزتي، منشدةً أنشودتك الجميلة. ولتتحطّم الأساطيل إلى قطع على تلك الصخرتين المدوّرتين المتوحّشتين!»

ثم وضع يديه الكبيرتين على ثديي المرأة المتدليين والمترهّلين...

ومن جديد، انبعثتْ الحيوية في زوربا، وبحّ صوتُه من الرغبة. فرحت أضحك. لقد شاهدتُ ذات مرّة، في السينما، باشا تركيًّا يمرحُ في ناد ليليّ في باريس. كان يُجلس محظية شقراء الشعر وشابة في حضنه. وحين اشتعلت النار في عروقه، بدأت طرّة طربوشه ترتفع ببطء، حتّى استوت أفقيا، ثمّ اندفعت فجأة وانتصبت بشكل عموديّ في الجوّ.

سألني زوربا: «ما الذي يضحكك أيها الرئيس؟»

كانت السيدة الطيبة ما تزال تفكر بما كان زوربا يقوله. وقالت:

«آه، أتعتقد أن هذا ممكن يا زوربا؟ حين يولّي الشباب فإنه لا يعود أبدًا...»

اقترب زوربا أكثر؛ التصق الكرسّيان. وقال، وهو يحاول في الوقت نفسه أن يفكّ الزرّ الثالث الحاسم لصدريتها:

«استمعي أيّتها الساحرة. استمعي ودعيني أخبرك عن الهدية الرائعة

التي سأحضرها لك. ثمّتَ طبيب جديد يدعى فورونوف وهو يقوم بمعجزات كما يقولون. يصفُ لك دواءً سائلاً أو مسحوقا. لا أعرف تحديدا، وتصبحين في العشرين مرة ثانية في لمح البصر، أو في الخامسة والعشرين في أسوأ حال! لا تبكي يا عزيزتي، سأرتّب الأمر كي يتم إرسال بعضه إليك من أوروبا...»

وانطلقت عروس البحر العجوز. وفروة رأسها المحمرة تتوهج عبر شعرها الرقيق رامية ذراعيها السمينين اللاحمين حول عنق زوربا.

تمتمتْ حاكّة نفسها بزوربا كقطّة: « إذا كانت قطرات يا حبيبي ستطلب دمجانة من أجلي، أليس كذلك؟ وإذا كان مسحوقًا...»

«كيسًا!» قال زوربا فاكًّا الزرّ الثالث.

بدأ القطّان اللّذان سكتا قليلاً مواءهما من جديد. كان أحد الأصوات واضحًا ومستساغًا فيما بدا الآخر مهدِّدًا وغاضبًا.

تثاءبتْ سيّدتنا الطيّبة وعيناها متراخيتان. ثمّ تمتمتْ:

«أتسمع القطين الرهيبين. لا يشعران بالخجل!»

وجلستْ على ركبة زوربا. أمالت رأسها على عنقه وأطلقتْ تنهيدة كبيرة. لقد أفرطَتْ في الشراب قليلاً وأصبحت عيناها غائمتين.

سألها زوربا ممسكًا بثدييها: «بماذا تفكّرين يا بوبولينا؟»

تمتمتْ وقد أقفلت راجعة من جولتها في العالم التي لم تستغرق سوى دقائق معدودات:

«في الإسكندرية.. الإسكندرية وبيروت.. والقسطنطينيّة.. الأتراك والعرب والمشروبات والأحذية المذهّبة والطرابيش الحمراء...»

أطلقتْ تنهيدةً أخرى.

«حين كان علي بيك يمضي الليلة معي- وأي شوارب وأيّ حاجبين، وأي ذراعين كان يملك! - كان ينادي عازفي الرقّ والفلوت ويرمي لهم النقود من النافذة، وهكذا كانوا يعزفون في فنائي إلى الصباح. وتموت

twitter @baghdad_library

الجارات حسدا ويقلن بغضب: «إن علي بيك معها ثانية!»

«بعد ذلك، في القسطنطينيّة، لم يكن سليمان باشا يتركني أذهب في أيام الجمعة كلّها. كان يخشى أن يراني السلطان في الطريق إلى المسجد ويبهره جمالي ويأمر بخطفي. وفي كل صباح حين يغادر المنزل كان يضع ثلاثة زنوج على الباب كي يبعد جميع الذكور عني... آه! يا سليماني الصغير!»

تناولتْ منديلاً كبيرًا ذا مربّعات من صدارها وعضته مصدرة تنهيدة كصوت السلحفاة.

تخلّص زوربا منها واضعًا إياها على الكرسي إلى جانبه ووقف مغتاظًا. سار جيئة وذهابًا مرّة أو مرّتين وبدأ يتنهّد أيضًا؛ كانت الغرفة بالنسبة إليه ضيّقة جدًّا.

التقط عصاه واندفع إلى الفناء في الخارج، رأيته يسندُ السلّم إلى الحائط ويصعد الدرجات، اثنتين اثنتين وهو يزمجر.

صحتُ: «من ستجلد يا زوربا؟ سليمان باشا؟»

صاح: «تلك القطط الملعونة! ألا تستطيع تركنا لحظة واحدة؟»

وفي قفزة واحدة كان على السطح.

كانت السيدة هورتانز التي سكرتْ تمامًا وتبلبل شعرها قد أغمضتْ عينيها الملتهبتين، مطلقة شخيرا غير قويّ من فمها الخالي من الأسنان. عمل النوم عمله فرفعها، ونقلها إلى مدن الشرق العظيمة، حيث الحدائق المغلقة وأجنحة الحريم المعتمة للباشوات العشاق. جعلها النوم تعبر الجدران وأرسل لها الأحلام. فاستطاعت أن ترى نفسها وهي تصطاد السمك، ترمي أربعة خيوط فتعلق بالطُعم أربع سفن حربية كبيرة.

وهي تشخر وتتنفّس بصعوبة، راحت عروس البحر العجوز تبتسم بسعادة في نومها، وعلى ما يبدو كانت منتعشة من استحمامها في البحر.

رجع زوربا مؤرجحًا عصاه. وحين رآها، قال:

«نائمة، إيه؟ العاهرة نائمة، أليس كذلك؟»

أجبته: «نعم يا زوربا باشا. لقد خطفها الدكتور فورونوف الذي يجعل العجائز شبّانًا، خطفها النوم. وهي الآن في العشرين، تتنزّه في الإسكندرية وبيروت...»

«لتذهب إلى الشيطان، العاهرة العجوز!» صاح زوربا وبصق على الأرض. «انظر فحسبْ إلى الطريقة التي تبتسم بها! أتساءل لمن تبتسم، العاهرة الوقحة؟ هيّا أيها الرئيس، لنذهب!»

اعتمر قبعته وفتح الباب. فقلت:

«أنأكل كالخنازير، ثمّ نغادر ونتركها وحيدة؟! هذا لا يجوز! «

فصاح زوربا: «إنها ليست وحدها. إنها مع سليمان باشا. ألا ترى؟ إنها في سمائها السابعة،البقرة القذرة! هيا. لنخرج!»

خرجنا في الجوّ البارد. كان القمر يبحر عبر السماء الهادئة.

قال زوربا بقرف: «النساء! آه.. لكنّ الذنب ليس ذنبهنّ، بل ذنبنا نحن، الأغبياء المجانين، وكلّ الّذين على شاكلتنا أنا وسليمان!»

وبعد صمتٍ استمرّ لحظة، قال بغضب:

«كلا، ليس ذنبي. بل ذنب شخص واحد فقط. إنّه ذلك المجنون الكبير، الأحمق سليمان باشا... أتعرف من يكون؟!»

أجبت: «هذا إن كان موجودا. لكن ماذا لو لم يكن كذلك؟»

«عندئذ نكون قد انتهينا!»

تمشّينا لبعض الوقت دون أن نتفوّه بكلمة. وكان ذهن زوربا مزدحما بالأفكار الوحشية، لأنه في كل ثانية أو ما يقارب ذلك كان يضرب الحصى بعصاه ويبصق على الأرض.

وفجأة استدار إليّ وقال:

«ليرحم الله عظام جدّي. كان خبيرا بالنساء. أحبّهن كثيرًا، البائس المسكين، وكنّ يرهقنه بانتظام قبل أن يحقق مناله في فترة حياته. قال

twitter @baghdad_library

لي إنه من بين كل الأمور التي أتمناها لك يا ولدي الطيب هو أن تحترس من النساء! حين انتزع الله ضلع آدم كي يخلق امرأة -اللعنة على تلك اللحظة!- تحوّل الشيطان إلى أفعى، انتشل الضلع وهرب به... اندفع الله وراءه وأمسك به، ولكن الشيطان انزلق من بين أصابعه ولم يخلّف غير قرنيْه. حينها قال الله: إن ربة البيت الصالحة إذا لم تجد مغزلاً غزلت حتّى بملعقة. وكذلك أنا، سأخلق المرأة من قرون الشيطان! وخلقها من أجل شقائنا جميعا، يا ولدي أليكسيس. مهما كان المكان الذي تلمس فيه المرأة فإنك ستلمس قرني الشيطان. احترس منها، يا ولدي! لقد سرقتْ أيضًا تفّاح الجنّة ؛ وخبّأته في صدرها، وهي الآن تتبختر به متباهية في كل أنحاء المكان. إنّها الطاعون! ولو أكلت من ذلك التفاح أيّها الشقيّ ستضيع! وإذا لم تأكل فإنّك ضائع أيضا. أيّ نصيحة أستطيع أن أقدّمها لك، يا ولدي؟ افعل ما يسرّك! هذا ما قاله لي جدّي. ولكن كيف تتوقع مني أن أكون عاقلاً؟ لقد سلكتُ الطريق الذي سلكهُ وذهبتُ إلى الشيطان!»

أسرعنا عبر القرية. كان ضوء القمر مزعجًا. تخيّلْ كيف سيكون إذا سكرتَ وخرجتَ لتتنزّه فوجدت العالم قد تحوّل فجأة. تحوّلت الدروب إلى أنهار من الحليب، الحفر والأخاديد في الطريق امتلأت بالحوّار، تغطّتْ التلال بالثلوج. وترى يديك، ووجهك وعنقك تشعّ بالفسفور كذيل الحُباحِب، والقمرَ معلّقًا على صدرك مثل ميداليّة مستديرة غريبة.

كنا نسير بخفّة، وبصمت. ثملين من ضوء القمر والنبيذ، لم نشعر بأقدامنا وهي تلمس الأرض. وخلفنا، في القرية النائمة، صعدتْ الكلاب إلى السطوح وراحت تنبح على القمر. ودونما سبب واضح تملّكتنا الرغبة في أن نمدّ عنقينا نحو القمر ونشرع نحن أيضا في العواء...

وصلنا إلى حديقة الأرملة. فتوقّف زوربا. لقد دار رأسه بفعل النبيذ والطعام الطيّب والقمر. مدّ عنقه وبصوته الأجش كصوت الحمار أخذ ينهق ببيتيْن داعريْن من الشعر ارتجلهما في لحظة النشوة هذه:

«كم أحبّ جسدكِ الجميل، من خصرك إلى أسفل!
إنّه يستدرج الحنكليس الحيّ وبضربة واحدة يفقده الحركة»
ثمّ صاح: «وهذه أيضا قرنٌ من قرون الشيطان. لنذهب أيها الرئيس!»

كان الفجر على شفا الطلوع حين وصلنا إلى الكوخ. رميتُ نفسي على السرير، منهكًا. اغتسل زوربا، وأشعل الموقد وأعدّ القهوة. وجلس على الأرض قرب الباب، ثمّ أشعل سيجارة وبدأ يدخّن بهدوء، وجسده مستقيم، بلا حراك، حين نظر إلى الخارج نحو البحر. بدا وجهه جدّيًا وغارقًا في التفكير. ذكّرني بلوحة يابانية أحبّها: ناسك يجلس متصالب الساقين مكسوًّا بعباءة برتقالية طويلة؛ وجهه يشعّ كحفر على خشب قاس، سوّده المطر؛ عنقه منتصب، ويبتسم فيما هو يحدّق في الليل المظلم... دون خوف.

نظرتُ إلى زوربا في ضوء القمر وأُعجبتُ بالأناقة والبساطة اللتين كيّف بهما نفسه مع العالم الذي حوله، الطريقة التي شكّل بها جسمه وروحه كلاً واحدًا متناسقًا، وكلّ الأمور: النساء والخبز والماء واللحم والنوم، امتزجتْ بسعادة مع جسمه وصارت زوربا. لم أر مسبقًا اتساقًا ودودًا كهذا بين الإنسان والكون.

وشرع القمر الآن، وقد تلحّف بالأخضر الشاحب، يأفل نحو المغيب، وانتشر عبر البحر هدوء فوق الوصف.

رمى زوربا السيجارة بعيدًا ومدّ يده إلى السلّة. تحسّسها وسحب بعض الخيوط والبكرات وقطعًا صغيرة من الخشب؛ أشعل مصباح الزيت ومرة أخرى بدأ يقوم بتجاربه بشأن المصعد. وغرق وهو محنيٌّ فوق لعبته البدائية، في الحسابات المعقّدة الشائكة ولاشكّ، لأنّه كان في كلّ لحظة يحك رأسه بغضب ويسبّ.

وفجأة ملّ اللّعبة. فسدّد رفسة إلى الأنموذج وسحقه على الأرض.

twitter @baghdad_library

-12-

تغلّب عليَّ النوم، وحين استيقظتُ وجدت زوربا قد رحل. كان الجوّ باردًا ولم أمتلك أدنى رغبة في النهوض من الفراش. وصلتُ إلى بعض رفوف الكتب فوق رأسي وتناولتُ كتابًا كنتُ قد أحضرتهُ معي لولعي به: قصائد مالارميه. قرأتُ ببطء وبشكل عشوائيّ. أغلقتُ الكتاب، فتحتهُ ثانية، وفي النهاية رميتهُ. فللمرة الأولى في حياتي بدا لي بلا دم أو رائحة، فارغًا من أي جوهر إنسانيّ. كلمات زرقاء شاحبة مجوّفة في فراغ. مياه مقطّرة واضحة بشكل كامل دون أيّ جراثيم، ولكن أيضًا دون أيّ مواد مغذّية. دون حياة.

في الأديان التي فقدتْ شرارتها الإبداعية، تصبح الآلهة في النهاية موتيفات أو تزيينات شعرية لا أكثر لتزيين عزلة الإنسان وجدرانه. وقد حدثَ أمرٌ مشابهٌ لهذا الشعر. ذلك أن التطلعات المتّقدة للقلب، المحمّلة بالتّرب والبذور، صارت لعبة فكرية معصومة، هندسة معماريّة ذكيّة خيالية ومعقّدة.

فتحتُ الكتاب من جديد وبدأت القراءة ثانية. لماذا سحرتني هذه القصائد لكثير من الأعوام؟ الشعر الصافي! تحوّلتْ الحياة إلى لعبة صافية شفّافة، غير ملوّثة حتّى بقطرة دم واحدة. إنّ العنصر الإنساني وحشيٌّ، وفظٌّ وملوّثٌ. إنه مؤلّف من الحبّ، من الجسد وصرخة الألم. فكيف يسمو إلى فكرة تجريدية وكيف يفقد ماديّته في مَرْجل الروح العالي حيث يغدو في غاية النقاء ويتبخّر.

إن كلّ هذه الأمور التي سحرتني فيما مضى ظهرتْ في هذا الصباح وكأنها ليست أكثر من ألعاب بهلوانية عقلية وشعوذة مصقولة! ذلك ما

twitter @baghdad_library

ينتهي إليه قلق الإنسان عند أفول كلّ حضارة: ألعاب عقليّة بهلوانيّة وشعوذة رفيعة المستوى!.. فيستحضر خدعَهُ بإتقان: الشعر الصافي، الموسيقى الصافية، الفكر الصافي. إن الإنسان الأخير -بعد أن حرّر نفسه من أنواع الإيمان كافّة، من الأوهام كلّها وليس لديه ما يتوقّعه أو يخشاه-يرى الطين الذي خُلق منه مختزلاً إلى روح، وهذه الروح لا تمتلك ترابًا متبقّيًا لجذورها، كي تستمدّ منها النسغ. لقد فرّغ الإنسان الأخير نفسه؛ لا مزيد من البذور، لا مزيد من البراز، لا مزيد من الدم. لقد تحوّل كلّ شيء إلى كلمات، وكلّ مجموعة من الكلمات إلى شعوذة موسيقيّة، ويذهب الإنسان الأخير إلى أبعد من هذا: يجلس في عزلته التامة ويحلّل الموسيقى إلى معادلات رياضية صامتة.

جفلتُ. «إنّ بوذا هو الإنسان الأخير!» بوذا هو الروح «النقيّة» التي أفرغتْ نفسها؛ إنّ فيه الفراغ، وإنه الفراغ. «أفرغْ جسمك، أفرغْ روحك، أفرغْ قلبك!» يصيح. أينما وضع قدمه، يتوقّف الماء عن التدفّق، يتوقّف العشب عن النمو، ولا يولد أي طفل.

وقلت في قرارة نفسي:«ينبغي أن أعبئ الكلمات وقوّتها السحرية، وأستحضر إيقاعات سحرية؛ أحاصره، أرمي عليه تعويذة وأطرده من أحشائي! يجب أن أرمي عليه شبكة الصور، لأصطاده وأحرّر نفسي!»

كان تأليف كتاب بوذا يتوقف عن كونه ممارسة أدبية. كان صراع حياة وموت ضد قوة الدمار الهائلة، الكامنة في داخلي، مبارزة مع الـ «لا» العظيمة التي تنهش قلبي، وكان خلاصي الروحي يعتمد على نتيجة هذا الصراع.

بنشاط وتصميم أمسكتُ المخطوط. اكتشفتُ هدفي، عرفتُ الآن أين أضرب! كان بوذا هو الإنسان الأخير. نحن فقط في البداية؛ لم نأكل أو نشرب أو نحبّ بما يكفي؛ لم نعش بعد. هذا العجوز الحسّاس، القصير النَّفَس، جاء إلينا حالاً. يجب أن نطيح به بالسرعة الممكنة!

وهكذا تحدّثتُ مع نفسي وبدأتُ الكتابة. ولكن كلاّ، لم تكن هذه كتابة؛ كانت حربًا حقيقيّة، صيدًا لا يرحم، حصارًا، تعويذة لإخراج الوحش بعيدا عن مخبئه. إنّ الفنّ في الحقيقة تعزيمٌ سحري. ثمّتَ قوى إجرامية غامضة تكمن في أحشائنا، دوافع مهلكة للقتل والتدمير والكراهية وإلحاق العار. عندئذ يظهر الفنّ بأنغامه العذبة ويخلّصنا.

كتبتُ ولاحقتُ وصارعت النهار كلّه. وفي المساء كنتُ مستنفدًا. ولكنّني شعرتُ أنني أحرزتُ تقدّمًا، احتللتُ بعض مواقع العدوّ الأمامية. والآن أنا متلهّفٌ لعودة زوربا، لأتناول الطعام وأنام وأتزوّد بقوى جديدة كي أستأنف المعركة في الفجر.

كان الظلام قد خيّم حين دخل زوربا. كان على وجهه تعبير متألّق. لقد وجد ضالّته هو أيضا، لقد وجدها كما ظننتُ. وانتظرت.كنت قد بدأتُ أفقد الصبر منه، ولقد قلتُ بغضب قبل بضعة أيام:

«إن أموالنا تنقص يا زوربا. كل ما يجب أن يُفعل افعله بسرعة! لننصب السكّة؛ إذا لم ننجح بالفحم فلنشتغل بالأخشاب. وإلا فسنفشل!».

حكّ زوربا رأسه. وقال:

«إن الأموال تنقص أليس كذلك أيها الرئيس؟ هذا سيّئ».

«لقد انتهتْ يا زوربا. لقد ابتلعناها كلّها. افعل شيئًا! ما أخبار تجاربك؟ لا حظّ بعد؟»

هزّ زوربا رأسه ولم يجب. لقد شعر بالعار في ذلك المساء. قال بغضب: «ذلك المنحدر الملعون! سأحصل على أفضل ما فيه رغم كل شيء!» والآن يدخل ووجهه مضاء بالنجاح.

صاح: «لقد فعلتها أيها الرئيس. لقد عثرتُ على الزاوية المناسبة. كانت تنزلق عبر يديّ، محاولة الهرب مني، ولكنني أمسكتها جيدًا وثبّتها، أيها الرئيس!»

«حسنًا، أسرع واجعل الشيء يعمل! أطلقْ يا زوربا! أي شيء آخر

twitter @baghdad_library

تحتاج إليه؟»

«يجب أن أذهب في الصباح الباكر إلى البلدة وأشتري الأدوات: حبالا غليظة من الفولاذ، بكرات، عجلات، مسامير وكلابات... لا تقلق، سأعود في لمح البصر!»

أشعل النار، وبعد وقت قصير، جهّز وجبتنا وأكلنا وشربنا بشراهة. لقد عمل كلانا على نحو جيّد في ذلك اليوم.

في الصباح التالي ذهبتُ مع زوربا إلى القرية. تحدّثنا عن عمل الفحم الحجريّ كبشر جدّيين يمتلكون ذهنًا عمليًا. وفيما كان يهبط منحدرًا رفس زوربا حجرا، بدأ يتدحرج إلى أسفل التل. فتوقّف للحظة في حيرة، كما لو أنه كان يرى هذا المشهد المذهل للمرة الأولى في حياته. ونظر إليّ مباشرة وقد لمحتُ في نظرته رعبًا بسيطًا. وقال أخيرًا:

«أرأيتَ هذا أيها الرئيس؟ في المنحدرات تنبعث الأحجار إلى الحياة ثانية».

لم أقل شيئًا، ولكنني شعرتُ بمتعة عميقة. اعتقدتُ أنّ هذه هي الطريقة التي يرى بها الرؤيويون الكبار والشعراء كلّ شيء: وكأنّهم يرونه للمرة الأولى. وفي كل صباح يرون عالمًا جديدًا أمام أعينهم؛ في الحقيقة هم لا يرونه، بل يبدعونه.

لقد كان الكون بالنسبة إلى زوربا، كما كان بالنسبة إلى الرجال الأوائل على الأرض، رؤيةً متوترةً ثقيلة؛ فالنجوم تنساب عليه، والبحر يتكسّر على صدغيه. وكلّ شيء فيه يعيش دون تدخّل العقل المشوّه: التراب والماء والحيوانات والله.

بلغ النبأ السيدة هورتانز فقبعت كعادتها تنتظرنا على عتبة بابها، مصبوغة، ومغطاة بمسحوق التجميل، بدت قلقة رغم كونها تزّينت وكأنّها ذاهبة إلى حفلة ضخمة في ليلة سبت. كان البغل أمام بوّابتها، فقفز زوربا على ظهره وأمسك العنان.

اقتربت السيدة العجوز بخجل ووضعتْ يدها الصغيرة الممتلئة على صدر البغل وكأنّها تريد منع حبيبها من الرحيل.

قالت رافعة نفسها على رؤوس أصابع قدميها: «زوربا.. زوربا..»

أدار زوربا رأسه بعيدًا. كان يكره الاضطرار لسماع هراء عشاق كهذا في منتصف الطريق. رأتْ المرأة المسكينة نظرته وارتعبتْ. ولكنّ يدها واصلتْ الضغط على صدر البغل، مليئة بالتوسّل الرقيق.

سأل زوربا غاضبًا: «ماذا تريدين؟»

توسّلتْ قائلة: «اعتن بنفسك يا زوربا.. لا تنسَنِي.. اعتن بنفسك».

هزّ زوربا العنان دون أن يجيب. وانطلق البغل.

صحتُ: «رحلة موفقة يا زوربا. ثلاثة أيام، أسمعت؟ ثلاثة أيام لا أكثر».

فاستدار ملوّحًا بيده الكبيرة. بينما كانت بوبولينا العجوز تبكي وقد شكّلت دموعها أثلامًا في مسحوق التجميل على وجهها. وصاح:

«لقد وعدتكَ أيها الرئيس. وداعًا!»

اختفى وراء أشجار الزيتون. وواصلت السيدة هورتانز البكاء، وهي تتابع بنظرها الغطاء الأحمر البهيج الذي هيّأته لعشيقها حتّى يكون مرتاحا في جلسته، كان يتألّق وينطفئ من بعيد عبر أوراق الزيتون وشيئا فشيئا اختفى تماما. نظرت السيدة هورتانز حولها. فكان العالم فارغًا.

□ □ □

لم أعد إلى الشاطئ. شعرتُ بالحزن وسرتُ نحو الجبال. وحين وصلت إلى الممرّ الجبلي سمعتُ صوت بوق. كان ساعي بريد الريف يعلن وصوله إلى القرية. وحين رآني ناداني ملوّحًا بيده:

«يا سيدي!»

جاء وأعطاني رزمة من الصحف وبعض المجلات الأدبية ورسالتين: واحدة وضعتها في جيبي على الفور كي أقرأها في المساء، حين ينقضي

twitter @baghdad_library

النهار وتهدأ الروح. فقد عرفتُ من كتَبها وأردتُ أن أؤجّل متعتي حتّى تستمرّ فترة أطول.

أمّا الرسالة الأخرى فقد عرفتها من كتابتها الحادّة المتشنّجة وطوابعها الغريبة: إنّها قادمة من إفريقيا، من منطقة جبلية متوحشة، قرب تانجانيكا، أرسلها إليّ أحد طلابي القدامى، كارايانيس..

كان رجلاً غريبًا، متهوّرًا وغامضًا بأسنان بيضاء. كان أحد أنيابه معلّقًا كناب خنزير بريّ. لم يتحدث أبدًا، كان يصيح. ولم يناقش أبدًا، بل كان يخاصم. لقد غادر بلاده، كريت، حيث كان أستاذ لاهوت شابًا وراهبًا. كان يغازل إحدى تلميذاته وفي أحد الأيام باغتوهما في الحقل يتبادلان القبل. فراحوا يصرخون بهما مستهزئين. وفي اليوم نفسه قام الأستاذ الشاب برمي قلنسوة الراهب واستقل قاربًا ورحل. ذهب إلى عمّ له في إفريقيا وبدأ يعمل بتصميم. فتح معمل حبال وجمع الكثير من النقود. وكان بين فترة وأخرى يكتب لي ويدعوني كي أمكث معه ستة أشهر. وكنت أشعر دائما وأنا أفتح كلّ رسالة من رسائله حتى قبل أن أقرأها، بصفحات غزيرة مدروزة بالخيطان تنشر قلوعها، وبريح هوجاء تُطيّر شعر رأسي. وكنت دومًا أعزم على الذهاب إلى إفريقيا، ولكنّني لا أذهب.

غادرتُ الممر الجبلي، وجلستُ على صخرة، وفتحتُ الرسالة وبدأتُ أقرأ:

«متى ستزورني هنا، أنت أيّها البطلينوس الملتصق بصخور اليونان؟ أنت أيضًا تحوّلتَ إلى يونانيّ نمطيّ كسول، مرتاد حانات، متخبّط في حياة المقاهي. لأنك لا تحتاج إلى التفكير في أنّ المقاهي مقاه فحسب؛ وأنّ الكتب والعادات وإيديولوجياتك الثمينة هي مقاه أيضًا. اليومَ الأحد وليس لديّ شيء أفعله: أنا في موضع إقامتي وأفكّر فيك. الشمس فرنٌ، ولم تسقط قطرة مطر واحدة. ولكن هنا، حين تتساقط الأمطار في أفريل

وماي وجوان يحدث طوفان شامل.

أنا وحيد تمامًا، وأحبّ هذا. ثمّتَ الكثير من اليونانيين الكسالى هنا (هل يوجد مكان في العالم لا تذهب إليه هذه الحشرات الطفيليّة؟) ولكنني لا أريد الاختلاط بهم، لأنّني أحتقرهم. وأنتم أيّها المواطنون الأعزّاء -وليأخذكم الشيطان جميعا لأجل ذلك- حتّى هنا ترسلون إلينا جذامكم وأهواءكم السياسية. و هذا ما يدمّر اليونان: السياسة! ثمّتَ هنا لعب الورق أيضًا، وجهل، وخطايا جسدية بطبيعة الحال.

أمقتُ الأوروبيين؛ لهذا أتجوّل هنا في جبال أوسومبارا. أكره الأوروبيين، ولكن ما أكرهه أكثر هو اليونانيون الكسالى وكل ما له علاقة باليونان. لن تطأ قدماي ذلك البلد ثانية. هنا سأنتهي. لقد حضّرتُ مدفني مسبقًا أمام كوخي في منحدر الجبل. ووضعتُ الشاهدة بنفسي ونقشتُ عليها هذه الكلمات بأحرف كبيرة.

هنا يرقد يونانيٌّ يكرهُ اليونانيين.

أضحك وأبصق وأشتم وأبكي كلما فكّرتُ في اليونان. وهكذا كي لا أرى يونانيين أو أي شيء يوناني غادرتُ البلاد إلى الأبد. جئتُ إلى هنا جالبًا قدري معي: يفعل الإنسان ما يختاره! أحضرتُ قدري إلى هنا وعملت كعبد، وما زلت أعمل. لقد صببتُ سيولا من العرق، وما أزال . أنا أصارع الأرض والريح والمطر وعمّالي من الحمر والسود.

ليس لديّ أيّ متع. نعم، باستثناء متعة واحدة: العمل. أعمل بجسدي وذهني ولكنني أفضّل العمل الجسدي. لأنّني أحبُّ أن أستنفد نفسي وأتعرق وأسمع عظامي تطقطق. وأحبّ أن أبدّد نصف مالي، وأصرفه على هواي: لست عبدا للمال بل إنّ المال عبدٌ لي. وأنا عبد للعمل وأفخر بذلك. إنّني أقطع الأشجار وقد وقّعت عقدا مع الإنجليز، وأصنع الحبال؛ والآن بدأتُ زراعة القطن، أيضًا. في الليلة الماضية نشب قتال بين زنوجي، وهم قبيلتان -الواياو والوانغوني- من أجل امرأة عاهرة. ألحق الأذى

twitter @baghdad_library

بالكبرياء كما تعلم. وكما هو الأمر في اليونان تمامًا، شتائم وشجار وضرب بالهراوات ودم يسيل. ركضتْ النساء في حلكة الليل وأيقظنني بصراخهنّ كي أذهب وأتوسّط في النزاع. كنتُ غاضبًا، وقلتُ لهنّ أن يذهبن إلى الشيطان، ثم إلى الشرطة البريطانية. ولكنهن بقين هناك يصحنَ أمام بابي الليل كلّه. وعند الفجر خرجتُ وتوسّطتُ بينهم.

غدًا في الصباح الباكر سأذهب كي أتسلق جبال أوسومبارا بغاباتها الكثيفة ومياهها العذبة وخضرتها الأبدية. حسنًا، أيها اليونانيون البابليون الكسالى، متى ستنفصلون عن أوربا؟ ...«تلك العاهرة الكبيرة الجالسة على فيض من المياه، والتي زنا بها ملوك الأرض جميعا...!» متى ستأتي لنتسلق هذه الجبال النقيّة البريّة معًا؟

لقد رزقتُ بطفل من إحدى الزنجيّات: إنّها فتاة. طردتُ أمها لأنّها كانت تخونني علناً في ضوء النهار تحت كل شجرة خضراء في الحيّ. عندئذ سئمت منها، ورميتها بعيدًا. ولكنني احتفظتُ بالصغيرة؛ وهي الآن في الثانية من عمرها. تستطيع أن تمشي، وقد بدأت تتحدث. لذلك شرعت أعلّمها اليونانية؛ وأوّل جملة علّمتها لها هي: إنّني أبصق عليكم أيها اليونانيون الكسالى، أبصق عليكم أيها اليونانيون الكسالى!

إنها تشبهني تلك اللعوب الصغيرة؛ ولم ترث من أمها سوى الأنف، أنا أحبّها ولكن كما يحب الإنسان كلبًا أو قطة. تعال إلى هنا أنت أيضا، ستنجب طفلةً من إحدى نساء أوسومبارا. ثمّ نزوّجها ذات يوم. تعال فقط كي نسلي أنفسنا و نُسلّيهنّ كذلك!

وداعاً! وليحالفك الشيطان، ويحالفني معك، يا صديقي العزيز

كارايانيس Servus diabolicus Dei»

تركتُ الرسالة مفتوحة على ركبتيّ. ومن جديد استحوذتْ عليّ رغبة محمومة في الذهاب. ليس لأنني أريد أن أرحل - فأنا مرتاح تمامًا على هذا الساحل الكريتي، سعيد وحرّ ولاشيء ينقصني- ولكن لأنّ رغبة

واحدة كانت تستهلكني: أن ألمس وأرى قدر الإمكان من هذه الأرض ومن بحارها قبل أن أموت.

نهضتُ، غيّرتُ رأيي، وبدلاً من تسلق الهضبة انطلقتُ بسرعة نحو الشاطئ. تحسّستُ الرسالة الأخرى في جيب معطفي ولم يعد بوسعي الانتظار. فقد استمرّ طويلا وبما يكفي ذلك الطعم المسبق العذب، طعم المتعة الذي لا يُحتمل.

وصلتُ إلى الكوخ، أشعلتُ النار، وأعددتُ الشاي، وأكلت قطعة خبز مع الزبدة والعسل وبعض البرتقالات. ثمّ نزعتُ ثيابي وتمدّدتُ على سريري وفتحتُ الرسالة:

«أيّها المعلم والمهتدي - تحياتي لك!

لقد قمتُ بعمل هائل وصعب هنا، والشُّكر «لله»، (كوحش مفترس وراء القضبان)، وإنّني أضع الكلمة الخطيرة بين قوسين كي لا تُثار حالما تفتح رسالتي. حسنًا، لقد قمت بعمل صعب جدًا، والشكر «لله»! فنصف مليون يوناني معرضون للخطر في جنوب روسيا والقوقاز. يتحدّث كثير منهم التركية أو الروسية فقط، ولكنّ قلوبهم تتحدّث اليونانية بتعصّب. إنهم من سلالتنا. ويكفي النظر إليهم فحسب، إلى الطريقة التي تُومض بها عيونهم الناقبة والشرهة، إلى مكر شفاههم وحسّيتها حين يبتسمون، وإلى الطريقة التي نجحوا بها في أن يصبحوا رؤساء على هذه الأرض الروسيّة الشاسعة، وفي أن يستخدموا فلاحين (موجيك)، يكفي أن ترى ذلك حتّى تفهم أنهم منحدرون من حبيبك أوديسيوس. وهكذا فإن المرء يحبّهم ولا يستطيع أن يتركهم يهلكون.

ذلك أنهم معرّضون فعلا لخطر الهلاك. فقدوا كلّ أملاكهم، وها هم جياع عراة. يهاجمهم البلاشفة من جهة، ومن جهة أخرى يطاردهم الأكراد. لقد احتشد اللاجئون من كلّ مكان ليتكوّموا في بضع بلدات جورجيا أو أرمينيا. لا يوجد لديهم طعام ولا دواء ولا لباس. يتجمّعون

twitter @baghdad_library

في المرافئ ويتفحصون الأفق بلهفة بحثًا عن سفن يونانية تأتي لتعيدهم إلى أمّهم اليونان. إن جزءًا من سلالتنا ـ وهذا يعني جزءا من روحنا ـ مصاب بالرعب.

إذا تركناهم لمصيرهم فإنهم سيهلكون. لذلك نحتاج إلى الكثير من الحبّ والفهم والحماسة والحسّ العمليّ، وهي الصفات التي تحبّ دائما رؤيتها مجتمعة، كي نتمكّن من إنقاذهم وإعادتهم إلى أرضنا الحرّة، هناك حيث سيقدّمون أعظم فائدة لعرقنا، هناك بعيدا عند حدود مقدونيا، وأبعد في الميدان على الخطوط الأمامية، على حدود ثريث. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يجب أن ننقذ بها مئات الآلاف من اليونانيين وننقذ أنفسنا معهم. ذلك أنه حالما وصلت إلى هنا رسمتُ دائرة، بالطريقة التي علمتني إياها، ودعوتُ الدائرة «واجبي». وقلت: «إذا أنقذتُ هذه الدائرة كلّها، أنقذ نفسي؛ إذا لم أنقذها، أضيع!» حسنًا، داخل الدائرة يوجد خمسمائة ألف يوناني!

أذهب إلى البلدات والقرى، أجمع اليونانيين كلّهم معًا، أكتب تقارير وأرسل البرقيات وأحاول أن أجعل مسؤولينا في أثينا يرسلون الزوارق والطعام واللباس والأدوية وينقلون هذه الكائنات المسكينة إلى اليونان. إذا كان الصراع بحماس وعناد يعني السعادة فأنا سعيد. لست أدري إن كنتُ كما تقول قد فصّلتُ سعادتي على مقاسي. وإذا كان ذلك صحيحا فإنّ قامتي والحمد لله طويلة... إنّني أودّ على كلّ حال أن أمدّ قامتي إلى حدود اليونان الأكثر بُعدا لأنّها ستكون في الوقت ذاته حدود سعادتي! ولكن يكفينا نظريات! أنت تستلقي على شاطئك الكريتي تصغي إلى صوت البحر والسنتور، ولديك الوقت، أمّا أنا فلا. إنّني غارق في الفعل وأنا سعيد بذلك. فالفعل يا معلّمي هو الخلاص الوحيد.

والواقع أن موضوع تأملاتي بسيط جدًا. أقول: إن سكان بونتوس والقوقاز، وفلاحي كارس، والتجار الكبار والصغار في تفليس، وباتم، ونوفو روسيك وروستوف وأوديسا وغريميا، هم سكاننا، إنهم من دمنا؛

وبالنسبة إليهم كما بالنسبة إلينا، عاصمة اليونان هي القسطنطينيّة.. وقائدنا جميعا واحد. أنت تدعوه أوديسيوس، ويدعوه آخرون قسطنطين باليولوغوس[1]، ليس ذلك الذي قُتل عند أسوار القسطنطينية، وإنما الآخر، الأسطوري، الذي تحوّل إلى رخام وما يزال يقف منتصبًا منتظرًا ملاك الحرية. أمّا أنا فإنّني أدعو زعيم سلالتنا، بعد أذنك، أكريتاس[2]. أحب هذا الاسم دون سواه؛ فهو أكثر رزانة ويوحي بأنّه محارب. حالما تسمعه تصعد في داخلك صورة هيلين الأبدية، مسلّحة بشكل كامل، تقاتل دون توقّف أو استراحة على الحدود وفي الخطوط الأمامية. تقاتل على الحدود كلّها: القومية والفكرية والروحية. وإذا ما أضفنا ديجينيس فإنّنا نكون قد عبّرنا بشكل أكمل عن سلالتنا، عن هذا المركّب المدهش بين الشرق والغرب.

أنا في كارس الآن؛ جئتُ لكي أجمع اليونانيين كلّهم من القرى المجاورة. في يوم وصولي قام الأكراد بالقبض على مدرّس وكاهن يونانيين في المقاطعة ودقوا في أقدامهم حدوتيّ حصان بالمسامير. أصيب الوجهاء بالذّعر ولاذوا بالمنزل الذي أمكث فيه. نستطيع سماع بنادق الأكراد تقترب طول الوقت. إنّ أعين هؤلاء اليونانيين جميعا مثبتة عليّ، كما لو أنني كنت الوحيد القادر على إنقاذهم.

كنت عازمًا على المغادرة غدًا إلى تفليس ولكن الآن في وجه هذا الخطر، أشعر بالعار من الرحيل. وهكذا سأظل. لا أقول إنني لستُ خائفًا؛ أنا خائف، ولكنني لا أشعر بالعار. أما كان «محارب رمبرانت»، «محاربي»، ليفعل الشيء نفسه؟. لو كان في مكاني لَبقِي؛ وهكذا سأبقى أنا أيضًا. إذا دخل الأكراد البلدة فمن الطبيعي أن أكونَ أوّل من تُركّب له حدوة حصان. وأتصوّرك لا تتوقّع دون شكّ، يا معلّمي، أن ينتهي تلميذك نهاية البغال هذه.

---

(1) آخر الأباطرة البيزنطيين.

(2) (باسيليوس دايجينس أكريتاس: بطل بيزنطي من القرن العاشر: من أب مسلم وأم مسيحية وكان حارس حدود الإمبراطورية)

twitter @baghdad_library

بعد إحدى تلك المناقشات اليونانية التي لا تتوقّف قررنا أن نجتمع هذا المساء مع البغال والأحصنة والماشية والنساء والأطفال وننطلق في الفجر نحو الشمال. سأسير في المقدمة، فالكبش يقود القطيع.

هجرة رعويّة لشعب عبر سلاسل الجبال والسهول ذات الأسماء الأسطورية! وسوف أكون أشبه بموسى وهو يقود الشعب المختار إلى أرض الميعاد، كما يدعو أولئك السذّج اليونان. ولكي أكون حقًّا جديرًا بهذه المهمة المُوسَوِيّة ولا ألحق العار بنفسي، فقد كان عليّ بطبيعة الحال أن أتخلص من حذائي الأنيق الذي كنت تسخر منه، وأن ألفّ قدميّ بعصائب من جلد الماعز، وأن تكون لي أيضًا لحيةٌ متموّجة كثّة، وقبل ذلك كلّه، أن يكون لي قرنان. ولكن أرجو أن تعذرني فلن أحقّق لك هذه المسرّة، فمن الأسهل جعلي أغيّر روحي على تغيير لباسي. إنّني أنتعل الحذاء؛ وأنا حليق مثل لبّ الملفوف، رغم أنّي غير متزوّج.

يا سيدي، آمل أن تصلك هذه الرسالة،إذ يمكن أن تكون الأخيرة. لا أحد يدري، فلا ثقة لي في القوى السريّة التي تحمي البشر، كما يقولون. إنّني أؤمن بالقوى العمياء التي تضرب يمينًا ويسارًا، دون مكر أو هدف وتقتل كل من يكون في طريقها. إذا غادرتُ هذه الأرض (أقول «غادرتُ» كي لا أخيفك أو أخيف نفسي بالكلمة الملائمة)، إذا غادرتُ هذه الأرض فآمل أن تظلّ بخير يا أستاذي العزيز! أشعر بالحرج من قولي هذا ولكن يجب أن أقوله فاعذرني: أنا أيضًا أحببتك كثيرًا.

وفي أسفل الصفحة كتب بسرعة وبقلم رصاص هذه الحاشية:

حاشية: لن أنسى الاتفاق الذي عقدناه على ظهر المركب يوم رحيلك. إذا كان عليّ أن أغادر الأرض فإنّني سأعلمك، أينما كنتُ، لا تخش شيئًا.

-13-

مرّتْ أيّام ثلاثة ، وأربعة وخمسة، ولم يعد زوربا.

وفي اليوم السادس تلقّيتُ رسالة من كانديا مؤلّفة من عدّة صفحات طويلة، من الهراء. كانت مكتوبة على ورق وردي معطّر، وفي زاوية الصفحة قلب يخترقه سهم.

حفظتها وأنا أنسخها بحرص، محافظًا على التعابير المختارة بعناية الموجودة هنا وهناك. أمسك زوربا القلم وكأنّه يُمسك معولاً؛ وهاجم الصفحة بعنف، لهذا كان في الورقة عدد من الثقوب وكانت مغطاة باللطخ.

عزيزي الرئيس، السيد الرأسمالي

أكتب كي أسأل إن كنت بصحة جيّدة. أنا أيضا بصحة جيدة فشكرًا لله!

لقد أدركتُ لبعض الوقت أنني لم آت إلى هذا العالم لأكون جوادًا، أو ثورًا. إنّ الحيوانات فحسب تعيش كي تأكل. كي أنجو من الاتهام المذكور أعلاه، أبتكر أعمالاً لنفسي ليلَ نهار. أجازف بخبزي اليوميّ من أجل فكرة، أقلب المَثَل وأقول: «أفضّل أن أكون بطة هزيلة في بركة على أن أكون عصفورًا دُوريًّا في قفص».

إن كثيرًا من الناس وطنيون دون أن يكلّفهم الأمر أيّ شيء. لستُ وطنيًّا، ولن أكون، مهما كلّفني الأمر. كثير من الناس أيضا يؤمنون بالفردوس ويحتفظون بحمار مربوط هناك. أمّا أنا فلا أملك واحدًا، أنا حرّ! لستُ خائفاً من الجحيم حيث سينفق حماري. ولا أتوق أيضًا إلى الفردوس، حيث سيحشو نفسه بالبرسيم. لستُ متعلّما، ولا أحسن

twitter @baghdad_library

التعبير، ولكنك تفهمني، أيها الرئيس.

الناس يخافون فراغ الأشياء! من جهتي تغلّبت على ذلك. هم يفكرون بصعوبة؛ أمّا أنا فلا حاجة لي بالتفكير. لا أغتبط بالخير ولا أيأس من الشرّ. لو سمعتُ أنّ اليونانيين استولوا على القسطنطينيّة، فإن الأمر نفسه بالنسبة إليّ سيكون كما لو أن الأتراك يستولون على أثينا.

إذا فكّرتَ انطلاقًا من الكلام الفارغ الذي أتفوّه به، أنني صرتُ مجنونًا، فاكتبْ لي بذلك. إنّني أزور الحوانيت هنا في كانديا لشراء حبال المصعد، وأضحك.

«ما الذي يضحكك يا أخ؟» كانوا يسألونني دومًا. ولكن كيف أستطيع إخبارهم؟ أضحك لأنني كلما مددتُ يدي كي أرى إن كان الحبل الفولاذي جيّدًا، أفكّر فجأة في ماهيّة الإنسان ولماذا جاء إلى الأرض وأيّة فائدة يقدّم... وفي رأيي هو لا يقدّم شيئا. لا فرق عندي أن تكون لديّ امرأة أو لا تكون، سيّان أن أكون صادقا أو غير صادق، وأن أكون باشا أو حمّالاً في الشارع. إن الشيء الوحيد الذي يحدثُ فرقًا بالنسبة إليّ هو إن كنتُ حيًّا أو ميتًا. إن كان الشيطان أو الله يدعوني- وأنا أعتقد أيّها الرئيس أنّ الله والشيطان هما شيء واحد- سأموت وأتحول إلى جثة متعفّنة، ويهرب الناس من رائحتي. سيضطرون إلى دفني على عمق أربعة أمتار تحت الأرض على الأقل كي لا يختنقوا!

بالمناسبة، أريد أن أسألك عن شيء ما يخيفني، الشيء الوحيد الذي يرعبني ولا يتركني بسلام ليلاً أو نهارًا. إنّه الشيخوخة أيها الرئيس. لتحفظنا السماء منها! الموت لا شيء، مجرد نفخة وتنطفئ الشمعة. أمّا الشيخوخة فهي العار كلّ العار..

عار كبير أن أعترف بأنّني أشيخ وأفعل كلّ ما بوسعي لمنع الناس من رؤيتي أشيخ: أقفز وأرقص، يؤلمني ظهري ولكنّني أواصل الرقص. أشرب، أسكر، يدور كل شيء حولي، ولكنني لا أجلس، فقط أفعل كما لو

أن كلّ شيء رائع. أتعرّق فأسبح في البحر، أصاب بالرشح وأريد أن أسعل كي أريح نفسي ولكنني أشعر بالعار، أيها الرئيس، وأخمد السعلة. هل سبق وسمعتني أسعل؟ أبدًا! وليس الأمر كما تظنّ، لا أفعل هذا فقط حين يكون هناك أشخاص آخرون، وحين أكون وحيدًا! أشعر أيضًا بالعار أمام زوربا، ما رأيك بهذا أيها الرئيس؟ أشعر بالعار أمامه.

في أحد الأيام على جبل أثوس، وقد ذهبت إلى هناك وكان أحرى بي أن أكسر رجلي كي لا أفعل! التقيتُ براهب يدعى الأب لافرنتيو وهو من تشيوس. وكان هذا المسكين يؤمن بأن شيطانًا يسكنه بل ويذكر لك اسمه: كان يسميه هودجا. «يريد هودجا أن يتناول اللحم في الجمعة العظيمة!» المسكين لافرنتيو كان يزأر ويضرب رأسه بحائط الكنيسة. «يريد هودجا أن يضاجع امرأة. يريد هودجا أن يقتل رئيس الدير. إنه هودجا، هودجا وليس أنا!» ثم كان يخبط رأسه على الحجر.

ثمّتَ شيطان من نوع ما يسكنني أنا أيضًا، أيها الرئيس، وأدعوه زوربا! لا يريد زوربا الداخلي أن يشيخ، وهو لم يشخ، ولن يشيخ أبدًا. إنه غول بشعره الأسود الفاحم كغراب وأسنانه الاثنتين والثلاثين واللّون الأحمر القرنفليّ وراء أذنه. أمّا زوربا الخارجيّ فلهُ بطن بارز وبعض الشعرات الشائبة. لقد تقلّص جلده وسكنت وجهه التجاعيد؛ سقطتْ أسنانه ووخط رأسه الكبير شعر الشيخوخة الأبيض، كشعر حمار طويل!

ما الذي أستطيع فعله، أيها الرئيس؟ إلى متى سيقتتل هذان الزُوربَيَان؟ وأيٌّ منهما سينتصر؟ إذا متُّ حالاً سأكون على ما يرام، ولكن إن واصلتُ الحياة لوقت طويل، فإنني سأنتهي. سأنتهي، أيها الرئيس! ويأتي يومٌ ويحلّ بي العار. سأفقد حريتي؛ إن زوج ابنتي وابنتي سيأمرانني بالعناية بالرضيع، وحشهما الصغير المخيف، لكي لا يحرق نفسه، ولا يسقط ولا يتّسخ. وإذا وسّخ نفسه سيجعلانني أقوم بتنظيفه!

سيكون عليك أن تتعرّض إلى العار نفسه، أيها الرئيس، ورغم أنك

twitter @baghdad_library

شابّ. كن على حذر. وأصغِ إلى ما أقوله لك، اتّبعْ الطريق نفسه مثلي، فما من خلاص آخر؛ فلْنصعد إلى الجبال، نبحث عن الفحم الحجري والحديد والتوتياء، ولْنجمع الأموال حتّى يحترمنا الأقرباء ويلعق الأصدقاء أحذيتنا الكبيرة، وكل الأثرياء يرفعون قبعاتهم لنا. وإذا لم ننجح أيها الرئيس، فمن الأفضل أن نموت، وأن تقتلنا الذئاب أو الدببة أو أيّ حيوان كاسر آخر يجدنا أمامه. وربّما لهذا السبب أرسل الله الحيوانات المفترسة إلى الأرض، كي تنهي بضعة أشخاص مثلنا، فلا يذلّون كثيرًا.

هنا رسم زوربا بأقلام الرصاص الملوّنة رجلاً طويلاً ونحيلاً، يهربُ تحت بعض الأشجار الخضراء وثمّتَ سبعة ذئاب تطارده، وفي قمة الصورة، وبأحرف كبيرة، كتب: «زوربا والخطايا السبع المهلكة».

ثم تابع:

ستفهم بعد أن تقرأ هذه الرسالة أيّ إنسان شقيّ أنا. وأنّني لا أرجو أيّ أمل في الخلاص من سوداويّتي إلاّ حين أحدّثك لأنّك أنت أيضا مثلي دون أن تدرك ذلك. ثمّتَ شيطان يسكنك أنت أيضًا، ولكنك لا تعرف اسمه بعد، وبما أنك لا تعرف هذا، تستطيع التنفّس. عمّدْهُ أيها الرئيس، وستشعر بالطمأنينة!

كنتُ أقول كم أنا تعيس. أستطيع أن أرى بوضوح أن ذكائي كلّه غباء لا أكثر. ثمّتَ أوقات تخطر لي فيها أفكار عظيمة لأيام كاملة، ولو كان في وسعي أن أفعل فحسب ما يطلب مني زوربا الداخليّ أن أفعله فإن العالم سيندهش!

ولمّا كنت أعي جيّدا أنني لا أملك أجلاً محددًا في عقدي مع الحياة، فإنني لا أبالي بأن أرفع رجلي عن الفرامل حين أصل إلى أخطر المنحدرات. إن حياة الإنسان طريق ذات مرتفعات ووهاد شديدة الانحدار. ولهذا السبب تحديدا يستخدم جميع العقلاء الفرامل الخاصة

بهم. أمّا أنا أيّها الرئيس -وهنا يبرز المعدن الذي صُنعت منه- فقد تخلّصتُ من فراملي كلّها منذ وقت طويل لأنني لستُ خائفًا على الإطلاق من الاصطدام. حين تخرج عربة عن السكة نسمّي نحن الميكانيكيين هذا اصطدامًا. وأنا لا أنتبه أبدًا إلى الصدمات التي تحلّ بي. نهارًا وليلاً، أنطلق بالسرعة الكاملة إلى الأمام، فاعلاً ما أرغبُ فيه فحسب؛ ولن يكون الأمر أكثر سوءًا إذا انهرتُ أو تحطّمتُ إلى قطع. ما الذي لديّ كي أخسره؟ لا شيء. حتى ولو تعاملتُ مع الأمر بارتياح، ألن تكون نهايتي مشابهة؟ بالطبع ستكون! دعنا إذن ننطلق بسرعة!

أنا متأكد من أنني أدفعك إلى الضحك الآن ولكنّني هنا أكتبُ هرائي،أو إن شئت تأمّلاتي، أو نقاط ضعفي. ما الفرق بين الثلاثة؟ في الحقيقة لا أرى أيّ فرق. أنا أكتبُ لك، فأمنحك فرصة جيّدة للضحك. وأضحك في الوقت ذاته من فكرة أنّك تضحك الآن، وهكذا فإن الضحك لا يتوقّف أبدًا على هذه الأرض. لكلّ رجل حماقته، ولكن أكبر حماقة حسب اعتقادي هي أن لا تكون لديك واحدة.

وهكذا في وسعك أن ترى أنّني أدرس حماقتي الخاصة هنا في كانديا وأنا أحدثك عن كل شيء، لأنني أريد أن أسألك النصيحة. ما تزال شابًا، بالطبع، ولكنك قرأتَ كتب الحكمة القديمة وأصبحتَ، إذا لم تتضايق من قولي، عتيق الطراز قليلاً؛ ولهذا أريد نصيحتك.

حسنًا، أعتقد أن لكل شخص رائحته. لا نلاحظ الأمر كثيرًا لأن الروائح تختلط كلّها ولا نستطيع أن نميّز أيها رائحتك وأيها رائحتي، حقًّا... كلّ ما نعرفه هو أن هناك رائحة كريهة وهذا ما ندعوه «البشرية»... أعني «الرائحة البشرية النتنة». هناك بشرٌ يستنشقونها وكأنها خزامى. فيما تجعلني أنا أرغب في التقيّؤ. ولكن دعنا من ذلك، فتلك قصّة أخرى.

أردتُ أن أقول - وقد كنتُ على وشك أن أرفع رجلي عن الفرامل ثانية- إنّ النساء، العاهرات، لديهنّ أنوف مبلّلة، وكعاهرات يستنشقن

twitter @baghdad_library

على الفور رائحة من يشتهيهنّ من الرجال ومن لا يشتهي. ولهذا فقد كان هناك دوما في كل مدينة تطأها قدماي، امرأة أو امرأتان تجريان ورائي، وعلى الرغم من أنّني قد أصبحت الآن مسنّا، وصرت دميما كقرد ولا ملابس جميلة لدي، فإن العاهرات يعرفن رائحتي، بارك الله فيهنّ!

على أيّ حال، في اليوم الأوّل الذي وصلتُ فيه بأمان إلى كانديا، كان الظلام مخيّمًا. اندفعتُ مباشرة إلى الحوانيت ولكنها كانت مغلقة كلّها. ذهبتُ إلى نُزل، قدّمتُ للبغل بعض العلف، أكلتُ واغتسلتُ. ثمّ أشعلتُ سيجارة وخرجتُ كي ألقي نظرة في الجوار. لا أعرف أحدًا في البلدة ولا أحد يعرفني؛ كنتُ حرّاً بشكل كامل. وكان في وسعي أن أصفّر في الشارع وأضحك وأحادث نفسي. اشتريتُ بعض بزر اليقطين المحمّص، وأكلتُ وبصقتُ وتجوّلت كما يسرّني. كانت مصابيح الشارع مضاءة والرجال يتناولون الشراب المسكر الفاتح للشهيّة، وكانت النساء عائدات إلى منازلهنّ والجوّ يعبق بالمساحيق وصابون الزّينة، وشراب اليانسون واللحم المشويّ على السّيخ. فقلتُ لنفسي: «أصغِ يا زوربا، كم تتوقع أن تعيش بهذين المنخرين المرتعشين؟ لم يبق لك وَقتٌ طويل كي تستنشق الجوّ، لذا تابع، أيها الشاب العجوز، استنشقهُ قدر ما تستطيع!»

هذا ما كنتُ أقوله وأنا أسير في الساحة الكبيرة ذهابًا وإيابًا. وفجأة -والحمد لله- سمعتُ صخبا، ورقصًا، وصوتَ رقّ وبعض أغانٍ شرقية. فركضتُ إلى الجهة التي كانت تصدر منها الأصوات. كان المكان عبارة عن مقهى وملهى. ولم أكن أريد غير ذلك. فدخلتُ، وجلستُ إلى طاولة صغيرة، مطلّة على المقدمة. وما الّذي سأخشى؟ فكما قلتُ لك، لا أحد هنا يعرفني، كنتُ حرًّا على نحو كامل.

كانت هناك امرأة ضخمة خرقاء ترقص على المنصة، رافعةً تنورتها إلى أعلى، ولكنها لم تلفت انتباهي. طلبتُ زجاجة بيرة؛ ثم جاءت فتاة جميلة، صغيرة وسمراء وجلست إلى طاولتي. وعلى وجهها طبقة كثيفة

من المساحيق.

سألتني وهي تضحك: «أتمانع يا جدّي؟»

فاندفع الدم إلى رأسي حين قالت ذلك. شعرتُ بإلحاح مرعب كي أخلع رقبتها، الفاجرة! ولكنني تمالكتُ نفسي، مشفقا عليها، وناديت النادل.

«زجاجتيّ شمبانيا».

يجب أن تعذرني أيّها الرئيس! لقد أنفقتُ بعض نقودك، ولكنها كانت إهانة مرعبة، وكان عليّ أن أنقذ شرفنا، شرفك وشرفي، كان عليّ أن أجعل تلك المزعجة تركع على ركبتيها أمامنا، كان عليّ أن أفعل هذا في الحقيقة. أعرف أنك لن تتركني أبدًا دون دفاع في لحظة صعبة! وهكذا طلبتُ زجاجتي شمبانيا.

وصلتْ الشمبانيا، وطلبتُ الكعك أيضًا ثم المزيد من الشمبانيا. أتى رجل معه بعض الياسمين فاشتريت كل ما لديه في السلّة وأفرغته في حضن الصغيرة التي تجاسرتْ على إهانتي.

ورحنا نشرب، ونشرب ولكنني لم أفكّر في مجرّد لمسها أيّها الرئيس، أقسم لك، فأنا أعرف عملي جيّدا. حين كنتُ شابًّا كان أوّل ما أقوم به هو المداعبة، أمّا الآن وقد أصبحت عجوزا فإنّ أوّل ما أفعله هو أن أنفق النقود وأتظاهر بالظرف، أن أكون شهمًا ومفتوح القبضة. فالنساء يعشقن أن يُعامَلنَ هكذا. تُتيّم العاهرات بك رغم كلّ شيء؛ إذ يمكن أن تكون محنيّ الظهر، عجوزًا، محطّمًا، دميمًا كقملة، وسينسين كلّ هذا. فهنّ لا يستطعن رؤية أي شيء آخر، العاهرات، سوى اليد التي تحضر المال وتجعله يتدفق كسلّة فيها ثقب. وهكذا، كما كنتُ أقول، أنفقتُ ثروة -ليباركك الله أيها الرئيس ويعيدها لك مائة ضعف- وتمسّكتْ بي تلك الفتاة. اقتربتْ أكثر فأكثر وضغطتْ ركبتها الصغيرة على رجليّ النحيلتين. ولكنني كنتُ كقالب من الثلج رغم أنني كنتُ من الداخل

twitter @baghdad_library

مهتاجًا ومتضايقًا. فهذا ما يجعل النساء يفقدن عقولهنّ؛ من الأفضل أن تتعلّم هذا؛ في حال وجدتَ نفسك في الموقف نفسه، يمكن أن ينفعك: دعهنّ يشعرن أنك تشتعل من الداخل دون أن تلمسهنّ!

وهكذا حلّ منتصف الليل. وبدأت الأضواء تُطفأ إيذانًا بإغلاق الملهى. فأخرجتُ ورقة من فئة الألف «دراخما»، ودفعتُ الفاتورة تاركا للنادل مبلغا سخيّا.

تعلّقتْ الفتاة بي. وسألتني بنبرة مريضة من الحب: «ما اسمك؟»

فأجبتها، مغتاظا: «جدّي!»

فقرصتني العاهرة الوقحة بشدّة، وهمستْ: «تعال معي... تعال معي!»

أمسكتُ يدها الصغيرة، وضغطت عليها موافقا، وأجبت بصوت مبحوح: «هيا إذن أيتها الصغيرة...».

ولك أيّها الرئيس أن تتخيّل الباقي. لقد قمنا بفعلتنا. ثم خلدنا إلى النوم. وحين استيقظتْ كان الوقت ظهرا. نظرتُ حولي، وماذا رأيت؟ غرفة صغيرة ساحرة، حسنة الترتيب، أرائك، حوض اغتسال، صابون، زجاجات عطر، مرايا من الأحجام كلّها، فساتين ذات ألوان مرحة معلقة على الحائط، حشد من الصور: بحارة وضباط وقباطنة ورجال شرطة وراقصات ونساء لا يرتدين سوى خفّ القدمين. وإلى جانبي في السرير كانت ملكة اللذّة دافئة ومعطّرة وشعرها منفوش!

«آه يا زوربا!» قلتُ لنفسي، وأنا أغمضُ عينيّ، «لقد دخلتَ الفردوس وأنت ما تزال حيًّا! هذا مكان جيد لتكون فيه، فلا تتزحزح!»

قلتُ لك مرة من قبل، أيها الرئيس، إنّ لكل شخص جنّته الخاصّة. أتصوّر فردوسكَ مليئًا بالكتب ودمجانات كبيرة من الحبر. وبالنسبة إلى شخص آخر سيكون مليئا ببراميل النبيذ، بالروم والبراندي، وعند غيره سيكون أكواما من النقود. أمّا بالنسبة إليّ فالفردوس هو: غرفة صغيرة معطّرة بفساتين ذات ألوان زاهية معلقة على الحائط، سرير

كبير بنوابض جيدة، وإلى جانبي ملكة اللذّة.

إن الخطيئة التي تعترف بها، نصفُها مغفور. لم أفتح الباب في ذلك اليوم. أين كنت سأذهب؟ ماذا كنت سأفعل؟ لا شيء! كنتُ في وضع ممتاز حيث كنت. فأرسلتُ طلبًا إلى أفضل نزل في البلدة واشتروا لنا صينية من الطعام لا وجود فيها لغير المقويّات: الكافيار الأسود، شرائح السمك، عصير الليمون، معجّنات تركية. ومارسنا الحبّ مرة ثانية ثمّ عدنا إلى النوم. وفي المساء استيقظنا، وارتدينا ثيابنا، وخرجنا متشابكي الأذرع إلى الملهى مرة أخرى.

ولكي أختصر لك الحكاية ولا أصدّع رأسك بالكلمات، فإنّني أقول لك إنّ هذا البرنامج ما يزال مستمرّا. ولكن لا تقلق أيها الرئيس، فأنا أعتني بشؤونك الصغيرة، أيضًا. فبين فينة وأخرى أذهبُ كي أبحث في الحوانيت. سأشتري الأربطة وكل ما نحن في حاجة إليه، فلا تقلق. لا يهم إن تأخرنا يوما أو أسبوعا أو شهرا؟ وكما نقول: إذا كانت القطة مستعجلة، فإنّها تضع أولادها خلسة. فلا تتعجّل كثيرا إذن، فأنا أنتظر من أجل مصلحتك، أنتظر كي تسمع أذني كل شيء، وهكذا لا يتمّ خداعي. إذ يجب أن تكون الأربطة من النوع الجيّد، وإلا فسنخسر. فاصبرْ قليلا، أيها الرئيس، واجعل ثقتك فيّ.

قبل كل شيء، لا تقلق على صحتي. فالمغامرات تفيدني. وفي غضون أيام قليلة عدتُ شابًا في العشرين ثانية. إنّني أشعر بالقوّة أؤكّد لك إلى حدّ أنّ مجموعة جديدة من الأسنان ستنبت لي. كان ظهري يؤلمني قليلاً حين وصلتُ، ولكنني في صحة جيّدة الآن. أنظر إلى نفسي كلّ صباح في المرآة ويذهلني أن شعري لم يصبح بين ليلة وضحاها أسود كطلاء الأحذية.

ولكنّك ستتساءل لماذا أكتبُ لك كلّ هذا؟ حسنًا... إنك بمثابة قسّ الاعتراف بالنسبة إليّ، أيها الرئيس، ولا أشعر بالعار من الاعتراف

twitter @baghdad_library

بذنوبي كلّها لك. أتعرف لماذا؟ وفق ما أرى، سواء كنتُ أقوم بالفعل الصحيح أم الخطأ، فأنت لا تبالي البتّة. أنت أيضا تحمل إسفنجة مبلّلة، مثل الإله، ثم تمسح كل شيء! وهذا ما يشجعني على الاعتراف لك بكلّ شيء. فأصغِ إذن!

أنا مقلوبَ رأسًا على عقب وعلى شفا أن أفقد عقلي كليًّا. من فضلك أيها الرئيس، تناولْ قلمك واكتبْ لي حالما تصلك هذه الرسالة. سأكون على أحرّ من الجمر في انتظار جوابك. أعتقد أن اسمي قد مُحي الآن لسنوات من سجلّ الله. ومن سجلّ الشيطان أيضًا. وسجلّك هو السجلّ الوحيد الذي يحمل اسمي على ما أظنّ، وهكذا ليس لدي أحد سوى نفسك العابدة كي ألجأ إليها؛ إذن أصغِ إلى ما سأقوله لك. فهذا ما يحدث:

البارحة، كان يوم عيد في قرية قرب كانديا - وليأخذني الشيطان إن كنتُ أعرف عيد أيّ قديس! وقالت لي لولا -آه! نسيتُ أن أعرّفك عليها؛ إن اسمها لولا- حسنا لقد قالت لي:

«جدّي!» دعتني جدّي مرة أخرى، ولكنه الآن اسم للتدليل، أيها الرئيس،«جدّي، أرغب في الذهاب إلى المهرجان»، هذا ما قالته.

قلتُ لها: «اذهبي إذن يا جدّتي».

«ولكنني أريد الذهاب معك».

«لن أذهب فأنا لا أحبّ القدّيسين. اذهبي وحدك».

«حسنًا، لن أذهب أيضًا».

حدّقتُ فيها.

«لن تذهبي؟ لمَ لا؟ ألا تريدين؟»

«إذا ذهبت معي أذهب. إذا لم تذهب، فلا».

«لماذا لا؟ أنت حرة، أليس كذلك؟»

«كلا لستُ حرة».

صحتُ: «ألا تريدين أن تكوني حرة؟».

«كلا، لا أريد! لا أريد! لا أريد!»

أنا أكتبُ هذا أيها الرئيس في غرفة لولا، وعلى ورقها؛ وإكراما لله، أصغ بعناية. أعتقد أن الأشخاص الذين يريدون أن يكونوا أحرارًا فحسب هم البشر. أما النساء فلا يردن الحرية. حسنًا، هل المرأة كائن بشري؟

أغثني واكتب لي فورا. إنّني أقبّلك من كلّ قلبي، يا رئيسي الطيّب.

أنا، أليكسيس زوربا

حين انتهيتُ من قراءة رسالة زوربا كنتُ في حيرة من أمري. لم أعرف إن كنت سأغضب أو أضحك أو أعجب بهذا الرجل البدائي الذي كسر صَدَفة الحياة -المنطق، والأخلاق، والصدق- ودخل مباشرة إلى جوهرها. كان يفتقر إلى جميع الفضائل الصغيرة المفيدة. وكان كلّ ما يملكه هو فضيلة غير مريحة وخطيرة من الصعب إشباعها تحثّه باستمرار وبشكل لا يُقاوم على الاندفاع إلى الحدود القصوى، نحو الهاوية.

حين يكتبُ هذا الرجل البدائي يكسر أقلامه الرصاصية في غمرة اندفاعه. وكالرجال الأوائل الذين نزعوا عن أنفسهم جلود القردة، أو كالفلاسفة العظام، تهيمن عليه مشكلاتُ البشريةِ الأساسيةُ. يعيشها كما لو أنها ضرورات مباشرة وملحّة. وهو كالطفل تماما، يرى كل شيء للمرة الأولى. إنه مندهش أبدا ويتساءل لماذا؟ وإلى أين؟ يبدو له كل شيء مُعجزا، وفي كل صباح حين يفتح عينيه يشاهد الأشجار والبحر والأحجار والطيور ويصاب بالدهشة!

يصيح: «ما هذه المعجزة؟ ماذا تُدعى هذه الألغاز: أشجار، بحر، أحجار، طيور؟»

في أحد الأيام، حين كنا نشقّ طريقنا إلى القرية، قابلنا رجلاً عجوزًا ضئيلَ الحجمِ يركب بغلا. نظر زوربا إلى البغل بإمعان. وكانت نظرته

twitter @baghdad_library

متوتّرة بشكل جعل العجوز يصرخ من الرعب:

«من أجل الله يا أخي، لا تنظر إليه نظرة شريرة!» ثم رسم علامة الصليب.

التفتُّ إلى زوربا.

«ما الذي فعلتهُ لهذا الرجل كي تجعله يصرخ هكذا؟».

«أنا؟ ما الذي تظنّ أنني فعلته؟ كنتُ أنظر إلى بغله، هذا كل شيء! ألم يدهشك، أيها الرئيس؟»

«ماذا؟»

«حسنًا... أشياء كثيرة كالبغال في هذا العالم!»

وفي يوم آخر كنتُ أقرأ ممدّدًا على الشاطئ وجاء زوربا وجلس قبالتي، وضع سنتوره على ركبتيه وبدأ العزف. رفعتُ عينيّ كي أنظر إليه. تدريجيًا، تغيّرتْ تعابيره واستحوذتْ عليه متعة وحشية. هزّ عنقه الدهني الطويل وبدأ يغنّي.

أغان مقدونية، أغان كلفتية، صيحات متوحّشة؛ صارت الحنجرة البشرية كما كانت في أزمنة ما قبل التاريخ، حين كانت الصرخة مَركبًا عظيمًا يحمل في داخله كلّ ما ندعوه اليوم باسم الشعر والموسيقا والفكر. آخ! آخ! جاءت الصرخة من عمق كينونة زوربا وتفتّتت القشرة الرقيقة لما ندعوه حضارة كي يخرج الوحش الخالد، الإله المشعر، الغوريلا المرعب.

تلاشى كلّ شيء: الفحم الحجري، والأرباح والخسائر، والسيدة هورتانز والخطط من أجل المستقبل. حملت تلك الصرخة كلَّ ما هو قبلها؛ ولم تكن لدينا حاجة إلى أيّ شيء آخر. بلا حراك، على ذلك الساحل المنعزل لكريت، حملنا كلانا في صدورنا حلاوة الحياة ومرارتها. لم تعد توجد مرارة أو حلاوة. غربتْ الشمس، خيّم الليل، رقص الدب الأكبر حول محور السماء الثابت، طلعَ القمر وحدّق مرعوبًا في وحشين صغيرين كانا يغنّيان على الرمال ولا يخافان أحدًا.

«آه! إن الإنسان وحش بريّ»، قال زوربا، وقد أهاجته أغانيه. «دعْ كتبك جانبًا. ألا تشعر بالعار؟ الإنسان وحش بريّ، والوحوش البريّة لا تقرأ».

صمتَ للحظة ثم بدأ يضحك.

قال:«أتعرف كيف خلق الله الإنسان؟ وهل تعرف ماهي الكلمات الأولى التي وجّهها هذا الإنسانُ الحيوان إلى الله؟»

«كلا. كيف أعرف؟ لم أكن هناك».

صاح زوربا وعيناه تومضان: «أنا كنت هناك!»

«إذن أخبرني».

نصفَ منتشٍ ونصفَ ساخر، بدأ يبتكر القصة الخرافية لخلق الإنسان.

«حسنا، أصغ يا رئيس! في صباح أحد الأيام استيقظ الله شاعرًا بالانقباض. «أي إلهٍ شيطانٍ أنا! أمن المعقول ألاّ يكون لي رجال يشعلون البخور ويُقسمون باسمي فيساعدونني في تمضية الوقت؟! اكتفيتُ بالعيش وحيدًا مثل البوم الصيّاح العجوز. بصق على يديه، رفع كمّيه، وضع نظارته، تناول قطعة من التراب، بصق عليها، صنع منها طينًا، عجنها جيّدًا وحوّلها إلى إنسان صغير وألصقه على الشمس.

بعد سبعة أيام رفعه عن الشمس. كان قد خُبزَ. نظر الله إليه وطقّ من الضحك. قال ليأخذني الشيطان، إنّه خنزير يقف على رجليه الخلفيّتين! ليس هذا ما أردتهُ مطلقًا! لا يوجد خطأ. لقد خلطتُ الأشياء! وهكذا أمسكه من قذاله ورفس مؤخرته. هيّا، انطلق! كلّ ما عليك أن تفعله الآن هو أن تصنع خنازير أخرى صغيرة؛ فالأرض لك! والآن اقفزْ إليها. يسارا، يمينا، يسارا، يمينا... سر بسرعة!...»

ولكن كما ترى لم يكن خنزيرًا على الإطلاق. كان يعتمر قبعة من اللبّاد، وعلى كتفيه سترة مرميّة دون عناية، ويرتدي بنطلونًا مثنيًّا وخفًّا تركيًّا بشرابات حمراء. وفي حزامه - لا بدّ أن الشيطان هو الذي أعطاه

twitter @baghdad_library

هذا- كان هناك خنجر مدبّب نُقشت عليه الكلمات التالية: سأحصل عليك.

كان ذلك هو الإنسان! رفع الله يده إليه كي يقبّلها، ولكن الرجل فتل شاربيه وقال:

«تزحزح أيها العم العجوز من الطريق ودعني أمرّ!»

توقّف زوربا هنا حين رآني أنفجر من الضحك. عبس ثم قال:

«لا تضحك! هذا ما حدث بالضبط!»

«وكيف تعرف؟»

«هكذا أشعر أن الأمر حدث، وهذا ما كنتُ سأفعله لو كنتُ مكان آدم. أراهن بقطع رأسي إن لم يكن آدم قد تصرف بهذا الشكل. ثم لا تصدق كل ما تقوله لك الكتب؛ أنا الشخص الذي يجب أن تصدّقه!»

مدّ يده الكبيرة دون أن ينتظر جوابًا وبدأ يعزف على السنتور مرة أخرى.

كنتُ ما أزال أمسك برسالة زوربا المعطّرة التي رُسم عليها قلب يخترقه سهم، وأستعيد تلك الأيام، المليئة بحضوره البشري، وأنا إلى جانبه. فقد اكتسب الزمن نكهة جديدة في رفقة زوربا. لم يعد تعاقبًا رياضيًا للأحداث في الخارج ولا مشكلة فلسفية غير قابلة للحل في الداخل. كان رملاً دافئًا، مصقولاً على نحو رائع، وشعرتُ به يمرّ بانسياب عبر أصابعي.

تمتمتُ: «ليُبارَك زوربا! فقد منح الأفكار المجرّدةَ كلّها، الأفكار التي كانت ترتعد في داخلي، جسمًا حيًا دافئًا. وحين لا يكون هنا، يتملّكني الارتعاد مرة أخرى».

تناولتُ ورقةً، و استدعيتُ عاملاً وأرسلتُ برقيّة عاجلة:

«عدْ فورًا».

-14-

في أصيل يوم السبت، أوّل آذار. كنتُ أتكئ على صخرة تواجه البحر، وأكتب. في ذلك اليوم رأيتُ السنونو الأول وكنتُ سعيدًا. كانت رقيةٌ بوذا تتدفّق دون عائق على الورقة، وصار صراعي معه هادئًا؛ لم أعد في عجلة يائسة، وكنتُ متأكّداً من خلاصي.

فجأة سمعتُ خطوات على الحصى. رفعتُ عينيّ ورأيت عروس بحرنا العجوز تسير على الشاطئ مزيّنة كفرقاطة. كانت تلهث من المشي والحرارة. وبدتْ قلقة من شيء ما.

سألتني بلهفة: «أما من رسالة؟»

«نعم!» أجبتُ ضاحكًا، ونهضتُ كي أرحّب بها. «يرسل إليك الكثير من التحيّات؛ يقول إنه يفكّر فيك ليلَ نهار. ولا يستطيع أن يأكل ويشرب، ويقول إن فراقك لا يُحتمل».

قالت المرأة الحزينة وهي تلهث: «أهذا كلّ ما يقوله؟»

شعرتُ بالشفقة عليها. فأخرجتُ رسالته من جيبي وتظاهرتُ بأنني أقرأ. فتحت الجنيّة العجوز فمها الأدرد، ورفّت عيناها الصغيرتان وراحت تصغي وهي تلهث.

تظاهرتُ بأنني أقرأ، وكنت حين يشرد ذهني أتظاهر بأنني أعاني من صعوبة في فك القراءة: «البارحة ذهبتُ أيها الرئيس إلى مطعم رخيص لتناول وجبة. كنتُ جائعًا... ورأيتُ فتاة آية في الجمال تدخل، إلهة حقيقية... يا إلهي! بدتْ تمامًا مثل بوبولينا! ومباشرة بدأت عيناي تذرفان الدمع كينبوع، وشعرت بحرقة في فؤادي... لم أستطع أن أبتلع الطعام! نهضتُ، دفعتُ الفاتورة وغادرت. أنا الذي نادرًا ما يفكّر في

twitter @baghdad_library

القديسين، تأثرتُ عميقًا أيّها الرئيس إلى درجة أنّي ركضتُ إلى كنيسة القديس ميناس وأشعلتُ له شمعة. وقلتُ في صلاتي: يا قدّيس ميناس دعني أحصل على أنباء طيبة عن الملاك الذي أحبّه. ودعوت كي يتوحّد جناحانا حالاً!»

ضحكتْ السيدة هورتانز وشعّ وجهها بالمتعة. فسألتها فيما توقفتُ كي ألتقط نفَسي وألفّق المزيد من الأكاذيب.

«ما الذي يضحكك؟ هذا يدفعني أكثر إلى البكاء...»

ضحكتْ وقالت: «لو كنتَ تعرف فقط... فقط لو كنت تعرف...»

«ماذا؟»

«الأجنحة... هكذا كان يسمي القدمين. ذلك هو الاسم الذي يطلقه عليهما حين يكون وحيدًا. يقول: لتتوحّد أجنحتكما... ها! ها! ها!»

«استمعي لما سيأتي إذن، فإنه سيذهلك...»

قلبتُ الصفحة وتظاهرتُ بأنني أقرأ ثانية.

«واليوم فيما كنتُ أمرّ قرب حانوت حلاق، وفي تلك اللّحظة بالذّات أفرغ الحلاق في الخارج إناء مياهه الصابونية. فامتلأ الشارع كلّه بالعطر. وفكّرتُ ببوبولينا مرة ثانية وبدأتُ أبكي. لم أعد أستطيع تحمّل الابتعاد عنها، أيها الرئيس... سأفقد عقلي... انظرْ، لقد كتبتُ شعرًا. لم أستطع النوم منذ ليلتين وبدأتُ أنظم قصيدة قصيرة لها... آمل أن تقرأها لها كي تعرف مدى معاناتي...

آه لو نستطيع فقط أن نلتقي أنا وأنت على درب ما
ويكون عريضًا بما يكفي كي يتّسع لمراراتنا!
حتّى ولو طُحنتُ إلى فتات أو لحم فطيرة
فإن عظامي المحطّمة ستظلّ قوية كي تجري إليك!

كانت السيدة هورتانز تصغي سعيدة بعينين نصف مغمضتين، منتبهة بشكل كامل. بل إنّها قامت بنزع الشريطة الصغيرة حول عنقها، الشريطة التي كانت تخنقها تقريبًا، وحرّرتْ تجاعيدها للحظة. كانت

صامتة ومبتسمة. سعيدة وراضية، وبدا ذهنها وكأنه يندفع بعيدًا جدًا.

شهر آذار، عشبٌ طريٌّ، أزهار صغيرة حمراء وصفراء وأرجوانية، مياهٌ صافيةٌ تغزوها مجموعات الإوز البيضاء والسوداء فتتزاوج وهي تغنّي. الإناث بيض والذكور سودٌ بمناقير قرمزية نصف مفتوحة. راحت أسماك أنقليس الكبيرة الزرقاء تخرج متوهّجة من الماء وتتحد بالثعابين الكبيرة الصفراء. وعادت السيدة هورتانز إلى سنّ الرابعة عشرة مرة أخرى، وهي ترقص على السجّاد الشرقيّ في الإسكندرية وبيروت وسميرنا والقسطنطينيّة، ثمّ في كريت على سطوح السفن الجميلة...

لم تستطع أن تتذكّر بوضوح الآن. كانت الأمور مشوّشة، وكان صدرها يلهث، والشواطئ تنفصل. وفجأةً، فيما كانت ترقص، امتلأ البحر بالزوارق ذات الحيزوم الذهبي. وعلى سطوحها خيام متعددة الألوان ورايات الحرب الحمراء الحريرية. خرج من الخيام موكب كامل من الباشوات بشرابات ذهبية منتصبة على طرابيشهم، بيكوات أثرياء في رحلات حج، أيديهم مليئة بالهدايا الثمينة ومعهم غلمانهم المكتئبون الأمارد[1]. جاء الأميرالات أيضًا بقبعات ذات ألوان ثلاثية برّاقة، وبحّارة بياقاتهم البيضاء المبهرة وبنطلوناتهم العريضة المتهدّلة. يتبعهم شبّان كريتيّون ببنطلوناتهم القصيرة المنتفخة من القماش ذي اللون السماويّ، و«أبواطهم» الصفراء ومناديلهم السوداء المربوطة حول شعرهم. وفي النهاية وصل زوربا ضخمًا ونحيلاً من المضاجعة وفي إصبعه خاتم خطبة كبير، وتاج من براعم البرتقال على شعره الشائب...

وجاء من السفن جميع الرجال الذين عرفتهم في حياتها المغامرة، ولم يغب أيّ منهم، حتى البحّار ذو السن المفقودة والظهر المحدودب الذي أخذها في رحلة بحرية في مساء أحد الأيام في القسطنطينيّة. كان الليل مخيّمًا ولم يرهما أحد. خرجوا جميعهم وفي الخلفية كانت أسماك الأنقليس والثعابين والإوز تتزاوج!

(1) الأمارد: جمع أمرد وهو الذي لا تنبت له لحية.

twitter @baghdad_library

تقدّم الرجال وانضمّوا إليها؛ شكّلوا عناقيد، كالثعابين العاشقة في الربيع إذ تخرج وهي تتنهّد. وفي وسط المجموعة، كانت هناك سيّدة بيضاء عارية، متلألئة بحبات العرق، منفرجة الشفاه وكأنّها تستعرض أسنانها المدببة الصلبة، سيّدة نهمة، ومنتصبة الصدر، ليست سوى السيدة هورتانز ذات الأربعة عشر، العشرين، الثلاثين، الأربعين، الستين صيفًا.

لم يُفقد أيّ شيء، لم يمت أي عاشق! ففي صدرها الذابل انبعثوا كلّهم من جديد، في ثياب العرض الكامل. كما لو أن السيدة هورتانز كانت فرقاطة نبيلة بثلاث صوار وكلّ عشّاقها حاضرون -لقد شاهدت خمسة وأربعين عامًا من العمل- كانوا يصعدون إلى ظهرها، ويتسلقون إلى عنابرها، إلى حافّتها العليا، وإلى أشرعتها، فيما كانت تبحرُ في صمت ومثابرة نحو الملاذ الأخير العظيم الذي تاقتْ إليه بحماس: الزواج. ولبس زوربا ألف وجه: تركي، أوربي، أرمني، عربي، يوناني، وفيما كانت تضمّه كانت تضمّ الموكب الكامل المبارك الذي لا ينتهي...

وأدركتُ الجنيّة العجوز فورًا أنني توقّفتُ عن القراءة؛ إذ توقّفت رؤاها فجأة ورفعتْ حاجبيها الثقيلين:

وسألت في نبرة توبيخ، لاعقة شفتها بجشع: «ألم يقل أي شيء آخر؟»

«ماذا تريدين أكثر، يا سيدة هورتانز؟ ألا ترين؟ إن الرسالة كلّها تتحدّث عنك فقط. انظري، أربع صفحات منها! وثمّتَ قلب هنا في الزاوية،أيضًا. يقول زوربا إنه رسمه بنفسه، بيده. انظري، لقد اخترقه الحبّ، وفي الأسفل، انظري هناك أيضا حمامتان تتعانقان، وقد كُتب على أجنحتهما، بأحرف متناهية الصغر بالحبر الأحمر، اسمان متشابكان: هورتانز- زوربا!»

لم يكن هناك لا حمامات ولا أسماء، ولكن عينا السيدة العجوز اغرورقتا بالدموع وكانت تستطيعان أن تشاهدا أي شيء ترغبان فيه.

«ألم يكتب شيئًا آخر؟ أي شيء آخر؟»، سألت مرة ثانية، وما تزال غير راضية.

كانت الأجنحة، ومياه الحلاق، والحمامتان الصغيرتان أمورًا جيدة جدًا، إلا أن هذه الكلمات الرائعة لم تكن سوى هواء.كان عقلها، عقل المرأة العملية، يريد شيئًا آخر، شيئًا ملموسًا، أكثر صلابة. كم مرة في حياتها سمعت هذا النوع من الهراء! وماذا أفادها؟ بعد أعوام من العمل القاسي، تُركتْ لوحدها، على اليابسة.

وتمتمت مرة أخرى بتقريع: «أما من شيء آخر؟ أما من شيء آخر؟»

نظرتْ إليّ بعينين كعيني أنثى الأيل وهي في وضع حرج. فشعرتُ بالشفقة عليها.

«يقول شيئًا ما في غاية الأهمية يا سيدة هورتانز ولهذا احتفظتُ به إلى النهاية».

قالت متنهدة: «وما هو...؟»

«قال إنه حالما يصل سيركع على ركبتيه ويتوسّل إليك وهو يبكي كي تتزوجيه. لم يعد يستطيع الانتظار. يريد أن يجعلك، زوجته الصغيرة، السيدة زوربا على حدّ قوله، حتّى لا يمكن أن يحدث فراق بينكما بعد ذلك!»

وفي هذه المرة بدأت الدموع تتدفق. كانت هذه هي المتعة العليا بالنسبة إليها، الحلم الذي ندمتْ على عدم تحقيقه حتى الآن في حياتها! الهدوء والاستلقاء في سرير صادق، لا شيء أكثر!

غطّتْ عينيها بيديها.

قالت بتواضع سيدة عظيمة: «حسنًا، أقبل. ولكن من فضلك اكتبْ له؛ قلْ له في القرية لا يوجد أكاليل من أزهار البرتقال. عليه أن يحضرها من كانديا. يجب أن يحضر شمعتين بيضاوين أيضًا، بشرائط قرمزية وبعض اللوز المحلّى الجيّد. وينبغي أن يشتري لي فستان خطبة، أبيض،

twitter @baghdad_library

وجوارب حريرية وحذاء من الساتان. لدينا أغطية، فقل له أن لا حاجة لكي يحضر أيا منها. لدينا سرير أيضًا».

رتّبتْ قائمة طلباتها، إذ صارت ترى في زوجها من الآن رسولا يلبّي حاجياتها. ثمّ نهضتْ. واتخذت فجأة مظهر امرأة متزوّجة محترمة.

قالت: «ثمّتَ شيء أريد أن أطلبه منك، شيء في غاية الجدّية». ثم انتظرت.

«اطلبي يا سيدة هورتانز، أنا في خدمتك».

«أنا وزوربا مولعان جدًا بك. فأنت في غاية اللطف، ولن تلحق بنا العار. أيهمّك أن تكون شاهدنا؟»

ارتجفتُ. فقد كان لدينا في ما مضى في منزل والديّ، خادمة عجوز اسمها ديامندولا، وكانت قد تجاوزت الستين من عمرها، خادمة عجوز، نصف مجنونة من العذرية، عصبيّة، نحيلة، منبسطة الصدر، ولها شارب. وقعتْ في غرام ميستو، فتى الحانوتيّ، وهو فتى فلاح قذر، سمين ولا شارب له.

كانت تسأله كل أحد: «متى ستتزوّجني؟ تزوّجْني الآن! كيف تستطيع الانتظار طويلاً؟ لا أستطيع التحمّل!»

فيجيب البقّال الماكر، الذي كان يداريها لكي لا يخسر زبونة: «لم أعد أستطيع التحمل يا ديامندولا؛ ولكن الأمر سيّان، لا نستطيع الزواج إلى أن يطلع لي شارب مثلك...»

ومرّتْ السنوات هكذا، وانتظرت العجوز ديامندولا. صارتْ أعصابها أكثر هدوءًا، ولم يعد يعتريها سوى القليل من الصداع، وتعلمت شفتاها المريرتان اللتان لم تقبّلا أبدًا أن تبتسما. صارت تغسل الثياب بعناية أكبر، وقلّ عدد الصحون التي تكسرها، ولم تحرق الطعام أبدًا.

سألتني في أحد الأيام خلسةً: «هل ستأتي وتكون شاهدنا يا سيدي الشاب؟»

أجبتها، وكلّي أسى بسبب شفقتي عليها: «بالتأكيد يا ديامندولا».

فطر قلبي مجرّد الاقتراح؛ لهذا ارتجفتُ حين سمعتُ السيدة هورتانز تطلب الطلب نفسه.

أجبتُ: «بالتأكيد سأفعل. سيكون هذا شرفًا لي يا سيدة هورتانز».

فنهضَتْ، وداعبت خصلات شعرها التي كانت معلّقة تحت القبعة الصغيرة ثمّ لعقت شفتيها. وقالت:

«عمتَ مساءً يا صديقي، عمتَ مساء يا صديقي، ولْيعُد إلينا بسرعة!»

راقبتها وهي تبتعد مؤرجحة جسدها الكهل مثلما تفعل الصبايا. فقد منحتْها المتعةُ جناحين، وترك حذاؤها الجلدي المهترئ آثارًا عميقة على الرمال.

وما كادت تغادر الشاطئ حتّى انبعثت منه صرخات حادّة وعويل.

فقفزتُ وركضتُ في الاتجاه الذي جاء منه الضجيج. وعلى الرأس الصخري المقابل كانت النساء يعولْنَ و كأنهنّ ينشدنَ ترنيمة جنائزية. تسلّقتُ الصخرة ونظرتُ. كان الرجال والنساء يفدون من القرية، وخلفهم كانت الكلاب تنبح. وكان هناك فارسان أو ثلاثة ينطلقون في المقدّمة، مخلّفين وراءهم سحابة كثيفة من الغبار.

اعتقدتُ أن حادثًا حصل فركضتُ حول الخليج.

كانت الجلبة تزداد. وكانت هناك غيمتان، أو ثلاث غيمات ربيعية ثابتة في ضوء الشمس الغاربة. وشجرة تين سيدتنا الشابة مغطاة بأوراق خضراء جديدة. و.. فجأة تهادت نحوي السيدة هورتانز. لقد عادتْ راكضة من جديد، منفوشة الشعر ولاهثة، خرجتْ فردة حذائها من قدمها. فكانت تحملها في يدها وتصيح وهي تجري.

بكت حين رأتني. تعثرت وكانت على وشك السقوط: «يا إلهي... يا إلهي...»

أمسكتُ بها.

ساعدتها على انتعال حذائها وسألتها: «لماذا تصرخين؟ ماذا حدث؟»

«أنا خائفة... أنا خائفة...»

twitter @baghdad_library

«ممَّ؟»

«من الموت».

شمّتْ رائحةَ الموت في الجو فارتعَبتْ.

أمسكتُ ذراعها المترهّلة كي أقودها إلى المكان، ولكن جسدها العجوز قاوم وارتجف.

صاحت: «لا أريد... لا أريد...»

كانت المسكينة البائسة مرعوبة من الاقتراب من مكان ظهر الموت فيه. يجب ألّا يراها «شارون» أو يتذكّرها... فهي كسائر العجائز، تجهد نفسها في الاختفاء بين عشب الأرض والتلوّن بلونه الأخضر، في الاختفاء داخل التراب والتلوّن بلونه الأسمر القاتم، كي لا يستطيع «شارون»[1] تمييزها. كانت ترتجف، وقد أدخلت رأسها بين كتفيها البدينين المحدودبين.

جرّت نفسها إلى شجرة زيتون، ومدّت معطفها المرقّع وقالت:

«ضعْ هذا فوقي. ضع هذا فوقي واذهبْ لإلقاء نظرة».

«أتشعرين بالبرد؟

«نعم. غطّني».

غطّيتها قدر استطاعتي، بشكل يحول دون تمييزها عن التربة، وانطلقتُ.

وصلتُ إلى الرأس الصخري، وسمعتُ بوضوح أناشيد الندب. مرّ ميميكو أمامي وهو يركض. فسألته:

«ماذا حدث يا ميميكو؟»

«لقد أغرق نفسه! أغرق نفسه!» صاح دون توقف.

«من؟»

«بافلي، ابن مافراندوني».

«لماذا؟»

«الأرملة...»

---

(1) شارون ملك الموت في الأساطير.

علقتْ الكلمة في جوّ المساء واستحضَرتُ في الحال جسد المرأة الخطير والممتلئ.

وصلتُ إلى الصخور وهناك وجدتُ القرية كلّها مجتمعة. الرجال عراة الرأس، صامتون، والنساء، بمناديلهنّ الموضوعة فوق أكتافهنّ، يمزّقن شعرهنّ ويطلقن صرخات حادّة. وكانت هناك جثة منتفخة ومزرقّة ممدّدة على حصى الشاطئ، والعجوز مافراندوني يجلس فوقها بلا حراك، وهو يحدّق فيها، مُتكئا بيده اليمنى على عصاه، وباليسرى كان يمسك لحيته الشائبة الملتفّة.

وتعالى فجأة صوت حادّ: «اللعنة عليك أيتها الأرملة! سيعاقبك الله من أجل هذا!»

وقفزتْ امرأة واستدارتْ إلى الرجال.

«ألا يوجد رجلٌ واحد في القرية يستطيع أن يلقيها على ركبتيه ويذبحها كخروف؟ أيها الجبناء!»

وبصقتْ على الرجال، الذين نظروا إليها دون أن يتفوّهوا بكلمة واحدة.

أجابها كوندومانوليو، صاحب المقهى: «لا تذلّينا أيتها المجنونة كاترينا، لا يزال هناك بعض الرجال، بعض الشجعان في قريتنا، سترين!»

لم أستطع أن أتمالك نفسي. فصحتُ:

«ليلحق العار بكم جميعًا! بأية طريقة تتحمل هذه المرأة المسؤولية؟ كان هذا مقدرًا. ألا تخشون الله؟»

لم يجب أحد.

أحنى مانولاكاس، ابن عم الغريق، جسمه الضخم ورفع الجثة بين ذراعيه وقام بأول خطوة نحو القرية.

كانت النساء يصرخنَ، ويخدشْنَ وجوههنَّ ويمزّقْنَ شعرهنَّ. وحين رأين الجثة تُحمل بعيدًا ركضن كي يمسكن بها. ولكن العجوز مافراندوني أبعدهنّ بعصاه وترأس الموكب تتبعه النساء بترنيماتهنّ الجنائزية. وفي

twitter @baghdad_library

المؤخّرة سار الرجال صامتين.

اختفوا في الغسق. وعاد البحر من جديد إلى تنفسّه العادي. نظرتُ حولي. فلم أجد أحدا غيري. فقلتُ في نفسي: «سأعود إلى المنزل. إنّه نال حصّته من الأسى!»

سرتُ مستغرقًا في تفكير عميق. أعجبتُ بهؤلاء الناس، المنخرطين بعمق وحرارة صادقين في المعاناة البشرية: السيدة هورتينز، زوربا، الأرملة، وبافلي الشاحب الذي رمى نفسه بشجاعة في البحر كي يغرق أساه، وديلي كاترينا تصرخ بهم كي يذبحوا الأرملة كخروف، ومافراندوني وهو يرفض البكاء أو التحدث أمام الآخرين. أنا وحدي كنتُ عاجزًا وعقلانيًا، لم يغل دمي ولم أكره أو أحب بجنون. ما زلت أريد أن أصحّح الأمور، بطريقة جبانة، بوضع كلّ شيء على عاتق القدر.

في الغسق لم أر سوى الأب أناغنوستي يجلس هناك على إحدى الصخور. كان يسند ذقنه على عصاه الطويلة و يحدّق إلى البحر.

ناديته لكنّه لم يسمع. فذهبتُ إليه؛ وحين رآني هزّ رأسه. وتمتم: «يا للإنسانيّة البائسة! يا للشباب الضائع! لم يستطع الفتى المسكين أن يتحمّل أحزانه، وهكذا رمى نفسه في البحر وغرق. وهكذا أنقذ نفسَهُ».

«أنقذَ نفسَهُ؟»

«أنقذَ نفسه، نعم يا ولدي. ما الذي كان يستطيع فعله بحياته؟ لو تزوّج الأرملة لحدثت الخصومات في الحال، وربما لطّخ شرفه. إنها فرس استيلاد، تلك الفاجرة لاشيء يجعلها تشعر بالعار! حالما ترى رجلا تبدأ بالصهيل. وإذا لم يتزوّجها، ستكون عذاب حياته، وهكذا سيترسّخ في ذهنه أنه خسر سعادة كبيرة! هاوية متثائبة أمامه، حافة جرف خلفه!»

«لا تتحدث هكذا يا عم أناغنوستي؛ ستجلب اليأس إلى كل من يسمعك!»

«دعك من هذا، لا تخف. لا أحد غيرك يستطيع سماعي. وحتى لو استطاعوا، هل سيصدقونني؟ انظر، هل كان هناك رجل أكثر حظًا

مني؟ كان لدي حقول كروم، وحقول زيتون، ومنزل مؤلف من طابقين. كنت كبير القرية وثريَّها. تزوجتُ امرأة مطيعة وطيبة منحتني أبناءً ذكورا فحسب. لم ترفع عينيها أبدًا كي تنظر إليَّ نظرة تحدٍّ، وجميع أبنائي آباء جيّدون. ليس لدي شيء أشكو منه. عندي أحفادٌ أيضًا. ماذا أريد أكثر من ذلك؟ إن جذوري تغوص عميقًا. ولكن مع ذلك إذا أردتُ أن أبدأ حياتي من جديد سأضع حجرًا حول عنقي مثل بافلي وأرمي بنفسي في البحر. إن الحياة صعبة، حتى الحياة الأكثر حظًا قاسية، عليها اللعنة!»

«ولكن ما الذي تفتقر إليه يا عم أناغنوستي؟ ما الذي تشكو منه؟»

«لا أفتقر إلى أي شيء! ولكن اذهبْ واسأل قلوب الرجال». صمت للحظة، ونظر ثانية إلى البحر الذي يخيّم عليه الظلام. ثمّ صاح ملوّحًا بعصاه: «حسنًا يا بافلي، لقد فعلتَ ما هو صواب! دعْ النساء يولْولنَ؛ إنهن نساء وليست لهنّ أدمغة. لقد أنقذتَ نفسَك الآن، يا بافلي، والدك يعرف هذا ولهذا لم يصدر أي صوت!»

تفحّصَ السماء والجبال وقد بدأت الظلمة تسيّجهما. وقال:

«خيّم الليل. من الأفضل أن نعود».

توقّف فجأة، وبدا عليه أنّه أسف لكلّ الكلمات التي أفلتت منه، وكأنّه خان سرًّا كبيرًا ويريد الآن أن يستعيده. ووضع يده الهزيلة على كتفي وقال وهو يبتسم لي:

«أنت شابّ،لا تُصغي إلى العجائز، إذا أصغى إليهم العالم فإنه سيندفع مباشرة إلى دماره. إذا عبرتْ أرملةٌ طريقك، أمسكْ بها! تزوّجْ، وأنجبْ، ولا تتردّدْ! إن المشكلات خُلقت أساسا للشبّان!»

وصلتُ إلى شاطئي، أشعلتُ النار وأعددتُ شاي المساء. كنتُ متعبًا وجائعًا، فأكلتُ بنهم مُسلمًا نفسي بشكل كامل لمتعة الحيوان.

وفجأة مدّ ميميكو رأسه الصغير المسطّح عبر النافذة، ونظر إليّ وأنا آكل قرب النار، وابتسم بمكر.

twitter @baghdad_library

«ما الّذي جاء بك يا ميميكو؟»

«لقد أحضرتُ لك شيئًا ما، أيها الرئيس، من الأرملة... سلّة من البرتقال. تقول إنها الأخيرة من الحديقة... «

قلتُ مجفلاً: «من الأرملة؟ لماذا أرسلتها إليّ؟»

«من أجل الكلمة الطيبة التي قلتها عنها للقرويين أصيل هذا اليوم، هكذا تقول».

«أية كلمة طيبة؟»

«وكيف لي أن أعرف؟ أنا أخبرك فحسب ما قالته، هذا كلّ شيء».

أفرغ سلّة البرتقال على السرير. فعبق الكوخ كلّه برائحة البرتقال.

«قلْ لها إنّني أشكرها على الهدية، وأنصحها بالحذر. يجب أن تحترس وألاّ تظهر في القرية لأي سبب، هل سمعتني؟ يجب أن تبقى في الداخل لبعض الوقت، إلى أن يُنسى هذا العمل المحزن. أتفهمني، يا ميميكو؟»

«أهذا كل شيء أيها الرئيس؟»

«هذا كلّ شيء. تستطيع الذهاب الآن».

غمزني ميميكو.

«أهذا كل شيء؟»

«هيّا من هنا!»

وذهبَ. قشّرتُ برتقالة؛ كانت حلوة كالعسل. واستلقيتُ، متنزّها الليل كلّه في بساتين البرتقال. كانت هناك ريح دافئة تهبُّ؛ عرّيتُ صدري لها ووضعتُ قطفة حبق عذبة وراء أذني. كنتُ فلاحًا شابًّا في العشرين من عمره، وطفتُ في بستان البرتقال أصفّرُ وأنتظر. من كنتُ أنتظر؟ لا أعرف. ولكن قلبي كان جاهزًا للانفجار من المتعة. فتلتُ شاربي وأصغيتُ، طوال الليل، للبحر وهو يتنهّد كامرأة خلف أشجار البرتقال.

-15-

هبّتْ في ذلك اليوم ريح جنوبية قويّة، جاءتْ من رمال إفريقيا الحارة عبر البحر الأبيض المتوسّط. التفّت سحب من الرمال الناعمة ودارت في الجو ودخلتْ إلى الحناجر والرئتين. كانت الأسنان رمليّة والعيون ملتهبة؛ وكان علينا إحكام إغلاق الأبواب والنوافذ إذا أراد المرء التأكد من تناول قطعة خبز واحدة غير متّسخة بالرمل.

بدا الجوّ ثقيلاً. فخلال تلك الأيام الكئيبة حين بدأ النسغ يصعد أصبحتُ أنا نفسي طريدة لقلق الربيع. شعورٌ بالتعب، توتّر عاطفيّ في الصدر، إحساس واخزٌ في الجسد كلّه، ورغبة -هل كانت رغبة أم ذكرى؟- في سعادة كبيرة وبسيطة.

سلكتُ المسار الجبلي كثير الحصى. واستحوذت عليّ رغبة مفاجئة في زيارة مدينة مينون الصغيرة التي خرجتْ من الأرض بعد ثلاثة أو أربعة آلاف عام وشرعت تدفئ نفسها مرة أخرى تحت شمسها الكريتية المحبوبة. اعتقدتُ أنّ التعبَ قد يُهدّئ القلقَ الذي جلبه الربيع لي، بعد مسير ثلاث ساعات أو أربع.

أحجار رمادية عارية، عريٌ مضيءٌ، الجبل الوعر المهجور كما أحبّه. بومةٌ جاثية فوق إحدى الصخور تحدّق بعينيها المستديرتين الصفراوين وقد أعماها الضوء الباهر.. ومع ذلك بدت مهيبة، ساحرة، مليئة بالأسرار... كنتُ أسير مخفّفًا الوطء، ولكنّ سمعها كان حادًّا؛ فخافت وطارت مبتعدة بصمت بين الأحجار حتّى اختفت. كان الجوّ يعبق برائحة الزعتر. وكانت أزهار الجولق الصفراء الرقيقة الأولى تتفتّح بين أشواكها.

twitter @baghdad_library

حين شاهدتُ المدينة الصغيرة المدمّرة وقفتُ مسحورًا. لا بد أنّ الوقت كان الظهيرة، وكانت أشعة الشمس تتساقط عموديّة وتُغرق الأحجار بالضوء. في المدن القديمة المدمّرة يعتبر هذا الوقت من النهار خطيرًا، لأن الجو يمتلئ بصيحات الأرواح وصراخها. إذا انكسر غصنٌ، إذا وثبتْ سحلية، إذا ألقتْ سحابةٌ ظلاً وهي تعبر في الأعلى، فإن الرعب يعتريك. إنّ كلّ جزء صغير من الأرض تطأه يتحوّل إلى قبر، فتسمع أنين الأموات.

اعتادت عيناي بالتدريج على الضوء الباهر. أستطيع الآن أن أشاهد آثار يد الإنسان في الحطام: طريقان واسعان مبلّطان بأحجار برّاقة. على يسارهما ويمينهما أزقّة ضيّقة متعرّجة. وفي المركز الساحةُ العامةُ، وإلى جانبها، بتواضع ديمقراطي تامّ، بُني قصر الملك بأعمدته المزدوجة، وأدراجه الحجريّة الكبيرة وأبنيته الخارجيّة العديدة.

وفي قلب المدينة حيث تطأ الأقدام الحصى أكثر من أيّ مكان آخر.. انتصب المعبد الداخلي: الإلهة العظيمة كانت هناك، بثدييها الضخمين، المتباعدين، وذراعيها اللتين تلتفّ حولهما الأفاعي.

كانت الحوانيت الصغيرة في كل مكان، معاصر الزيت، أكوار الحدادين، ومشاغل النجّارين والخزّافين. إنّها عبارة عن كثيب نمل مصمّم بذكاء، في مخبأ أمين، غادره النمل منذ آلاف السنين. في أحد الأمكنة كان حرفيّ يصنع جرّة من الصخر المعرّق ولكنه لم يمتلك الوقت الكافي كي ينجزها؛ ذلك أن الإزميل سقط من يده، كي يُكتشف بعد آلاف السنين فيما بعد، وهو ملقى إلى جانب العمل الفنيّ غير المكتمل.

الأسئلة الأبديّة، الغبيّة، والعبثيّة،: لماذا؟ ما الهدف؟ تأتي لتسمّم قلبك. الجرّة غير المنتهية؛ حيث توق الفنّان السعيد والواثق الذي هُزمَ فجأة، تُشعرك بالمرارة.

فجأة ظهر أمامي راع قصير القامة ملفوف الشعر في منديل قذر كان يقف على صخرة إلى جانب القصر المنهار كاشفا عن ركبتين سوداوين

وقد لوّحت الشمس بشرته. وصاح:

«أنت أيها الأخ الذي هناك!»

أردتُ أن أكون وحيدًا، فتظاهرتُ بأنني لم أسْمعه. ولكن الراعي الصغير بدأ يضحك بسخرية.

«ها! تتظاهر بالصمم؟ هل تحمل سجائر؟ أعطني واحدة! في هذا الفراغ المطبق صرتُ ضجرًا من الحياة».

سحبَ الكلمات الأخيرة وكان فيها بؤس جعلني أشعر بالأسف عليه. لم يكن لدي سجائر، فعرضتُ عليه النقود. ولكن الراعي الصغير اغتاظ. وصاح:

«إلى الجحيم بنقودك! ما الذي سأفعله بها؟ قلتُ لك إنني ضجرٌ من كل شيء. أريد سيجارة!»

«ليس لدي سجائر»،قلتُ يائسًا.

كان خارجًا عن طوره وضرب الأرض بعصاه: «لا سجائر؟ لا سجائر! حسنًا، ماذ يوجد في جيوبك؟ إنها منتفخة».

«كتاب، منديل، ورق، مدية»، أجبتهُ مخرجًا ما في جيوبي قطعة قطعة. «أتحبّ أن تأخذ هذه المدية؟»

«لدي واحدة. لدي كل ما أريد: الخبز والجبن والزيتون، لديّ مديتي ومخرز وجلد لحذائي ، وماء في مطرتي، لدي كل شيء... ما عدا سيجارة! فإذا بي وكأنني لا أملك أي شيء مطلقًا! ما الذي جلبك إلى هذا الحطام؟

«إنني أدرس الآثار».

«وفيم ينفعك هذا؟»

«لا شيء».

«لا شيء. ولا أنا. كلّ هذا ميت ونحن أحياء. من الأفضل أن تذهب بسرعة وليكن الله معك!»

twitter @baghdad_library

«أنا ذاهب»، قلتُ مطيعًا.

عدتُ بسرعة عبر المسار الصغير وقد بدأ يتسلّل إلى داخلي قلق خفيف. ثمّ التفتُّ للحظة فاستطعتُ أن أرى الراعي الصغير المتعب من عزلته ما يزال واقفا على الصخر. وشعره المجعّد، الفالت من منديله الأسود، يتموّج في الريح الجنوبية. كان الضوء يتدفّق فوقه من الرأس إلى القدمين. فشعرتُ بأنني كنتُ أنظر إلى تمثال من البرونز.

سلكتُ مسارًا آخر ونزلتُ إلى الساحل. وكان يصلُ إليّ بين فينة وأخرى، نسيم دافئ محمّل بالعطر من الحدائق القريبة. كانت رائحة التربة تعبق، والبحر يتموج ضاحكا، فيما السماء زرقاء تلمع كالفولاذ.

يجعل الشتاء الجسد والذهن منقبضين، ولكن بعد ذلك يأتي الدفء فينشرح الصدر. وبينما كنتُ أسير سمعتُ فجأة نعيقا صاخبا في الجوّ. رفعتُ عينيّ وشاهدتُ مشهدًا عجيبًا لطالما أثّر فيّ منذ كنت طفلا: كراكيّ تنتشر عبر السماء في ترتيب عسكريّ، عائدة من رحلة الشتاء إلى بلاد أكثر دفئًا، وكما تروي الأسطورة، تحمل الكراكيّ السنونو على أجنحتها وفي التجاويف العميقة لأجسادها النحيلة.

إيقاع الفصول الدقيق، عجلةُ الحياة الدائرة أبدًا، أوجه الأرض الأربعة التي تُضاء تباعًا، مضيّ الحياة، كل ذلك ملأني مرة أخرى باضطراب ثقيل. ومرة أخرى صدح في داخلي مع صيحة الكراكيّ التحذيرُ المريع بأن هناك حياة واحدة فقط لجميع البشر، وأنه لا توجد حياة أخرى، وأن كلّ ما يمكن أن يتم الاستمتاع به يجب أن يتم الاستمتاع به هنا. ففي الأبدية لن نُمنح فرصة أخرى.

ذهنٌ يسمع هذا التحذير الخالي من الشفقة، والمليء عاطفة ورأفة، سيقرّر حتما التغلّب على ضعفه ووضاعته، على كسله وآماله التافهة ويتمسّك بكلّ ما يملك من قوّة بكلّ ثانية تهرب منه بعيدًا و إلى الأبد.

تأتي إلى ذهنك أمثلة عظيمة وترى بوضوح أنك روح ضائعة، وأنّ

حياتك أُنفقتْ على متع زائفة وآلام تافهة وأحاديث سخيفة. تصيح: يا للعار! يا للعار! وتعضّ شفتيك.

عبرتْ الكراكيّ السماء واختفتْ في الشمال، ولكنها تابعتْ التحليق في رأسي من معبد إلى آخر، مطلقة صراخها الأجوف.

بلغتُ البحر. كنتُ أسير بسرعة على حافة الماء. كم هو مقلقٌ أن تسير وحيدًا قرب البحر! فكلّ موجة تناديك، وكلّ طائر في السماء، ويذكّرانك بواجبك. فحين تكون مع الرفاق تضحك وتتحدّث، فلا تستطيع أن تسمع ما تقوله الأمواج والطيور. ولعلّها هي أيضا لا تقول أي شيء. فقط تراقبك وأنت تعبر مطوّقا بالصخب فتتوقف عن مناداتك.

تمدّدتُ على الحصى، أغمضتُ عينيّ. وتساءلتُ: «ما هي الروح إذن؟ وما هذا الرابط السريّ بين الروح والبحر والغيوم والعطور؟ فأحيانا تبدو الروح نفسها بحرًا، تبدو سحابة، وعطرًا...»

نهضتُ وبدأتُ السير ثانية، كما لو أنني وصلتُ إلى قرار.

أي قرار؟ لم أعرف.

فجأة سمعتُ صوتاً خلفي:

«إلى أين أنت ذاهب يا سيدي، بحق الله؟ إلى الدير؟»

استدرتُ إلى الخلف فرأيت عجوزًا بدينًا وقويًّا، يلوّح لي مبتسما وقد ربط شعره بمنديل. كانت تسير خلفه امرأة عجوز وخلف المرأة فتاة سمراء بعينين حادّتين، وتلفّ رأسها بمنديل.

سألني العجوز مرة ثانية: «الدير؟»

أدركتُ فجأة أنني قررتُ أن أسلك ذلك الطريق. فقد رغبتُ طوال شهور أن أزور الدير الصغير الذي بُني للراهبات قرب البحر، ولكنني لم أحسم قراري. وفجأة اتخذ جسدي القرار في ذلك الأصيل. فأجبته:

«نعم، أنا ذاهب إلى الدير كي أسمع تراتيل العذراء المقدسة».

«لتحلّ بركتها عليك».

twitter @baghdad_library

أسرع في السير ولحق بي.

«هل أنت من يسمونه صاحب شركة الفحم؟»

«نعم هذا صحيح».

«حسنًا، أدعو العذراء المباركة أن ترسل لك أرباحًا جيدة! أنت تقوم بكثير من العمل الخيّر للقرية، تقدم وسيلة العيش لكثير من الآباء الفقراء كي يعتنوا بأسرهم. ليباركك الله!»

وبعد لحظة أو لحظتين أضاف الشخص الماكر -ولا بد أنه كان يعرف أن الأمور على غير ما يرام- كلمات العزاء هذه:

«وحتى لو لم تغنم الفوائد منها يا ولدي فلا تقلق. لن تكون الخاسر. ستذهبُ روحك مباشرة إلى الفردوس...»

«هذا ما آمله يا جدّي».

«لم أتعلّم أبدًا، ولكنني سمعتُ في الكنيسة في أحد الأيام شيئًا قاله المسيح. علقَ في ذهني ولا أنساه أبدًا. قال: بع كلّ ما لديك لتحصل على اللؤلؤة العظيمة. وما هي تلك اللؤلؤة العظيمة؟ إنّها خلاص روحك. وأنت على طريق الحصول على اللؤلؤة العظيمة يا سيدي».

اللؤلؤة العظيمة! كم مرة توهّجتْ في ظلمة ذهني كدمعة كبيرة!

وتابعنا السير، أنا والشيخ في المقدّمة، والمرأتان تسيران في الخلف متشابكتيّ الأيدي. وبين وقت وآخر نطرح التساؤلات. هل سيثبت زهر الزيتون على الشجر؟ هل ستمطر وينتفخ الشعير؟ لا بد أن كلينا كان جائعًا لأنّ حديثنا اتجه إلى الطعام مباشرة.

«ما هي طبختك المفضّلة، يا جدّي؟»

«كل الأنواع يا ولدي. إنها خطيئة كبيرة أن تقول إن هذا جيد وذلك سيئ».

«لماذا؟ ألا نستطيع القيام بخيار؟»

«كلا، بالطبع لا نستطيع».

«ولماذا؟»

«لأن هناك بشرًا جائعين».

صمتُّ، شاعرًا بالعار. لم يكن قلبي قادرًا أبدًا على الوصول إلى تلك الذروة من التعاطف والنُبل.

رنّ جرس الدير الصغير بمرحٍ وهزلٍ مثل ضحكة امرأة. فرسم العجوز إشارة الصليب. وتمتم:

«أدعو أن تأتي العذراء الشهيدة إلى مساعدتنا! لقد أصيبت بجرح مدية في عنقها وهي تنزف في زمن القراصنة...»

وبدأ العجوز يتحدث بإسهاب عن معاناة العذراء وكأنّه يتحدّث عن قصّة امرأة حقيقيّة، عن صبيّة لاجئة مضهطدة مزّقها الخونة بطعنات خناجرهم فجاءت إلى الشرق مع ولدها وهي تبكي.

وتابع العجوز:

«ومرة في السنة يسيل من جرحها دمٌ حارٌّ حقيقيّ. إنّني أذكر ذات مرّة، يوم عيدها، وفي ذلك الوقت لم يكن قد نما لي شارب بعد ـ أنّ الناس جاؤوا من جميع القرى المبعثرة على التلال كي يتعبّدوا للعذراء. حصل هذا في الخامس عشر من آب. ونمنا نحن الرجال في الخارج، في الفناء، بينما نامت النسوة في الداخل. وفي نومي سمعتُ العذراء تصيح. فنهضتُ بسرعة، وركضتُ إلى أيقونتها ووضعتُ يدي على عنقها. وماذا تظنّ أنني رأيت؟ كانت أصابعي حمراء من الدم...»

ورسم العجوز إشارة الصليب، والتفت، ونظر إلى المرأتين، وصاح: «هيّا تشجعا! لقد وصلنا تقريبا!»

ثمّ خفض صوته. وتابع:

«لم أكن متزوّجًا آنذاك. سجدتُ لقداستها، وقرّرت أن أترك عالم الأكاذيب هذا وأصبح راهبًا».

وراح يضحك.

twitter @baghdad_library

«لماذا تضحك يا جدّي؟»

«لأنّ ما حصل بعدها مدعاة للضحك يا بنيّ؟ في اليوم نفسه، أثناء الاحتفال، تنكّر الشيطان في ثوب امرأة، ووقف أمامي. كانت هي!»

دون أن يلتفت، أشار بإبهامه إلى الخلف صوب العجوز وراءه، بينما كانت تتبعنا في صمت.

وقال: «إنّ النظر إليها الآن لا يحتمل، وفكرة لمسها تقرفك. ولكنها في تلك الأيام كانت مُغازِلة منتظمة؛ ترتعش بالحياة كسمكة. كانوا يسمّونها «الحسناء ذات الأهداب الطويلة»، وكانت فعلاً تستحق هذا اللقب، تلك الفتاة الوقحة الصغيرة! ولكن الآن... ليُرحِ الله روحي، أين ذهبت تلك الأهداب؟ تلاشتْ! ولم يبق رمش واحد منها!»

في تلك اللحظة، تمامًا ، أصدرتْ العجوز من خلفنا أنينًا مكتومًا وكأنّها كلب نزق مقيّد. ولكنها لم تتفوّه بكلمة.

قال العجوز: «ها قد وصلنا إلى الدير».

على حافة البحر، بين صخرتين كبيرتين، بدا الدير الأبيض متألّقا. في الوسط انتصبت قبّة الكنيسة بلونها الأبيض، كانت مدهونة حديثًا، صغيرة ومستديرة كصدر امرأة. وحول الكنيسة كانت هناك ست غرف صغيرة بأبواب زرقاء؛ ثلاثة أشجار أرز طويلة في الفناء، وعلى طول الحائط كرومٌ شائكة قويّة ومزهرة.

انطلقنا بسرعة أكبر. سمعنا تراتيل إيقاعيّة تخرج من باب الملاذ المفتوح، كان الجو المالح معطّرًا بأزهار نبات البلسمينة. وباب الدخول في وسط القوس مفتوحًا ويؤدي إلى الفناء النظيف المعطّر المفروش بالحصى الأبيض والأسود. وعلى طول الجدران، يمينًا ويسارًا، اصطفّت أواني إكليل الجبل والمرّدقوش والحبق.

أي هدوء! وأية عذوبة! كانت الشمس تغرب والحيطان المدهونة بالأبيض تصطبغ باللّون القرمزي.

فاحت الكنيسة الصغيرة الدافئة والمظلمة من الداخل برائحة الشمع. كان الرجال والنساء يتحركون في سُحُب من البخور، وخمس أو ستّ راهبات، ملفوفات بإحكام بأثوابهنّ الطويلة السوداء، ينشدن: «أيها الرب الجبّار...» بأصواتهنّ العذبة ذات الطبقة العالية. كنّ يركعنَ باستمرار وهنّ يغنّينَ وكان صوت حفيف أثوابهنّ شبيها برفرفة الطيور أثناء تحليقها.

لم أسمع تراتيل تُنشد لمريم العذراء منذ سنوات طويلة. وأثناء تمرّدي في أوائل شبابي كنت أمرّ قرب الكنائس غاضبًا محتقرًا إيّاها في قلبي. ومع مرور الوقت، صرتُ أقلّ عنفًا. أحيانًا كنتُ أذهب إلى الاحتفالات الدينيّة - عيد الميلاد، صلوات المساء عشية العيد، والقيامة - وكنتُ سعيدًا بأن أرى الطفل الذي فيّ ينبعث إلى الحياة ثانية. تحوّل الحماس الصوفيّ لسنواتي الأولى إلى متعة جمالية. يؤمن البدائيون أنّه حين يتمّ التوقف عن استخدام آلة موسيقية من أجل الشعائر الدينية فإنّها تفقد القوة الإلهيّة وتبدأ بتقديم أصوات متناغمة. وبالطريقة نفسها، تحوّل الدين في داخلي: صار فنًّا.

اتجهتُ إلى الزاوية، اتكأت على المقعد المتوهّج الذي صقلته أيدي المؤمنين ونعّمته كالعاج، وأصغيتُ مسحورًا بينما كانت الترانيم البيزنطية تخرج من الماضي البعيد: «أهلاً! مرتفعات متعذرة على العقل البشري! مرحبًا! أعماق لا يمكن أن تخترقها حتى أعين الملائكة! مرحبًا! أيتها العروس غير المدنّسة، آه أيتها الوردة التي لا تذبل أبدًا...»

ركعتْ الراهبات مرّة أخرى على ركبهنّ والرأس محنيّ وأثوابهنّ تصدر حفيفًا كالأجنحة.

ومرّتْ الدقائق شبيهة بملائكة تعبق أجنحتها بالبلسمينة ، وتمسك زنابق لم تتفتّح بعد، وتتغنّى بجمال مريم. غربت الشمس، وتركتنا في غسق أزرق زغبيّ. لا أذكر كيف خرجنا إلى الفناء، ولكنّني كنتُ هناك

twitter @baghdad_library

وحيدًا مع الأمّ الرئيسة العجوز وراهبتين، تحت أكبر شجرة أرز. جاءتْ راهبة مبتدئة شابة لتقدّم لي ملعقة المربّى، والماء البارد والقهوة، وبدأت محادثة هادئة.

تحدثنا عن المعجزات التي اجترحتها مريم العذراء، عن الفحم الحجري والدجاج الذي بدأ يبيض الآن بعد أن جاء الربيع، عن الأخت إيودكسيا التي كانت مصابة بداء الصرع وتسقط باستمرار على أرض الكنيسة وترتعش كالسمكة، ويخرج الزبد من فمها وتمزّق ثيابها.

أضافت الأم الرئيسة مُطلقةً تنهيدة: «إنها في الخامسة والثلاثين من عمرها. عمر غير سعيد، صعب جدًّا! أدعو العذراء الشهيدة مريم أن تأتي وتعالجها! وستشفى في عَشَرة أعوام أو خمسة عشر!»

فتمتمتُ، مرعوبًا: «عَشَرة أعوام أو خمسة عشر».

سألت الأم الرئيسة: «وماذا تعني عشرة أو خمسة عشر. فكّر في الأبدية!»

لم أجب. كنت أعرف أنّ الأبديّة هي كلّ دقيقة تمرّ. قبّلتُ يد الأم الرئيسة، كانت يدًا ريّانة بيضاء تفوح برائحة البخور، وغادرتُ المكان.

خيّم الليل. حلّق غرابان أو ثلاثة في الطريق إلى عشهم؛ كان البوم يخرج من الأشجار المجوفة كي يصطاد. وكانت الحلازين، واليسروع، والديدان وفئران الحقول تخرج من التراب كي يأكلها البوم.

أطبق عليّ الثعبان الغامضُ الملتهمُ ذيلَه وطوّقني في دائرته: فالأرض تنجب أبناءها وتلتهمهم، ثم تنجب المزيد وتلتهمهم حين يحين دورهم.

نظرتُ حولي. كان الظلام مخيّمًا. و آخر القرويّين قد رحل، لا أحد يستطيع رؤيتي، كنتُ وحدي تمامًا. عريّتُ قدميّ وغمستهما في ماء البحر. تدحرجتُ على الرمال. شعرتُ بدافع كي ألمس الحجارة، والماء، والجوّ بجسدي العاري. ذلك أنّ الأم الرئيسة أغضبتني بـ «أبديتها» وشعرتُ بالعالم يتساقط حولي كوهق يمسكُ بحصان بريّ. قفزتُ محاولاً الهرب.

شعرتُ برغبة في ضغطِ جسدي العاري على التراب والبحر، كي أشعر بأن هذه الأشياء المحبوبة العابرة توجد فعلاً.

وصحتُ في أعماق نفسي: «أنت موجود، وأنت وحيد! آه أيتها الأرض! أنا آخر من ولد فيك، أرضع من حلمتيْك ولن أفلتهما. لا تتركيني أعيش لأكثر من دقيقة، ولكن لتتحوّلْ هذه الدقيقة إلى صدر فأرضع».

ارتجفتُ إذ شعرتُ بأنني أقوم بمجازفة السقوط في هاوية تلك الكلمة التي تتغذّى بلحم البشر: «الأبدية». وتذكّرتُ كيف كنت فيما مضى- متى؟ منذ عام فحسب- أنحني عليها بحرارة، مغمض العينين مفتوح الذراعين، والرغبة تتآكلني في أن ألقي بنفسي داخلها.

حين كنتُ في الصفّ الأوّل في مدرسة القرية كان النصف الثاني من كتاب الأبجدية يحتوي على قصّة من قصص الجنّ:

سقط طفلٌ صغير في بئر. وهناك عثر على مدينة مدهشة، فيها حدائق مزهرة، وبحيرة من العسل الصافي، وجبل من فطائر الأرز والألعاب ذات الألوان المتعددة. وكنت كلّما أمعنت في التهجّي جذبني كلّ مقطع أكثر فأكثر إلى أعماق تلك المدينة السحريّة. وذات مرّة، في منتصف النهار، حين كنت عائدا من المدرسة، دخلتُ إلى الحديقة، واندفعتُ إلى حافة البئر تحت شجرة الكرمة ووقفتُ مسحورًا، محدقًا إلى سطح الماء الناعم الأسود. واعتقدتُ حالاً أنني أستطيع أن أرى المدينة المدهشة، المنازل والشوارع، الأولاد وشجرة الكرمة مثقلة بالعناقيد. لم أعد أستطيع التماسك؛ فمددتُ رأسي إلى أسفل، ورفعتُ ذراعيّ ورفستُ الأرض كي أدفع نفسي فوق الحافّة. ولكنّ أمّي رأتني في تلك اللحظة. فصرخت واندفعتْ بسرعة وأمسكت بي من حزامي في الوقت المناسب تمامًا...

كاد الطفل يسقط في البئر آنذاك. وحين كبُر كان على وشك السقوط في كلمة «أبدية»، وفي عدد لا بأس به أيضًا من الكلمات الأخرى مثل «حب»

twitter @baghdad_library

و«أمل» و«بلاد» و«الله». وبعد أن تغلّب على كل كلمة منها وتركها وراءه، اعتراه شعور بأنّه نجا من الخطر وأحرز بعض التقدّم. ولكن كَلاّ، فقد كان يغيّر الكلمات ليس أكثر ظانّا أنّه الخلاص. وها هو معلّق منذ سنتين على حافة كلمة «بوذا».

ولكنني متأكّد الآن -والفضل لزوربا- أنّ بوذا سيكون آخر بئر، آخر كلمة هاوية، وعندئذ سأُخَلَّص إلى الأبد. إلى الأبد؟ هذا ما نقوله في كلّ مرة.

قفزتُ. كنتُ سعيدًا من أخمص قدميّ إلى قمّة رأسي. وتعرّيتُ وغصتُ في البحر؛ كانت الأمواج المتعة تمرح فمرحتُ معها. وحين تعبتُ خرجتُ من الماء، وتركتُ ريح الليل تجفّفني، ثمّ انطلقتُ ثانية بخطوات مرحة، شاعرًا بأنّني نجوتُ من خطر كبير وأنّني صرت أملك قبضة أكثر إحكامًا على صدر الأمّ الكبرى.

-16-

حالما دخلتُ مجال رؤية شاطئ الفحم الحجري توقّفتُ فجأة: لقد كان هناك ضوء في الكوخ. فقلتُ لنفسي شاعرًا بالسعادة لا بدّ أنّ زوربا قد عاد.

شعرتُ برغبة في الجري، ولكنّني كبحتُ نفسي. يجب أن أخفي فرحي. يجب أن أبدو متضايقًا وأؤنّبهُ. لقد أرسلته إلى هناك للقيام بعمل ملحّ، فإذا به يلقي بالنقود في حضن عاهرة، ويتأخّر في العودة اثني عشر يومًا. يجب أن يبدو عليّ الغضب... يجب ذلك.

سرتُ ببطء علّني أتقنّع بملامح الغاضب. وأجهدت نفسي في تصنّع الغضب، فعبستُ، وأطبقتُ قبضتيَّ، وفعلتُ كلّ ما يمكن أن يفعله الرجل الغاضب، ولكنّني لم أنجح في الأمر. بل على العكس، كلّما تقدّمت، شعرتُ بسعادة أكبر.

زحفتُ صاعدًا إلى الكوخ ونظرتُ عبر النافذة المضاءة. كان زوربا راكعًا على ركبتيه قرب الموقد الصغير الذي أشعله ليعدّ القهوة. فذاب قلبي وناديت: زوربا!

فُتحَ الباب في لمح البصر واندفع زوربا إلى الخارج حافيًا. مطّ رقبته وحدّق في الظلام، وحين رآني فتحَ ذراعيه وعانقني، ثم توقّف وتركهما تعودان إلى جانبيه.

قال متردّدًا، وهو يقف أمامي بوجهه الطويل دون حراك: «تسرّني رؤيتك ثانية، أيها الرئيس».

حاولتُ أن أرفع صوتي غاضبًا: «سعيد أنّك تجشّمتَ عناء العودة»، وأضفت ساخرًا: «لا تقترب. تفوح منك رائحة صابون الحمام».

twitter @baghdad_library

فتمتم: «آه، لو أنّك تعرف فقط أيها الرئيس أي غسل وفرك خصصت بهما نفسي؟! لقد فركتُ جلدي اللّعين قبل أن أمثل أمامك! وظللت أفرك بالحجر الرملي ساعة كاملة. ولكن هذه الرائحة الشيطانيّة... ومع ذلك فما الّذي يمكن أن تفعله؟ ستتلاشى عاجلاً أم آجلاً. فليست هذه هي المرّة الأولى، وفي النهاية ستختفي».

قلتُ وكنتُ على شفا الانفجار من الضحك: «لندخل».

دخلنا. فاحت من الكوخ رائحة العطر والمسحوق والصابون والنساء. فقلتُ مشيرًا إلى كيس مليء بحقائب اليد وألواح صابون عطري وجوارب ومظلة صغيرة حمراء وزجاجتي عطر صغيرتين:

«ما هذا بحق الله، أيمكن أن أسألك؟»

«هدايا...»، تمتم زوربا،منكّسًا رأسه.

أجبته محاولاً تصنّع الغضب: «هدايا؟ هدايا؟»

«هدايا أيها الرئيس، لبوبولينا الصغيرة. لا تغضب. إن عيد الفصح قادم حالاً، وهي كائن بشريّ أيضًا».

حاولتُ أن أكبح ضحكي مرة أخرى.

وقلت: «لمِ تحضر لها الشيء الأكثر أهمية».

«ماذا؟»

«أكاليل الزواج، بالطبع».

«ماذا؟ ما الذي تعنيه؟ لا أفهم».

ثم أخبرته عن الطريقة التي أوْهمتُ بها جنيّته العاشقة. فحكّ زوربا رأسه لثانية، وفكّر ثمّ قال:

«يجب ألاّ تفعل أشياء كهذه، أيها الرئيس، إذا لم يزعجك قولي هذا. إنّ هذا النوع من المزاح هو... إنّ النساء ضعيفات وحسّاسات، كم مرّة عليّ أن أقول لك هذا؟ إنهنّ كآنية الخزف، ويجب أن تتعامل معهنّ بحرص شديد، أيّها الرئيس».

شعرتُ بالعار. لقد ندمتُ على ذلك، أيضًا، لكن كان الوقت متأخّرًا. غيّرتُ الموضوع. وسألته:

» ماذا عن الأربطة وباقي الأدوات؟«

«أحضرتُ كلّ شيء؛ فلا تتشغل! الطعام كامل والكلب شبعان كما يقولون! المصعد، ولولا، وبوبولينا. كلّ شيء تحت السيطرة».

رفع الركوة عن اللهب، ملأ فنجاني، وقدّم لي بعض المعجّنات بالسمسم من تلك التي جلبها معه إضافة إلى الحلوى السكّرية التي كان يعرف أنّها من حلوياتي المفضّلة. وقال بحنان:

«لقد أحضرتُ لك هدية، علبة كبيرة من الحلويات! لم أنسك، كما ترى. انظر، أحضرتُ كذلك كيسًا صغيرًا من الفول السوداني للببغاء. لم أنس أحدًا. فدماغي كما ترى في مكانه تماما «.

أكلت الكعك وبعض الحلوى، وشربت القهوة وجلست أرضا، بينما كان زوربا يحتسي قهوته، ويدخّن ويراقبني. وجذبتني عيناه الشبيهتان بعيني ثعبان.

«هل حللتَ المشكلة التي كانت تعذّبك، أيها النذل العجوز؟» سألتهُ، وقد صار صوتي أكثر لطفًا الآن.

«أيّة مشكلة، يا رئيس؟»

«إن كانت النساء كائنات بشريّة أم لا؟»

فأجاب زوربا، ملوّحًا بيده «آه، لقد حللتها! فليست المرأة في نهاية المطاف سوى كائن بشريّ، كائن بشري مثلنا تماما، لكنها أسوأ فحسب! ففي اللحظة التي ترى فيها محفظتك تفقد عقلها. تتمسّك بك، وتتخلّى عن حريّتها ويسرّها أن تتخلّى عنها لأنّ، في خلفية ذهنها، حافظة النقود التي تلمع. ولكنها حالاً... آه، إلى الجحيم بكل هذا، أيها الرئيس!»

نهض ورمى سيجارته من النافذة. ثمّ تابع:

«والآن لنتحدّث رجلا لرجل، إنّ الأسبوع المقدّس قادم، وقد حصلنا

twitter @baghdad_library

على الأربطة، وحان الوقت إذن كي نذهب إلى الدير لنتحدّث مع تلك الخنازير السمينة كي نوقّع العقد من أجل أرض الغابة... قبل أن يروا المصعد، وتشتغل أنوفهم. أفهمت ما أعنيه؟ إن الوقت يمرّ، أيها الرئيس، ولن نذهب إلى أي مكان إذا بقينا خامدين هكذا؛ يجب أن نقوم بالأمر؛ يجب أن نبدأ بكسب الثروة... يجب أن نبدأ تحميل السفن كي نعوّض ما أنفقناه... إن تلك الرحلة إلى كانديا كلّفتْ مبلغًا ضخمًا. كما ترى، لعن الله الشيطان...»

وتوقّف. شعرتُ بالأسف عليه. كان كطفل فعل شيئًا سخيفًا، ودون أن يعرف كيف يصحّح الأمور ثانية، ارتجف فحسب.

قلتُ لنفسي: «يا للعار! كيف بوسعك أن تترك روحًا كهذه ترتجف من الخوف؟ أين ستعثر على زوربا آخر؟ هيّا، امتصّ هذا كلّه!»

صحتُ: «يا زوربا! دعْ الشيطان وحده؛ فنحن لا نحتاج إليه! ما حصل حصلَ... ونُسيَ! هيّا أخرج سنتورك!»

فتح ذراعيه وكأنه يريد أن يعانقني من جديد. لكنّه أعادهما ببطء، وهو ما يزال متردّدًا.

وبقفزة واحدة وصلَ إلى الحائط. ووقف على أصابع قدميه وأنزل السنتور. وحين عاد شاهدتُ شعره في ضوء المصباح: كان أسود كالقار.

فصحتُ به: «أيّها الكلب العجوز، ما الذي فعلت بشعرك؟ من أين حصلتَ على هذا؟»

فراح يضحك.

«لقد صبغتهُ أيها الرئيس. فلا تنزعج... صبغتهُ لأنه لا حظّ لديّ مع هذا الخائن...»

«ولماذا؟»

«تشامخ، أقسم بالله! كنتُ أسيرُ في أحد الأيام مع «لولا»، ماسكًا ذراعها. لم أكن حتى أمسك... انظر، هكذا، بطرف أصابعي فقط! فجاء

ولد كريه، ليس أكبر من هذه اليد وبدأ يصيح خلفنا: أيّها العم العجوز، أنت هناك! إلى أين تأخذها يا سارق الأطفال؟»

«شعرتُ لولا بالعار، وكذلك أنا. وهكذا ذهبتُ في الليلة نفسها إلى الحلّاق وصبغت شعري بالأسود».

فأخذت أضحك، وزوربا يراقبني بجدية.

«هل هذا مضحك بالنسبة إليك، أيها الرئيس؟ حسنًا، انتظر فحسب وانظر أيّ حيوان غريب هو الإنسان! منذ اليوم الذي صبغتُ فيه شعري، صرتُ إنسانًا آخر تمامًا. كلّ من يراني يعتقد أنّ شعري أسود بالفعل حتّى كدت أنا نفسي أصدّق الأمر - إنّ الإنسان ينسى بسهولة ما لا يناسبه، كما تعرف - وأقسمُ أنني صرتُ أقوى. لولا بدورها لاحظتْ هذا. أتتذكّر ذلك الألم في ظهري هنا؟ لقد تلاشى أيضًا! لم أشعر به منذ ذلك الوقت! لا تصدّقني، بالطبع، ما دامت كتبك لا تخبرك أمورًا كهذه».

وضحك بسخرية،لكنّه سرعان ما شعر بتأنيب. فقال:

«اعذرني أيّها الرئيس... إنّ الكتاب الوحيد الذي قرأتهُ في حياتي هو السندباد البحري، ولقد نفعني كثيرًا...»

ثمّ أنزل السنتور ونزع عنه الغطاء ببطء وحنان. وقال:

«هيّا إلى الخارج. إن السنتور لا يشعر بالراحة بين هذه الجدران الأربعة. إنّه متوحش ويحب الأمكنة المفتوحة».

وخرجنا. كانت النجوم تتلألأ. ودرب المجرّة يتدفّق من طرف السماء إلى طرفها الآخر. والبحر يرغي ويزبدُ.

جلسنا على الحصى وراحت الأمواج تلعق باطن أقدامنا.

قال زوربا: «حين تتملّكنا الكآبة علينا أن نمنح أنفسنا أوقاتًا ممتعة. هل تتصوّر هي أنّنا سنستسلم؟ تعال إلى هنا أيّها السنتور!»

قلت:«أغنية مقدونية يا زوربا من بلادك الأصلية»

فقال زوربا » بل أغنية كريتية من بلادك! سأغنّي لك أغنية تعلّمتها في

twitter @baghdad_library

كانديا؛ وغيّرتْ حياتي منذ أن عرفتها».

وفكّر لحظة. وقال:

«كلاّ، لم تتغيّر في الواقع. ولكنّني اكتشفت الآن فحسب أنّني كنتُ على صواب».

وضع أصابعه الكبيرة على السنتور ومطّ عنقه. وبدأ يغنّى بصوت وحشيّ، قاس وحزين:

حين تتّخذ قرارك، لا فائدة من التراجع إلى الخلف،
انطلق إلى الأمام ولا تستسلم
أطلقْ العنان لشبابك، لأنه لن يعود ثانية،
فكن شجاعاً ولا تندم.

تبعثرتْ همومنا، وتلاشت المشكلات التافهة، ووصلتْ الروح إلى أوجها. «لولا»، الفحم الحجري، الخطّ، «الأبدية»، هموم كبيرة وصغيرة، كلها صارت دخانًا أزرقَ تلاشى في الجوّ، ولم يبق إلا طائر فولاذيٌّ: الروح البشرية التي غنّتْ.

لم أتمالك نفسي عن الصياح حين انتهت الأغنية الحماسيّة: «أصنع لك هديّة من كلّ شيء، يا زوربا! كلّ ما فعلتَهُ: المرأة، شعرك المصبوغ، النقود التي أنفقتها، كلها لك! فقط تابع الغناء!»

ومطّ من جديد عنقه المعروقة:

أيّتها الشجاعة! أيّتها المغامرة تعالي باسم الأعظم! تعالي كما أنت فإمّا أن تخطئي الضربة وإمّا أن تربحي!

سمع عددٌ من العمال الّذين ينامون قرب المنجم الأغاني فأتوا وجلسوا حولنا. أصغوا إلى أغانيهم المفضّلة وشعروا بسيقانهم تخزهم. وأخيرًا، قفزوا من الظلمة نصف عراة، بشعرهم المشعّث وقمصانهم الفضفاضة، بعد أن أصبحوا غير قادرين على كبح أنفسهم أكثر، وشكّلوا حلقة حول زوربا والسنتور وأخذوا يرقصون فوق الحصى الضخم.

أمّا أنا فرحت أنظر إليهم، مُنفعلا، في صمت. وقلت في قرارة نفسي: هذا هو العِرق الحقيقي الذي أبحث عنه! وإنّني لا أريد غيره.

□ □ □

في اليوم التالي، قبل بزوغ الفجر، كانت أنفاق المنجم تردّد صدى صيحات زوربا وأصوات المعاول. والرجال يعملون بحماس. فلا أحد هنا غير زوربا يستطيع أن يقودهم بهذه الطريقة. فمعه صار العمل نبيذًا ونساء وأغنية، والرجال سكارى. وعلى يديه عادت التربة إلى الحياة، وتبنّى كلُّ شيء إيقاعَه: الحجارةُ والفحمُ والخشبُ والعمّالُ. لقد نشبت حرب في الأنفاق على ضوء مصابيح الأستيلين الأبيض، وكان زوربا في المقدمة؛ يقاتل جسدا لجسد. إنّه يطلق اسمًا على كلّ نفق وطبقة، يعطي وجهًا لكلّ القوى اللامرئية، وبعد ذلك يصبح من الصعب عليها أن تفلت منه.

كان يقول عن النفق الأول الذي عمّده: «حين أعرف أن هذا نفق «كانافارو» أشعر بالراحة فأين بحق الجحيم يعتقد أنه يستطيع الاختباء؟ أعرف اسمه، ولن يكون وقحا ويخدعني. لا هو ولا «الأم الرئيسة» أو «المصاب بالصَّدَف» أو «المبولة». أعرفهم كلّهم، أقول لك، أعرف كل واحد باسمه».

في ذلك اليوم نزلتُ إلى النفق دون أن يراني.

«هيّا! حرّكوا بعض الحياة فيه!»، كان يصيح بالعمال، كما هو دومًا حين يكون في حال جيدة. «هيّا! سنأكل الجبل كلّه! نحن رجال، أليس كذلك؟ كائنات يُحسب لها حساب! إن الإله الطيّب نفسه عليه أن يرتجف حين يرانا! أنتم الكريتيين وأنا المقدونيّ سنحصل على هذا الجبل؛ يحتاج الأمر إلى أكثر من جبل لهزيمتنا! لقد هزمنا الأتراك، أليس كذلك؟ إذن كيف يهزمنا جبل صغير كهذا؟ هيّا، إذن!»

ركضَ أحدهم إلى زوربا. وفي ضوء مصباح الأسيتيلين استطعتُ أن أميّز وجه ميميكو.

twitter @baghdad_library

قال بصوته المتأتئ: «زوربا، زوربا...»
التفت زوربا، وفهم السبب في لمحة. فرفع يده الكبيرة، وصاح:
«اهزموه! هيّا من هنا!»
قال المغفّل: «إنّني قادم من طرف السيّدة».
«هيّا من هنا، لدينا عمل نقوم به!»
انطلق ميمكيو بالسرعة التي يقدر عليها. وبصق زوربا مستاء.
وقال: «النهار للعمل. وقت النهار رجل. والليل لإمتاع نفسك. الليل امرأة. يجب ألا تخلط بين الاثنين».
وفي تلك اللحظة، تقدمتُ، وقلت:
«إنها الثانية عشرة وقت إيقاف العمل وتناول وجبة!»
فالتفتَ زوربا، وحين شاهدني قطّب وجهه وقال:
«لا تنتظرنا أيها الرئيس، إذا كان هذا لا يزعجك. اذهبْ وتناولْ غداءك. لقد فقدنا اثني عشر يومًا، أتذكر، ويجب أن نعوّضها. آمل أن تستمتع بوجبتك».
غادرتُ النفق وسرتُ نحو البحر. فتحتُ الكتاب الذي أحمل. كنتُ جائعًا، ولكنّني نسيتُ جوعي. قلت في نفسي: التأمّل منجمٌ أيضًا، ولذا تابعْ انطلاقتك! ثمّ غصتُ في أنفاق الذهن الشاسعة.
كتابٌ مزعج: وصفُ جبال التيبت المغمورة بالثلج، الأديرةُ الغامضة، الرهبانُ الصامتون في أرديتهم الصفراء البرتقالية وهم يركّزون إرادتهم ويجبرون الأثير على اتخاذ الشكل الذي يرغبون فيه.
قمم جبال عالية، وجوٌّ مليء بالأرواح. تمتمة الحياة البشرية الباطلة لا تصل أبدًا إلى هذا العلوّ. يأخذ الناسك العظيم طلابه، وهم أولاد في السادسة عشرة من عمرهم، ويقودهم في منتصف الليل إلى أعلى نحو بحيرة جليدية في الجبل. يتعرّون، يكسرون الجليد، يغمسون ثيابهم في المياه المتجمّدة، يرتدونها ثانية ويتركونها تجفّ على ظهورهم. ثم يغمسونها من جديد، ويتركونها كي تجفّ ثانية على أجسادهم. يفعلون

هذا سبع مرات متعاقبة. ثم يعودون إلى المعبد من أجل صلوات الصباح.

يتسلقون قمة الجبل، على ارتفاع خمسة أو ستة آلاف متر. ويجلسون بهدوء، يتنفّسون بعمق وبانتظام، عراة إلى الخصر لكنّهم لا يشعرون بالبرد. يحملون في أيديهم كأسًا من الماء المثلّج، ينظرون إليه، ويركّزون بكل ما يملكون من قوّة عليه، فيغلي الماء. ثم يعدّون شايهم.

يجمع الناسك العظيم تلاميذه حوله ويقول:

«بائس من لا يملك في داخله مصدر السعادة!

بائس من يريد أن يسرّ الآخرين

بائس من لا يشعر أن حياته هذه وحياته التالية، ليسا سوى حياة واحدة!»

□ □ □

خيّم الليل ولم يعد في وسعي الرؤية كي أواصل القراءة. أغلقتُ الكتاب ونظرتُ إلى البحر. يجب أن أحرّر نفسي من هذه الأشباح كلّها: بوذا والآلهة والأوطان والأفكار... بائس من لا يستطيع تحرير نفسه من بوذا والآلهة والأوطان والأفكار.

اسودّ البحر فجأة. وكان القمر الفتيّ يغرب بسرعة. وفي الحدائق البعيدة كانت الكلاب تنبح بحزن و الوهد كلّه يردّد الصدى.

ظهر زوربا، مغطّى بالتراب؛ كان قميصه يتدلى مِزقًا.

جلس قربي. وقال بسعادة:

«سارتِ الأمور جيدًا اليوم؛ أُنجز الكثير من العمل الجيّد».

سمعتُ كلمات زوربا دون أن أفهم معانيها. كان ذهني ما يزال بعيدًا في منحدرات بعيدة خَطِرة.

سألني: «ما الذي تفكّر فيه أيها الرئيس؟ هل ذهنك في البحر؟»

أعدتُ ذهني، نظرتُ إلى زوربا وهززتُ رأسي. وقلتُ:

«أتظنّ يا زوربا أنّك سندباد بحري رائع وتتحدث بشكل هام لأنك جُبتَ العالم قليلاً. ولكنك لم ترَ أي شيء إطلاقًا. لا شيء أيها المسكين

twitter @baghdad_library

الفقير! ولا أنا أيضًا. إن العالم أوسع مما تظنّ. نسافرُ، عابرين البلدان والبحار كلّها ومع ذلك فإننا لم ندفع أنوفنا خارج عتبة منزلنا».

زمّ زوربا شفتيه وظلّ صامتًا. نخرَ فقط ككلب مطيع حين يُضرب.

قلت: «هناك جبال في العالم ضخمة وكبيرة ومُنقّطة بالمعابد. وفي هذه المعابد يعيش رهبان في أردية صفراء برتقالية. يبقون جالسين، بأرجل متصالبة، لشهر أو شهرين أو ستة أشهر في المرة الواحدة مفكّرين في شيء واحد فحسب. شيء واحد، أتسمعني؟ ليس اثنين بل واحدا! لا يفكّرون في النساء أو الفحم أو الكتب، كما نفعل؛ يركّزون أذهانهم على شيء واحد ويجترحون معجزات. ألمْ ترَ ما يحدث حين تضع زجاجة مكبّرة تحت الشمس وتركز الأشعة كلها على نقطة واحدة، يا زوربا؟ فسرعان ما تشتعل هذه النقطة، أليس كذلك؟ لماذا؟ لأنّ قوة الشمس لم تتوزّع بل تركّزتْ على تلك النقطة فقط. يحدث الأمر نفسه مع عقول البشر. تجترح المعجزات إذا ركّزتَ ذهنك على شيء واحد، واحد فقط. أتفهمني، يا زوربا؟»

كان زوربا يتنفّس بصعوبة. وانتفض للحظة وكأنّه يريد أن يهرب، ولكنّه سيطر على نفسه.

وقال: «تابع»، بصوت مخنوق.

ثم قفز مباشرة.

وصاح: «اخرس! اخرس! لماذا تقول هذا لي، أيها الرئيس؟ لماذا تسمّم ذهني؟ كان الأمر هنا جيّدًا وها أنت تزعجني؟ كنتُ جائعًا، ولقد رمى لي الله أوالشيطان -ولْتحلّ عليّ اللعنة إن كنت أرى فرقاً بينهما- عظمةً وكنتُ ألعقها. كنت أهزّ ذيلي وأصيح: شكرًا لك! شكرًا لك! والآن...»

خبط قدمه، وأدار ظهره، وقام بحركة كما لو أنه ذاهب إلى الكوخ، ولكنه ظلّ يغلي في الداخل. فتوقّف. وزمجر:

«لقد رمى إليّ عظمًا رائعًا، ذلك الإله-الشيطان»

«مومسًا عجوزًا! مركبًا قديمًا غير جدير بالإبحار!»

أمسك حفنة من الحصى ورماها في البحر.

«ولكن من هو؟ من الذي رمى تلك العظام لنا؟ إيه؟»

انتظرَ قليلاً، وحين شعر بغياب جواب قادم اهتاج. وصاح:

«ألا تستطيع أن ترى أيّ شيء أيها الرئيس؟ إذا عرفتَ أيّ شيء، أخبرني، كي أعرف اسمه. ثم لا تقلق، سأعتني به! سأجازيه خير جزاء.. لكن أن أبقى هكذا على غير هُدًى دون أن أعلم إلى أيّ اتجاه يجب أن أسير! فإنّني سأحطّم رأسي».

قلتُ: «أنا جائع. اذهب وأحضرْ بعض الطعام. لنأكل أولاً!»

«ألا نستطيع البقاء مساءً واحدًا دون أكل أيها الرئيس؟ كان أحد أعمامي راهبًا، ولم يكن يتناول طوال أيام الأسبوع سوى الملح والماء. وفي أيام الأحد والعيد كان يضيف قليلاً من النّخالة. لقد عاش مائة وعشرين عامًا».

«عاش إلى المائة والعشرين يا زوربا لأنه كان مؤمنًا. لقد عثر على إلهه ولا يعتريه قلق. ولكن لا إله لنا، يا زوربا، فأشعل النار واطبخ لنا هذه الأسماك. اصنعْ حساء حارًا وثقيلا بكثير من البصل والفلفل، من النوع الذي نحبّه. ثم سنرى».

سأل زوربا غاضبًا: «نرى ماذا؟ حالما تمتلئ بطوننا سننسى كل هذا!»

«بالضبط! هذا ما يقدّمه لنا الطعام، يا زوربا. والآن اذهب وأعدّ لنا حساءَ سمكٍ جيدًا كي لا تنفجر رؤوسنا!»

ولكن زوربا لم يتحرّك. بقي حيث هو، بلا حراك، ناظرًا إليّ.

«استمعْ أيها الرئيس، أريد أن أخبرك شيئًا. أعرف ما تنويه تمامًا الآن، حين كنت تتحدث إليّ فجأة خطرتْ لي فكرةٌ غامضة؛ رأيتها كلّها في ومضة».

سألته، بعد أن أثار اهتمامي بهذا الكلام: «ماذا أنوي يا زوربا؟»

twitter @baghdad_library

«تريد أن تشيّد معبدًا. هذا هو الأمر! وبدلاً من الرهبان ستعيّن بعض حملة القلم الشريفين من أمثالك وسيمضون الوقت وهم يكتبون ليلَ نهار. ثم ستخرج من أفواهكم الشرائط المطبوعة مثل كلّ القدّيسين الذين نراهم في الصور القديمة. إنّ تخميني صحيح،أليس كذلك؟»

نكّستُ رأسي شاعرًا بالحزن. أحلام شبابي القديمة، أجنحة كبيرة فقدتْ ريشها، دوافع ساذجة ونبيلة وكريمة.. نبني مجتمعا روحيا وندفن أنفسنا فيه؛ مع عشَرة من الأصدقاء –موسيقيين وشعراء ورسامين–... نعمل طوال اليوم، ولا نلتقي إلاّ في الليل، نأكل ونغني ونقرأ سوية، نناقش مشكلات البشرية الكبيرة ، ندمّر الأجوبة التقليدية. لقد وضعتُ دستور الجماعة مسبقًا. بل وعثرتُ أيضا على البناء الذي نحتاج في أحد معابر جبل هايميتوس، في منطقة القديس يوحنا الصياد.

قال زوربا بسعادة حين رأى أنني بقيت صامتًا:

«لقد حزرتُ الأمر جيدًا».

«حسنًا، سأطلبُ منك معروفًا يا رئيس الدير المقدّس: أريدك أن تعيّنني بوّابًا لمعبدك كي أستطيع أن أقوم ببعض التهريب، وبين فينة وأخرى، أدخل بعض الأشياء الغريبة جدًا إلى الأفنية: النساء، والغيثارات، ودمجانات الراكي، والخنازير الفتيّة المشويّة... كلّ هذا كي لا تبدّد حياتكَ في الهُراء وحدَك!»

ضحك وذهبَ بسرعة نحو الكوخ. فركضتُ خلفه. نظّف السمك، دون أن يفتح فمه، بينما أحضرتُ الخشب وأشعلتُ النار. وحالما أعدّ الحساء، أخذنا معالقنا وبدأنا نأكل مباشرة من الإناء.

لم يتحدّث أيٌّ منّا. لم نتناول لقمة طوال النهار فأكلنا بنهم. وشربنا بعض النبيذ فتحسّنتْ معنوياتنا. وأخيرًا فتح زوربا فمه.

«سيكون مُسلّيًا أن نرى السيدة بوبولينا تظهر الآن، أيها الرئيس. ستكون لحظة مناسبة كي تأتي، ولكن ليحْمنا الله! ستكون القشّة الأخيرة.

وأنت تعرف أنني مشتاق إليها، أيها الرئيس، ليأخذها الشيطان!»

«أنت لا تسألني من رمى لك ذلك العظم الصغير المميّز، أليس كذلك؟»

«ولماذا تهتمّ أيها الرئيس؟ إنها كقملة في كومة قش... خذ العظم ولا تكترث بمن رماه لك. هل هو طيّب الطعم؟ أهناك أي لحم عليه؟ تلك هي الأسئلة التي يجب أن نطرحها. كل ما تبقى هو ...»

قلتُ وأنا أربّتُ على ظهره: «لقد اجترحَ الطعام معجزته الرائعة. ها قد هدأ الجسد الجائع... وكذلك هدأتْ الروح التي كانت تطرح الأسئلة. أحضرْ سنتورك!»

ولكن حين نهض زوربا سمعنا خطوات ثقيلة سريعة على الحصى. فارتعش منخرا زوربا المشعّران. وقال بصوت منخفض، ضاربًا فخذيه:

«اذكر الشيطان ... ها قد أتتْ! لقد شمّمتُ العاهرة عطر زوربا في الجو، وها قد أتتْ».

قلتُ ناهضًا: «سأذهب. لا أريد أن أحضر هذا الأمر. سأخرج قليلاً. وأترك هذا لك».

«عمتَ مساء أيها الرئيس».

«لا تنسَ يا زوربا. لقد وعدتَ بأن تتزوّجها... لا تجعلني كاذبًا».

تنهّد زوربا.

«أ أتزوّج ثانية أيها الرئيس؟ إنني متخم من هذا!»

وبدأت رائحة الصابون المعطّر تقترب.

«تحلَّ بالشجاعة يا زوربا!»

وغادرتُ بسرعة. وفي الخارج سمعتُ الأنفاس اللاهثة للجنيّة العجوز.

twitter @baghdad_library

-17-

في اليوم التالي أيقظني صوت زوربا مع خيوط الفجر الأولى.

«ما الذي أصابك هذا الصباح؟ لماذا تصرخ هكذا؟»

فأجاب وهو يملأ جراب مؤونته بالطعام:

«يجب أن نأخذ الأمور على محمل الجدّ أيها الرئيس، لقد أحضرتُ بغلين؛ انهضْ كي نذهب إلى الدير ونوقّع الأوراق من أجل إتمام المصعد. ثمّتَ شيء واحد يخيف الأسد وهو القملة. إن القمل سيأكلنا جميعًا، أيها الرئيس».

سألتهُ وأنا أضحك: «لماذا تدعو تلك المسكينة بوبولينا قملة؟»

ولكن زوربا تظاهر بأنه لم يسْمعني. وقال:

«هيّا، قبل أن تشتدّ حرارة الشمس».

كنتُ في غاية السعادة حقًّا فقد كنت أرغب في تسلّق الجبال والاستمتاع برائحة أشجار الصنوبر. امتطينا البغلين، وتوقفنا لحظة عند المنجم حيث أصدر زوربا بعض التوجيهات للعمال. وطلب منهم أن يعملوا على «الأم الرئيسة» و يحفروا الخندق في «المبولة» وينظّفوا «كانافارو». ثمّ بدأنا الصعود.

شعّ النهار كجوهرة بالغة النقاء. وكلّما صعدنا إلى أعلى، بدت أرواحنا أكثر تطهّرًا وسموًّا. وشعرتُ مرّة ثانية بتأثير الهواء النقيّ والتنفّس السهل والأفق الواسع على الروح. إنّ أي شخص كان سيحسّ مثلي بأنّ الروح هي أيضًا حيوان برئتين ومنخرين، وأنّها تحتاج إلى الأوكسيجين وتختنق في الغبار ووسط زحام الأنفاس والزفرات.

كانت الشمس مرتفعة حين دخلنا غابة الصنوبر. وفاح الجوّ هناك

twitter @baghdad_library

برائحة العسل، وكانت الريح تهبّ فوقنا وتئنّ كالبحر.

أثناء المسير درس زوربا منحدرًا من منحدرات الجبل. كان ينصب الدعامات في خياله وفق مسافات محدّدة، وحين رفع عينيه كان في وسعه أن يرى مسبقًا أربطة الحبال تلمع في الشمس منحدرة نحو الشاطئ، وجذوع الأشجار المقطوعة وقد ثبّتتها الحبال، تئنّ كسهام مطلقة من قوس. فراح يفرك يديه ويقول:

«الأموال قادمة. هذا منجم ذهب! سنكوّم النقود قريبا، وحينها نستطيع أن نفعل كل ما قلناه».

ونظرتُ إليه مندهشًا. فأضاف:

«لا تقل لي إنك نسيتَ! قبل أن نبني الدير، سنصعد الجبل الكبير. ماذا تدعوه؟ طيبة؟»

«التيبت يا زوربا، التيبت. ولكن نحن فقط، لا نستطيع أن نأخذ النساء إلى هناك».

«ومن ذكرَ أخذ النساء؟ إن المخلوقات المسكينة مفيدة جدًا، على أي حال، ولهذا لا تقل أي شيء ضدهنّ؛ مفيدة جدًا، حين لا يكون لدى الرجل عمل يقوم به مثل استخراج الفحم أو الهجوم على البلدات أو التحدث مع الله. فما الذي يفعله، إذن، حتّى لا ينفجر؟ يشرب النبيذ، يلعب النرد، أو يضع ذراعيه حول امرأة... وينتظر... ينتظر أن تأتي ساعته، إذا كانت قادمة».

وصمتَ لحظة. ثمّ كرّر بنبرة مستاءة:

«نعم إذا كانت قادمة، لأنه يمكن ألاّ تأتي أبدًا».

وبعد لحظة. أضاف:

«لا يمكن أن تستمر الأمور هكذا أيها الرئيس، إمّا أن يصغر العالم أو أكبر أنا. وبخلاف ذلك فأنا مُنتهٍ!»

ظهرَ راهبٌ بين أشجار الصنوبر، شعره أحمر وبشرته صفراء، كمّاه

مرفوعان، وعلى رأسه قبّعة صوفيّة مستديرة.

كان يحمل قضيبًا من الحديد يضربُ به الأرض وهو يسير. حين رآنا توقّف ورفع عصاه في الجوّ. وسألنا:

«إلى أين أنتما ذاهبان؟»

أجاب زوربا: «إلى الدير، سنؤدي صلواتنا».

فصاح الراهب، وكانت عيناه الزرقاوان الصافيتان تلتهبان وهو يتحدث: «ارجعا أيّها المسيحيّان، ارجعا إذا أردتما نصيحتي! لن تعثرا هناك على بستان العذراء، وإنّما على حديقة الشيطان! البؤس، والتواضع، والطهارة... تاج الراهب، كما يقولون! هه هه هه. عودا. أقول لكما إنّ المال والكبرياء والفتيان! ثالوثهم المقدّس!»

«إن هذا الشاب مسلٍّ»، همسَ زوربا مسحورًا. ومال نحو الراهب وسأله:

«ما اسمك أيها الأخ؟ ومن أين أتيت؟»

«زكريا. لقد حزمتُ أغراضي وقررت الرحيل! مباشرة. لم أعد أستطيع التحمّل! ولكن ما اسمك يا ابن البلد؟»

«كانافارو».

«لم أعد أستطيع تحمّل الأمر يا أخي كانارافو. فطوال الليل يئنّ المسيح ويمنعني من النوم. فأئنّ معه. عندئذ أرسل رئيس الدير- أتمنى أن يُشوى في نار الجحيم إلى الأبد- في طلبي باكرًا هذا الصباح. وقال: «حسنًا أيها الأخ زكريا، ألا تترك إخوتك الرهبان ينامون؟ سأرميك في الخارج.

فقلتُ له: أأنا من يمنعهم من النوم أم المسيح؟ إنّه هو الّذي يئنّ! وعندئذ رفع ذلك المسيح الدجّال صليبه،... وانظرا ما فعل بي!»

ونزع قبعة الراهب كاشفا عن بقعة من الدم المتخثّر في شعره.

«وهكذا نفضتُ غبار المكان عن حذائي وغادرتُ».

twitter @baghdad_library

قال زوربا: «عدْ معنا إلى الدير. وسوف أصالحك مع رئيس الدير. هيّا، بوسعك أن ترافقنا وتدلّنا على الطريق. لقد أرسلتك السماء إلينا!»

فكّر الراهب لحظة. وشعّتْ عيناه. وسأل:

«ما الذي ستمنحني مقابل ذلك؟»

«رطلين من سمك القدّ المملّح وزجاجة براندي».

أجاب زوربا، ثمّ مال إلى الأمام ونظرَ إليه. وقال:

» أهناك شيطان في داخلك، يا زكريا؟»

فأجفل الكاهن. وسأل مندهشًا:

«وكيف عرفتَ؟»

«أنا من جبل أثوس. أعرف شيئًا ما عن الأمر»،قال زوربا.

فنكّس الراهب رأسه. وبالكاد سمعنا جوابه.

«نعم، ثمّتَ شيطان في داخلي».

«وسيحبّ بعض القدّ المملّح والبراندي، أليس كذلك»ـ.

«نعم ليلعن ثلاث مرات كما هو!»

«حسنا! اتّفقنا! هل يدخّن أيضًا؟»

رمى إليه زوربا بسيجارة فالتقطها الكاهن بلهفة.

وقال: «نعم، يدخّن، إنه يدخّن. اللعنة عليه!».

وأخرج حجر قدح وقطعة فتيل من جيبه، وأشعل السيجارة واستنشق بعمق. وقال: «باسم المسيح!» ثمّ رفع قضيبه الحديدي، وانطلق.

سأل زوربا، وهو يغمزني: «ما اسم شيطانك؟»

أجاب زكريا دون أن يدير وجهه: «جوزف!»

لم ترقني رفقة هذا الكاهن نصف المجنون. إن العقل المريض، كالجسم المريض، يجعلني أشعر بالتعاطف، وبالقرف في آن. لكنني لم أقل شيئًا؛ بل تركتُ الأمر لزوربا كي يفعل ما يروق له.

جعلنا الجوّ النقي الصافي نشعر بالجوع فجلسنا في ظِلّ شجرة

صنوبر كبيرة وفتحنا جراب المؤونة. فانحنى الراهب بشراهة وظلّ يحدّق جائعًا في محتوياته.

صاح زوربا: «ليس بهذه السرعة! لا تتلمّظ فورًا يا زكريا! إن يوم الاثنين مقدّس. ونحن بنّاؤون ولهذا يجب أن نأكل بعض اللحم والفروج، سامحنا الله! ولكن انظر، يوجد بعض الحلوى والزيتون لمعدتك المتديّنة!»

مسّد الراهب لحيته القذرة. وقال متأسّفًا:

«سأتناول بعض الزيتون والخبز وأشرب الماء. ولكن جوزيف شيطان، سيأكل اللحم معكما يا شقيقيّ؛ إنه يحبّ لحم الفرّوج –آه، إنه روح ضائعة– وسيشرب النبيذ من وعائكما!»

رسم إشارة الصليب، وابتلع الخبز والزيتون والحلوى ومسح فمه بظهر يده، وشرب الماء ثم رسم إشارة الصليب مرة أخرى كما لو أنه أنهى وجبته. وقال:

«والآن جاء دور جوزيف، تلك الروح المسكينة الملعونة ثلاث مرات».

ورمى نفسه على الفرّوج.

قال بغضب وهو يحشو قطعًا كبيرة من الفرّوج في فمه: «كلْ أيّها الروح الملعونة! كلْ».

فصاح زوربا بحماسة: «رائع أيّها الراهب، لديك وتران في قوسك كما أرى».

واستدار إليّ.

«ما رأيك فيه أيها الرئيس؟»

فأجبت ضاحكًا: «إنه يشبهك تمامًا».

قدّم زوربا إناء النبيذ للراهب.

«اشربْ يا جوزيف!»

فقال الراهب وهو يمسك بالزجاجة ويثبتها على فمه: «اشربْ أيّها الروح الضائعة!»

twitter @baghdad_library

كانت حرارة الشمس عالية فتقدمنا أكثر نحو الظلّ. فاحت رائحة التعرّق والبخور من الراهب. وذاب تقريبًا تحت الشمس فجرّه زوربا إلى البقعة الأكثر ظلاً، كي يخفّف من الرائحة.

قال زوربا الذي أحبّ أن يثرثر بعد أن أكل جيدًا: «كيف أصبحتَ راهبًا؟»

ابتسم الراهب.

«أفترض أنك تعتقد أنني صرتُ راهبًا لأنّني ورعٌ؟ أتراهن! كان السبب هو الفقر، يا أخي، الفقر! لم يكن لديّ ما آكله، ولهذا قلتُ لنفسي: إذا ترهبنتُ فإنّني لن أموت من الجوع!»

«وهل أنت راضٍ؟»

«الحمد لله! أتنهّد وأشكو في غالب الأحيان ولكن لا تكترث بهذا. لا أتنهد من أجل الأشياء الدنيوية؛ فبقدر ما يهمني الأمر، ألعنها ... ولكنني أتوق إلى الفردوس! أروي النكات وأثب مرحًا في أنحاء المكان وأجعل الرهبان يضحكون. يقول الجميع إن بي مسًّا من الشيطان ويهينونني. ولكنّني أقول لنفسي: » لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً؛ إن الله يحب الفكاهة والضحك.» «تعال إلى الداخل أيها المهرج، تعال إلى الداخل» ، سيقول لي في أحد الأيام، «تعال وأضحكني!» أعرف أنّ هذه هي الطريقة التي سأدخل بها الجنة، سأدخلها مهرّجا!»

قال زوربا وهو ينهض: «إن رأسك في الموضع الصحيح، يا صديقي! هيّا يجب أن نتحرك كي لا يدركنا الظلام».

انطلق الراهب ثانية. وحين كنا نتسلق الجبل شعرتُ أننا نتسلق سلاسل العقل في داخلي، مارين من قاعدة إلى قاعدة ومن أمور تافهة إلى أخرى أكثر نبلاً، من حقائق السهول البسيطة إلى المفاهيم المتعبة وشديدة التحدّر.

فجأة توقّف الراهب.

«سيدتنا، سيدة الانتقام!» صاح مشيرًا إلى كنيسة صغيرة بقُبّة مهيبة.

ثمّ ركع على ركبتيه ورسم إشارة الصليب. ترجّلتُ عن البغل ودخلتُ إلى المصلّى البارد. كانت في إحدى زواياه أيقونة قديمة، مسوّدة من الدخان ومغطّاة بهدايا نذريّة: رقاقات نحيلة من الفضة نقشتْ عليها بفظاظة أشكالٍ أيد وأقدام وأعين وقلوب... وشمعدان فضيّ ينتصب أمام الأيقونة حاملاً ضوءًا مشتعلاً على الدوام.

اقتربتُ صامتًا: سيدة وحشية محاربة بعُنق قويّ ونظرة تبدو غريبة وقلقة بالنسبة إلى عذراء، لا تحمل في يدها الطفل المقدس، بل رمحاً طويلاً ومستقيمًا.

قال الراهب مرعوباً: «الويل لكلّ من يهاجم الدير! إنّها تثبُ عليه وتطعنُه برمحها. في الأزمنة القديمة جاء بعض الأغيار إلى هنا وأحرقوا الدير. ولكن انظرْ ماذا كلّفهم ذلك أولئك الوثنيين: حين مرّوا قرب مصلّى العذراء المقدّسة هذا، ألقت بنفسها عليهم فجأة من الأيقونة، واندفعتْ إلى الخارج وبدأت تضرب برمحها في هذه الجهة وتلك، في الجهات كلّها... وقتلتهم جميعًا إلى آخرهم. يتذكر جدّي عظامهم التي رآها؛ كانت موزّعة في الغابة كلّها. ومنذ ذلك الحين، ونحن ندعوها سيدة انتقامنا. وقد كانت تُدعى سيدة الرحمة».

سأله زوربا: «لماذا لم تجترح معجزتها قبل أن يحرقوا الدير، أيها الأب زكريا؟»

أجاب الراهب، راسمًا إشارة الصليب ثلاث مرات: «كانت تلك إرادة الخالق».

قال زوربا ممتطيًا السرج مرة أخرى: «هذا جيد لله! لننطلق!»

وفي الحال ظهرت هضبةٌ استطعنا أن نرى فوقها دير العذراء المقدسة محاطا بالصخور وأشجار الصنوبر، هادئا، مبتسما، ومنفصلا عن بقية العالم في حضن قمّة الجبل الخضراء، يُزاوج في تناسق عميق بين نبل القمّة ورقة السهل، بدا الدير بالنسبة إليّ وكأنّه ملاذٌ وقع اختياره على نحوٍ مذهل للتأمل البشري.

twitter @baghdad_library

قلت في نفسي: إنّ روحًا مصابرة عذبة تستطيع هنا أن تسمو بالإنسان إلى أكثر وجوه الدين نقاوة وصفاء. ليست قمّة وعرة، فوق القدرة البشريّة، وليست سهلاً كسولاً شهوانيًا، ولكنّها تجسّد ما تحتاج إليه الروح كي تسمو دون أن تفقد رقّتها الإنسانية. إن موقعًا كهذا لن يصوغ الأبطال ولا الخنازير. موقع كهذا لا يصوغ غير البشر.

هنا معبدٌ يونانيٌّ جميل أو جامع إسلامي أنيق سيكون منسجمًا! يجب أن ينزل الله إلى هنا في شكل إنساني بسيط ويسير حافي القدمين على عشب الربيع ويتحدث بهدوء مع البشر.

«يا لها من أعجوبة! يا لها من عزلة! أية سعادة هذه!» أضفت متمتما.

ترجّلنا ودخلنا من الباب الرئيسي، صعدنا إلى غرفة الزوّار، حيث قُدّمت لنا الصينية التقليدية من الراكي والمربّى والقهوة. ثمّ جاء الأب المضيف كي يرانا وبعد لحظة أحاط بنا الرهبان وبدؤوا الحديث. أعين ماكرة، شفاه شرهة، لحى، شوارب، وروائح كثير من التّيوس.

سألنا أحد الرهبان بلهفة: «ألم تحضروا معكم جريدة؟»

قلتُ مندهشًا: «وما الذي ستفعله بالجريدة هنا؟»

فصاحت ثلاثة أصوات مستاءة: «ستخبرنا الجريدة بما يجري أسفل في العالم أيّها الأخ!»

متكئين على قضبان الشرفة، صاحوا كعدد كبير من الغربان. كانوا يتحدثون باهتياج عن إنكلترا وروسيا وفنيزيلوس، الملك. لقد طردهم العالم، ولكنهم لم يطردوه. كانت أعينهم مليئة بالمدن الكبيرة والحوانيت والنساء والصحف...

وقف راهبٌ بدين كثّ الشعر وأخذ نفسًا. ثمّ قال لي:

«لديّ شيء أريدك أن تراه. تستطيع أن تخبرني برأيك فيه. سأذهب وأحضره».

ذهب، مطبقًا يديه القصيرتين المُشعرّتيْن على معدته، وخفّه القماشيّ يتجرجر على الأرض. واختفى عبر الباب.

ابتسم الرهبان كلّهم بشكل كريه. وقال المضيف:

«إن الأب ديميتريوس ذاهب لإحضار راهبته الطينيّة مرّة أخرى. لقد دفنها الشيطان في الأرض خصيصًا له وفي أحد الأيام عثر عليها ديميتريوس حين كان يركش الحديقة. فأخذها إلى غرفته ومنذ ذلك الوقت لم يغادره الأرق. لقد فقد عقله تقريبًا».

نهض زوربا. وهو يكاد يختنق. وقال:

«لقد أتينا كي نقابل رئيس الدير وكي نوقّع بعض الأوراق».

قال المضيف: «إنّ قداسته ليس هنا. ذهب إلى القرية هذا الصباح. اصبرْ».

عاد الأب ديميتريوس، مادًّا يديه المطبقتين إلى الأمام وكأنه يحمل كأس القربان المقدّس. وقال وهو يفتح يديه بحذر: «هنا، انظروا!»

اقتربت منه فرأيت تمثالا صغيرا من صُنع تانغارا، نصف عار، ابتسم لي من بين أصابع الراهب السمينة. كان عبارة عن راهبة تمسك رأسها باليد الوحيدة التي بقيت لها.

قال ديميتريوس: «أن تظهر رأسها بهذه الطريقة يعني أنّ فيه حجرًا ثمينًا، ربما جوهرة أو لؤلؤة. ما رأيك؟»

جاء تعليق ساخر من أحد الرهبان:

«أعتقد أنها تعاني من الصداع».

ولكن ديميتريوس الكبير، ظلّ ينظر إليّ وشفتاه متدلّيتان كشفتيّ تيس، وينظر وقد نفد صبره، فقال:

«أعتقد أنني يجب أن أكسره وأرى. لا أستطيع أن أحظى بنوم في الليل بسببه... لو كانت في داخله جوهرة...»

نظرتُ إلى الفتاة الرشيقة بصدرها الصغير الصّلب المنفيّة هنا في رائحة البخور بين آلهة مصلوبة ترمي لعنتها على الجسد، والضحك والقبل.

آه! لو أستطيع فقط إنقاذها!

twitter @baghdad_library

أخذ زوربا التمثال الصغير الطينيّ، لمس الجسد الأنثوي النحيل، وبقيت أصابعه ترتجف على الثديين الصلبين المنتصبين. وقال:

«ولكن ألا تستطيع أن ترى أيها الراهب الطيب أن هذا هو الشيطان؟ إنه الشيطان نفسه، ولا خطأ في هذا، لا تقلق، أعرفه جيدًا، الملعون. انظر إلى ثدييها هنا أيها الأب ديميتريوس، إنّهما باردان ومستديران وصلبان، هكذا هو صدر الشيطان تمامًا، وأنا أعرف الكثير عن هذا!»

ظهر راهب شاب في المدخل. أضاءت الشمس شعره الذهبيّ ووجهه المستدير المكسوّ بالزغب. وغمز الراهب ذا اللسان السام الذي تحدث من قبلُ المضيفَ. ابتسم الاثنان بمكر.

وقالا: «أيها الأب ديميتريوس. جاء راهبك المبتدئ، غافريلي!»

أمسك الراهب امرأته الطينيّة الصغيرة على الفور وذهب يتدحرج كالبرميل نحو الباب. سار الراهب المبتدئ الشاب بصمت أمامه بخطى متأرجحة. واختفيا في الرواق الطويل المتداعي.

أشرتُ إلى زوربا وخرجنا. كانت الحرارة عذبة في الخارج. وفي وسط الساحة عطّرتْ شجرة برتقال مزهرة الجوّ. وقريبًا من المكان كان الماء يجري من رأس كبش رخاميّ قديم. وضعت رأسي تحت الماء وشعرتُ بالانتعاش.

سألني زوربا ببعض القرف: «ما هؤلاء الناس بحق الله؟ إنهم ليسوا رجالاً ولا نساءً؛ إنهم بغال! عليك بنسيانهم!»

وضع هو أيضًا رأسه تحت الماء العذب وبدأ يضحك.

قال مرة أخرى: «انسهم كلّهم! من الأفضل أن يُشنقوا! ثمّتَ شيطان يسكن كلّ واحد منهم. أحدهم يريد امرأة، آخر يريد السمك المملّح، آخر النقود، وآخر الصحف... مجموعة من المغفّلين! لماذا لا ينزلون إلى العالم، يحشون أنفسهم بكل هذا ويطهّرون أدمغتهم؟»

أشعل سيجارة وجلس على مقعد تحت شجرة البرتقال المزهرة. وقال:

«حين أتوق إلى شيء ما، أتعرف ماذا أفعل؟ أتخم نفسي به حدّ التقزّز وهكذا أتخلص منه وأتوقّف عن التفكير فيه. فإذا ما فعلت، أتقيّأ ولا أعود إليه. حين كنتُ طفلا،كنتُ مجنونًا بالكرز. لم يكن معي نقود، ولهذا لم أستطع أن أشتري منه الكثير، وحين آكل كلّ ما أستطيع شراءه تزداد رغبتي فيه. ولم أكن أفكّر ليلَ نهار سوى بالكرز. كان لعابي يسيل؛ وكان هذا عذابًا! ولكن في أحد الأيام مسّني الجنون، أو شعرتُ بالعار، لا أعرف أيّهما تحديدا. شعرتُ بأنّ الكرز يفعل بي ما يريده وأن هذا كان سخيفًا. وهكذا ما الذي فعلته؟ نهضتُ في مساء أحد الأيام، فتّشت جيبيّ والدي وعثرتُ على مجيدية من الفضة فأخذتها. وفي الصباح نهضتُ باكرًا، وذهبتُ إلى السوق واشتريتُ سلّة من الكرز. جلستُ في حفرة وبدأتُ الأكل. حشوتُ نفسي بالكرز إلى أن انتفختُ. بدأت معدتي تؤلمني ومرضت. نعم، أيها الرئيس، مرضتُ بشكل كامل، ومنذ ذلك اليوم حتى الآن لم أرغب بحبة كرز واحدة. ولم أعد أطيق رؤيته. لقد أنقذت نفسي. وأستطيع القول لأيّ حبة كرز: لم أعد في حاجة إليك. وفعلتُ الأمر نفسه فيما بعد بالنبيذ والتبغ. ما أزال أدخن وأشرب، ولكن في أيّ ثانية، أستطيع أن أتركهما إذا أردت. لا تحكمني العاطفة. والأمر نفسه ينطبق على بلادي. كنت أفكر فيها كثيرًا، وهكذا حشوتُ نفسي بها حتّى العنق، وبصقتها، فتوقفت عن إزعاجي «.

سألته: «وماذا عن النساء؟»

فأجابني ساخرا: إنّ دورهنّ سيأتي أيضا.. العاهرات.. سيأتي حين أبلغ السبعين!

فكّر لحظة. ثمّ قال، مصحّحًا نفسه:

«بل الثمانين. هذا يجعلك تضحك، أيها الرئيس، أستطيع أن أتفهّم ذلك ولكنّها الحقيقة. هكذا يحرّر الرجال أنفسهم! أصغ إلي؛ لا توجد طريقة أخرى سوى أن يحشوا أنفسهم إلى أن ينفجروا. لا أن يصبحوا

twitter @baghdad_library

نسّاكًا. كيف تتصوّر أن تهزم الشيطان في داخلك أيها الرئيس، إذا لم تتحوّل أنت نفسك إلى شيطان ونصف؟»

جاء ديميتريوس إلى الساحة وهو يلهث، والراهب الشاب، المبتدئ والجميل يتبعه.

قال زوربا، معجبًا بخجله وجمال شبابه: «إنّ أيّ شخص يراه سيظنّه ملاكًا معكّر المزاج».

اتّجها إلى الدرج الحجري الذي يقود إلى الحجرات العليا. التفت ديميتريوس، ونظر إلى الراهب الشاب، وقال بضع كلمات. فهز الراهب رأسه وكأنه يرفض. ولكن على الفور فيما بعد هزّ رأسه موافقًا في خضوع، ووضع ذراعه حول الراهب العجوز وصعدا الدرج سوية.

قال زوربا: «أفهمت؟ أرأيت؟ سدوم وعمورة!»

تلصّص راهبان، ثمّ تغامزا، وبدآ يضحكان.

قال زوربا: «يا للكراهة، إنّ الذئاب لا تمزّق بعضها إربًا، أمّا هؤلاء الرهبان المقيتون فنعم.. اُنظر إليهنّ وهنّ يتابدلن العضّ «

قلت، ضاحكًا: «وهم يتبادلون العضّ».

«ليس ثمّتَ فرق كبير هنا، أيها الرئيس، خذها منّي! يمكنك أن تدعو البغال كلّها غافريليس أو غافريلا، ديميتريوس أو ديميتريا، حسب ما تشعر به، هيا أيها الرئيس سنشعر حالاً بالقرف من الرجال والنساء أيضًا إذا بقينا هنا».

وخفض صوته.

«بالإضافة إلى ذلك، لديّ خطّة...»

«أهي فكرة جنونية أخرى، يا زوربا. ألا تعتقد أنّك قمت بما يكفي من الأمور الغبيّة حتى الآن ؟ أخبرني ما هي خطّتك؟»

هزّ زوربا كتفيه.

«كيف أستطيع أن أخبرك أمرًا كهذا، أيها الرئيس؟ أنت فتى ظريف،

إذا سمحت لي بقول هذا! تقوم بما في وسعك مع الجميع، مهما كانوا. إذا عثرتَ على برغوث فوق لحافك في الشتاء فستضعه تحت اللّحاف كي لا يبرد المسكين. كيف ستفهم نذلاً عجوزًامثلي؟ إذا عثرتُ على خروف فإنني أذبحه وأسفّده وأدعو أصدقائي إلى وليمة! ولكنّك ستقول: إنّ الخروف ليس لك! كلاّ، أعترف بهذا. ولكن، أيها الرئيس، لننته من أكله أوّلاً، وبعد ذلك نتحدث عنه بهدوء ونناقش ما هو «لك» وما هو «لي» قدر ما تشاء. تستطيع أن تتحدث عنه إلى أن يرضى قلبك بينما أنظف أسناني بعود كبريت».

وردّد الفناء صدى قهقهته. فظهر زكريا، مرعوبًا. وضع إصبعه على شفتيه وزحف إلينا على أطراف أصابعه. وقال:

«اسكتّ. يجب ألا تضحك! انظر هناك في الأعلى، حيث النافذة الصغيرة... هناك يعمل الأسقف؛ إنها المكتبة. وقداسته يكتب، ويكتب طوال النهار، فلا تصدر ضجّة».

«آه! أنت من أرغب في رؤيته أيها الأب جوزيف!» قال زوربا ممسكًا ذراع الراهب. «هيا خذني إلى حجرتك، أريد أن أتحدّث معك».

ثم التفت إليّ.

«اذهب وتأمّل الأيقونات القديمة في الكنيسة أثناء غيابنا. سأنتظر وصول رئيس الدير، لن يتأخّر. ولكن لا تقم بأيّ شيء بنفسك، لأنّك ببساطة ستخرّب الأمور. اترك لي الأمر فحسب، لديّ خطة».

وانحنى وهمس في أذني.

«سنحصل على الغابة بنصف السعر... لا تتفوّه بكلمة». وانطلق بسرعة، ممسكًا بذراع الراهب المجنون.

twitter @baghdad_library

-18-

اجتزت عتبة الكنيسة وغصتُ في ظلمة رخوة نديّة عطرة.

كان المكان مهجورا. في أقصى الكنيسة هيكل أيقونيّ منحوت بدقّة إلهيّة، لولا ضوء باهت كان يتثاءب في شمعدانات برونزيّة لخلتَ الهيكلَ داليةً من ذهب محمّلة بالعناقيد. كانت الجدران مكسوّة من السّقف إلى القاع بمنحوتات جداريّة شبه ممحوّة: نسّاك مرعبون يشبهون الجماجم، آباء الكنيسة، سبيل الآلام الطويلةُ؛ آلام المسيح القديمة، ملائكة ضخام متوحشون شعرهم مربوط بشرائط عريضة لا هي زرقاء ولا قرمزية تلاشى لونها بسبب الرطوبة.

وفي القبّة كانت العذراء واقفة في عليائها، تمدّ ذراعيها متضرّعة وأمامها قنديل فضيٌّ ثقيل ينسكب منه ضوء هشّ، يداعب وجهها الطويل المتألّم ويلعقه. كيف لي أن أنسى عينيها الكئيبتين وفمها المتغضّن المستدير وذقنها القوي العنيد. صوت دفين تردّد في داخلي: هي ذي «الأمّ» قانعة راضية حدّ الطمأنينة حتى في أقسى لحظات الألم، فهي التي أخرجت من أحشائها الزائلة ذلك الخالد الذي لا يفنى.

كانت قبّة السماء ورديّة اللّون، حين عبرتُ عتبة الكنيسة ثانية، فخُيّل لي أنه الفجر، غير أنّ الشمس كانت تجنح إلى الغروب. سعادة كلّية، على بساطتها، دفعتني إلى الجلوس تحت شجرة برتقال. أمّا الرّهبان فقد أووا إلى حجراتهم كي يستريحوا. راحة ضرورية لليلة بلا نوم؛ عليهم أن يحشدوا قوّتهم كلّها. فالمسيح سيبدأ بتسلّق الجلجلة هذا المساء، وينبغي أن يرافقوه. كان هناك ثديان ورديّان يتدلّيان من خنزيرتين سوداويّين تسترخيان تحت شجرة خرنوب بينما الحمامات تتبخترُ فوق السّطوح وتهدل.

twitter @baghdad_library

وفكّرت: هل ستسعفني الحياة كي أبقى قادرا على الاستمتاع بعذوبة الأرض والهواء والصّمت وعطر شجرة البرتقال المزهرة؟ أيقونة القديس باخوس التي كانت في الكنيسة، استحوذت على حواسي كلّها، وجعلتْ قلبي يفيضُ سعادة. فالأشياء التي تحفر في أحشائي عميقا؛ كالرغبة في التّوحّد والاستمرار في البذل، تجلّتْ لي مرة أخرى. لتتباركْ تلك الأيقونة الصغيرة الساحرة؛ أيقونة الشاب المسيحيّ بشعره الأشعث المنسدل على جبينه كمجموعة من العناقيد السوداء. إن ديونيسوس، إله الخمر والنشوة الأنيق، والقديس باخوس، ينصهران في ذهني ويتجلّيان لي متوحّدين. وتحت أوراق الكرمة وعباءة الراهب ارتعش الجسد حياةً، الجسد نفسه الذي أحرقته الشمس: اليونان.

عاد زوربا بسرعة ونقل إليّ الأنباء:

«جاء رئيس الدير. تبادلنا حديثا قصيرا؛ يحتاج إلى الكثير من التملّق؛ قال إنّه لن يمنح الغابة كلّها بسعر رخيص؛ وفي النهاية أكثر مما توقّعنا، نذل عجوز، لكنّني لم أنته منه بعد».

«لماذا يحتاج إلى التملّق؟ اعتقدتُ أننا اتفقنا؟»

توسّل زوربا: «لا تتدخّل في الأمر إكراما لله لأنك ستفسده أيها الرئيس. ها أنت بعد كلّ هذا تتحدث عن الاتفاق القديم؛ لقد دُفن هذا الاتفاق منذ وقت طويل. لا تعبسْ؛ لقد دفن كما أقول لك. سنحصل على الغابة بنصف السعر!»

«أي عمل سيّئ تنوي القيام به يا زوربا؟»

«لا تهتمّ. هذا عملي. سأسهّل الأمر وأنجحه، هل فهمتني؟»

«ولكن لماذا؟ لا أفهم أي شيء!»

«لقد أسرفت في الإنفاق في كانديا، هذا هو السبب! أتظنّني نسيت ما ابتلعته «لولا» من أموالي... أعني كومة النقود التي أكلتها من أموالك؟ الأنفة، أيّها الرئيس، الأنفة! أوتعتقد أنني أقبل أن تمسّ سمعتي أيّة

شائبة؟! لقد أنفقتُ الكثير، ولهذا أدفع الكثير. لقد قمت بحساباتي كما ينبغي؛ كلّفت لولا سبعة آلاف ليرة. سأتدارك الأمر وأستردّ المبلغ من ثمن الغابة. إن رئيس الدير والدير والعذراء المقدسة، جميعهم سيدفعون بدلا من «لولا». هذه خطّتي، فهل أعجبتك؟»

«كلاّ إطلاقا. كيف تحمّل العذراء المقدّسة مسؤولية تبذيرك؟»

«إنها مسؤولة وأكثر من مسؤولة! انظر، لديها ابن. أوليس ابنها هو الله؟ وهذا الابن الإله هو الذي جعلني كما أنا، زوربا، وأعطاني بعض الأدوات -تعرف ما أعنيه- وهذه الأدوات الملعونة تفسخ عقلي وتفتح محفظة نقودي حيثما قابلت الجنس الأنثويّ، أتفهم؟ لذلك، فإنّ قداستها مسؤولة وأكثر من مسؤولة. دعها تدفع».

«لا أحب هذا يا زوربا».

«هذه مسألة أخرى. دعنا ننقذ السبعة آلاف ليرة أوّلا؛ سنتناقش لاحقا! «مارسْ الحبّ معي أوّلا يا عزيزي وسأعود عمتك فيما بعد...» ألا تعرف الأغنية؟...»

ظهر الأب المضيف السمين وقال بنبرة كنسيّة مبتذلة: «ادخلا، العشاء جاهز».

نزلنا إلى حجرة الطعام، وهي قاعة شاسعة بمقاعد عديدة حول موائد ممتدّة وضيّقة. كان الجوّ يعبق برائحة زيت زنخة. وفي أقصى القاعة كانتْ هناك جداريّة العشاء الأخير القديمةً. الحواريون الأحد عشر المخلصون محتشدون حول المسيح كقطيع من الخراف، يواجههم يهوذا ذو الشعر الأحمر، «الخروف الأجرب»، يقف منعزلا بجبينه المنتفخ وأنفه الأعقف، مدبرا والمسيح لا يرفع عنه بصره طرفة عين.

جلس الأب المضيف بعد أن أجلسني إلى يمينه وأجلس زوربا إلى يساره.

قال: «نحن صائمون وآمل أن تعذرونا، لا زيت ولا نبيذ، حتى للزوّار.

twitter @baghdad_library

ولكن أهلا بكما!»

رسمنا إشارة الصليب؛ ثم خدمنا أنفسنا صامتين وأكلنا الزيتون والبصل الربيعيّ والفول الطازج والحلوى. ولقد مضغنا ثلاثتنا ببطء كالأرانب.

قال المضيف: «هكذا هي الحياة هنا في الأسفل. صلب وصيام. ولكن صبرا، يا إخوة، صبرا، إن البعث والحمل قادمان معا، وملكوت السماوات آت لا محالة».

سعلتُ فداس زوربا على قدمي كأنّه يقول: «اخرس!»

قال زوربا كي يغيّر الموضوع: «لقد رأيتُ الأب زكريا...»

أجفل المضيف وسأل بلهفة:

«ما الذي قاله لك ذلك المخبول؟ إنّ الشياطين السبعة تسكنه ، لا تصغ إلى أيّ كلمة يقولها. إنّ روحه مدنّسة ويرى الرّجس في كلّ مكان حوله».

رنّ الجرس من أجل الرهبان كئيبا ليعلن عن انطلاق أسبوع الحزن. رسم المضيف إشارة الصليب ونهض.

قال: «عليّ أن أذهب. إنّ آلام المسيح قد بدأت؛ يجب أن نحمل الصليب معه. يمكنكما أن تستريحا الليلة، لا بدّ أنكما متعبان بعد الرحلة الطويلة. ولكن غدا في قدّاس الساعة الصفر...»

«أولئك الخنازير!» تمتم زوربا بين شفتيه حالما غادر الراهب. «خنازير! كذّابون! بغال!»

«ما المشكلة يا زوربا؟ هل أخبرك زكريا شيئا؟»

«لا تهتمّ، أيها الرئيس، إلى الجحيم! إذا كانوا لا يريدون التوقيع، سأريهم من أيّ طينة أنا!»

انتقلنا إلى الحجرة المخصّصة لنا. كانت في إحدى الزوايا أيقونة تمثّل العذراء وهي تضغط خدّها على خدّ ولدها، وعيناها الكبيرتان

مغرورقتان بالدموع.

هزّ زوربا رأسه الكبير.

«أتعرف لماذا تبكي أيها الرئيس؟»

«كلاّ».

«لأنها تستطيع أن ترى ما يحدث. لو كنتُ رسّام أيقونات، فإنني سأرسم العذراء بلا عينين، بلا أذنين، ودون أنف، لأنني سأرسمها بأصابع من شفقة وريشة من أسى».

تمدّدنا على فراشين متيبّسين. فاحت من خشب العوارض رائحة السرو؛ ومن النافذة المفتوحة عبرت شهقات الربيع مضمّخة بعبق الأزهار، وبين الحين والآخر كانت الألحان الجنائزيّة تفد علينا من الفناء كنفحات من ريح. صدح بلبل بالغناء قرب النافذة فتبعه آخر غير بعيد، ثم آخر. وإذا بالليل يفيضُ حبّا.

عجز النوم عن إخضاعي. امتزجتْ أغنية البلبل بنواح المسيح، حاولت أن أتسلّق الجلجلة بنفسي عبر أشجار البرتقال المزهرة، مهتديا ببقع الدم الكبيرة. وفي العتمة الربيعيّة الزرقاء استطعتُ أن أرى العرق البارد يلمع على كامل جسد المسيح الشاحب المتعثّر. استطعتُ أن أرى يديه ممدودتين ومرتجفتين، كما لو أنه شحّاذ يتسوّل الواقفين على مقربة منه كي يصغوا إلى تضرّعه، بينما أسرع فقراء الجليل خلفه صائحين: المجد لله! المجد لله! كانوا يحملون سعف النخيل في أيديهم ويفرشون أرديتهم تحت قدميه. نظرَ إلى الذين يحبّهم، رغم أنّ أيّا منهم لم يكن في وسعه أن يدرك مدى يأسه. وحده كان يعرف أنه ملاق حتفه. تحت النجوم، باكيا في صمت كان يواسي قلبه الإنساني المسكين المليء بالجزع:

«مثل حبة قمح، ستسقط أنت يا قلبي على هذه الأرض وتموت. ولمَ الهلع أيّها القلب؟ أنّى لك أن تغذي البشر الذين يموتون من الجوع إن لم تمت لتستحيل سنبلة؟»

twitter @baghdad_library

ولكن لفرط خشيته الموت، كان قلبه الصغير يرتعد على الرغم منه...
و...

عمّ النشيد الغابة حول الدير، إنها تغاريد البلابل تعبر من بين أوراق الشجر النديّة لتبلغنا رسالتها عن الحب والألم، فيرتجف لها القلب البشري المسكين ويغمره البكاء.

وشيئا فشيئا، وبشكل لا يُدرك، منسجما مع آلام المسيح وتغريد البلابل، دخلتُ مملكة النوم، كما تدخل الروح الجنة.

ولم أكد أنام ساعة حتى استيقظتُ مجفلا، ومرعوبا.

صحتُ: «زوربا! أسمعت؟ إنها طلقة مسدس!»

ولكنّ زوربا كان جالسا على سريره يدخّن سيجارة.

قال وهو يجهد لكبت توتّره: «لا شأن لنا بهؤلاء الخنازير أيها الرئيس، دعهم، إنّها تصفية حسابات لا دخل لنا فيها».

وتعالت أصوات من الرواق؛ استطعنا سماع خفّ ثقيل يتجرجر، وأبواب تُفتح وتُغلق، وأنين آت من بعيد، فخمّنت أنّ هناك جريحا.

قفزتُ من سريري وفتحتُ الباب. ظهر أمامي عجوز هزيل وفتح ذراعيه سادّا طريقي. كان يرتدي قلنسوة بيضاء مدوّرة وقميصا أبيض لا يتجاوز ركبتيه.

«من أنت؟»

أجاب وصوته يرتجف: «الأسقف...»

جاهدت كي لا أنفجر من الضحك. الأسقف؟ أين الزينة؛ حلّة القدّاس المذهّبة، والتاج والصليب والأحجار المزيّفة ذات الألوان المتعددة؟... كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها أسقفا في ثياب النوم.

«ما طلقة المسدس هذه، يا سيادة الأسقف؟»

«لا أعرف، لا أعرف...» تلعثم، ودفعني بلطف إلى داخل الغرفة.

انفجر زوربا ضاحكا دون أن يبرح سريره.

قال: «هل أنت خائف أيّها الأب الصغير؟ ادخل إذن، أيها العجوز المسكين، وابقَ معنا. نحن لسنا رهبانا، فلِمَ كلّ هذا القلق؟».

قلتُ بصوت منخفض: «زوربا، ألا تستطيع أن تتحدّث باحترام أكبر؟ إنّه الأسقف».

«لا أسقف في قميص النوم ولا راهب، في هذا الثوب تستوي البشرية، يا صديقي! قلت لك ادخل أيها العجوز، ألا تسمع!».

نهض، أمسك الأسقف من ذراعه وقاده إلى الحجرة مغلقا الباب خلفه. أخرج زجاجة روم من جرابه وملأ كأسا صغيرة.

قال له: «اشربْ يا صديقي. إن هذا سينعشك».

وبمجرّد أن أفرغ العجوز الصغير الكأس شعر بالتحسّن. جلس على سريري واتكأ على الحائط.

قلتُ: «أيها الأب المبجّل ما طلقة المسدس تلك؟»

«لا أعرف يا بنيّ... عملتُ حتى منتصف الليل ونمتُ، إلى أن سمعتُ في الغرفة المجاورة، وهي غرفة الأب ديميتريوس...»

قال زوربا ضاحكا: «آه! آه! كنتَ على حق إذن يا زكريا! تلك الخنازير القذرة!»

أحنى الأسقف رأسه.

تمتم: «لا بد أنه لصّ».

توقّف الصراخ في الرواق وغاص الدير في الصمت مرّة أخرى. نظر إليّ الأسقف بعينيه اللطيفتين الخائفتين، كما لو أنه يتضّرع.

سأل: «هل أنت نعسان يا ولدي؟»

شعرتُ بوضوح أنه لا يرغب في الرحيل والعودة إلى وحدته في حجرته. كان خائفا.

أجبته: «كلاّ. لا أشعر بالنعاس البتة؛ يمكنك المكوث».

بدأنا الحديث. كان زوربا يتكئ على وسادته ويلفّ سيجارة.

twitter @baghdad_library

قال لي الأسقف: «لا أستطيع العثور على من أتحدث إليه هنا، وأنت شاب رفيع الثقافة على ما يبدو.. لديّ ثلاث نظريات تهوّن عليّ حياتي؛ سأحدّثك عنها، يا ولدي».

لم ينتظر جوابي و بدأ مباشرة:

«إن أوّل نظرياتي هي هذه: شكل الأزهار يؤثر في لونها؛ ولونها يؤثر في سماتها. لذلك فإن لكلّ زهرة تأثيرا مختلفا في جسد الإنسان، وكذلك في روحه. وهكذا ينبغي أن نكون في غاية الحرص ونحن نعبر حقلا متفتّح الأزهار».

توقّف عن الكلام كما لو أنّه ينتظر رأيي. استطعتُ أن أرى العجوز الصغير يتجوّل في حقل مزهر، يفتّش في الأرض، بانجذاب سريّ، عن أشكال الأزهار وألوانها. لا بدّ أنّه يرتجف من روع صوفيّ؛ ولا بدّ أنّ الحقول في الربيع مسكونة في نظره بشياطين وملائكة متعدّدي الألوان.

«وهذه نظريتي الثانية: إنّ كلّ فكرة لها تأثير حقيقيّ لها أيضا وجود حقيقيّ. إنّها هنا في الواقع، ليست هلاميّة تجول في الجوّ ولا تُرى، بل لها جسد حقيقي: عينان، فم، قدمان، ومعدة. إنها أنثى أو ذكر وتطارد الرجال أو النساء، على حدّ سواء. لهذا يقول الإنجيل: «وصارتْ الكلمة جسدا...».

نظر إليّ بلهفة مرّة أخرى.

تابع باستعجال، كما لو أنّه لا يستطيع تحمّل صمتي: «إليك نظريتي الثالثة: ثمّتَ أبديّة ما في حيواتنا العابرة، ولكن من الصعب أن نكتشفها وحدنا. فهمومنا اليومية تشغلنا عنها. إنّ بضعة أشخاص فحسب، نُخبة البشرية، يبلغون الأبدية حتى في حيواتهم العابرة على هذه الأرض. وبما أن الآخرين كلّهم سيضلّون، فإنّ الله رحمهم وأرسل إليهم الدين، وهكذا فإنّ العامة بدورها باتت قادرة على العيش في الأبدية».

انتهى وكان على ما يبدو مرتاحا لأنّه تحدّث. رفع عينيه الصغيرتين

الخاليتين من الأهداب، وابتسم لي. بدا وكأنه يقول: «أنا أمنحكما كلّ ما أملك فخذاه!» تأثّرتُ كثيرا لمرأى هذا العجوز يقدم لي، هكذا ببساطة ودون أن يعرفني جيّدا، ثمار عمل استمرّ على مدى حياة بأكملها.

اغرورقت عيناه بالدموع.

«ما رأيك بنظرياتي؟» سألني وهو يضع يدي بين يديه ناظرا في عينيّ. شعرتُ أنه كان يعتمد على جوابي كي يتأكّد إن كان لحياته أيّ فائدة أم لا.

عرفتُ أنّ فوق الحقيقة يوجد واجب آخر أكثر أهمية وأكثر إنسانية.

أجبته: «إن هذه النظريات يمكن أن تنقذ أرواحا».

أشعّ وجه الأسقف. كان هذا مبرّر حياته كلّها.

«شكرا لك يا ولدي»، همس ضاغطا على يديّ بمودّة.

قفز زوربا من زاويته.

صاح: «أنا أيضا عندي نظرية رابعة!»

نظرتُ إليه بقلق فيما التفتَ إليه الأسقف.

«تحدّثْ يا بنيّ، وليبارك الله نظريتك. ما هي؟»

قال زوربا بجدية: «إن اثنان زائد اثنين يساوي أربعة».

نظرَ إلية الأسقف، منذهلا.

تابع زوربا: «ونظرية خامسة أيّها العجوز: إن اثنين زائد اثنين لا يساوي أربعة. وبإمكانك يا صديقي أن تختار التي توافقك!»

تلعثم العجوز وخصّني بنظرة متسائلة: «أنا لا أفهم».

قال زوربا منفجرا من الضحك: » ولا أنا!»

التفتُّ إلى العجوز الذي كان مرتبكا فغيّرتُ الموضوع.

سألته: «ما هي دراساتك الخاصّة هنا في الدير أيّها الأب الموقّر؟»

«أعدّ نسخا من المخطوطات القديمة الخاصة بالدير، يا ولدي، ومؤخرا كنتُ أجمع النعوت التي استخدمتها الكنيسة لوصف الأم العذراء».

twitter @baghdad_library

تنهّد. ثمّ قال:

«أنا متقدم في السنّ ولا أستطيع أن أفعل أيّ شيء آخر. أجد راحة في تسجيل جميع ألقاب العذراء، وهذا ينسيني حالات البؤس في العالم».

أسند كوعه إلى المخدّة، أغمض عينيه وبدأ يتمتم كما لو أنه في حالة هذيان:

» الوردة التى لا تفنى، الأرض المثمرة، الكرمة، النبع، مصدر المعجزات، سلّم السماء، الجسر، مركب إنقاذ الغرقى، ملاذ الراحة، مفتاح الجنّة، الفجر، الضوء الأبديّ، البرق، عمود النار، الجنرال الذي لا يُهزم، البرج الثابت، الحصن المنيع، العزاء، المتعة، عكّاز الأعمى، أمّ اليتيم، المائدة، الطعام، الطمأنينة، الهدوء، العطر، المأدبة، الحليب والعسل...»

قال زوربا بنبرة منخفضة: «إن العجوز يهذي... سأغطّيه كي لا يبرد».

نهض ورمى الشرشف فوق الأسقف وسوّى له الوسادة.

قال: «سمعتُ أنّ هناك سبعة وسبعين نوعا من الجنون. لا بدّ أن هذا هو الثامن والسبعون».

كان النهار على الأبواب. استطعنا سماع رنين مزهر.

مددتُ رأسي من النافذة. وفي أشعّة الفجر الأولى رأيت راهبا هزيلا وعلى رأسه وشاح أسود طويل، يسير ببطء حول الفناء ويضرب بمطرقة صغيرة على قطعة طويلة من الخشب محدثا نغما مذهلا. تردّد صوت المزهر في جوّ الصباح، مليئا بالعذوبة والانسجام والفتنة. توقّفت البلابل عن التغريد وبدأت طيور أخرى تنشد على الأشجار.

أصغيتُ، مسحورا بأنغام المزهر العذبة المثيرة. وفكّرت كيف يحفظ إيقاع الحياة السامي شكله الخارجي حتى في الخراب؟ وكيف يكون أخّاذا ومليئا بالنبل؟ تغادر الروح، ولكنها تترك مسكنها الذي طوّرته ببطء وجعلته واسعا ومعقّدا مثل صَدَفة، من أجل إقامة مريحة.

إن الكاتدرائيات الرائعة التي تراها في المدن الصاخبة، المدن التى لا آلهة لها، هي مجرّد أصداف فارغة، مسوخ ما قبل التاريخ لم يبق منها سوى هيكل عظمي مهترئ بفعل الشمس والمطر.

قُرع باب حجرتنا. وجاء صوت المضيف المداهن إلى آذاننا.

«هيّا أيها الإخوة، إنه وقت صلاة الفجر».

قفز زوربا وصاح بتشنّج: «ماذا كانت طلقة المسدس في الليل؟»

انتظر لحظة. صمت. لا بد أن الراهب سمعه عبر الباب، لأننا استطعنا سماع نفسه الثقيل. استشاط زوربا غضبا فسأل ثانية: «ماذا كانت طلقة المسدس تلك؟»

سمعنا خطوات تبتعد بسرعة. فوصل زوربا إلى الباب بقفزة واحدة وفتحه:

«أيها الأنذال القذرون! أيها الأوغاد البذيئون» صاح باصقا باتجاه الراهب المنسحب. «كهنة، راهبات، رهبان، وكلاء كنائس، وحافظو حجرة المقدسات، كلّكم لا تساوون أكثر من هذا!» وبصق ثانية.

قلت: «لنذهب! ثمّتَ رائحة دماء مسفوكة في الجوّ».

قال زوربا: «لو أنه دم فقط! اذهب إلى صلاة الفجر أيها الرئيس، إذا كنت ترغب في ذلك. سأستطلع الأمر لعلّي أعرف ما الذي حدث».

قلتُ ثانية مصابا بالغثيان: «لنذهب! وأرجو أن تدع الأمر ولا تحشر أنفك في ما لا يعنيك.»

قال زوربا: «بل أنا مصرّ على دسّه هنا بالذات».

فكّر للحظة، ثم ابتسم بمكر وقال:

«إنّ الشيطان يقدّم لنا معروفا. أعتقد أنه سيسوّي الأمور. أتعرف أيها الرئيس، كم يمكن أن تكلّف الديرَ طلقةُ مسدّس كهذه؟ سبعة آلاف كاملة!»

نزلنا إلى الفناء. عطر الأزهار، عذوبة الصباح، والطمأنينة

twitter @baghdad_library

السماوية. كان زكريا ينتظرنا. ركض وأمسك ذراع زوربا.

همس بصوت مرتجف: «أيّها الأخ كانافارو، هيّا، يجب أن نذهب!»

«ماذا كانت طلقة المسدّس تلك؟ لقد قتلوا أحدهم، أليس كذلك؟ هيّا، تحدّثْ وإلا سأخلع رقبتك!»

ارتعش ذقن الكاهن. نظر حوله. كان الفناء خاليا، والحجرات مغلقة؛ وجاءت أمواج الموسيقى من باب الكنيسة المفتوح.

تمتم: «اتبعاني. سدوم وعمورة!»

منثالين على امتداد الجدران، قطعنا الفناء كلّه، وخرجنا من الحديقة. على بعد ما يعادل مائة ياردة من الدير كانت هناك مقبرة.

دخلنا. ومشينا فوق القبور، دفع زكريا باب الكنيسة الصغير فتبعناه. في المركز، على حصير من الأسل، مُدّدت جثّة مغطاة برداء راهب. وقد أضيئت شمعة عند رأسها وأخرى عند قدميها.

انحنيتُ كي أنظر إلى الجثة.

تمتمتُ مرتجفا: «الراهب الشاب! إنه راهب الأب ديميتريوس المبتدئ، ذو الشعر الأشقر!»

على باب المعبد، بجناحين منشورين وسيف مسلول، كان تمثال الملاك الرئيس ميكائيل يبرق وهو ينتعل خفّا أحمر.

وصاح الراهب: «أيها الملاك الرئيس ميكائيل أرسل نارا ولهيبا وأحرقهم جميعا! افعل شيئا، يا ميكائيل. غادرْ أيقونتك! ارفع سيفك واضربهم بقوة! ألم تسمع طلقة المسدّس تلك؟»

«من قتله؟ قل من كان؟ ديميتريوس؟ تحدّث، يا عثنون التيس العجوز!»

أفلت الراهب نفسه من قبضة زوربا ورمى بها إلى الأرض أمام الملاك الرئيس. بقي بلا حراك لبضع لحظات، الوجه مشدوه، العينان جاحظتان، الفم فاغر، هكذا ظلّ يراقب الأيقونة بتركيز.

فجأة قفز فرحا.

أعلن بصوت مصمّم: «سأحرقهم جميعا! لقد تحرك الملاك الرئيس، لقد رأيته، لقد أشار إليّ!»

اقتربَ من الأيقونة وقبّل بشفتيه الغليظتين سيف الملاك.

قال: «شكرا لله! لقد ارتحت».

أمسك زوربا الراهب ثانية.

قال: «تعال يا زكريا. الآن ستنفّذ ما أقوله لك».

ثم التفت إليّ.

«أعطني بعض النقود، أيها الرئيس، سأوقّع الأوراق بنفسي. إن كلّ الذين في الداخل ذئاب، وأنت حمل، سيفترسونك. اترك الأمر لي. لا تقلق، تلك الخنازير السمينة رهن إشارتي. سنغادر هذا المكان في منتصف النهار والغابة في جيبنا. هيا، يا زكريا!».

انطلقا باحتراس نحو الدير. وذهبتُ كي أتنزّه تحت أشجار الصنوبر.

كانت الشمس قد صعدت درج السماء وقطرات الندى تتلألأ على الأوراق. طار شحرور أمامي إلى غصن شجرة إجّاص برّية، نفض جناحيه، وفتح منقاره، نظرَ إليَّ وصفّر بسخرية مرّتين أو ثلاثا.

استطعتُ أن أرى عبر أشجار الصنوبر الرهبان يخرجون من الفناء في صفّ طويل، مطأطئين والأوشحة السوداء تتدلّى على أكتافهم. كان القدّاس قد تمّ؛ وهم الآن في طريقهم إلى حجرة الطعام.

وفكّرت: «مؤسف أن يكون هذا التقشّف وهذه النبالة دون روح».

سرعان ما شعرتُ بالتعب، من قلّة النوم، فتمدّدتُ على الأعشاب. عبق المكان بعطر أزهار البنفسج البريّة والرتَم والقصعين وإكليل الجبل. طنّتْ الحشرات على نحو متواصل ولشدّة جوعها انقضّتْ على الأزهار كالقراصنة وانبرت تمتصّ الرحيق. وفي المدى تألّقتْ الجبال شفّافة وهادئة كضَباب متنقّل في ضوء الشمس اللاّهب.

أغمضتُ عينيّ كي أريح نفسي. استحوذتْ عليَّ متعة هادئة غامضة

twitter @baghdad_library

كما لو أن تلك المعجزة الخضراء من حولي هي الفردوس نفسه، أو كما لو أنّ هذا الابتهاج وهذه الخفة والمتعة الرصينة التي كنت أشعر بها، هي كلها الله. إن الله يغيّر مظهره كلّ لحظة. مباركٌ هو الشخص الذي يستطيع أن يتعرّف إليه في أقنعته كلّها. في لحظة هو كأس ماء عذب، وفي اللحظة التالية ولدك الذي يقفز على ركبتيك، وفي أخرى، امرأة ساحرة، أو حتّى مجرّد نزهة صباحية.

بتأنّ وهدوء، صار كلّ ما حوليَ حلما دون أن يغيّر مظهره. كنتُ سعيدا. وكانت الأرض والفردوس متماهيين. بدتْ لي الحياة زهرة في الحقول، في قلبها قطرة كبيرة من العسل، وروحي نحلة برية تنهبها.

وقع أقدام وهمس هاجماني من الخلف وأخرجاني ممّا أنا فيه من وله. في اللحظة نفسها تصاعد صوتٌ سعيد:

«لقد قضي الأمر أيها الرئيس!»

وقف زوربا أمامي وتألّقتْ عيناه الصغيرتان بنور شيطاني.

قلتُ بارتياح: «قضي الأمر؟ هل تمّ كلّ شيء؟»

«كل شيء!» قال زوربا مربّتا على جيب سترته الأعلى. » الغابة صارت هنا. آمل أن تجلب لنا الحظ! وهنا أيضا السبعة آلاف التي سلبتها منا لولا».

أخرج لفافة أوراق نقدية من جيبه الداخلي.

قال: «خذها! أنا أردّ ديوني؛ لن أشعر بالعار إذا نظرتُ في عينيك بعد الآن. الجراب والحقائب والعطر ومظلّة السيدة هورتانز كلّها مضمّنة في هذا. حتى الفول السوداني للببغاء! والحلوى التي أحضرتها لك، أيضا!»

قلتُ: «احتفظ بالمال لنفسك يا زوربا. إنّه هدية منّي. اذهب وأشعلْ شمعة للعذراء التي أخطأت في حقها».

التفت زوربا، فرأى الأب زكريا في عباءته القذرة التي ما فتئ لونها يخضرّ، مقبلا علينا بحذائه البالي، جارّا وراءه بغلينا.

لوّح زوربا بالأوراق المالية.

قال: «سنتقاسمها أيها الأب جوزيف. تستطيع أن تشتري مائتي رطل من السمك المملّح وتحشو نفسك به إلى أن ينفجر بطنك. إلى أن تتقيأه وتتخلص منه إلى الأبد! هيّا، مدّ كفّيك!»

أخذ الراهب الأوراق النقدية وخبأها في صدره.

قال: «سأشتري بعض البارافين!»

خفض زوربا صوته وهمس في أذن الراهب العجوز.

«في الظلام حين يكون الجميع نياما؛ العجائز الكريهون الملتحون، وحين تكون الرّيح في أوجها، رشّ الجدران من الجوانب كلّها. وعليك فقط أن تبلّل بعض الخرق أو نفايات القطن، أو أي شيء بالنفط، ثم تشعله. أفهمت؟»

كان الراهب يرتجف.

«لا ترتجف هكذا! لقد أمرك الملاك الرئيس أن تفعلها، أليس كذلك؟ ثق بالبارافين ونعمة الله! حظا سعيدا!»

ركبنا البغلين، وألقيتُ نظرة أخيرة على الدير.

سألت: «هل علمت أي شيء يا زوربا؟»

«عن طلقة المسدس؟ لا تزعج نفسك بالأمر، أيها الرئيس؛ إن العجوز زكريا على صواب: سدوم وعمورة! لقد قتل ديميتريوس الراهب الظريف الصغير. هذا ما حدث».

«ديميتريوس؟ لماذا؟»

«لا تحاول أن تكتشف، أيها الرئيس، إنّها قذارة!»

قالها والتفت نحو الدير. كان الرهبان يخرجون من حجرة الطعام، مطأطئين، وقد شبكوا أيديهم، وهم يتقدّمون إلى حجراتهم ليسجنوا أنفسهم فيها.

صاح: «امنحوني لعناتكم أيها الآباء المقدّسون!»

twitter @baghdad_library

-19-

كانت بوبولينا هي أوّل من التقيناه على شاطئنا لحظة كنّا نترجّل عن بغلتينا، في تلك الليلة. وجدناها رابضة أمام الكوخ. وحين أشعلنا المصباح ورأيتُ وجهها أصبتُ بالذعر.

«ما المشكلة يا سيدة هورتانز؟ هل أنت مريضة؟»

من اللحظة التي ومض فيها الأمل العظيم -الزواج- في ذهنها، فقدتْ عروس بحرنا العجوز مفاتنها المخادعة العصيّة على الحصر. حاولت أن تمسح الماضي وتطرح عنها الريشات المبهرجة التي زيّنتْ بها نفسها، غنائمها من باشواتها وبكواتها وأميرالاتها. لم يعد لديها توق أبسط من أن تصبح امرأة عادية، فاضلة، جدّية ومحترمة. لذا فقد كفّت عن التبرّج والتزّين وأظهرتْ نفسها على حقيقتها: كائن مسكين يريد الزّواج.

لم يفتح زوربا فمه. واصل فتل شاربه المصبوغ حديثا بعصبية. انحنى، أشعل الموقد ووضع بعض الماء ليعدّ القهوة.

«أنت قاس!» قالتْ مغنّية الحان العجوز فجأة بصوت أجشّ.

رفع زوربا رأسه ونظر إليها. هدأت عيناه. لا يستطيع أبدا أن يستمع إلى امرأة تقول له أي شيء بصوت متألّم دون أن يُجتاح بشكل كامل. إنّ دمعة واحدة من امرأة يمكن أن تغرقه.

لم يقل أي شيء، وضع القهوة والسكر في إناء، وحرّكهما.

قالت العجوز المتصابية: «لماذا تجعلني أذوي طويلا قبل أن تتزوّجني. لا أجرؤ على إظهار نفسي في القرية بعد الآن. لقد لحقَ بيَ العار! لحق بي العار! سأنتحر».

twitter @baghdad_library

كنتُ أستريح على السرير، مسندا مرفقي إلى المخدّة، مستمتعا بهذا المشهد الكوميديّ الرائع.

«لماذا لم تُحضر أكاليل الزواج؟»

شعر زوربا بيد بوبولينا الريّانة الصغيرة ترتجفُ على ركبته. كانت تلك الركبة الضفّة الأخيرة من الأرض الصّلبة التي تستطيع أن تتعلق بها هذه المخلوقة المسكينة الناجية من الغرق مرّات ومرّات.

بدا وكأنّ زوربا فهم هذا ولان قلبه. صبّ القهوة في ثلاثة أكواب، وأصغى إليها وهي تكرّر سؤالها في صوت مرتعش:

«لماذا لم تُحضر أكاليل الزواج يا عزيزي؟»

ردّ زوربا باقتضاب: «ليس لديهم أكاليل جميلة في كاندي».

أدار علينا فنجاين القهوة وجلس في زاوية.

تابع كلامه: «لقد كتبتُ إلى أثينا كي يرسلوا أجملها. طلبتُ بعض الشموع البيضاء أيضا، والملبّس بطعم الشوكولا محشوّا باللّوز».

شطح خياله فيما كان يتحدث. تألّقتْ عيناه، وكأنه شاعر في لحظة الانخطاف المشتعلة. حلّق زوربا إلى الذروات حيث يلتبس الخيال بالحقيقة ويتشابهان مثل توأمين. كان جالسا، يشرب قهوته مسترخيا. أشعل سيجارة ثانية؛ بدا له يومه مميّزا. فالغابة الآن في جيبه ولا ديون بعد اليوم، غمرته السعادة ، فأطلق العنان لنفسه قائلا:

«إن زواجنا يا حبيبتي بوبولينا يجب أن يحدث ضجة. انتظري حتى تشاهدي ثوب الزفاف الذي طلبتهُ لك. لهذا مكثتُ طويلا في كانديا، يا حبيبتي. أرسلتُ في طلب اثنين من مصمّمي الأزياء في أثينا وقلت لهما: انظرا! إن المرأة التي سأتزوّجها لا مثيل لها، لا شرقية ولا غربية! كانت الملكة الشرعية على القوى العظمى الأربع؛ والآن هي أرملة، فالقوى الأربع ماتت، لذلك قبلت بأن تتزوّجني. ولهذا أيضا أريد أن لا يكون لثوب زفافها نظير: يجب أن يكون كله من الحرير واللآلئ والنجوم الذهبية! احتجّ

المصمّمان وقالا: لكن هذا سيكون مبهرا حقّا. ستبيضّ عيون الضيوف من روعته! فقلت: لا تهتمّا بالأمر! ليكن ما يكون طالما أن حبيبتي راضية!»

أصغتْ له السيدة هورتانز، متّكئة على الحائط، ابتسامة عريضة ملحّة انتشرت عبر وجهها المترهّل والمتجعّد، حتّى كادت الشريطة الحمراء حول عنقها تنفصم.

قالت لزوربا وهي تنظر إليه نظرة عشق: «أريد أن أهمس في أذنك».

غمزني زوربا ومال إلى الأمام.

«لقد أحضرتُ لك شيئا ما، الليلة» همستْ زوجته المستقبليّة ولسانها الصغير يكاد يلج أذنه الكبيرة ذات الشعر الكثيف.

أخرجتْ من صدرها منديلا معقودا من إحدى زواياه، وقدّمته لزوربا.

أمسك المنديل الصغير بين أصابعه ووضعه على ركبته اليمنى، ثم استدار إلى الباب ونظر إلى الخارج نحو البحر.

سألته: «ألن تحلّ العقدة يا زوربا؟ لا تبدو مستعجلا!»

أجاب: «دعيني أشرب قهوتي وأدخن سيجارتي أوّلا. ليس عليّ أن أفكّها، أعرف ماذا يوجد في الداخل».

توسّلتْ إليه العاشقة العجوز: «فكّها، فكّها!»

«سأنهي سيجارتي أوّلا كما قلتُ لك!»

ثم نظر إليّ نظرة اتّهام كما لو أنه يقول: «هذا خطؤُك!»

دخّن ببطء، مخرجا الدخان من منخريه وهو ينظر إلى البحر.

قال: «ستهبّ الريح الشّرقية المحمّلة بالغبار غدا. لقد تغيّر الطقس. ستنتفخ الأشجار ونهود الفتيات أيضا، ستنفجر خارجة من حمّالاتها! آه إن الرّبيع نذل! أقسم أنّ الشيطان هو من اخترعه!»

توقّف عن الكلام. وبعد بضع لحظات أضاف:

«هل لاحظتَ أيها الرئيس، إن كلّ ما هو جيّد في هذا العالم هو من ابتكار الشيطان؟ النساء الجميلات، الربيع، الخنزير الصغير المشوي،

twitter @baghdad_library

النبيذ؛ كلّهم صنعهم الشيطان! أما الله فقد خلق الرّهبان والصيام والبابونج والنساء الدميمات...»

حين قال هذا نظر نظرة قاسية إلى المسكينة هورتانز التي كانت ملتفّة في زاوية، وتصغي إليه.

كانت تتوسّل كلّ ثانية: «زوربا! زوربا!»

لكنه أشعل سيجارة أخرى وبدأ يتأمّل البحر من جديد.

قال: «في الربيع يبسط الشيطان سلطانه المطلق. تُفكّ الأحزمة، وأزرار البنطلونات، وتتنهّد العجائز... أنزلي يديك يا بوبولينا!»

«زوربا! زوربا!» توسّلت العجوز المسكينة. انحنتْ كي تلتقط المنديل ثمّ رمته في يده.

رمى سيجارته، أمسك العقدة وفكّها. أمسكها بيد مفتوحة ونظر.

سأل بقرف: «ما هذا يا بوبولينا؟»

تمتمت عروس البحر العجوز وهي ترتجف بأكملها: «خاتمان، خاتمان صغيران، يا كنزي. خاتما زفاف. لدينا شاهد هنا، ليباركه الله، والليل جميل، إنه طقس الريح الشرقية، والله الطيّب يراقبنا، لنعلن خطبتنا يا زوربا!»

نظرَ إلىَّ زوربا، ثم نظر إلى السيدة هورتانز، ثم إلى الخاتمين. كان حشدٌ من العفاريت يتقاتل في داخله في اللحظة ذاتها دون أن تحسم المعركة. نظرتْ إليه المرأة البائسة مرعوبة.

ناحتْ: «زوربا! حبيبي!».

كنتُ جالسا في سريري، أراقبُ.. من كلّ المسارات المفتوحة أمامه، أيّ مسار سيختار زوربا ؟

فجأة هزّ رأسه. لقد اتّخذ قراره. توضّح وجهه، صفّق بيديه وقفز.

صاح: «لنخرجْ ونمش تحت النجوم حتى يرانا الله! احملْ الخاتمين أيها الرئيس؛ هل تستطيع الترتيل؟»

أجبتُ، مستمتعا: «كلاّ. ولكن هذا لا يهمّ!» كنت قد قفزتُ مسبقا من السرير ورحت أساعد السيدة الطّيبة كي تنهض.

بينما قال زوربا: «حسنا، أنا أستطيع. نسيتُ أن أخبرك أنني كنت مرة فتى جوقة؛ أتبع الكاهن في حفلات الزفاف والتعميد والجنازات وما شابهها؛ حفظتُ أغاني الكنيسة كلّها عن ظهر قلب. تعالي يا حبيبتي بوبولينا، تعالي، ارفعي شراعك، يا سفينتي الفرنسية الجميلة، وتقدّمي إلى يميني!»

من بين شياطين زوربا كلّها ربح المهرّج ذو القلب الطيّب. شعر زوربا بالأسف على بوبولينا العجوز، تمزّق قلبه حين رأى عينيها الذاويتين مثبّتتان عليه بلهفة.

تمتم حين اتّخذ قراره: «ليأخذني الشيطان. ما زال يمكنني تقديم بعض المتعة للجنس الأنثوي! هيّا!»

اندفع خارجا إلى الشاطئ، أمسك ذراع السيدة هورتانز، أعطاني الخاتمين، استدار إلى البحر وبدأ يرتّل:

«ليُبارك إلهنا في الدنيا إلى الأبد، آمين!»

استدار إلي وقال:

«قم بدورك يا رئيس!»

قلتُ: «لا يوجد من يدعى بالرئيس الليلة».

« ابق هادئا إذن. حين أصيح: برافو! تلبسنا الخاتمين».

بدأ الغناء ثانية بصوت شبيه بنهيق حمار:

«لعبد الله أليكسيس، ولأمَة الله هورتانز، المخطوبين أحدهما للآخر، نلتمس منك الخلاص، أيها الرَّب».

«المجد لك! المجد لك!» تهدّجتُ مسيطرا بصعوبة على الضحك والدموع.

قال زوربا: «ثمّتَ مزيد من التراتيل لتُقال، اللعنة عليّ إن كنتُ أذكرها

twitter @baghdad_library

كلّها! على أي حال لننه هذا الجزء المدغدغ للمشاعر!»

قفز في الجوّ مثل سمكة شبّوط وصاح:

«برافو! برافو!» ومدّ يده الكبيرة نحوي.

مُدّتْ نحوي اليد السمينة، المتجعّدة من الغسيل والأعمال المنزلية، وهي ترتجف.

ألبستهما الخاتمين، بينما كان زوربا يصرخ كالدراويش، وقد خرج عن طوره:

«إن عبد الله أليكسيس خُطب إلى أمَة الله هورتانز، باسم الأب والابن والروح القدس، آمين! أمَةُ الله، هورتانزَ خُطبتْ لعبد الله، أليكسيس!»

«جيد. الآن، أنجز الأمر حتى العام القادم! تعالي إلى هنا يا حلوتي، دعيني أعطيك القبلة الأولى المحترمة والشرعية التي ستحصلين عليها!»

لكنّ السيدة هورتانز انهارتْ على الأرض؛ كانتْ تُمسك ساقي زوربا وتبكي. هزّ زوربا رأسه متعاطفا.

«كم هنّ مستضعفات!» تمتم.

وقفتْ السيدة هورتانز، هزّتْ تنورتها وفتحتْ ذراعيها.

«والآن؟!» صاح زوربا. «اليوم ثُلاثاء المرافع، أبعدي يديك! إنه الصّوم الكبير!»

«صبرا يا عزيزتي. انتظري إلى عيد الفصح؛ سنأكل عندئذ بعض اللحوم ونكسر البيض الأحمر سوية. والآن حان وقت العودة إلى المنزل. ما الذي سيقوله الناس إذا رأوك تتسكعين هنا في هذا الوقت من الليل؟»

كانتْ نظرة بوبولينا مستعطفة.

قال زوربا: «كلا! كلا! إنه الصوم الكبير. ليس قبل عيد الفصح! تعالي معنا!»

مال ووشوش في أذني:

«لا تتركنا وحدنا، بحق الله! لستُ في المزاج الملائم!»

سلكنا الطريق إلى القرية. كانت السماء متألقة، ورائحة البحر تغمر المكان، فيما طيور الليل تنعق من حولنا مستهجنة. تخبّطتْ المرأة العجوز في سيرها. كانت تمسك بذراع زوربا خائبة الأمل ولكنها كانت سعيدة.

دخلت أخيرا الميناء الذي كانت تتوق إليه. غنّتْ طيلة حياتها ورقصتْ، حصلت على المتعة، وسخرت من النساء الرصينات... ولكنّ قلبها كان منكسرا. حين كانت تعبر الطرقات معطّرة، مثقلة بالمساحيق، مرتدية ثيابا صاخبة وصارخة، في شوارع الإسكندرية وبيروت والقسطنطينيّة، وهي تشاهد النساء يُرضعن أطفالهنّ، كان ثدياها يخزانها وينتفخان، وحلمتاها تنتصبان طالبتين فمَ طفل كذلك. «تزوّجي، تزوّجي، أنجبي طفلا...» كان هذا حلمها طوال حياتها. ولكنها لم تكشف أبدا هذا التوق المؤلم لأيّ كائن. والآن، -والشكر لله- ها هي تدخل المرفأ الذي تاقت إليه، في وقت متأخر قليلا ولكنّ ذلك أفضل من فوات الأوان إلى الأبد، رغم تيّار الموج المعاكس لها.

كانت بين فينة وأخرى ترفع عينيها وتسترق نظرة إلى ذلك الشخص الضخم الذي كان يسير حذوها. وكانت تفكر: «إنه ليس باشا غنيا بطربوش وشرابة ذهبية، وليس الابن الأنيق لبيك، ولكن، شكرا لله، إنه أفضل من لاشيء! سيكون زوجي! زوجي إلى الأبد، شكرا لله!»

شعر زوربا بثقلها على يده فجرّها بلهفة للوصول إلى القرية كي يتخلص منها. واصلتْ المسكينة السير فوق الأحجار متعثّرة؛ وقد كادت أظفار أصابع قدميها تُنتزع انتزاعا، كانت مسامير قدميها تؤلمها، ولكنها لم تتفوّه بكلمة. لماذا تتحدث؟ أو تشكو؟ كان كلّ شيء رائعًا، والحمد لله!

عبرنا تينة الآنسة ثمّ حديقة الأرملة، وحين ظهرتْ منازل القرية الأولى توقّفنا.

قالتْ العاشقة العجوز بولع، وهي تقف على أصابع قدميها كي تصل إلى شفتي خطيبها: «عمت مساء يا كنزي».

twitter @baghdad_library

لكن زوربا لم ينحن.

فأضافت موضّحة: «مستعدة للركوع على الأرض كي أقبّل قدميك يا حبّي!»

«كلا! كلا!» قال زوربا محتجًا وطوّقها بذراعيه متأثرًا.

«أنا من يجب عليه أن يُقبّل قدميك، يا حبّي! ذلك ما ينبغي... ولكنني متعب الآن. عمت مساء».

تركناها وقفلنا راجعين ونحن نتنشّق الهواء المعطّر. وفجأة استدار إليَّ زوربا وقال:

«ما الذي ينبغي أن نفعله أيها الرئيس؟ نضحك؟ أم نبكي؟ انصحني».

لم أجبه. كانت حنجرتي متشنّجة، أيضًا، ولم أستطع أن أعرف لماذا: أكان هذا من الضحك أم من البكاء؟

قال زوربا فجأة: «من ذلك الإله الوغد الذي لم يدع لامرأة واحدة مجالاً للشكوى؟ لقد سمعتُ عنه شيئًا ما، أعرف. يبدو أنه اعتاد صبغ لحيته، أيضًا، وكان يشمُ ذراعيه بالقلوب والسهام وعرائس البحر، كان يتقن التنكّر كما يقولون، فمرة يصبح ثورًا ومرة إوزّة، تارة كبشًا، وتارة بعد أن ينقذ احترامه، حمارًا؛ وفي الحقيقة كان يلبّي ما تريده العاهرات. ماذا كان اسمه؟»

«لا بدّ أنك تتحدث عن زيوس. ما الذي جعلك تفكّر به؟»

قال زوربا، رافعًا يديه إلى السماء: «ليحفظ الله روحه! لقد مرّ ببعض الأوقات الصعبة! ما الذي كان بإمكانه فعله! إنّه لَشهيدٌ عظيم، صدّقني أيها الرئيس! أنت تبلع كلّ شيء تقوله كتبك، ولكن لو تفكّر فقط للحظة في الأشخاص الذين يؤلفون الكتب! من يشبهون؟ بف! الكثير من أساتذة المدرسة. ما الذي يعرفه هؤلاء عن النساء، أو عن الرجال الذين يركضون وراء النساء؟ طبعا لاشيء!»

«لماذا لا تؤلف كتابًا، يا زوربا؟ وتشرح لنا ألغاز العالم كلّها»، قلتُ ساخرًا.

«لمَ لا؟ ولكنّني لا أقوم بذلك لسبب بسيط هو أنني أعيش تلك الألغاز كلّها، كما تسمّيها، ولا أملك الوقت كي أكتب. أحيانًا الحرب، وأحيانًا المرأة، تارة الخمرة وطورًا السنتور: أين سأعثر على الوقت كي أقودَ قلمًا بائسًا؟ هكذا يقع العمل في أيدي المؤلفين! كل أولئك الذين يعيشون بالفعل ألغاز الحياة لا يملكون وقتًا للكتابة، وكل أولئك الذين يملكون الوقت لا يعيشونها! أترى؟».

«لنعد إلى موضوعنا! ماذا عن زيوس؟»

تنهّد زوربا: «آه الشاب المسكين! أنا الوحيد الذي يعرف ما عاناه. كان يحبّ النساء، بالطبع، ولكن ليس بالطريقة التي تفكرون بها أنتم المؤلفين! كلاّ مطلقًا! كان يأسف عليهن! كان يفهم كل ما يعانين منه وضحّى بنفسه من أجلهنّ! حين يشاهد في بلاد منسية من الله خادمة عجوزًا تتآكل من الرغبة والندم، أو زوجة جميلة شابة، أو حتى إذا لم تكن جميلة مطلقًا، حتى لو كانت وحشًا، زوجها غير موجود ولا تستطيع النوم، كان يرسم علامة الصليب، هذا الشخص الطيب، ويغيّر ملابسه، ويتخذ أي شكل تتصوره المرأة في ذهنها ويذهب إلى غرفتها.

لم يتضايقْ أبدًا من النساء اللائي يردن فقط الملاطفة. كلا! فهو ذاته قد يكون أحيانًا متهرّبًا: تستطيع أن تفهم هذا. كيف يمكن لأي شخص أن يشبع تلك العنزات؟ آه! يا زيوس! أيّها التيس العجوز المسكين. أكثر من مرة يكون عاجزا، ولا يشعر بأنه على ما يرام. ألم تر أبدًا تيسًا بعد أن عاشر عدة عنزات؟ يسيل لعابه، تصبح عيناه ضبابيتين ودامعتين، يسعل قليلاً ولا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه. لا بد أن المسكين زيوس قد مر بمثل هذه الحالة في كثير من الأحيان.

وفي الفجر يأتي إلى المنزل قائلاً: آه! يا إلهي! متى سأكون قادرًا على أن أرتاح ليلة واحدة؟ لعابي يسيل! ويتابع مسح اللعاب عن فمه.

ولكنه يسمع فجأة تنهيدة: هناك في الأسفل على الأرض امرأة خلعتْ

twitter @baghdad_library

ثياب نومها وخرجتْ إلى الشرفة، عارية تقريبًا، وكانت تنهداتها كافية لتدوير طاحونة. وهنا يشعر زيوس العجوز بالأسى. آه! إلى الجحيم! عليّ أن أنزل ثانية. هكذا يدمدم. ثمّتَ امرأة تئنّ وتندب حظها. عليّ أن أنزل كي أواسيها!

وقد تواصل الأمر هكذا إلى درجة أن النساء استنفدنه كليًّا. فلم يعد يستطيع تحريك ظهره، بدأ يتقيّأ، شُلّ وتُوفّي. وحين وصل وريثه، المسيح ورأى الحالة البائسة للعجوز صاح: احترسوا من النساء!»

أعجبتُ بجدّة ذهن زوربا وانتشيتُ من الضحك.

«تستطيع أن تضحك أيها الرئيس! ولكن إذا جعل الله-الشيطان مغامرتنا الصغيرة هنا تنجح -وإن بدا ذلك مستحيلا بالنسبة إليّ- أتعرف أي نوع من الحوانيت سأفتح؟ مكتبًا للتزويج. نعم... هذا صحيح. وكالة زيوس للزواج! عندها تستطيع النساء اللواتي لم يحالفهن الحظ في الزواج اغتنام فرصة للحصول على زوج: الخادمات العجائز، النساء البسيطات، المصابات بالصّدف، المصابات بالحَوَل، الحدباوات والعرجاوات، وسأستقبلهنّ جميعًا في حجرة صغيرة مكتظة الجدران بصور أشخاص شبان رائعين، وسأقول لهنّ: انتقين أيتها السيدات الشاب الذي تردنه، وسأجعله زوجًا لكُنّ. ثم سأعثر على أي شخص يشبه الصورة قليلاً، وأجعله يلبس مثل من في الصورة، أعطيه بعض النقود وأدلّه على عنوان السيدة المحددة وأطلب منه أن يمارس معها الجنس بعنف. سأقول له لا تقرف، سأدفع لك. نم معها. أخبرها كل الأشياء الظريفة التي يقولها رجل لامرأة؛ فهي لم تسمع أبدًا أيًا منها، المسكينة. أقسمْ أنك ستتزوّجها. امنح المسكينة بعض المتعة، نوع المتعة الذي تحصل عليه المعزاة، وحتى السلاحف، وأمّ أربع وأربعين.

وإذا كانت هناك معزاة عجوز على خطّ عجوزنا بوبولينا -ليباركها الله!- ولن يوافق أحد على مواساتها، مهما دفعتُ له... فسأقوم برسم

إشارة الصليب، أنا مدير مكتب التزويج، وأفعل الأمر شخصيًا! ثمّ ستسمع كلّ الحمقى العجائز في الحارة يقولون: انظروا إلى هذا! يا له من خليع فاجر! أليس له عينان كي يرى وأنف كي يشمّ.

«نعم أيها الحمير، لي عينان! نعم يا قطيع الثرثارين، لدي أنف! ولكن لدي قلب أيضًا، وأنا أشعر بالأسى عليها! ولا نفع إن كانت لكم كلّ أعين العالم وأنوفه. فحين يحين الوقت، لا تنفع مثقال ذرة!

ثم، حين أكون عاجزًا بشكل كامل بسبب الانغماس في شهوات الشباب، وأتعطّل نهائيًا، فإنّ القديس بطرس الحمّال سيفتح لي باب الفردوس ويقول لي ادخلْ يا زوربا المسكين. ادخل يا زوربا الشهيد! استلق قرب رفيقك «زيوس»! تعال واسترحْ أيها العجوز، لقد قمت بعملك على الأرض! فلتحلّ بركتي عليك!»

واصل زوربا كلامه. نصبَ له خياله مصائد فسقط فيها بلا تردّد. بدأ يصدّق قصصه. وفيما كنا نمرّ قرب تينة سيدتنا الشابة، تنهّد. ثم مدّ ذراعيه كما لو أنه يقسم قسمًا وقال:

«لا تغتاظي يا بوبولينا، يا من أسيئت معاملتها، يا مركبي الهرم المعذّب. لا تغتاظي. لن أتركك دون عزاء! صحيح أن القوى العظمى الأربع قد تخلّت عنك وهجرك الشبان والإله الطيّب نفسه، أمّا أنا زوربا، فلن أتخلى عنك!»

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل حين عدنا إلى الشاطئ، وكانت الريح تهبّ. من هنالك، من إفريقيا، جاءت النوتس، الريح الجنوبية الدافئة التي تنفخ الأشجار والكرمة وأثداء كريت. انتعشتْ الجزيرة كلّها، وهي تستلقي قرب الماء، تحت النفَسِ الدافئ لهذه الريح التي تجعل النسغ يبدأ بالصعود. زيوس، زوربا، والريح الجنوبية اختلطوا سويًا، وفي الليل رأيت بشكل واضح وجهًا ذكريًا كبيرًا، بلحية سوداء وشعر مزيّت، ينحني ويضغط على شفتين حمراوين حارتين للسيدة هورتانز، الأرض.

twitter @baghdad_library

-20-

حالما وصلنا، أخذنا أماكننا للنوم. حكّ زوربا يديه راضيًا.

«كان هذا يومًا جيّدًا، أيها الرئيس. أفترض أن تسألني ما الذي أعنيه بكلمة «جيّد»؟ أعني ممتلئًا. فكِّرْ فحسب: كنّا هذا الصباح على بعد أميال في الدير وخدعنا رئيسه. لا بدّ أنه لعننا! بعد ذلك جئنا إلى هذا الكوخ، وجدنا السيدة بوبولينا وخطبْتُها. بالمناسبة، انظرْ إلى الخاتم. إنه ذهبيّ... قالت إنّه ما يزال لديها جنيهان ذهبيان أعطاهما لها الأميرال الإنكليزي في نهاية القرن الماضي. احتفظتْ بهما كما قالت من أجل جنازتها؛ والآن -ليحالفها الحظ- ذهبت إلى الصائغ كي تصنع منهما خاتمين. أي سرّ ملعون هي البشرية!»

قلتُ: «اذهب إلى النوم يا زوربا! اهدأ! هذا يكفي ليوم واحد. لدينا طقس مقدس نؤديه غدًا: سنغرس أوّل وتد من الأوتاد التي يتطلّبها المصعد. ولقد طلبتُ من بابا ستيفانوس أن يأتي».

«قمتَ بعمل جيّد، أيها الرئيس؛ هذه ليست فكرة سيئة. ليأتِ ذلك الكاهن بلحيته الأشبه بلحية التيس، وليأتِ جميع وجهاء القرية أيضًا؛ سنقدم شموعًا صغيرة ويستطيعون إشعالها. هذا النوع من الأشياء يحدثُ انطباعاً طيّبا؛ وسيكون جيدًا لعملنا. لا تهتم بما أفعله؛ لديّ إلهي الخاص وشيطاني الخاص. ولكنّ أشخاصًا آخرين...»

بدأ يضحك. لم يقدر على النوم؛ كان دماغه مضطربًا.

«آه يا جدّي،ليطهّرَ الله عظامك!» قال بعد وهلة. «كان فاسقًا أيضًا؛ مثلي تمامًا. ومع ذلك ذهب ذلك النذل العجوز إلى الضريح المقدّس وصار حاجًّا، لا أحد سوى الله يعرف لماذا! حين عاد إلى القرية قال

twitter @baghdad_library

أحد أصدقائه الحميمين وقد كان لصّ ماعز، لم يقم بأي عمل جيد في حياته: «حسنًا يا صديقي، ألم تحضر لي معك قطعة من صليب الضريح المقدّس؟ فأجابه جدّي العجوز الماكر: «ماذا تعني، كيف لم أحضر لك معي أيّا منه؟ أتعتقد أنني نسيتك؟ تعال إلى منزلي الليلة وأحضر الكاهن معك كي يقدم بركاته وسأسلّمه لك. أحضر خنزيرًا فتيّاً مشويّاً وبعض النبيذ أيضًا، كي يجلبا لنا الحظ!»

عاد جدي في ذلك المساء إلى المنزل وقطع من عضادة الباب الذي ينخره الدود قطعة صغيرة من الخشب، ليست أكبر من حبّة أرز؛ غلّفها ببعض موادّ الحشو، ووضع عليها نقطة أو نقطتين من الزيت وانتظر. بعد مدة جاء الشخص المعني مع الكاهن، جاء بالخنزير المشوي والنبيذ. أخرج الكاهن مرشّته وبارك. أدّى جدّي طقس تسليم قطعة الخشب الثمينة، ثم بدؤوا بالتهام الخنزير المشويّ. صدّقني أيها الرئيس، لقد انحنى الشخص وسجد أمام قطعة الخشب الصغيرة تلك، علّقها حول عنقه، ومنذ ذلك اليوم صار شخصًا آخر. تغيّر كليًا. صعد إلى الجبال، انضمّ إلى الأرماتوليين والكليفتيين، وساعد في حرق القرى التركية. ركض دون خوف بين رشقات الرصاص. لماذا يخاف؟ كان يحمل قطعة من صليب الضريح المقدس. فالرصاص لا يمكن أن يصيبه».

انفجر زوربا من الضحك.

قال: «إن الفكرة هي كلّ شيء. إذا كنت تملك إيمانًا فإنّ نشرة من باب قديم تصبح أثرًا مقدّسًا. وإذا لم يكن لديك إيمان فإن الصليب المقدّس كلّه يصبح عضادة باب قديمة بالنسبة إليك».

أُعجبتُ بهذا الرجل فدماغُه يعمل بثقة وجرأة كبيرتين و روحه، أينما لمستها، تشعل النار.

«هل سبق أن شاركتَ في الحرب، يا زوربا؟»

سأل عابسًا: «وكيف أعرف؟ لا أتذكر. أيّ حرب؟»

«أعني، هل سبق وقاتلت من أجل بلادك؟»

«ألا تستطيع التحدث عن شيء آخر؟ كل ذلك الهراء انتهى ونُسيَ».

«أتدعو ذلك هُراءً يا زوربا؟ ألا تشعر بالعار؟ أهكذا تتحدث عن بلادك؟»

رفعَ زوربا رأسه ونظرَ إليّ. كان مثلي مستلقيًا على سريره، وكان مصباح الزيت يشتعل فوق رأسي. نظر إليّ بحدّة بعضَ الوقت، ثم قال وهو يفتل شاربه بشدّة:

«هذا كلام غير ناضج؛ هذا ما أتوقّعه من أستاذ مدرسة. يمكن أن أغنّي لك أيضًا، أيها الرئيس، بف! أنت تستخفّ بكل ما أقول، إذا سمحتَ لي بقول هذا».

قلتُ محتجّاً: «ماذا؟ أنا أيضا أفهم الأمور يا زوربا، لا تنس ذلك».

«نعم، تفهم بدماغك. تقول: «هذا صحيح، وهذا خطأ...» ولكن إلى أين يقودنا هذا؟ فيما تتحدث أراقب ذراعيك وصدرك. حسنًا، ما الذي يفعلونه؟ إنهم صامتون. لا يتفوهون بكلمة. وكأنْ لا دفقَ فيهم لقطرة دم واحدة. حسنًا، ما الذي تظن؟ بماذا تفهم؟ برأسك؟ إيه؟»

«هيّا، أجبني، يا زوربا؛ لا تتجنّب السؤال!» قلتُ كي أثيره. «أنا متأكد تمامًا أنك لا تزعج نفسك كثيرا من أجل الوطن، أليس كذلك؟»

غضب وخبط بقبضته على جدار صفائح البنزين.

صاح: «إن الرجل الذي تراه أمامك طرّز مرة كنيسة القديسة صوفيا بشعرات من رأسه، وحملها معه معلقة على صدره كتعويذة. نعم أيها الرئيس، هذا ما فعلتهُ، ولقد طرزتها بهذين الكفّين الكبيرين وبهذه الشعرات التي كانت سوداء في ذلك الوقت كالكهرمان. كنتُ أتجوّل في جبال مقدونيا مع بافلوس ميلاس[1]. كنتُ آنذاك قويّ البنية، وأطول من هذا الكوخ، بكلتيّتي[2] وطربوشي الأحمر، والحليّ الفضية، وتعاويذي،

(1) ضابط يوناني كان مشهوراً.

(2) تنّورة ذات ثنيات طولية.

twitter @baghdad_library

ويطقانتي، وعلب ذخائري ومسدساتي. كنت مغطى بالفولاذ والفضة والأزرار. حين كنتُ أتقدم، كانت تحدث قعقعة وجلبة كما لو أن كتيبة تمرّ في الشارع! انظر هنا! وانظر هناك!»

فتح قميصه وأنزل بنطلونه.

أمرني: «أحضر المصباح!»

قرّبتُ المصباح من الجسد النحيل الأسمر. وبسبب الندوب العميقة وآثار الرصاص والرماح كان جسده مثل المصفاة.

«والآن انظرْ إلى الجانب الآخر!»

استدار وأراني ظهره.

«لا يوجد أي خدش في الظهر كما ترى. أتفهم؟ والآن أبعدْ المصباح».

صاح غاضبًا: «هراء! مقرف! متى سيكون الرجال رجالاً حقًّا برأيك؟ نرتدي البنطلونات والقمصان والياقات والقبعات ومع ذلك نظل بغالاً وثعالب وذئابًا وخنازير. نقول إنّ الله خلقنا على صورته! من، نحن؟ أبصق على وجوهنا البلهاء!»

بدا كأنّ ذكرياتٍ مُرعبةً جاءت إلى ذهنه زادتْ من غضبه. صدرتْ كلمات لا تُفهم من بين أسنانه المهتزّة المجوّفة.

نهض، التقط إبريق الماء، وكرع شربة طويلة فبدا أكثر صحوًا وهدوءًا.

قال: «أينما لمستني أصرخ. كلّي جراح وندوب ولطمات. ما الذي تعنيه بكل ذلك الكلام الفارغ عن النساء؟ حين اكتشفتُ أنني رجل حقًّا، لم ألتفت حتى للنظر إليهن. ألمسهنّ للحظة، هكذا، لدى العبور، كديك، ثم أتابع طريقي. كنتُ أقول بيني وبين نفسي: بنات مقرض القذِرات (قوارض). سيمتصصن قوّتي كلّها! لتذهب النساء إلى الجحيم!

ثم التقطتُ بندقيتي وانطلقتُ! ذهبتُ إلى الجبال وانضممت إلى المقاومة. في أحد الأيام، عند الغسق، وصلتُ إلى قرية بلغارية واختبأتُ في إصطبل. كان منزلَ كاهنٍ، وهو رجلُ عصابات بلغاريّ عنيف ولا

يرحم. في الليل ينزع رداءه، يرتدي ثيابًا من جلد الخروف، يلتقط بندقيته ويذهب إلى القرى اليونانية المجاورة. وقبل الفجر يعود وهو يقطر دمًا وطينًا، ويسرع إلى الكنيسة كي يؤدي القداس للمؤمنين. قبل بضعة أيام من هذا قتل أستاذَ مدرسة يونانيًا وهو نائم في سريره. وهكذا دخلتُ إلى إصطبل هذا الكاهن وانتظرتُ. حين خيّم الليل جاء الكاهن إلى الإصطبل كي يطعم حيواناته. رميت نفسي عليه وذبحته كخروف. قطعتُ أذنيه ووضعتهما في جيبي. كنت أقوم بجمع مجموعة من الآذان البلغارية؛ فأخذت أذني الكاهن وانطلقتُ.

بعد بضعة أيام، عدتُ إلى القرية مرة أخرى. كان الوقت منتصف النهار. وأنا في هيئة البائع المتجوّل. تركتُ أسلحتي في الجبال وجئتُ كي أشتري الخبز والملح والأبواط للآخرين. قابلت خمسة أطفال أمام أحد المنازل. وكانوا جميعًا يرتدون الأسود، حفاة الأقدام، أيديهم متشابكة وهم يتسوّلون. ثلاث فتيات وولدان. ولم يكن عمر أكبرهم أكثر من عشر سنوات، والأصغر ما يزال طفلاً رضيعًا. كانت الفتاة الأكبر تحمل الأصغر بين ذراعيها، وتقبّله وتداعبه كي لا يبكي. لا أعرف لماذا ذهبتُ إليهم، ربما كان هذا إلهامًا من الله.

سألتهم بالبلغارية: «أبناء من أنتم؟»

رفع أكبرهم رأسه.

«أبناء الكاهن. لقد ذُبح والدنا في الاصطبل في ذلك اليوم» أجابني.

دمعتْ عيناي وبدأت الأرض تدور كحجر الطاحون. اتكأت على الحائط فتوقفت عن الدوران.

طلبتُ منه أن يقترب مني وأخرجتُ محفظتي التي كانت مليئة بالجنيهات التركية والمجيديات وركعت وسكبتها كلّها على الأرض. وطلبتُ منهم أن يأخذوها.

ارتمى الأطفال على الأرض وجمعوا النقود.

twitter @baghdad_library

صحتُ: إنّها لكم، إنّها لكم فخذوها!
وتركتُ لهم سلّتي وكل ما اشتريته.
قلت: كلّ هذا لكم فخذوه.
ثم غادرت القرية، فتحتُ قميصي، أمسكت بالقديسة صوفيا التي طرّزته، ومزّقتها إلى أشلاء، رميتها بعيدًا وركضتُ قدر استطاعتي. وها أنذا ما أزال أركض...»
اتكأ زوربا على الحائط والتفت إليّ قائلاً:
«هكذا نجوْتُ».
«نجوْتَ من بلادك؟»
«نعم من بلادي» قال بصوت قويّ هادئ.
ثم بعد لحظة:
«أنجوْتُ من بلادي؟ من الكهنة؟ ومن النقود؟. بدأتُ أغربل الأمور، أغربل المزيد منها والمزيد. خفّفتُ عبئي بهذه الطريقة. و - كيف سأعبّر عن الأمر؟- باختصار عثرتُ على خلاصي، صرتُ رجلاً».
توهّجتْ عينا زوربا، وضحك فمه الكبير برضًى.
وبعد صمت دام لحظة أو لحظتين تابع ثانيةً. كان قلبه يفيض، فلم يستطع السيطرة عليه.
«مرّ الوقت الذي كنت أقول فيه: هذا تركيّ، وهذا بلغاريّ، وهذا يونانيّ. قمت بأمور لبلادي ستجعل شعر رأسك ينتصبُ أيها الرئيس. ذبحتُ أشخاصًا، أحرقتُ قرى، سرقتُ.. واغتصبتُ نساء، قضيتُ على أُسَر بأكملها. لماذا؟ لأنهم كانوا أتراكًا وبلغارًا. لتذهب إلى الجحيم أيّها الخنزير! أقول لنفسي أحيانًا. لتذهب إلى الجحيم مباشرة أيّها الحمار. ولكنّني اليوم أقول إنّ هذا الشخص جيّد وذلك الشخص قذر، أمّا أن يكون يونانيّا أو تركيًّا أو بلغاريًّا فلا معنى لذلك على الإطلاق. أهو شريف؟ أم سيّئ؟ هذا هو السؤال الوحيد الذي أطرحه هذه الأيام. وحتّى

هذا السؤال فأشعر الآن بعد أن تقدّمت في السن -وأقسم لك بآخر رقاقة آكلها - بأنني يجب ألاّ أواصل طرحه البتّة! فسواء أ كان الإنسان جيدًا أم سيئًا، فإنّني أشعر بالأسف عليه، بل عليهم كلّهم. إنّ حال الإنسان يمزّق أحشائي، حتى لو تصرفت كما لو أنني لا آبه به فإنّه سيظلّ هناك، الشيطان المسكين، سيبقى يأكل ويشرب ويمارس الجنس ويخاف، مهما كان: له إلهه وله شيطانه أيضا، وسيفنى هو الآخر ويتمدد متصلباً تحت الأرض ويكون طعامًا للديدان، وكذلك الأمر نفسُه بالنسبة إلى جميع البشر! كلّنا إخوةٌ! وكلّنا وليمة للديدان!

وإذا كانت امرأة... آه! عندها فقط أريد أن تنتفخ عيناي من البكاء! إنّ نفسك المشرّفة أيّها الرئيس، تواصل مضايقتي وتقول أنا مولع جدًا بالنساء. ولماذا لا أكون مولعاً بهنّ، بما أنّهن جميعا كائنات ضعيفة لا يعرفن ما يفعلنه ويستسلمن للتوّ، بمجرّد أن تمسك بأثدائهنّ...

ذهبتُ مرّة إلى قرية بلغاريّة أخرى. ولقد رآني متوحش عجوز -كان كبير القرية- وأخبر الآخرين فحاصروا المنزل الذي كنتُ أسكنُه. انزلقت خارجًا إلى الشرفة وزحفتُ من سقف إلى آخر؛ كان القمر طالعًا وكنتُ أقفز كالقطّة من شرفة إلى أخرى. ولكنهم شاهدوا ظلّي، صعدوا إلى الأسطحة وبدؤوا يطلقون النار. ما الذي فعلته؟ قفزت إلى الفناء، وهناك عثرتُ على امرأة بلغاريّة في السرير. وقفت في ثياب النوم، رأتني وفتحت فمها كي تصرخ، ولكنني رفعت ذراعي وهمست: الرحمة! الرحمة! لا تصرخي! وأمسكتُ ثدييها. شحبت وداختْ نصف دوخة.

قالت بصوت منخفض: هيّا إلى الداخل كي لا تُرى... فدخلت، أمسكت يدي: هل أنت يوناني؟ قالت. أجبتها: نعم يوناني. لا تشي بي. أمسكتها من خصرها. لم تتفوه بكلمة. ذهبتُ معها إلى السرير، وارتجف قلبي من المتعة. وقلت لنفسي: زوربا، أيها الكلب، ثمّتَ هنا امرأة لك: هذا ما تعنيه الإنسانية! ما هي؟ بلغاريّة؟ يونانيّة؟ بابوانية ؟ هذا آخر ما

twitter @baghdad_library

يهمّ! إنّها كائن بشريّ، كائن بشريّ بفم، وثديين، وتستطيع أن تحب. ألا تشعر بالعار من القتل؟ أيّها الخنزير!

هكذا فكّرت بينما كنتُ معها، أتقاسم الدفء. ولكن هل تتركني تلك العاهرة المجنونة «بلادي» في سلام من أجل هذا، أتعتقد؟ اختفيتُ في الصباح التالي في الثياب التي قدّمتها لي المرأة البلغارية. كانت أرملة. أخرجت ثياب زوجها المتوفى من الصندوق، قدمتها لي، وضمّت ركبتيّ وتوسّلت أن أعود إليها.

نعم، نعم، لقد عدت... في الليلة التالية. كنتُ وطنيًا آنذاك، بالطبع وحشاً بريّاً؛ عدتُ بعلبة من البارافين وأحرقتُ القرية. لا بدّ أنها احترقتْ مع الآخرين، تلك المسكينة البائسة. كان اسمها لودميلا».

تنهّد زوربا. أشعل سيجارة، أخذ سحبة أو سحبتين ثمّ رماها بعيدًا.

تقول بلادي؟ ... أتصدّق كلّ القمامة التي ترويها لك كتبك...؟ حسنًا، أنا الذي ينبغي أن تصدّقه. طالما أنّ هناك بلدانًا، فإنّ الإنسان سيبقى حيوانًا، حيوانًا مفترسًا... ولكنني تخلّصتُ من هذا كلّه، شكرًا لله! لقد انتهى الأمر بالنسبة إليّ. فماذا عنك؟».

لم أجبه. لقد حسدته. لقد عاش بلحمه ودمه يقاتل ويقتل ويقبّل ولكنّني حاولت تعلّم كلّ هذا عبر القلم والحبر فحسب. إنّ كلّ المشكلات التي كنت أحاول حلّها نقطةً نقطةً في عزلتي وأنا ملتصقٌ بكرسيّي، حلّها هذا الرجل في هواء الجبال النقيّ بسيفه.

أغمضتُ عيني غير قابل للعزاء.

قال زوربا مغتاظًا: «هل أنت نائم، يا رئيس. وأنا هنا كالأحمق، أتحدث إليك!»

استلقى وهو يدمدم ثمّ سمعته في الحال يشخر.

لم أقدر على النوم طوال الليل. بُلبلٌ ما، سمعناه للمرة الأولى في تلك الليلة ملأ عزلتنا بحزن لا يُحتمل وفجأة شعرتُ بالدموع على خدّي.

كنتُ أختنق. نهضتُ فجرا وحدّقتُ في الأرض والبحر من باب كوخي. بدا لي أنّ العالم قد تحوّل بين ليلة وضحاها. فقُبالتي على الرمال، كتلة صغيرة من الأدغال الشائكة، كان لونها بليدًا بائسًا في اليوم السابق، وهاهي الآن مغطّاة بأزهار صغيرة بيضاء. انتشر في الجوّ عطر أشجار الليمون والبرتقال المزهرة عذبا عبقا. مشيتُ عدة خطوات. لم أستطع أن أرتوي كفاية من هذه المعجزة التي تحدث أمامي في تجدّد أبديّ.

فجأة سمعتُ صرخة سعيدة خلفي. كان زوربا قد نهض واندفع إلى الباب نصف عار. أثاره هو أيضًا منظر الربيع هذا.

سأل محذّرًا: «ما هذا؟ تلك المعجزة هناك، أيها الرئيس، ذلك الأزرق المتحرك، ما الذي يدعونه؟ بحر؟ بحر؟ وما ذاك الذي يرتدي مئزرًا أخضَرَ مزهرًا؟ الأرض؟ أيّ فنّان رسمَهُما؟ إنها المرة الأولى التي أرى فيها هذا أيّها الرئيس، أقسم لك!»

كانت عيناه تدمعان.

صحت: «زوربا! هل جننت؟»

«ما الذي يضحكك؟ ألا ترى؟ ثمّتَ سحر وراء هذا كلّه، يا رئيس».

اندفع إلى الخارج،بدأ يرقص ويتدحرج على العشب كمُهرٍ في الربيع.

ظهرت الشمس، مددت راحتيّ ملتمسًا الدفء. النسغ الصاعد... الصدر المنتفخ... والروح المزهرة بدورها كشجرة؛ تستطيع أن تشعر أن الجسد والروح معجونان من المادة نفسها.

نهض زوربا ثانية، وشعره ملطّخ بالندى والتربة.

صاح: «بسرعة أيّها الرئيس! سنلبس ونتأنّق! سنُبارك اليوم. لن يمضي وقت طويل حتى يأتي الكاهن ووجهاء القرية إلى هنا. إذا وجدونا معفّرين بالتراب والعشب هكذا سيكون هذا عارًا على الشركة! هكذا نرتدي الياقات وربطات العنق. ونخرج بوجوه جدية! لا يهم إن لم يكن لديك رأس، يجب أن ترتدي النوع المناسب من القبعات...! إنه عالم مجنون!»

twitter @baghdad_library

ارتدينا ملابسنا، وصل العمّال، وبعدهم مباشرة وصل الوجهاء.

«احسم أمرك أيّها رئيس، لا حماقة اليوم! يجب ألا نبدو سخيفين».

سار بابا ستيفانوس في المقدمة في ردائه المتّسخ ذي الجيبين العميقين. ففي رسوم التكريس والجنازات والتزويج والتعميد كان يرمي في هذين الجيبين السحيقين كلّ ما كان يُقدّم له: الزبيب واللفافات وفطائر الجبنة والخيار وقطع اللحم والحلويات، كلّ شيء... وفي اللّيل، تضع زوجته العجوز باباديا نظارتها وترتّب كلّ هذه الأشياء، قاضمةً طول الوقت.

سار الحكماء خلف بابا ستيفانوس: كوندومانوليو، مالك المقهى، الذي كان يتخيّل أنه يعرف العالم بأسره، لا لشيء إلاّ لأنه ذهب إلى كانديا وشاهد الأمير جورج؛ العم أناغنوستي، الهادئ والمبتسم، بقميصه الأبيض المدهش ذي الكمّين العريضين؛ أستاذ المدرسة، الجدّيّ والوقور بعصاه، وأخيرًا مافراندوني، بخطوته البطيئة والثقيلة، وقد وضع منديلاً أبيض على رأسه، وارتدى قميصًا أسود، منتعلا حذاءً من اللون ذاته؛ سلّم علينا كأنه مضطر لذلك. توقّف منفصلاً عنّا قليلاً وظهره إلى البحر.

«باسم ربّنا يسوع المسيح!» قال زوربا بصوت وقور. ذهب إلى رئيس الموكب وتبعه الجميع في انقياد طقوسيّ.

تمّ إيقاظ ذكريات عمرها قرن عن الطقوس السحرية في صدور أولئك الفلاحين. ثبّتوا أعينهم على الكاهن كما لو أنّهم توقّعوا أن يواجهوا قوى لامرئية ويتخلّصوا منها. منذ آلاف السنين كان الساحر يرفع ذراعيه، يرش ماءه المقدّس في الجوّ، يطلق كلمات غامضة كليّة القوّة، فتهرب الأرواح الشريرة بينما تجيء الأرواح الخيّرة من الماء والتراب والهواء، إلى البشرية القاحلة.

وصلنا إلى الحفرة التي حفرناها قرب البحر كي ننصب الدعامة الأولى. رفع الرجال جذع شجرة صنوبر ضخمًا وركّبوه منتصبًا داخل

الحفرة. ارتدى بابا ستيفانوس رداءه، حمل مبخرته وبدأ وهو يحدق بالجذع طول الوقت، ينشد التعويذة: «فليؤسَّسْ على صخرة صلبة لا تهزّه الريح ولا الماء. آمين».

ردّد زوربا راسما علامة الصليب بصوت مرتفع: «آمين!»

وردد حكماء القرية: «آمين!»

«ليبارك الله عملك ويمنحك ثروة إبراهيم وإسحق!» واصل كاهن القرية، ووضع زوربا ورقة من فئة المائة دراخما في يده.

قال الكاهن راضيا تماما: «بركتي عليك!»

عدنا إلى الكوخ، حيث قدّم زوربا لهم جميعا النبيذ ومقبّلات خالية من اللحم مؤلفة من أخطبوط مشويّ، والحبّار المقليّ، والفاصولياء، والزيتون. وبعد أن فرغوا من الطعام، ذهب المسؤولون إلى المنزل. وانتهى طقس السحر.

قال زوربا حاكًّا يديه: «لقد نجحنا في ترتيب الأمر كلّه بشكل صحيح!»

نزع ثيابه وارتدى ثياب العمل وتناول معولاً.

صاح بالرجال: «هيّا! ارسموا إشارة الصليب وابدؤوا العمل!»

لم يرفع زوربا رأسه ثانية لبقية اليوم.

حفر الرجال حفرةً كُلَّ خمسين ياردة، ووضعوا دعامة وتابعوا، صانعين خطّا متّجها مباشرة إلى قمة الهضبة. كان زوربا يقيس ويحسب ويُصدر الأوامر؛ لم يأكل ولم يدخّن ولم يسترح طول النهار. كان منهمكا في العمل بشكل تام.

كان يقول لي في غالب الأحيان: «إنّ القيام بالعمل جزئيا فحسب، والتعبير عن الأشياء جزئيا، وأن تكون جيدا جزئيا، هو ما يجعل العالم في هذا العطب اليوم. أعط لكلّ عمل حقّ قدره! ضربة لكل مسمار وستفوز! إن الله يكره نصف الشيطان أكثر ممّا يكره الشيطان بأكمله عشرَ مرات!»

twitter @baghdad_library

في ذلك المساء، حين عاد من العمل، استلقى على الرمال خائر القوى.

قال: «سأنام هنا. سأنتظر الفجر، ثم سنبدأ العمل ثانية. سوف أبدأ النوبات الليلية».

«وفيم العجلة يا زوربا؟»

تردّد لحظة.

«لماذا؟ حسنا، أريد أن أرى إن كنتُ قد عثرتُ على المنحدر الملائم أم لا. إن لم أعثر عليه، انتهينا. ألا ترى أيّها الرئيس؟ كلّما بكّرت في اكتشاف انخداعنا، كان ذلك أفضل لنا».

أكل بسرعة ونهم، وبعد ذلك مباشرة ردّد الشاطئُ صدى شخيرِه. أمّا أنا فقد بقيتُ مستيقظا وقتا طويلا أراقب النجوم المسافرة عبر السماء. رأيتُ السماء كلّها تغيّر مواقعها - وصَدَفة جمجمتي، كقبة مرصد، غيّرت موضعها هي أيضا، رفقة الكواكب. «راقبْ حركة النجوم كما لو أنك تدور معها...» وهكذا غمرت جملةُ ماركوس أورليوس قلبي بالنشوة.

-21-

جاء عيد الفصح وتجمّل زوربا. ارتدى جوارب صوفيّة سميكة لونها أرجوانيّ داكن، قال إنّ إحدى صديقاته المقدونيات حاكتها له. وانبرى يتحرّك فوق الأكمة القريبة من شاطئنا صعودا نزولا وقد تملّكه القلق. هكذا كان يواجه قلقه. يلقي ببصره على امتداد طريق القرية واضعًا يده فوق حاجبيه الكثيفين كي يحمي عينيه من أشعّة الشّمس وقد استنفد زاده من الصّبر.

«لقد تأخّرت، الفقمة العجوز؛ لقد تأخرت، البغيّ؛ لقد تأخّرت الراية المهترئة الممزّقة!»

طارت فراشة مودّعة شرنقتها للتوّ، وحاولت أن تحطّ على شارب زوربا، لكنها دغدغتهُ فعطس. رفرفت الفراشة بعيدا حتى تلاشت بين أشعة الشمس.

في ذلك اليوم، كنا نتهيّأ لمجيء السيدة هورتانز كي نحتفل بعيد الفصح. شوينا خروفا على السفود، فرشنا شرشفا أبيض على الرمال ودهنا بعض البيضات. قرّرنا، بين هزل وجدّ، أن نعدّ لها حفل استقبال مهيب. ففي ذلك الشاطئ المعزول، كان لعروس البحر المترهّلة تلك، القصيرة البدينة، المعطّرة المعفّنة قليلا، تأثيرٌ سحريّ فينا. حتّى أنّنا في غيابها كنا نفتقد شيئا ما: رائحة الكولونيا، شريطة حمراء، مشية متهدّجة مترنّحة كمشية البطة، صوتا شبه مبحوح وعينين غائرتين.

وهكذا قطعنا أغصانا من الآس والغار وشيّدنا قوس نصر كي تمرّ تحته. ثبّتنا على القوس أربع رايات؛ بريطانية وفرنسية وإيطالية وروسية، وفي الوسط، أعلى من كلّ شيء، راية بيضاء طويلة بخطوط زرقاء. ولأنّنا

twitter @baghdad_library

لسنا أميرالات لم تكن لدينا مدفعية، ولكنّنا استعرنا بندقيّتين وقرّرنا أن ننتظر على الأكمة، وحالما نرى فقمتنا تتدحرج متهدهدة في الطريق، نطلق زخّة رصاص. أردنا أن نُحيي شيئا ما من أمجادها الغابرة على هذا الساحل المنعزل، عسى تلك المسكينة البائسة تستمتع هي أيضا بوهم عابر، فيُخيّل إليها أنّها عادت شابة صلبة النّهدين، بحذاء أنيق من الجلد اللمّاع وجوارب حريرية. ما نفعُ بعث المسيح، إذا لم يكن دافعا لانبعاث شرارة الشباب والمتعة فينا أيضا؟ ما فائدته إذا لم يستطع جعل مومس عجوز تشعر بأنها في الواحد والعشرين مرة أخرى؟

«لقد تأخّرت، الفقمة العجوز؛ لقد تأخّرت المومس؛ لقد تأخّرت الراية القديمة الممزّقة!» هذا ما كان يردّده زوربا كلّ دقيقة، رافعا جواربه الباذنجانية، سريعة الانتكاس.

«تعال واجلسْ يا زوربا! تعال ودخّنْ سيجارة هنا في الظلّ. لن تتأخر أكثر!»

ألقى نظرة أخيرة على طريق القرية ثم جاء كي يجلس تحت شجرة الخرنوب. كان النهار قد قارب على الانتصاف والشّمس في أوجها. استطعنا أن نسمع في المدى أجراس عيد الفصح الحيّة والمفرحة. وبين فينة وأخرى كانت الريح تحمل إلينا صوت القيثارة الكريتية. باختصار كانت القرية كلّها تضجّ بالحياة كخليّة نحل في الربيع.

هزّ زوربا رأسه وقال:

«لقد انتهى الأمر. اعتدتُ أن أشعر بروحي تنبعث كلّ عيد فصح، في الوقت نفسه مثل المسيح، ولكن هذا كلّه انتهى. وحده جسدي الآن يولد من جديد لأنه حين يقدم لك أحدهم وجبة، ثم يأتي ثان ويفعل مثله ثم ثالث،ويقولون: كلْ هذه اللّقمة الصغيرة فقط، وفقط هذه الصغيرة مرة أخرى... فإنّ نفسك تمتلئ عندئذ بأكوام من الطعام الطيّب سيتحوّل أغلبه إلى براز. ولكن ثمّتَ شيء ما يبقى، شيء يُنقَذ ويتحوّل إلى مرح

ورقص وغناء ومشاحنات، وهذا ما أسمّيه بالانبعاث».

نهض، نظر إلى الأفق وقطّب جبينه.

وقال: «ثمّتَ فتى يجري في هذا الاتجاه» وأسرع كي يقابله.

وقف الفتى على أطراف أصابعه وهمس في أذن زوربا الذي تراجع إلى الخلف غاضبا وصاح:

«مريضة؟ مريضة! انطلق وإلا ضربتك!» ثم استدار إليّ.

«سأذهب إلى القرية أيّها الرئيس لأرى ما الذي حدث للفقمة العجوز... فقط دقيقة... أعطني بيضتين حمراوين كي أفقسهما معها. سأعود».

وضع البيضتين في جيبه، وكعادته شدّ جواربه القاتمة إلى أعلى وانطلق.

نزلتُ عن الأكمة واستلقيتُ على الحصى البارد. هبّ نسيم خفيف، كان البحر قليل التغضّن؛ وعلى الأمواج الخفيفة كان هناك نورسان بعُنقين مزغبين، يحلّقان ويحطّان، مستمتعين بحركة الماء في شهوانيّة.

أستطيع أن أتخيّل جيدا متعتهما بطراوة الماء تحت بطنيهما. وبينما كنتُ أراقب النورسين، فكرت: «هذا هو الطريق الذي يجب أن يُسلك؛ اعثر على الإيقاع المطلق واتّبعه بثقة مطلقة».

جاء زوربا بعد ساعة، وهو يلفّ شاربه في حال من الرضى. قال:

«إنها مصابة بالزكام، الجميلة المسكينة. لا شيء يخيف. في الأيام القليلة الأخيرة، في أسبوع الآلام، كانت تذهب إلى صلاة منتصف الليل على الرغم من أنها فرنجيّة. قالت إنها ذهبتْ بدلا منّي أيضا. وأصيبت بالأنفلونزا نتيجة لذلك. عالجتها بالحجامة ودلكتها بزيت المصباح وسقيتها كأسا من الروم. غدا ستستعيد صحتها ودفئها. ها! العاجزة العجوز، إنها تتسلّى بطريقتها الخاصة؛ كان يجب أن تسمع هديلها كالحمامة وأنا أدلّكها. قالت إنّها شعرتْ بالدغدغة!»

twitter @baghdad_library

جلسنا كي نأكل، وملأ زوربا الكأسين.

«نخبك! أرجو أن يتأخّر الشيطان في أخذها لبعض الوقت!»

أكلنا وشربنا صامتين لبرهة فيما كانت الريح تحمل إلينا من بعيد أصداء عزف ملتهب على القيثار وكأنّه طنين نحل. كان المسيح ينبعث على مصاطب القرية من جديد. وتحوّل حمل الفصح وكعكه إلى أغاني حب.

بعد أن أكل زوربا وشرب بشكل جيد، وضع يده على أذنه الكبيرة المشعرة مرهِفًا السّمع. ثمّ تمتم:

«القيثارة. إنهم يرقصون في القرية».

ونهض فجأة وكأنّ الخمرة بلغت رأسه للتّو.

«ما الذي نفعله هنا وحيدين كطائري وقواق؟ لنذهب ونرقص! ألست متأسّفا على الحمل الذي كنا نأكله؟ هل ستجعله يصبح عدَمًا، هكذا؟ هيا! حوّلْهُ إلى أغنية ورقصة! لقد انبعث زوربا!»

«انتظر لحظة يا زوربا، أيها الأبله، هل جننت ؟»

«صدقا أيّها الرئيس، لا آبه! ولكنني متأسّف على الحمل، ومتأسف على البيض الأحمر، على كعك الفصح وقشدة الجبنة! لو أنني التهمتُ بعض قطع الخبز والزيتون فقط، لقلتُ: آه، دعنا نذهب إلى النوم؛ لا حاجة للاحتفال! الزيتون والخبز هما لا شيء، أليس كذلك؟ ما الذي تستطيع توقّعه منهما؟ ولكن الآن دعني أخبرك، إنها خطيئة أن نبدّد الطعام هكذا! هيا لنحتفل بقيامة المسيح، أيّها الرئيس!»

«ليست لدي رغبة في ذلك، اليوم. اذهب وارقص من أجلي أيضا».

أمسكني زوربا من ذراعي وسحبني.

«لقد قام المسيح، يا صديقي! آه! لو أنني فقط كنتُ شابا مثلك! لرميت نفسي مباشرة وسط كل شيء! العمل والنبيذ والحب، كل شي، ولن أخاف لا من الله ولا من الشيطان! هذا هو الشباب!»

«إنه الحمل يتحدث داخلك، يا زوربا! لقد صار متوحّشا، لقد تحوّل إلى ذئب!»

«لقد تحوّل الحمل إلى زوربا، هذا كل شيء، وزوربا يتحدّث إليك! أصغِ، تستطيع أن تحكم عليّ فيما بعد! أنا السندباد البحري... لا أعني أنّنيَ تجولت في أنحاء العالم كلها؛ كلاّ، مطلقا! ولكنني قتلتُ وسرقتُ واغتصبتُ وكذبت ونمتُ مع أكوام من النساء وخالفتُ الوصايا كلّها. كم هناك منها؟ عشر؟ لماذا لا يوجد عشرون وخمسون ومائة؟ كي أستطيع أن أحطّمها كلها؟ مع ذلك، إذا كان هناك إله، لن أخشى المثول أمامه حين تحين الساعة. لا أعرف كيف أعبّر عن ذلك لأجعلك تفهم. لا أظن أن لهذا أيّة أهمّية. أيُزعج اللهُ نفسَه ويجلس ليحاسب ديدان الأرض على ما تفعله، فيغضب ويثور ويغتاظ إلى درجة السخافة لأنّ أحدهم أغوته دودة أنثى أو لأنّ آخر ابتلع قطعة لحم في الجمعة العظيمة؟! الخلاص منكم أيّها الكهنة المسرفون في تناول الحساء؟؟»

قلتُ كي أغضبه: «حسنا يا زوربا. يمكن ألاّ يسألك الله ماذا تأكل، ولكنّه سيسألك بالتأكيد ماذا فعلت».

«وأقول إنّه لن يسأل عن هذا أيضا! و ستسألني كيف تعرف ذلك، يا زوربا، أيها الجاهل؟. أنا أعرف فحسب! ومتأكد من ذلك! لو كان لديّ ولدان، أحدهما هادئ، حريص، معتدل وورع، والآخر نذل وجشع وخارج عن القانون وزير نساء، فإن قلبي سيميل للثاني. ربما لأنه سيكون مثلي؟ ولكن من الذي يقول: أنا مثل الله نفسه سوى الأب ستيفانوس العجوز، الذي يمضي أيامه ولياليه راكعا على ركبتيه، ويجمع النقود؟

إن الإله يُمتّع نفسه، يقتل ويظلم ويمارس الجنس ويعمل ويحب الأشياء المستحيلة، تماما كما أفعل. يأكل ما يسرّه؛ ينتقي المرأة التي يشتهيها. إذا رأيت امرأة جميلة تعبر، عذبة كالمياه الصافية، فإن قلبك يقفز لمرآها. فجأة تنفتح الأرض وتختفي. إلى أين تذهب؟ من يأخذها؟ إذا كانت

twitter @baghdad_library

امرأة صالحة، يقولون: لقد أخذها الشيطان. ولكن، أيّها الرئيس، لقد قلتُ هكذا من قبل، وأقوله ثانية، إنّ الله والشيطان واحد، هما الشيء نفسه!»

التقط زوربا عصاه، دفع قبّعته جانبا، نظر بشفقة متغطرسا وتحركت شفتاه للحظة وكأنّه يريد أن يضيف شيئا إلى ما قاله للتوّ. ولكنّه لم يقل شيئا، بل رفع رأسه وانطلق إلى القرية.

وفي ضوء المساء استطعتُ أن أرى ظلّه العملاق وعصاه المتأرجحة. انبعث الشاطئ كلّه إلى الحياة حين مرّ زوربا. أصغيتُ إلى خطاه لبعض الوقت وهي تخفّ تدريجيا. وحالما شعرتُ بأنني وحيد تماما، قفزتُ. لماذا؟ كي أذهب. ولكن إلى أين؟ لم أكن أعرف. لم يتخذ ذهني أي قرار. هل كان جسدي هو الذي قفز. كان جسدي يقرّر وحده دون أن يستشيرني. وها هو يصدر أمره: «انطلق إلى الأمام!»

سرتُ نحو القرية بخطوات سريعة مصمّمة، متوقفا بين فينة وأخرى كي أستمتع بنفَس الربيع العميق. فاحت من الأرض رائحة البابونَج، وحين اقتربتُ من الحدائق صادفتُ موجة تلو أخرى من عطر أزهار الليمون والبرتقال وأشجار الغار. وفي الغرب بدأ نجم المساء يرقص بمرح في السماء.

«البحر، النساء، النبيذ والعمل الجادّ!» كنتُ أردّد كلمات زوربا دون أن أتمالك نفسي وأنا أسير. «البحر، النساء، النبيذ والعمل الشاق! أن ترمي نفسك مباشرة في قلب العمل والنبيذ والحب وألاّ تخاف أبدا من الله أو الشيطان... هذا هو الشباب!» واصلتُ تكرار ذلك لنفسي وكأنني أريد أن أشجّعها، وتابعت السير.

وفجأة توقفت متسمّرا كما لو أنني وصلتُ إلى وجهتي. أين؟ نظرتُ حولي: كنتُ أمام حديقة الأرملة. خلف سياج القصب والكمثرى الشائكة، واستطعتُ سماع شخص يدندن بصوت أنثوي ناعم. اقتربتُ وباعدتُ بين

القصب. تحت شجرة البرتقال كانت هناك امرأة ترتدي ملابس سوداء بصدر كبير منتفخ. كانت تقطع أغصانا مزهرة وهي تغني. واستطعتُ أن أرى في الغسق الكُرتين البيضاوين لثدييها نصف العاريين.

لقد سحرتني. إنها وحش بريّ، كما ظننت، وهي تعرف هذا. أية مخلوقات فقيرة وسخيفة هم الرجال بالنسبة إليها! أيّة مخلوقات عبثية وبلا دفاعات، إنها سمينة وشرهة، مثل بعض الحشرات الأنثوية، كالسراعيف المصلية، والجنادب، والعناكب، وهي أيضا مثلهم تفترس الذكور في الفجر.

هل أحسّت الأرملة بنظرتي؟ فجأة أوقفت أغنيتها واستدارت. التقتْ أعيننا. شعرتُ بركبتي تستسلمان، وكأنني رأيت نمرة خلف القصب.

قالت بصوت مختنق: «من هناك؟» ثم وضعت منديلها فوق صدرها واربدّ وجهها.

كنتُ على وشك الرحيل، ولكن كلمات زوربا ملأت قلبي فجأة. جمّعتُ القوة. «البحر، النساء، النبيذ...»

أجبت: «أنا. هذا أنا. اسمحي لي بالدخول».

لم أكد أتفوه بهذه الكلمات حتى استحوذ علي شعور بالرعب وكنتُ على وشك الهرب ركضا مرة أخرى. ولكنني تحكمتُ في نفسي، رغم ما تملّكني من خجل.

فقالت:«وما الذي تعنيه، بأنا؟»

ثمّ قامت بخطوة بطيئة حذرة إلى الأمام، ومالت ناحيتي. أغمضت نصف إغماضة كي ترى بوضوح أكبر، تقدّمت خطوة أخرى، الرأس إلى الأمام، في حالة تأهّب. وفجأة نوّر وجهها. أخرجت رأس لسانها ولعقت شفتيها. وقالت بصوت ناعم: «الرئيس».

ثمّ تقدمَتْ من جديد، مُقعية وكأنها تستعدّ للقفز.

وسألت بصوت أجش هذه المرّة: «أنت الرئيس؟»

twitter @baghdad_library

«نعم».

«ادخل».

كان الفجر على وشك البزوغ، وزوربا قد عاد إلى المنزل، وجلس أمام الكوخ على الشاطئ. يدخّن مسرّحا نظره في البحر. بدا كأنه في انتظاري.

وحالما ظهرتُ رفع رأسه وحدجني بنظرته. كان منخراه يرتعشان كمنخريْ كلب صيد. مطّ عنقه وأخذ نَفَسا طويلا... محاولا شمّي. وفي ثانية تنوّر وجهه بالمتعة؛ لقد شمّ رائحة الأرملة.

نهض ببطء، ابتسم بكيانه كلّه ومدّ ذراعيه لي.

وقال: «لتحلّ بركتي عليك!» .

ذهبتُ إلى السرير، أغمضتُ عيني. سمعتُ البحر يتنفّس بانتظام وهدوء وشعرتُ أنّني أرتفع وأنخفض فوقه كنورس. هكذا، مُهدّهدا بلطف، نمتُ وحلمتُ: رأيتُ امرأة زنجية ضخمة تجلس على الأرض، بدت لي كمعبد من الغرانيت قديم وضخم. كنتُ أدور حولها بيأس محاولا العثور على مدخل. ولم يكن حجمي يبلغ حجم إصبع قدمها الصغيرة. فجأة، وفيما أنا أتبعها، رأيتُ فتحة مظلمة، مثل كهف. وأمرني صوت مدوّ: أن ادخلْ، فدخلت.

استيقظتُ نحو منتصف النهار. كانت الشمس تتسلّل عبر النافذة، غاسلة أغطية السرير بالضوء؛ وكانت أشعّتها تنهال بقوّة على مرآة صغيرة معلقة عند الحائط فتبدو وكأنها تحطّمها إلى ألف شظية.

عاودني حلم الزنجية العملاقة، استطعتُ سماع البحر يتمتم، أغمضتُ عيني مرة ثانية وشعرتُ بسعادة عميقة. كان جسدي خفيفا وراضيا مثل حيوان مسترخ تحت أشعّة الشّمس يلعق شفتيه بعد أن أمسك طريدته والتهمها... كان ذهني -وهو جسد أيضا- يستريح مطمئنّا وكأنّه عثر على جواب بسيط ومذهل في آن لكلّ المشكلات الحيوية المعقّدة التي كانت تعذّبه.

طافت بي متعة الليلة السابقة صاعدة من أعماق وجودي السحيقة، انتشرت في المسارات الجديدة وسقت التربة التي صُنعت منها حتى ارتوتْ. وفيما كنتُ أستلقي، وعيناي مغمضتان، بدا لي وكأنني أسمع ذهني يفجّر صدفته الضيّقة متناميا. في تلك الليلة، شعرتُ بوضوح، وللمرة الأولى في حياتي، أن الروح بدورها جسد، ربما أكثر سرعة في الزّوال، أكثر شفافية، أكثر حرية، ولكنها من لحم مثله تماما. والجسد روح كذلك، سواء كان منتفخا أو مستنفدا من رحلاته الطّويلة أو مُنْحنيا تحت وطأة الإعياء الذي ورثه.

شعرتُ بظل يعبرني وفتحت عيني؛ كان زوربا يقف في المدخل ناظرا إليّ بسعادة.

قال بلطف وبما يشبه الجزع الأمومي: «لا تستيقظ، لا تستيقظ أيها الشاب!... اليوم عطلة أيضا. فنم!»

قلتُ وأنا أنهض: «لقد نمتُ بما يكفي».

قال زوربا وهو يبتسم: «سأخفق لك بيضة تعيد ترميمك!»

لم أجبه، بل ركضتُ إلى البحر، غصتُ في الماء، ثم تجفّفتُ في الشمس. ولكنني ظللتُ أشعر بالعطر العذب وهو ينفذ إلى منخريّ، وقد علق بشفتيّ وأصابعي. عطر ماء البرتقال وزيت الغار الذي تبلّل به النساء الكريتيات شعرهن.

في الليلة الماضية قطعَتْ ملء ذراع من أزهار البرتقال لتحملها إلى المسيح مساء اليوم، ساعةَ تقفر الكنيسة وتتحوّل السّاحة مسرحا لرقص القرويّين تحت أشجار الحور البيضاء. كان الفاصل الأيقونيّ الذي فوق سريرها محمّلا بأزهار الليمون، وعبر التويجات يمكن رؤية العذراء النادبة، بعينين كبيرتين لوزيّتين.

لحق بي زوربا إلى الشّاطئ جالبا معه كعك عيد الفصح وبيضة في كأس وبرتقالتين. خدمني بهدوء وسعادة، كما تخدم أمّ ولدها حين يعود

twitter @baghdad_library

من الحروب. نظر إليّ بولع ثم ذهب بعيدا.

قال: «سوف أنصب بعض الدعامات».

مضغتُ طعامي بهدوء في ضوء الشمس وشعرت بسعادة جسدية عميقة وكأنني أعوم في مياه البحر الباردة الخضراء. لم أسمح لذهني بأن يمتلك هذه المتعة الحسيّة، أن يضغطها في قوالبه، ويصنع منها أفكارا. تركتُ جسدي كلّه يغتبط من الرأس إلى القدمين، كحيوان. رغم ذلك كنت بين فينة وأخرى، أفتّش حولي وفي داخلي عن معجزة هذه الحياة: ما الذي يحدث؟ قلتُ لنفسي. كيف حدث أن تكيّف العالم بشكل كامل مع أقدامنا وأيدينا وبطوننا؟ ومرة أخرى أغمضتُ عيني وصمتُّ.

نهضتُ فجأة ودخلتُ الكوخ؛ هناك التقطتُ مخطوط بوذا وفتحته. كنتُ قد أتممت قراءته. في النهاية كان بوذا يستلقي في ظل الشجرة المزهرة، رافعا يده، آمرا العناصر الأربعة التي صُنع منها أن تنحلّ.

لم أعد في حاجة إلى هذه الصورة لعذاباتي؛ فقد تجاوزتها، أنا أيضا أكملتُ خدمتي مع بوذا، رفعتُ يدي، وأمرتُ بوذا الذي في داخلي أن يتلاشى.

بسرعة كبيرة، وبمساعدة الكلمات وقدرتها التطهيرية العالية، دمّرت جسده وذهنه وروحه. وبلا رحمة كتبت الكلمات الأخيرة على الورق، أطلقت الصرخة الحاسمة ووقّعت اسمي بقلم رصاص كبير أحمر: «انتهى».

أخذتُ قطعة سميكة من الخيط وربطت المخطوط. شعرتُ بنوع غريب من المتعة، كما لو أنني أقيّد عدوّا رهيبا من يديه وقدميه، أو كما يشعر البدائيون وهم يربطون أجساد عشيقاتهم حين يَمُتن، كي لا يتسلّقن خارجات من قبورهن ويتحوّلن إلى أشباح.

ركضتْ نحوي فجأةً فتاةٌ صغيرة حافية القدمين. كانت ترتدي فستانا أصفر وتمسك في يدها بيضة حمراء بحرص. توقفت ونظرت إليّ

مرعوبة.

سألتها مبتسما كي أشجعها: «حسنا، أتريدين شيئا ما؟»

أخذتْ نَفَسا وأجابت بصوت ضعيف لا أنفاس فيه.

«أرسلتني السيدة كي أطلب منك المجيء. إنها في السرير. هل أنت الشخص الذي يدعونه زوربا؟»

«حسنا. أنا قادم».

وضعتُ بيضة ثانية حمراء في يدها الأخرى الصغيرة فانطلقت راكضة.

نهضتُ وبدأتُ سيري في الطريق. صارت ضجة الطريق أكبر: الأصوات العذبة للقيثارة، الصيحات، طلقات المسدس، الأغاني المرحة. حين دخلتُ الساحة، وجدت الشبان والفتيات متجمّعين تحت أوراق أشجار الحور النضرة وقد أوشكوا على البدء في الرقص. جالسين على المقاعد حول الأشجار، كان العجائز يراقبون المشهد وذقونهم مسنودة إلى عصيّهم. وكانت النساء العجائز يقفن خلفهم. أمّا عازف القيثارة المتألق فانوريا، فقد وضع زهرة نيسانية خلف أذنه، مترئسا الحفل وسط الراقصين، مُسندا بيده اليسرى القيثارة المنتصبة على ركبتيه فيما يجرّب باليمنى أوتاره الرنّانة.

صحتُ وأنا أمرّ: «لقد قام المسيح!»

«لقد قام بالفعل!» جاء الجواب في تمتمة مرحة منهم جميعا.

نظرتُ حولي بسرعة. شباب أقوياء البنية، بخصور نحيلة، يرتدون سراويل قصيرة منفوخة وعلى رؤوسهم مناديل بهدابات نازلة على جباههم وأصداغهم كخصلات ملتفة. وفتيات شابات بنثار لمّاع على أعناقهنّ وشالات عنق رقيقة بيضاء مطرّزة. خفيضات النظرة، وهنّ يرتجفن من الانتظار المحموم.

سألتْ بعضُ الأصوات: «ألا يهمّك البقاء معنا يا سيدي؟»

twitter @baghdad_library

ولكنني كنتُ قد عبرت.

حين وصلتُ بيت العجوز وجدتُها مستلقية على سريرها الكبير، وهو قطعة الأثاث الوحيدة التي تمسّكت بها. وخداها يشتعلان من الحمّى، وهي تسعل.

حالما رأتني تنهّدتْ شاكية.

«وزوربا؟ أين زوربا؟»

«إنه ليس على ما يرام. منذ أن مرضت، مرض هو أيضا. مازال يحمل صورتك بين يديه ويتنهّد كلما نظر إليها».

«أخبرني المزيد، أخبرني المزيد... » قالت الجنيّة العجوز المسكينة، مغمضة عينيها بسعادة.

«لقد أرسلني كي أسألك إن كنت في حاجة إلى أيّ شيء. سيأتي في المساء كما قال، رغم أنه لم يتحسّن. لا يستطيع الابتعاد عنك بعد الآن...»

«تابع، تابع من فضلك...»

«لقد جاءته برقيّة من أثينا. ثياب الزفاف والأكاليل جاهزة. هي الآن على متن القارب وستصل إلى هنا عمّا قريب... مع الشموع البيضاء وشرائطها الوردية...»

«تابع، تابع...»

تغير تنفّسها؛ بدأت تهذي. فاحت الغرفة بعطر الكولونيا، والنُّشادر والعرق. ومن الفناء، حيث الدجاجات والأرانب، هاجمتنا رائحة البراز الكريهة عبر النّافذة.

نهضتُ وانزلقتُ خارج الغرفة. على الباب صادفت ميميكو. كان يرتدي سروالا وحذاءً جديدين، ويضع قطفة حبق وراء أذنه.

قلتُ له: «ميميكو، اركض إلى قرية «كالو» من فضلك، وأحضر طبيبا!»

كان ميميكو قد نزع فردتيّ حذائه قبل أن أتحدث. لم يكن يريد أن يتلفهما على الطريق. فوضعهما تحت ذ راعه.

«اعثر على الطبيب. بلّغه تحياتي وأخبره أن يمتطي فرسه العجوز ويأتي إلى هنا دون تأخير. أخبره أن حالة السيدة خطرة جدّا. أصيبت المسكينة بالأنفلونزا، وهي الآن تهذي من الحمى... إنّها تحتضر. لا تنس أن تخبره هذا. انطلق الآن!»

بصق في كفّيه، وصفّق بمرح، لكنّه لم يتحرك. نظر إليّ بلمعة مرحة في عينيه.

«ألم أطلب منك الذهاب؟»

لم يتحرّك. غمزني وعلى شفتيه ابتسامة شيطانيّة.

قال: «سيدي. لقد أخذت زجاجة من ماء البرتقال إلى كوخك هدية».

بقي واقفا. فقط على أمل أن أسأله من أرسلها، لكنني لم أفعل.

«ألا تريد أن تعرف من أرسلها يا سيدي؟ إنها لك كي تضعها على شعرك كما قالت حتى تفوح منه رائحة طيبة».

«انطلق بسرعة! أسرع! وأبق فمك مغلقا».

ضحك، بصق من جديد في يديه، وصاح مرّة أخرى: هوبا هوب! لقد قام المسيح!

قالها واختفى.

twitter @baghdad_library

-22-

تحت أشجار الحور، كانت رقصة عيد الفصح في أوجها. قادها شابٌ أسمر طويل وأنيق في حوالى العشرين من عمره، يشي خدّاه المكسوّان بزغب كثيف بأنّهما لم يعرفا شفرة الحلاقة أبدا. ومن فتحة قميصه برزت على صدره لطخة داكنة من الشّعر المجعّد. كان يردّ رأسه إلى الخلف وقدماه تضربان الأرض كجناحين؛ وبين فترة وأخرى يلقي نظرة على فتاة ما، فيتوهّج بياض عينيه ثابتا ومُشعّا في وجه صهدته الشّمس.

أحسست كما لو أنّي مسحور وخائف في آن. وفي طريق عودتي من منزل السيدة هورتانز؛ ناديتُ امرأة كي تعتني بها. أراحني هذا كثيرا، فجئتُ كي أتفرّج على الكريتيين وهم يرقصون. وهكذا ذهبتُ إلى العم أناغنوستي وجلستُ على مقعد إلى جانبه.

سألته: «من ذلك الشاب الذي يقود الرقصة؟»

ضحك العم أناغنوستي:

«إنه ككبير الملائكة الذي ينقل روحك بعيدا، ذلك النّذل..»، أضاف معجبا: «هو سيفاكاس، الراعي. يرعى القطيع طوال السّنة في الجبال، ثم ينزل في عيد الفصح كي يرى الناس ويرقص».

تنهّد ثمّ واصل: «آه! لو كنت أتمتع بهذا الشباب، أقسم لك بشرفي لفتحت القسطنطينية فتحا مبينا!»

هزّ الشاب رأسه وأطلق ثُغاءً غير بشري مثل كبش ينزو.

صاح: «اعزف، اعزف يا فانوريو! اعزف إلى أن يموت شارون».

كان الموت في كلّ لحظة يفنى ويُبعث من جديد، تماما كما الحياة. على مدى آلاف الأعوام كان الشباب في الربيع يرقصون، أولادا وبناتٍ

twitter @baghdad_library

وأوراق الأشجار الرقيقة تظلّلهم، رقصوا تحت أشجار الحور والتّوب والبلّوط والدُّلب وأشجار النخيل النحيلة. واصلوا الرقص لآلاف الأعوام، واستهلكتْ الرغبة وجوههم. تتغيّر الوجوه، تتفتّت، تعود إلى التربة؛ ولكنّ وجوها أخرى تنبعث كي تأخذ مكانها. ثمّتَ راقص واحد فحسب، راقص بألف قناع، وهو دوما في العشرين... لا يمسّه شيب ولا يطاله فناء.

رفع الشاب يده كي يفتل شاربه، ولكنّه كان أمرد.

صاح ثانية: «اعزفْ، اعزف يا فانوريو وإلا سأنفجر!»

هزّ عازف القيثارة يده فاستجابت القيثارة، بدأت الأوتار تهتزّ في إيقاع منتظم فقفز الشاب في الفضاء بارتفاع قامة رجل ضاربا قدما بأخرى ثلاث مرات، ثمّ أمسك بمقدّمتي حذائه المنديل الأبيض الملفوف حول رأس جاره، مانولاكاس، موظّف الأمن.

«برافو، سيفاكاس!» صاحوا جميعا، وارتجفت الشابّات وهنّ يغضضن البصر.

لكن الشابّ ظلّ صامتا لا ينظر إلى أحد إطلاقا. وبحركة وحشيّة ومحكمة في آن وضع راحة يده على خصره النحيف القويّ وراح يرقص وعيناه مثبّتتان على الأرض.

توقف الرقص فجأة مع وصول القندلفت العجوز أندروليو إلى الساحة في اندفاع، ذراعاه مرفوعتان نحو السماء وهو يصيح مقطوع النَّفَس: «الأرملة! الأرملة!»

كان أوّل من ركض نحوه موقفا الرقصة هو موظف الأمن مانولاكاس. وكان بوسعك أن ترى من الساحة الكنيسة وهي ما تزال مزيّنة بأغصان الآس والغار. توقّف الراقصون والدم يفور في رؤوسهم، نهض العجائز عن كراسيهم. وضع فانوريو القيثارة في حضنه، أخذ وردة نيسان من وراء أذنه واستنشقها.

صاحوا بحنق: «أين يا أندروليو؟»

«في الكنيسة؛ دخلتْ المسكينة لتوّها؛ كانت تحمل ملء ذراعها من أزهار الليمون!»

صاح موظف الأمن مندفعا إلى الأمام: «هيا، إليها!»

في تلك اللحظة ظهرت الأرملة على عتبة الكنيسة ومنديلها الأسود على رأسها. ورسمتْ علامة الصليب.

«بائسة! عاهرة! قاتلة!» صاحت الأصوات. «وتمتلك الجرأة على إظهار نفسها! وراءها! لقد ألحقت العار بالقرية!»

تبع البعض موظف الأمن الذي كان يركض نحو الكنيسة، فيما رجمها آخرون من الأعلى بالحجارة. أصابها حجرٌ على كتفها؛ فصرخت، غطّتْ وجهها بيديها واندفعتْ إلى الأمام. ولكن الشبّان كانوا قد سبقوها إلى باب الكنيسة فأخرج مانولاكاس سكّينه.

تراجعت الأرملة إلى الخلف مطلقة صرخات رعب، انحنت بشكل مضاعف كي تحمي نفسها وركضت متعثرة علّها تلجأ إلى الكنيسة. ولكن، عند العتبة، كان العجوز مافراندوني يسدّ الطريق أمامها ممسكا مصراعي الباب بيديه المتصلّبتين.

قفزتْ الأرملة إلى اليسار وتعلقت بشجرة الأرز الكبيرة في الفناء. صفّر حجر عبر الجوّ، أصاب رأسها ومزّق منديلها. فتبعثر شعرها وتهدّل على كتفيها.

«باسم المسيح! باسم المسيح!» صاحتْ المرأة متمسّكة بشجرة الأرز.

كانت الصبايا واقفات في الساحة صفّا واحدا عاضّات على مناديلهنّ البيضاء، وهنّ يتابعن المشهد بلهفة. بينما كانت النساء العجائز المتكئات على الجدران يصحن: «اقتلوها! اقتلوها!»

ارتمى عليها شابان، وأمسكاها. تمزّق قميصها الأسود وتوهّج صدرها الرّخاميّ أبيض كالثّلج. كان الدم يسيل من الرأس والجبين إلى الخدين والعنق.

twitter @baghdad_library

ردّدت وهي تلهث: «باسم المسيح! باسم المسيح!»

أثار الدم المتدفّق والصّدر المتوهّج الشابين، فأطلّت السكاكين من أحزمتهم.

صاح مافراندوني: «توقّفوا! إنها لي!»

كان ما يزال متمترسا على العتبة. رفع يده فتوقف الجميع.

قال بصوت عميق: «مانولاكاس، إن دم ابن عمك يصيح بك. امنحه الطمأنينة».

قفزتُ من الحائط الذي كنت قد تسلّقته وركضتُ نحو الكنيسة؛ اصطدمت قدماي بالأحجار فسقطت على الأرض.

في تلك اللحظة تماما كان سيفاكاس يمرّ بجانبي. انحنى والتقطني من قفاي كقطّة ووضعني على قدميّ.

قال: «ليس هذا المكان لأمثالك. اذهب!»

«ألا تملك مشاعر نحوها يا سيفاكاس؟» سألته. «ارحمها!»

ضحك الجبلي المتوحّش في وجهي.

«أتظنني امرأة؟ تطلب مني الشفقة! أنا رجل!»

وفي لمح البصر بلغ فناء الكنيسة.

تبعته لاهثا. كان الجميع حول الأرملة. والصّمت يخيّم ثقيلا حتّى أنّه كان بوسعكَ سماع نفَسِ الضحية المختنق.

رسم مانولاكاس علامة الصليب، خطا إلى الأمام، رفع السكين، صاحت العجائز المستندات إلى الحائط في استمتاع. وسحبت الشابات مناديلهن وغطّين وجوههنّ.

رفعتْ الأرملة عينيها، وإذ رأت السكين فوقها، جأرت كعجلة. انهارت عند جذع شجرة الأرز وغاص رأسها بين كتفيها. غطى شعرها الأرض، ولمع عنقها النّابض في دائرة ضوء غير مكتملة.

«باسم عدالة الله!» قال العجوز مافراندوني، ورسم علامة الصليب.

ولكن في تلك اللحظة بالذّات دوّى صوت من خلفنا.

«أنزل سكّينك أيها المجرم!»

استدار الجميع منذهلين. رفع مانولاكاس رأسه: كان زوربا ينتصب أمامه مؤرجحا ذراعيه وهو يصرخ بغضب:

«ألا تشعرون بالعار؟ أي نوع من الرجال أنتم! قرية كاملة لقتل امرأة واحدة! انتبهوا وإلا ألحقتم العار بكريت كلّها!»

«اهتم بعملك يا زوربا! ولا تتدخل في شؤوننا!» زأر مافراندوني.

ثم استدار إلى ابن أخيه وقال:

«مانولاكاس، باسم المسيح والعذراء المقدسة اضرب!»

قفز مانولاكاس. أمسك الأرملة، رماها على الأرض، وضع ركبته على بطنها ورفع السكين. ولكن في ومضة برق أمسك زوربا ذراعه ثم لفّ يده بمنديله الكبير وهو يكافح لسحب السكين من يد موظف الأمن.

نهضت الأرملة على ركبتيها ونظرت حولها باحثة عن طريقة للهرب، ولكن القرويين كانوا يسدّون الطريق. كانوا يقفون على المقاعد مشكّلين شبه حلقة حول فناء الكنيسة؛ وحين شاهدوها تبحث عن فتحة تقدموا وأغلقوا الدائرة.

في هذه الأثناء كان زوربا الرشيق، المصمّم في هدوء، يصارع بصمت. ومن مكاني قرب باب الكنيسة، راقبتُ بقلق وجه مانولاكاس وقد احمرّ من الغضب. جاء سيفاكاس ورجل آخر عملاق كي يساعداه. ولكنه نظر إليهما باستياء وصاح:

«لا تتدخلا! لا تتدخلا! لا أريد أن يقترب أحد منكم!»

هاجم زوربا مرة أخرى بوحشية. ضربه برأسه كثور.

عضّ زوربا شفتيه دون أن يتفوه بكلمة. أمسك الذراع الأيمن لموظف الأمن وكأنّه قد ثبّته تماما، وتحرّك بخفّة فراشة يمينا ويسارا كي يتجنّب الضربات. اندفع مانولاكاس إلى الأمام بعد أن تكوّم الغضب في رأسه،

twitter @baghdad_library

أمسك أذن زوربا بين أسنانه، وعضّها بكلّ قوّته حتى انبثق الدم.

صحت مرعوبا، مندفعا كي أنقذه: «زوربا!»

فصاح: «ابتعد يا رئيس! لا تتدخل في الأمر!»

شدّ على قبضته ووجّه لكمة مدمّرة أسفل بطن مانولاكاس. أفلته الوحش البري على الفور، وارتخى فكّاه حتى تحرّرت الأذن المقضومة. شحب وجهه الأرجواني بشكل مخيف. وبضربة خاطفة طرحه زوربا على الأرض، جرّده من السكّين ورماها فوق جدار الكنيسة.

أوقف تدفّق الدم من أذنه بمنديله. ثم مسح العرق الذي غمر وجهه فتلطّخ كلّه بالدم. انتصب واقفا، ونظر حوله. كانت عيناه منتفختين وحمراوين. صاح بالأرملة:

«انهضي! تعالي معي!»

وسار نحو باب الكنيسة.

نهضت الأرملة؛ جمّعت قواها كلها كي تندفع إلى الأمام، ولكنّ الوقت لم يسعفها، إذ انقضّ عليها العجوز مافراندوني مثل الصقر ورماها على الأرض، لفّ شعرها الطويل الأسود على ذراعه ثلاث مرات وبضربة واحدة من مديته قطع رأسها.

«أنا أتحمّل مسؤولية هذه الخطيئة!» صاح راميا رأس الضحية على باب الكنيسة. ثم رسم إشارة الصليب.

نظر زوربا حوله فرأى المشهد المريع. ولشدّة حنقه نتف من شاربه عددا من الشعرات. ذهبتُ إليه وأمسكتُ ذراعه. مال إلى الأمام ونظر إليّ. بينما كانت دمعتان كبيرتان تتأرجحان على رموشه.

وقال بصوت مختنق: «لنذهب من هنا أيها الرئيس».

لم يأكل زوربا أو يشرب أي شيء في ذلك المساء. قال: «إن حلقي متشنّج، لن ينزل منه أي شيء إلى الأسفل». غسل أذنه بالماء البارد، غمس قطعة من القطن الخام في بعض الراكي صانعا منها عصابة ضمّد

بها جراحه. ثم قبع في فراشه ورأسُه بين يديه. لقد كان حزنه عميقا.

تمدّدت على الأرض عند الحائط ورأسي على كفّيّ، شعرتُ بدموع ساخنة تنساب بطيئة على خديَّ. كان ذهني معطّلا، ولم أكن أفكّر في أي شيء. بكيتُ كطفل غلبه حزن عميق.

وفجأة رفع زوربا رأسه ومنح متنفّسا لمشاعره. ملاحقا أفكاره البدائية، وانبرى يصيح بصوت مرتفع:

«أقول لك أيّها الرئيس إنّ كل ما يحدث في هذا العالم غير عادل، غير عادل، غير عادل! لن أكون طرفا في ذلك! أنا، دودة الأرض، زوربا الحلزون. لماذا يجب أن يموت الشبّان ويعيش العجائز؟ لماذا يموت الأطفال الصغار؟ كان لديّ ولد فيما مضى يُدعى ديميتري، ولقد فقدته وهو في الثالثة من عمره. حسنا... إنني لن أسامح الله أبدا على هذا الفعل، أتسمعني؟ أقول لك إنه في يوم وفاتي إذا كان يملك الجرأة على الظهور أمامي، وإذا كان حقا إلاها، فسيشعر بالعار! نعم، نعم، سيشعر بالعار من إظهار نفسه لزوربا، الحلزون الحقير!»

انقبض وجهه كما لو أنه يتألّم بشدّة. بدأ الدم يتدفق من جرحه. فعضّ شفتيه كي لا يصرخ.

قلت له متعاطفا: «انتظر يا زوربا! سأغيّر لباسك»

عاودت غسل أذنه بالراكي، ثم جلبت ماء البرتقال الذي أرسلته الأرملة. كنت قد وجدتهُ على سريري، غمستُ فيه القطن الخام.

فقال زوربا وهو يتشمّمه بلهفة: «ماء البرتقال؟ ماء البرتقال؟ ضع بعضا منه على شعري، هكذا، من فضلك. تماما! وعلي يديَّ، اسكبه كلّه، هيّا!»

لقد بعث حيّا من جديد. حملقت فيه مذهولا.

قال:«يُخيّل إليّ أنني أعبر حديقة الأرملة»

وبدأ نحيبه مرة أخرى قائلا:

twitter @baghdad_library

«كم من الأعوام...! كم من الأعوام استغرقتها هذه الأرض كي تنجح في صناعة جسد كهذا! كان كلّ من يراها يقول: آه! لو أنني فقط في العشرين وتختفي سلالة البشر كلها من على الأرض ثمّ تبقى تلك المرأة وحدها لأمنحها أطفالا! كلا، ليسوا أطفالا، بل سيكونون آلهة حقيقيين... أمّا الآن...»

قفز على قدميه وعيناه طافحتان بالدموع.

قال: «لا أستطيع التحمّل أيّها الرئيس. يجب أن أتمشّى، يجب أن أصعد إلى جانب الجبل وأنزل ثلاث مرات هذه الليلة كي أرهق نفسي، وأهدّئ من روعي قليلا...آه! أيّتها الأرملة! بي رغبة عارمة في أن أنشد لك أغنية جنائزية!»

اندفع إلى الخارج، سار نحو الجبال واختفى في الظلمة.

استلقيتُ على سريري، أطفأتُ المصباح. ومرة أخرى، بطريقتي البائسة وغير الإنسانيية، شرعت أغيّر الواقع، كنت أزيل الدم واللحم والعظام وأحوّلها إلى أفكار مجرّدة ثمّ أربطها بالقوانين الكونية، إلى أن وصلتُ في النهاية إلى تلك النتيجة الكريهة، بأن ما حدث كان ضرورة. بل وأكثر من ذلك، لقد جعَلَته نتائجي مُسهمًا في التناغم الكوني. وهكذا وصلتُ إلى هذا العزاء النهائيّ المقيت: إنّ كلّ ما حدث كان يجب أن يحدث.

دخلتْ جريمة قتل الأرملة دماغي فأربكته، تسلّلت تحديدا إلى تلك الخليّة التي تتحوّل فيها، منذ سنين، كلّ السّموم إلى عسل - وشوّشتها- ولكنّ فلسفتي سرعان ما سيطرتْ على الموقف فطوّقت التحذير الشنيع داخلي بالصور والخداع وجرّدتْه من قدرته على إلحاق الأذى بي. تماما مثلما تحيط النحلات الدبّورَ الجائع بالشمع حين يأتي لسرقة عسلها.

بعد بضع ساعات كانت الأرملة تقبع في ذاكرتي، هادئة مبتسمة وقد حوّلتها إلى رمز. بات حضورها في قلبي مغلّفا بالشمع فلم يعد في وسعها

أن تنشر الذُّعر داخلي ولا أن تشلّ ذهني. اتّسعتْ الأحداث المريعة لذلك اليوم وامتدت في الزمان والمكان حتى تلاحمت مع حضارات الماضي العظيمة؛ وتلاحمت الحضارات بدورها مع مصير الأرض؛ والأرض مع مصير الكون وهكذا... حين عدت إلى الأرملة، وجدتها خاضعة لقوانين الوجود العظيمة، متصالحة مع قتَلَتِها، هادئة لا تحرّك ساكنا.

لقد عثر الزمن بالنسبة إليّ على معناه الحقيقي: توفيّت الأرملة قبل آلاف الأعوام، في حقبة الحضارة الإيجية، وفتيات كونوسوس الشابات بشعرهنّ المجعّد مُتن في ذلك الصباح نفسه على شاطئ هذا البحر الجميل.

استحوذ عليّ النوم، كما سيفعل الموت يوما ما -لا شيء أكثر يقينا من هذا- وانزلقتُ بهدوء في الظلمة. لم أعرف إن كان زوربا قد عاد ولا متى كانت عودته. في الصباح التالي عثرتُ عليه عند منحدر الجبل يصيح ويلعن العمّال.

لم يعجبه أيّ عمل قاموا به. طرد ثلاثة منهم لأنّهم عاندوه، حمل المعول بنفسه وبدأ يحفر عبر الصخور والأدغال الممرّ الذي كان قد حدّده من أجل الأعمدة. صعد الجبل، قابل بعض الحطّابين وهم يقطعون أشجار الصنوبر. بدأ يشتم بصوت حادّ. وعندما ضحك أحدهم وتمتم؛ قذف زوربا نفسه عليه.

في ذلك المساء رجع إلى الكوخ منهكا بثياب مترهّلة. جلس إلى جانبي على الشاطئ. كان يجد صعوبة في فتح فمه؛ وحين تحدث أخيرا، جاء حديثه كلّه عن الأخشاب والفحم الحجري؛ بات أشبه بمتعاقد جشع يتلهّف لالتهام المكان لعلّه يحصّل منه أعلى ربح ممكن ويغادر.

في مرحلة العزاء الذاتيّ التي وصلتُ إليها، كنت مرّة على شفا التحدث عن الأرملة؛ لكنّ زوربا مدّ ذراعه الطويلة واضعا كفّه الكبيرة على فمي. وقال بصوت مختنق: «اخرس!»

twitter @baghdad_library

صمتّ والإحساس بالعار ينخرني. «هكذا هو الرجل الحقيقي»، قلت في نفسي حاسدا زوربا على أحزانه. رجل بدم ساخن وعظام صلبة، يترك الدموع الحقيقية تجري على خدّيه حين يعاني؛ وحين يكون سعيدا لا يفسد نشوته بتقليبها تحت مجهر الميتافيزيقا الدّقيق.

مرّت ثلاثة أيام أو أربعة على هذا المنوال. كان زوربا يعمل بثبات، لم يكن يتوقف كي يأكل أو يشرب أو يستريح. باختصار، كان ينتحر.

في مساء أحد الأيام أخبرته بأن السيدة بوبولينا ما تزال في السرير، وأنّ الطبيب لم يأت وأنّها كانت تناديه باستمرار أثناء هذيانها.

فشدّ قبضتيه. وقال: «حسنا».

في اليوم التالي ذهب مع بزوغ الشّمس إلى القرية ولم يلبث أن عاد مسرعا إلى الكوخ.

سألته: «هل رأيتها؟ كيف هي؟»

أجابني: «إنها على ما يرام. ستموت».

ثم انطلق إلى العمل.

في المساء ذاته، أخذ عصاه السّميكة وخرج دون أن يأكل لقمة.

سألته: «إلى أين أنت ذاهب؟ إلى القرية؟»

«كلا، سأقوم بجولة وأعود في الحال».

سار نحو القرية بخطوات سريعة واثقة.

كنتُ متعبا فاستلقيت. وراح ذهني يعيد تفحّص العالم كلّه؛ استرسلت الذكريات والأحزان؛ وحوّم ذهني حول الأفكار النّائية ولكنّه عاد واستقرّ على زوربا.

قلت في سرّي: «لو حدث وعثر على مانولاكاس وهو في الخارج فإنّ هذا العملاق الكريتي الخارج عن طوره سيرمي بنفسه عليه سيما وأنّه ظلّ ملازما بيته طوال الأيّام الأخيرة الماضية لخجله من الظّهور في القرية بعد الّذي حدث. يقال إنّه من يومها لم يكفّ عن توعّد زوربا بتمزيقه إربا

بأسنانه كسمكة سردين. بل لقد أقسم أحد العمّال أنّه رآه في منتصف اللّيل يتجوّل حول الكوخ شاهرا سلاحه، وأنّه إذا التقى بزوربا اللّيلة ستحدث جريمة.

أرعبتني الفكرة فقفزتُ من السرير، ارتديتُ ثيابي وأسرعتُ إلى القرية. كان الليل الهادئ والرطب يفوح بشذى البنفسج البريّ. وبعد برهة رأيتُ زوربا. كان يسير نحو القرية ببطء وقد هدّه التّعب. وبين فينة وأخرى كان يتوقّف، ينظر إلى النجوم، ويصغي؛ ثم ينطلق ثانية؛ بسرعة أكبر، حتّى أنّه بات في وسعي سماع صوت عصاه على الأحجار.

اقترب من حديقة الأرملة حيث الجوّ مشحون بعبق الليمون وأزهار العسل. وفي تلك اللحظة بالذّات، أطلّ بلبلٌ من بين أشجار البرتقال في الحديقة وانبرى ينشد لحنا حزينا وشفّافا كمياه الرّبيع الصّافية. واصل تغريده في الظلمة علّه ينيرها بصوته السّاحر. فتوقّف زوربا مصغيا ولم يلبث أن أخذته العبرة لشدّة عذوبة ما سمع.

فجأة تحرّك قصب السياج؛ وتلاطمت أوراقه الحادة وكأنّها من معدن. ودوّى في المكان صوت غليظ قاس: «أنت، هناك! أيها المغفّل العجوز الخرِف! لقد عثرتُ عليك أخيرا!»

ما إن عرفت الصوت حتّى شعرت ببرودة تسري في دمي.

خطا زوربا إلى الأمام، رفع عصاه وتوقّف. استطعت أن أرى حركاته كلّها في ضوء النجوم.

قفز رجل ضخم من سياج القصب.

فصاح زوربا، مادّا عنقه: «من هذا؟»

«أنا، مانولاكاس».

«اذهب من هنا! انس الأمر!»

«لماذا أذللتني؟»

«لم ألحق بك العار يا مانولاكاس! انس الأمر، كما أقول لك. أنت

twitter @baghdad_library

شخص كبير وقوي ولكن الحظّ لم يحالفك... والحظ أعمى، ألا تعرف هذا؟»

«بالحظّ أو دون حظ، أعمى أو مبصر»، قال مانولاكاس، وأنا أسمع اصطكاك أسنانه، «سأمحو هذا العار. والليلة بالذات. أمَعَك سكين؟»

أجابه زوربا: «كلا، عصا فحسب».

«اذهبْ وأحضرْ مديتك. سأنتظر هنا. هيا!»

لم يتحرك زوربا.

قال مانولاكاس ساخرا: «خائف؟ هيّا اذهب، قلت لك!»

قال له زوربا الذي بدأ يهتاج: «وما حاجتي للسكّين؟ أنسيت ما حدث في الكنيسة؟ على ما أذكر كانت لديك سكين آنذاك، ولم تكن معي واحدة... ولكنني تغلبت عليك، أليس كذلك؟»

زأر مانولاكاس غاضبا.

«تحاول أن تحصل على رد غاضب مني، إيه؟ لقد اخترت المكان واللحظة الخطأ كي تسخر، لا تنس أنني مسلّح وأنت لست كذلك! أحضرْ مديتك أيها المقدوني القذر. سنرى من هو الأقوى».

رفع زوربا ذراعه، رمى عصاه بعيدا؛ سمعتها تسقط بين القصب.

وصاح: «ها قد ألقيت عصاي فألق مديتك بعيدا. الليلة نعرف من هو الأفضل.. هيّا أيّها الكريتيّ الوغد!»

اقتربتُ منهما على أطراف أصابعي، وفي ضوء النجوم لمحتُ بريق المدية وهي تسقط أيضا بين القصب.

بصق زوربا في يديه، وصاح وهو يقفز: «هيا... تشجّع!».

ولكن قبل أن يشتبكا اندفعت بينهما وصحت: «توقّفا! العار عليكما معا، أنت يا مانولاكاس وأنت أيضا يا زوربا، ألا تخجلان!»

سار الخصمان نحوي بهدوء. أمسكتُ كلاًّ منهما من يده اليمنى. وقلت: «تصافحا! يجب أن تضعا حدّا لهذا الخصام».

قال مانولاكاس محاولا سحب يده: «لقد ألحق بي العار!»

قلتُ: «ومن ذا الذي يستطيع أن يلحق بك العار بمثل هذه السهولة؟ إنّ القرية كلّها تعرف أنّك رجل شجاع. انس ما حدث أمام الكنيسة في ذلك اليوم. كانت ساعة نحس! ما حصل قد حصل وانقضى الأمر! ثمّ لا تنس أنّ زوربا أجنبيّ، مقدونيّ، وإنه لعار كبير علينا نحن الكريتيين أن نرفع يدنا ضد ضيف في بلادنا... هيا، أعطني يدك الآن، فمَحْوُ الغيض هو الشجاعة الحقّ. لنذهب إلى الكوخ، سنشرب سوية ونشوي كمية كبيرة من النقانق كي نختم على صداقتنا يا مانولاكاس!»

أمسكتُ مانولاكاس من خصره وأبعدته قليلا.

وهمست في أذنه: «إنّه هرم ومن العيب أن يتحامل عليه شاب بمثل قوّتك... تذكّر ذلك».

قال: «حسنا، فقط من أجلك».

خطا نحو زوربا ومدّ يده الضخمة.

قال: «تعال أيها الصديق زوربا. لقد انتهى الأمر ونُسي؛ أعطني يدك».

قال زوربا: «لقد مضغتَ أذني، أتمنى أن تفيدك. خذ يدي».

تصافحا بقوة وصلابة، وكل منهما ينظر في عيني الآخر ممعنا في الضّغط على يده، فخشيت أن يقتتلا مرة أخرى.

قال زوربا: «إن قبضتك قوية يا مانولاكاس. أنت شخص صلب ومتماسك».

«أنت أيضا لا تنقصك الصّلابة؛ هيّا حاول أن تشدّ يدي أكثر!»

صحتُ فيهما: «هذا يكفي! لنذهب ونشرب نخب صداقتنا!»

في طريق العودة إلى الشاطئ سرتُ بينهما، زوربا على يميني ومانولاكاس على يساري.

وقلتُ كي أغيّر الموضوع: «سيكون هناك حصاد وفير هذا العام. لقد أمطرت بإسهاب».

twitter @baghdad_library

لم يجب أي منهما. كان الغيظ لا يزال مستوطنا صدريهما. فراهنتُ على النبيذ. حين وصلنا إلى الكوخ، قلت لمانولاكاس: «أهلا بك في كوخنا المتواضع. أحضرْ كومة من الأغصان يا زوربا، اشو النقانق واملأ الكؤوس!»

أضفتُ رافعا كأسي: «في صحتكما. في صحتك يا مانولاكاس! نخبك يا زوربا!، اقرعا الكؤوس».

قرعا الكؤوس، وسفح مانولاكاس بعض القطرات من الخمر على الأرض.

قال بصوت وقور: «ليتدفّق دمي كهذا النبيذ إن رفعتُ يدي ضدك يا زوربا».

فحذا زوربا حذوه وسكب بضع قطرات على الأرض وقال:

«ليتدفّق دمي كهذا النبيذ إن لم أنس الأذن التي مضغتها يا مانولاكس!»

-23-

حين بزغ الفجر جلس زوربا في سريره وتحدّث معي كي يوقظني.

«هل أنت نائم أيّها الرئيس؟»

«ما الأمر يا زوربا؟»

«رأيتُ حلما مضحكا. أعتقد أننا سنقوم برحلة ما عمّا قريب. أصغ، سيجعلك هذا تضحك. كانت هنا، في المرفأ، سفينة كبيرة كمدينة، تصفّر مستعدّة للرحيل. فجئتُ راكضا من القرية كي ألحق بها، وكنتُ أحمل ببغاءً في يدي. وصلتُ إلى السفينة وصعدتُ على متنها. جاء القبطان راكضا وطلب منّي البطاقة. سألته كم ثمنها وسحبت لفافة نقود من جيبي. قال إن ثمنها ألف درهم. فقلتُ له، على مهلك، ألا يكفي ثمانمائة؟ لكنه قال إنه يريد ألفا، وإذا كنتُ لا أحمل ألفا يجب أن أنزل من السفينة. فاغتظتُ وقلت له: اسمع أيها القبطان، خذ هذه الثمانمائة من أجلك، وإلاّ فسوف أستيقظ، يا شيخي المحروم، وعندئذ لن تنال لا الألف ولا الثمانمائة».

ثمّ انفجر ضاحكا وأضاف مندهشا:

«أية آلة غريبة هو الإنسان! تملؤه خبزا ونبيذا وسمكا وفجلا فتخرج منه التنهّدات والضحكات والأحلام، كما لو أنه مصنع. أنا واثق أن هناك أشياء في رؤوسنا تشبه أفلام السينما الناطقة «.

وفجأة قفز من سريره وصاح بلهفة: «ولكن لماذا الببغاء؟ ما الذي يعنيه هذا، أن آخذ ببغاء معي؟ آه! أخشى أن...»

لم يسعفه الوقت كي ينهي جملته، إذ اندفع إلى الداخل رسول أحمر الشعر قصير وبدين، يبدو كالشيطان، وهو يلهث.

twitter @baghdad_library

«إكراما لله! إن المرأة المسكينة تصرخ حتى الجنون من أجل الطبيب! تقول إنها تُحتضر... وسيخز هذا ضميركما، كما تقول!»

شعرتُ بالعار. ففي الكرب الذي سبّبته لنا الأرملة، نسينا صديقتنا القديمة تماما.

تابع الرجل ذو الشعر الأحمر مثرثرا: » تلك المسكينة، إنّها تعبر إلى النّهاية. إنها تسعل بشدّة تجعل الفندق كلّه يهتزّ من تحتها. نعم إنه سعال حمار حقيقيّ! أف! إنّ القرية بأكملها تهتزّ!»

قلتُ: «اصمتْ! لا تمزح في أمر كهذا!»

أخذتُ قطعة ورق وكتبتُ رسالة.

«اذهبْ وخذْ هذه الرسالة إلى الطبيب ولا تعد حتى تراه بعينيك يمتطي فرسه! أتفهم؟ والآن، اذهب!»

أمسك الرسالة، وضعها في حزامه وانطلق.

كان زوربا قد نهض. ارتدى ثيابه دون أن يتفوّه بكلمة.

قلت: «انتظر لحظة سآتي معك».

أجاب: «أنا مستعجل»، ثم انطلق.

انطلقت أنا أيضا إلى القرية بعد وهلة. كانت حديقة الأرملة المهجورة تعبق مقفرة. ورأيتُ ميميكو يجلس منطويا على نفسه أمام المنزل ويئن ككلب جريح. بدا شديد النحول؛ عيناه محمرّتان وغائرتان في محجريهما. التفت حوله، وحين رآني التقط حجرا.

«ما الذي تفعله هنا يا ميميكو؟» سألته وأنا أنظر بأسف إلى الحديقة. شعرتُ بذراعين قويتين دافئتين متشابكتين حول عنقي وشممت أريج زهر الليمون وزيت الغار.. استطعتُ أن أرى في الظلمة عينيها البرّاقتين السوداوين وأسنانها اللامعة المستدقة البيضاء التي حكّتها بأوراق الجوز. كانت هنا. لم نقل أي شيء... إنها الذكرى.

أفاقني صياح ميميكو من شرودي: «لماذا تسأل؟ ابتعد. ابتعد واهتمّ

بعملك».

«أتريد سيجارة؟»

«لقد توقّفتُ عن التدخين. كلّكم خنازير! كلّكم! كلّكم!»

توقّف وهو يلهث، كأنه يبحث عن كلمة لم يتمكن من العثور عليها.

«خنازير... أنذال... كذابون... قتلة...»

صفّق في ارتياح وكأنه عثر أخيرا على الكلمة التي يريدها..

«قتلة! قتلة! قتلة!» صاح بصوت حادّ وانطلق يضحك فانخلع قلبي.

قلت: «كلامك صحيح يا ميميكو. كلامك صحيح». ثم أسرعتُ مبتعدا.

عند مدخل القرية رأيت العجوز أناغنوستي يتكئ على عصاه، مبتسما وهو يراقب فراشتين صفراوين تطارد إحداهما الأخرى فوق أعشاب الربيع. فبعد أن تقدّم به السن ولم يعد يقلق على حقوله وأولاده وزوجته، بات له من الوقت ما يكفي كي ينظر بلا مبالاة إلى العالم الذي حوله. رأى ظلّي على الأرض فنظر إلى الأعلى.

وسألني: «أي ريح حملتك إلى هنا في هذه الساعة المبكّرة؟»

لا بدّ أنّه قرأ القلق المرتسم على وجهي، لهذا تابع دون أن ينتظر جوابا:

«افعلْ شيئا بسرعة يا بني. لستُ متأكدا من أنك ستراها حية أو لا... آه المسكينة البائسة!»

كان السرير الكبير المنهكِ من كثرة الاستعمال والرّفيق الأكثر إخلاصا للسيّدة هورتانز، قد أُزيح إلى وسط غرفتها الصغيرة فملأها كلّها تقريبا. وفوقه تماما انحنى على المغنية العجوز مستشارها الخاص والمخلص،الببغاء، بتاجه الأخضر، وقبّعته الصفراء، وعينيه المستديرتين الخبيثتين. كان يحدّق إلى الأسفل ناظرا إلى سيدته في قلق وهي تستلقي وسط أنينها. وقد أمال رأسه إلى جنب مثلما يفعل البشر علّه يحسن الاستماع.

twitter @baghdad_library

كلاّ، لم تكن تلك التنهّدات المختنقة تنهّدات متعة كالتي خبرها، ولا هي هديل الحمام الرّقيق، ولا صرخات الضحك الخفيفة. كرات العرق الباردة كالثلج التي كانت تجري على عنق المحظية، وشعرها غير المغسول وغير الممشّط، الشبيه بنسالة صوف منفوش، ملتصق بصدغيها، إضافة إلى التقلّبات المتشنجة في السرير، كلّ هذا الذي يراه الببغاء للمرّة الأولى جعله قلقا. أراد أن يصيح: كانافارو! كانافارو! ولكن صوته علق في حنجرته.

كانت محظيّته المسكينة تئنّ وذراعاها الذّاويتان الذّابلتان تجاهدان لرفع الأغطية من شدّة اختناقها. لم تكن مُخضّبَةَ الوجه كعادتها. كان خدّاها منتفخين؛ تفوح منهما نتونة العرق ورائحة اللّحم الذي بدأ يتآكل. وكان حذاؤها المهترئ المصنوع من الجلد اللمّاع ينتأ من تحت السرير جاعلا قلبك يتحطّم. بل لقد كان منظر الحذاء أكثر تأثيرا من حالة صاحبته.

كان زوربا جالسا إلى جانب السرير، ينظر إلى الحذاء. لم يستطع زحزحة عينيه عنه. وكان يعضّ على شفتيه كي يحبس دموعه. دخلتُ وجلستُ خلفه، ولكنّه لم يتفطّن لي.

وجدت المرأة المسكينة تعاني من صعوبة في التنفّس؛ تكاد تختنق. تناول زوربا قبّعة مزيّنة بأزهار من القماش ليروّح عنها. كان يرفع يده وينزلها بسرعة واضطراب وكأنّه يحاول إشعال بعض الفحم الرطب بلا جدوى.

فتحتْ عينيها مرعوبة ونظرتْ حولها. بدا لها المكان مظلما فما كان لها أن تميّز أيّ أحد، بما في ذلك زوربا الممسك بالقبعة ذات الأزهار.

كان كلّ شيء حولها قاتما ومفزعا، وكانت الأبخرة الزرقاء تتصاعد من الأرض مغيّرة شكلها في كلّ حين. فمرّة تشكّل أفواها ساخرة، ومرّة أقداما ملتفّة، وأخرى أجنحة سوداء.

غرزت أظفارها في مخدّتها المبلّلة بالدموع واللعاب والعرق، وصاحت:
«لا أريد أن أموت! لا أريد!»

ولكن ندّابتي القرية كانتا قد سمعتا أخبارا عن وضعها ووصلتا للتوّ. دخلتا الغرفة، وجلستا على الأرض مستندتين إلى الحائط.

شاهدهما الببغاء، بعينيه المستديرتين المحدّقتين، فغضب. مدّ رأسه وصرخ: كاناف... ولكن زوربا مدّ يده بوحشية إلى القفص وأخرس الطائر.

وتعالتْ مرة أخرى صيحة اليأس.

«لا أريد أن أموت! لا أريد!»

أطلّ من الباب رأسا شابّين أمردين مسفوعي الوجه من الشمس، نظرا إلى المرأة المريضة بعناية. وبعد أن شعرا بالرضا تغامزا وغادرا.

سرعان ما سمعنا بعد ذلك صوت قرْقرة وخفق أجنحة يتردّد في الفناء؛ كان هناك أحد ما يطارد الدجاجات.

التفتت إحدى الندّابتين، «العجوز مالاماتينيا» إلى رفيقتها:

«أرأيتهم أيّتها الخالة لينيو، أرأيتهم؟ إنهم مستعجلون؛ أولئك البائسون الجائعون. سيخلعون أعناق الدجاجات ويأكلونها حيّة. جميع صعاليك القرية مجتمعون في الفناء؛ ولن يطول الوقت حتى ينهبوا المكان!»

ثم التفتتْ إلى سرير المرأة المحتضرة وتمتمتْ وقد نفد صبرها:

«أسرعي بالموت، يا صديقتي. سلّمي الروح بالسرعة القصوى علّنا نحصل على فرصة كالآخرين».

قالت العمة ليو، مغضّنة فمها الصغير الأدرد: «سأقول لك الحقيقة يا أم مالاماتينيا، إنهم يفعلون الصواب، أولئك الفتية. إذا أردت أن تأكلي شيئا، اسرقيه... وإذا أردت أيضا أن تملكي شيئا، اسرقيه... هذا ما كانت تقوله لي أمي العجوز. ليس علينا إلاّ أن نعجّل بالنّدب، ونضع يدينا

twitter @baghdad_library

على حفنتين من الأرز، وبعض السكر، وإبريق، ثم نستطيع أن نبارك ذكراها. ليس لديها أولاد ولا أهل، إذن من الذي سيأكل دجاجاتها وأرانبها؟ من سيشرب نبيذها؟ من سيرث كل هذه الملابس القطنية والأمشاط والحلويات والأشياء؟ ها! ماذا تتوقّعين، يا أمّ مالاماتينيا؟ ليسامحني الله، ولكن هذا حال الدنيا... أنا نفسي أودّ أن أحصل على بعض الأشياء!»

«انتظري قليلا يا عزيزتي، لا تستعجلي»، قالت الأم مالاماتينيا، ممسكة ذراعها. «أفكّر مثلك تماما، ولا يحرجني الاعتراف بذلك، ولكن انتظري فحسب حتّى تزهق روحها».

في هذه الأثناء كانت المرأة المحتضرة تتلمّس ما تحت مخدّتها بتشنّج. حالما اقتنعت بأنها معرّضة للخطر أخرجت من صندوقها صليبا من العظم الأبيض البرّاق ورمته تحت المخدّة. كانت قد نسيته لسنوات مرميّا بين قمصانها الممزّقة وقطع المخمل والأسمال في قعر الصندوق. كما لو أن المسيح دواء تتناوله فقط حين تكون مريضة بشكل خطير، وتستغني عنه إذا ما تيسّر لها أن تمضي وقتا طيّبا بين الأكل والشّرب وممارسة الجنس.

أخيرا عثرت أناملها على الصليب فضغطته على صدرها المبلل بالعرق.

«عزيزي يسوع، يا عزيزي يسوع...» قالت بهُيام، شابكة حبيبها الأخير على صدرها.

كانت كلماتها، نصف الفرنسية، ونصف اليونانية، مليئة بالرقّة والعاطفة. سمعها الببغاء. وإذ أحسّ أنّ نبرة صوتها تغيّرت، تذكّر ليالي السّهر الخوالي فانتعش على الفور.

«كانافارو! كانافارو!» صاح بصوت مبحوح، مثل ديك يبشّر بالشمس.

لم يحاول زوربا أن يخرسه هذه المرة. نظر إلى المرأة وهي تبكي وتقبّل صورة المصلوب فيما انتشرت عذوبةٌ غير متوقّعة على وجهها الخرب.

فُتح الباب، ودخل الأب أناغنوستي بهدوء، وقبّعته في يده. تقدّم من المريضة، وانحنى جاثيا على ركبتيه.

قال لها: «سامحيني يا سيدتي العزيزة، وليسامحك الله. سامحيني إذا سبق وقلت عنك كلمات قاسية، فنحن بشر لا أكثر... سامحيني».

ولكن العجوز الطيّبة تستلقي الآن بهدوء، غارقة في هناء لا يُوصف، فلم تسمع ما قاله العجوز أناغنوستي. كانت عذاباتها تتلاشى: الشيخوخة التعيسة، السخرية والكلمات القاسية التي تحمّلتها، الأمسيات الحزينة التي أمضتها وحيدة في مدخل بيتها المقفر وهي تحيك جوارب صوف سميكة للفلاّحين، كأيّة امرأة عادية طيّبة وشريفة، هي الباريسية الرشيقة، سالبة الألباب وسيّدة الإغراء الأولى، هي التي أجلستْ القوى الأربع العظمى على ركبتيها، وحيّتها أربعة أساطيل بحرية!

كان البحر أزرق سماويًا، والأمواج متوّجة بالزبد، وكانت السّفن ترقص في المرفأ كحصون عائمة، ثمّتَ أيضا رايات بألوان مختلفة ترفرف فوق كلّ صارية. كان بوسعك أن تشمّ رائحةَ طيورِ الحجل المشويّة ورائحة سمكِ البوري الأحمر النفّاذة، وترى الفاكهة المثلّجة وهي تُحمل إلى الطاولاتِ في أوان من الكريستال المنقوش بينما سدّادات زجاجات الشمبانيا تطير إلى السقف.

لحًى سوداء وشقراء، حمراء وبيضاء، أربعة أنواع من العطور: البنفسج، الكولونيا، المسك والعنبر؛ أبواب المقصورة الحديدية وهي تُغلق، الستائر الثقيلة وهي تسدل، والأضواء الخلاّبة وهي تنار. وتغمض السيدة هورتانز عينيها. إنّ حياتها الغرامية الحافلة، وحياة العذاب كلّها لم تدم أكثر من ثانية...

تنتقل من ركبة إلى أخرى، تمسك بيدها أزياءً مطرّزة بالذهب، وتدفن أصابعها في لحًى سميكة ومعطّرة لأشخاص لا تستطيع تذكّر أسمائهم، لا هي ولا ببّغاؤها. وحده اسم كانافارو ترسّخ في الذّاكرة لأنّه

twitter @baghdad_library

كان أصغرهم وأقربهم إلى قلبها ولأنّ الببّغاء لم يستطع لفظ اسم غيره. أمّا الأسماء الأخرى فكانت معقّدة وصعبة النّطق، ولهذا تبخّرت.

تنهّدت السيدة هورتانز بعمق وضمّت الصليب بهيام إليها.

«يا حبيبي كانافارو، يا حبيبي كانافارو الصغير...» ردّدت في هذيانها، وهي تضمّ الصليب إلى صدرها الذّابل.

تمتمت العمة لينيو: «لم تعد تعرف ما تقوله. لا بدّ أنها رأتْ ملاكها الحارس وخافت...سنفكّ مناديلنا ونقترب».

قالت الأم مالاماتينيا: «ماذا؟ أليس لديك أي خوف من الله؟ أتريديننا أن نبدأ النحيب وهي ما تزال حية؟»

أجابت العمة لينيو بصوت منخفض: «أيتها الأم مالاماتينيا، أليس من الأجدى أن تفكّري في صندوقها وثيابها وما تملكه من بضاعة في الحانوت، وفي الدجاج والأرانب التي تملأ الفناء، عوض أن تقولي لي إنه ينبغي أن ننتظر إلى أن تلفظ نفسَها الأخير؟! كلاّ! إنّ أوّل من أتى هو أوّل من يجب أن يأخذ».

وما إن قالت هذا حتى نهضت وتبعتها الأخرى غاضبة. فتحَتا منديلَيهما الأسودين، أنزلتا شَعرهما الرقيق الشائب وأمسكتَا حافتيّ الفراش.

أعطت العمّة لينيو الإشارة الأولى مطلقة صرخة طويلة حادّة كافية لبثّ رجفة باردة في عمودك الفقريّ.

إي ي ي!

قفز زوربا، فأمسك المرأتين من شعرهما وجرّهما إلى الخلف. صائحا فيهما:

«أغلقا حلقيكما أيتها البومتان العجوزان. ألا تريان أنها ما تزال على قيد الحياة؟ اذهبا إلى الجحيم!»

تمتمت الأم مالاماتينيا مثبّتة منديلها مرة أخرى: «عجوز خرف! من

أين أُلقي علينا هذا اللّئيم المتطفّل!»

سمعتُ السيدة هورتانز، عروس البحر المتألّمة، الصرخة الحادّة قرب فراشها فتبخّرت رؤاها اللّذيذة؛ غرقت سفينة الأميرال، اختفى اللّحم المشوي والشمبانيا واللحى المعطّرة، وسقطت عائدة إلى فراشها المضمّخ برائحة النّهايات. بذلت جهدا كي تحمل نفسها، وكأنها تريد الهرب، ولكنها سقطت مرّة أخرى وهي تصرخ بصوت ناعم وشاك:

«لا أريد أن أموت! لا أريد...»

انحنى زوربا عليها، داعب جبينها بيده الكبيرة الخشنة، وأزاح عن وجهها الشعر؛ كانت عيناه الشبيهتان بعينيّ صقر طافحتين بالدموع.

تمتم: «اهدئي يا عزيزتي، اهدئي. أنا هنا؛ هذا أنا زوربا فلا تخافي».

وفجأة عادتْ الرؤية، كفراشة كبيرة بلون البحر أشرعت أجنحتها على السّرير فغطّته كلّه. أمسكت العجوز المحتضرة يد زوربا الكبيرة، مدّت ذراعها ببطء ولفّتْها حول عنقه حين انحنى فوقها. وتحرّكت شفتاها وتمتمت...

«حبيبي كانافارو! صغيري كانافارو!..»

انزلق الصليب عن المخدّة فوقع على الأرض وتحطّم إلى قطع قليلة بينما تعالى صوت رجل في الفناء.

«هيّا! هات الدجاجة الآن، الماء يغلي».

كنتُ أجلسُ في زاوية الغرفة وكانت عيناي تغرورقان بالدموع بين فينة وأخرى. هذه هي الحياة، هكذا صارحت نفسي: مُلتبسة، غير متناغمة، لامبالية، منحرفة وبلا رحمة. وإلاّ كيف يأتي هؤلاء الفلاحون الكريتيون البدائيون ليحيطوا بمغنية الحانة العجوز هذه ويتفرّجوا عليها، يجيئون من أقصى الأرض لمراقبة احتضارها بأعين متوحّشة، وكأنها ليست كائنا بشريا. لكأنّ طائرا غريبا سقط من السماء وتحطّم جناحاه، فتجمّعوا على الشاطئ قرب قريتهم كي يراقبوه وهو يَنفُق. طاووس هرم، هرّة

twitter @baghdad_library

عجوز ذات وبر طويل، فقمة مترهّلة ومريضة...

أزاح زوربا بلطف ذراع السيدة هورتانز من حول عنقه ونهض شاحب الوجه. مسح دموعه بظهر يده، ونظر إلى المرأة المريضة لكنّه لم يستطع أن يرى أيّ شيء. مسح عينيه ثانية فاستطاع فقط أن يراها تحرّك قدميها الرّخوتين المنتفختين في السرير وتلوي فمها من الرعب. هزّتْ نفسها مرة، مرتين، وقع غطاء السرير على الأرض فظهرت نصف عارية مبلّلة بالعرق ومنتفخة. أمّا لونها فأصفر ضارب إلى الخضرة. أطلقت صرخة طويلة حادة كصرخة الديك حين يُذبح، ثم تجمّدتْ النظرة في عينيها المفتوحتين المرعوبتين وقد فرغتا من الحياة.

قفز الببغاء إلى قاع قفصه، أمسك القضبان وراقب زوربا وهو يمدّ يده الكبيرة برقة متناهية ويطبق جفني المحظية.

«بسرعة، كلّكنّ! لقد ماتت!» صاحت النادبتان مندفعتين إلى السرير. وأطلقتا صرخة مطوّلة، وهما تهتزّان إلى الأمام وإلى الخلف، شادّتين قَبَضَاتِهِما ضاربتيْن على صدريْهما. وشيئا فشيئا أحدث فيهما هذا الإيقاع الرّتيب والكئيب حالة من الانخطاف الخفيف، ذلك أنّ أحزانهما السحيقة قد صعدت إلى ذهنيهما، فانفلقت قشرة القلب وإذا بالندب يتدفّق.

«غير ملائم لك، أن تستلقي تحت التراب...»

خرج زوربا إلى الساحة. أراد أن يبكي لكنه شعر بالعار من أن يفعل هذا أمام النساء. أذكر أنّه قال لي مرة: «لا أخجل من البكاء، أمام الرجال. ثمّتَ وحدة بين الرجال جميعا، أليس كذلك؟ فلا يكون الأمر عارا. ولكن، أمام النساء، على الرجل أن يبرهن دوما أنّه شجاع. فإذا بدأنا نحن بالبكاء فما الذي سيحدث لأولئك المسكينات؟ حتما ستكون النهاية!»

غسّلوها بالنبيذ؛ المرأة العجوز التي كانت تكفّنها فتحت الصندوق وأخرجت ثيابا نظيفة وغيّرت لها، وسكبتْ فوقها زجاجة كولونيا. ومن الحدائق القريبة جاءت ذبابات السّروء التي تضع بيضها على الجثث

فباضت في منخريها، وحول عينيها، وفي زوايا شفتيها.

كان اللّيل قد خيّم. والسماء ناحية الغرب جميلة وهادئة. وراحت غيمات صغيرة حمراء متناثرة، موشّاة بالذهب، تطوف عبر سماء المساء الأرجوانية المظلمة، بدت تارة كالسفن وطورا كالبجعات، وأحيانا كوحوش أسطورية مصنوعة من القطن الخام والحرير المزركش. وعبر صفوف القصب في الفناء كان يمكن رؤية توهّج الأمواج المتلاطمة.

طار غرابان سمينان من فوق شجرة تين قريبة وحطّا في الفناء. فالتقط زوربا، وهو يزمجر غضبا، حجرا ورماهما به .

في الرّكن المقابل للباحة حضّر صعاليك القرية وليمة هائلة. كانوا قد أخرجوا طاولة المطبخ الكبيرة، وبعد أن نقّبوا في كلّ مكان عثروا على الخبز والصحون والسكاكين والشوكات. أحضروا كذلك دمجانة نبيذ من القبو، وطبخوا بعض الدجاجات في الإناء. والآن، ما بين جوع ومرح، شرعوا في الأكل والشرب باستساغة مُبَالَغ فيها وهم يقرعون الكؤوس.

«لينقذ الله روحها! وليغفر لها كلّ ما فعلته!»

«ليتحوّل جميع عشاقها إلى ملائكة كي يحملوا روحها إلى الفردوس!»

وقال مانولاكاس: «انظروا فحسب إلى حبيبها زوربا العجوز. إنه يرمي الأحجار على الغربان! إنه أرمل الآن؛ لنطلب منه أن يشرب نخب ذكرى امرأته! مرحبا يا زوربا! تعال وانضمّ إلينا، يا ابن البلد».

التفت زوربا. رأى المائدة العامرة، الدّجاج في الصّحون يتصاعد منه البخار، النبيذ المتلألئ في الكؤوس، والأشخاص الضخام السمر وهم يجلسون بمرح، وشالاتهم مربوطة حول رؤوسهم. كانت روح الشباب تملأ الجميع.

تمتم: «تماسك يا زوربا! هنا يجب أن تظهر ممّا أنت مصنوع!»

ذهب إليهم، شرب كأسا بجرعة واحدة، ثم كأسا ثانية وثالثة، وأكل فخذ دجاجة. تحدّثوا معه، لكنه لم يجبهم. أكل وشرب بسرعة، بجشع،

twitter @baghdad_library

بلقمات كبيرة، وجرعات مطوّلة، وبصمت. واصل النظر إلى الغرفة حيث كانت بوبولينا مستلقية، وأصغى إلى الندب القادم من نافذة الغرفة المفتوحة. كانت أغاني الندب الجنائزية تتوقف بين فينة وأخرى فيتسنّى له سماع بعض الصيحات المقترنة بنشوب النزاعات، وصوت الصناديق والخزائن وهي تُفتح وتُغلق، ووقع خطى سريعة لأشخاص كأنّهم يتقاتلون، لتعود أغاني الندب من جديد رتيبة، يائسة، وخفيفة كطنين النحل.

كانت المرأتان تركضان جيئة وذهابا في غرفة الموت، ترتّلان أناشيد الندب وهما تنقّبان بشكل محموم في كلّ زاوية. فتحتا خزانة فعثرتا على عدة ملاعق، بعض السكر، علبة قهوة، وصندوق من الحلويات التركية. أخذت الأم العجوز مالاماتينيا السكر والملاعق ثمّ أمسكت بقطعتي حلوى ورمتهما في فمها، ولوهلة خرج الندب مكتوما ومختنقا عبر الحلوى المعجونة بين فكّيها.

«لتمطرِ الأزهارُ عليك وليَسقُطْ في حجرك التفاح...»

زحفت عجوزان أخريان إلى الغرفة، اندفعتا إلى الصندوق، أدخلتا فيه أيديهما، وأخرجتا بعض المناديل، منشفتين أو ثلاثًا، ثلاثة أزواج من الجوارب الحريرية، حمّالة جوارب، ودسّتا كل شيء في صدريهما، ثم التفتتا إلى المرأة الميتة على السرير ورسمتا علامة الصليب.

شاهدت الأم مالاماتينيا العجوزين تسرقان الصندوق فغضبت.

«تابعي يا عزيزتي، تابعي، لن أكون الثانية!» نادت العمة لينيو وغاصت برأسها في الصندوق.

قطع من الساتان القديم، فستان بنفسجي زاه عتيق الطراز، خفّ قديم بال، مروحة مكسورة، مظلّة قرمزية جديدة، وفي القاع تماما، قبعة أميرال مثلثة الزوايا. هدية قدمها أحدهم لبوبولينا منذ وقت طويل. حين تكون وحيدة في المنزل، كانت تعتمرها وهي تنظر في المرآة بإعجاب وأسف.

اقترب أحدهم من الباب. خرجت النساء العجائز، فيما أمسكت

العمة لينيو فراش الموت مرة أخرى وبدأت تقرع صدرها وهي تنشد:

«...وأزهار قرنقل قرمزية حول عنقك...»

دخل زوربا، نظر إلى المرأة الميتة، هادئة ومسالمة، صفراء تماما والذباب يحوم حولها، وهي ممدّدة، ذراعاها متصالبتان، وحول عنقها شريط المخمل الصغير.

قال بينه وبين نفسه: إنها حفنة من التراب، حفنة من التراب كانت تجوع، وتضحك، وتعانق... كتلة من الطين كانت تذرف الدموع. والآن؟... من هذا الشيطان الذي يأتي بنا إلى هذه الأرض، وأيّ شيطان يأخذنا بعيدا عنها؟

بصق الفكرة وجلس.

في الخارج عند الباحة، كان الشبّان يأخذون أمكنتهم استعدادا للرّقص. وأخيرا جاء لاعب القيثارة الماهر فانوريو. أزاحوا الطاولات جانبا، وأبعدوا علب العطر وحوض الغسيل وسلّة الثياب، كي يفسحوا مجالا للرقص.

ظهر وجهاء القرية: العمّ أناغنوستي، بعصاه الطويلة المعقوفة وقميصه الرّسميّ الأبيض؛ كوندومانوليو، الممتلئ والقذر؛ والمدرّس بمحبرة نحاسية في حزامه، ومسّاكة ريشة خلف أذنه. وحده العجوز مافراندوني لم يأت؛ قيل إنّه هرب إلى الجبال بعد أن سُجّل خارجا عن القانون.

قال العم أناغنوستي رافعا يده ملقيا التحيّة: «تسعدني رؤيتكم تمتّعون أنفسكم! ليباركُم الرّب جميعا! ولكن لا تصيحوا... يجب ألا تصيحوا كي لا يسمعكم الميت، تذكّروا، إن الميت يستطيع أن يسمع».

شرح كوندومانوليو:

«جئنا كي نجرد ممتلكات المرأة الميتة، كي توزّع بالتساوي على الفقراء. لقد أكلتم جميعا وشربتم حتى شبعتم، والآن هذا يكفي. لا

twitter @baghdad_library

تسلبوا المكان كلّه! وإلاّ...!» لوّح بعصاه في الجوّ مهدّدا.

وظهر خلف الأعيان الثلاثة، حوالي عشر نساء يرتدين الأسمال، بشعر مشعّث وأقدام حافية. كانت كلّ منهنّ تحمل كيسا فارغا تحت ذراعها وسلّة على ظهرها. وكنّ يقتربن خلسة، خطوة خطوة، دون أن يتفوهّن بكلمة واحدة.

استدار العم أناغنوستي، ورآهنّ فانفجر قائلا: «عدن يا قطيع الغجر. ماذا؟ جئتنّ كي تقتحمن المكان؟ سندوّن كلّ شيء، بندا بندا، ثم سيوزّع كلّ شيء بالعدل والتساوي بين الفقراء. هيّا، عدن من حيث أتيتنّ!»

أخرج المدرّس المحبرة من حزامه، فتح ورقة كبيرة، وذهب إلى الحانوت الصغير كي يبدأ الجرد.

ولكن في تلك اللحظة بالذّات، سُمعت ضجّة تصمّ الآذان وكأنّ أحدَهُم يقرع عُلب الصفيح، كأنّ مكبّات تتساقط، وأصوات كؤوس تتصادم وتتحطّم. وفي المطبخ سُمع صوت مدوّ بين القدور والصحون والسكاكين.

اندفع العجوز كوندومانوليو إلى هناك، شاهرا عصاه. ولكن ماذا يستطيع أن يفعل حيال ما رأى؟ نساء عجائز، رجال وأطفال يندفعون من الأبواب، ويقفزون من النوافذ المفتوحة، ومن فوق الأسيجة وعن الشرفة، وكلّ واحد منهم يحمل ما استطاع سرقته من السكاكين والمقالي والمخدات والأرانب... بل إنّ بعضهم خلع الأبواب والنوافذ من مصارعها وحملها على ظهره. وحتّى ميميكو نفسُه قد حمل نعلين من نعال المرحومة و شدّهما بخيط علّقه حول عنقه. فبدا وكأنّ السيدة هورتانز كانت تمتطي كتفيه ولا يظهر منها سوى حذائها...

قطّب المدرّس، أعاد المحبرة إلى حزامه، طوى الورقة العذراء دون أن يكتب كلمة أو يتفوّه بحرف وكأنّ كرامته قد أهينت، ثمّ عبر العتبة وانطلق بعيدا.

انبرى العجوز المسكين أناغنوستي يصيح في الناس ويتوسّل إليهم كي

يكفّوا، وهو يلوّح بعصاه.

«عار عليكم! عار عليكم! إنّ الموتى يستطيعون سماعكم، تذكّروا!»

قال ميميكو: «هل أذهب وأستدعي الكاهن؟»

أجابه كوندومانوليو غاضبا: «أيّ كاهن أيها المغفّل؟ إنّها فرنجيّة؛ ألم تلاحظ كيف كانت ترسم إشارة الصليب؟ بأربعة أصابع مثل ذلك المارق! هيا، لندفنها، كي لا تزعجنا بنتانتها وتصيب القرية كلّها بالعدوى».

«لقد بدأت جثّتها تفور بالديدان! أقسم لكم!» قال ميميكو وهو يرسم إشارة الصليب.

هزّ الأب العجوز أناغنوستي رأسه، بوقار سيّد القرية.

«وما الغريب في هذا أيها أبله؟ الحقيقة هي أنّ الإنسان مليء بالديدان منذ ولادته، ولكننا لا نستطيع رؤيتها. حين تكتشف أنّ الجسد بدأ يتعفّن تخرج من جحورها. ديدان بيضاء مثل ديدان الجبنة!»

ظهرت النجوم الأولى في السماء معلّقة راجفة كأجراس فضّية صغيرة. تنامى عددها في الظلمة وإذا باللّيل يسكب رنينه على القرية.

أنزل زوربا الببغاء والقفص من فوق رأس الميّتة. كان الطائر اليتيم يجثم في إحدى الزوايا مرعوبا؛ وينظر بعينين محدّقتين لكنه لم يستطع فهم أيّ شيء. فدفن رأسه تحت جناحيه وتقوقع على نفسه.

حين أنزل زوربا القفص رفع الطائر رأسه. همّ بالكلام ولكن زوربا مدّ يده وأوقفه متمتما بصوت خافت: «اسكت! اسكت! هيّا معي».

مال زوربا إلى الأمام ونظر إلى وجه المرأة الميتة. نظر طويلا وحلقه متيبّس جاف.

انحنى عليها وكأنّه سيقبّلها ولكنه تمالك نفسه. وقال:

«لنذهب إكراما لله!». التقط القفص وخرج إلى الفناء. وهناك شاهدني فجاء إليّ. وقال بصوت منخفض، وهو يسحبني من ذراعي:

«لنغادر الآن...»

twitter @baghdad_library

بدا هادئا، ولكنّ شفتيه كانتا ترتجفان.

قلت له: «كلّنا سنسلك هذا الطريق نفسه...»

قال ساخرا: » يا له من عزاء عميق! لننطلق!»

قلت: «لحظة واحدة. لقد بدؤوا لتوّهم بنقلها. يجب أن ننتظر ونشاهد هذا... ألا تستطيع أن تتماسك إلى النّهاية؟»

«حسنا...» أجابني بصوت مختنق. وضع القفص على الأرض وطوى ذراعيه.

خرج من غرفة الموت الأب أناغنوستي وكوندومانوليو عاريي الرأس ورسما إشارة الصليب. وخلفهما سار أربعة راقصين، ووردات نيسان ما تزال معلّقة خلف آذانهم. كانوا مرحين ونصف سكارى وكان كلٌّ منهم يحمل زاوية من الباب الذي وضعوا عليه جثة المرأة. تبعهم عازف القيثارة بآلته، وخلفه أكثر من عشرة رجال آخرين مترنّحين، وهم يلوكون بقايا الوليمة، وخمس نساء أو ست، تحمل كلٌّ منهنّ قدرا أو كرسيّا. وكان ميميكو آخر من خرج والنعلان الباليان يتدليان من عنقه، وهو يصيح بمرح:

«قتلة! قتلة! قتلة!»

هبّتْ ريح دافئة مشبعة بالرطوبة، وتلاطم موج البحر مُعلنا عن غضبه. رفع عازف القيثارة قوسه وصدح صوته العذب بمرح وسخرية في الليل الدافئ.

«آه أيّتها الشمس الحبيبة، لِمَ عجّلت بالاختفاء؟...»

فقال زوربا: «هيا بنا. لقد انتهى الأمر الآن...»

-24-

سرنا صامتين في شوارع القرية الضيّقة. كانت المصابيح مطفأة فبدت المنازل مثل بقع سوداء تلطّخ ثوب اللّيل. وفي مكان ما، كان هنالك كلب ينبح وعجل يخور وكانت الرّيح تحمل إلينا أنغام القيثارة المرحة المتدفّقة بسلاسة من بعيد كتدفّق مياه نافورة عابثة.

قلتُ كي أكسر صمتنا الثقيل: «ما هذه الريح يا زوربا، هل هي ريح الجنوب؟»

لكن زوربا سار أمامي، حاملا قفص الببغاء كما يحمل الفانوس دون أن يجيبني. وحين وصل إلى الشاطئ استدار. وسألني:

«هل أنت جائع أيّها الرئيس؟»

«كلا، لستُ جائعا، يا زوربا؟»

«هل تشعر بالنعاس؟»

«كلا».

«ولا أنا. أنجلس قليلا على الحصى؟ لديّ رجاء عندك».

كنا متعبين، لم يرغب أيٌّ منا في النوم. لم نكن نريد أن نفقد أحزان الساعات القليلة الماضية، فبدا لنا النوم كالفرار ساعة الخطر. وشعرنا بالعار من الذهاب إلى السرير.

جلسنا على الشاطئ. وضع زوربا القفص بين ركبتيه وبقي صامتا لبعض الوقت. ومن خلف الجبل، شكّلت النجوم في السماء صورة مزعجة، وحشا حقيقيّا بأعين لا تُحصى وذيل لولبيّ. وبين فينة وأخرى، ينفصل نجم عن البقيّة ويسقط بعيدا.

نظر زوربا إلى السماء بفم مفتوح في نوع من النشوة، كما لو أنه يراها

twitter @baghdad_library

للمرة الأولى. وتمتم:

«ما الذي يمكن أن يجري هناك؟»

وبعد لحظة قرّر أن يتحدّث.

قال بصوت بدا عميقا وجديّا في سكون الليّل الدافئ: «هل بوسعك أن تخبرني، أيّها الرئيس، ما الذي تعنيه كلّ هذه الأشياء؟ من صنعها كلّها؟ ولماذا؟ وقبل كلّ شيء» - وهنا أخذ صوته يرتجف من الغضب والخوف- «قبل كلّ شيء لماذا يموت الناس؟»

بصوت خجول، أخبرته أنّني لا أعرف، كما لو أنّ أبسط الأسئلة وأشدّها خطورة قد طُرح عليّ ولم أكن قادرا على الشرح.

«لا تعرف!» قال زوربا في دهشة وسّعت حدقتي عينيه، بالتعبير نفسه حين اعترفتُ له الليّلة الماضية بأنّني لا أحسن الرقص.

صمت لحظة ثم نطق فجأة.

«حسنا، ما نفع كلّ تلك الكتب الملعونة التي قرأتها؟ لماذا تقرؤها؟ إذا لم تخبرك بهذا، فما الذي تخبرك به؟»

«إنّها تخبرني عن حيرة البشرية التي لا تستطيع أن تجيب على السؤال الذي طرحته عليّ لتوّك، يا زوربا؟»

«آه! اللعنة على حيرتها!» صاح ضاربا الأرض بقدمه في يأس.

أجفل الببغاء من الضجّة فصاح وكأنّه يطلب النجدة:

«كانافارو! كانافارو!».

صاح زوربا خابطا القفص بقبضته: «اخرسْ! أنت أيضا!»

استدار نحوي.

«أريدك أن تخبرني من أين أتينا وإلى أين سنذهب. لقد انشغلتَ طوال السّنين الماضية باستهلاك كتبهم عن السّحر الأسود ولا بدّ أنّك مضغت بضعة أطنان من الورق، فما الّذي استخلصته منها؟»

كان هناك كثير من الألم في صوته كاد يخلع قلبي من الكآبة. آه! كم

وددت أن أكون قادرا على إجابته!

شعرتُ عميقا، في داخلي، أنّ النقطة الأعلى التي يستطيع أن ينجزها الإنسان ليست المعرفة، أو الفضيلة، أو الطيبة، أو النصر، بل شيء أعظم، أكثر بطولة وأشدّ يأسا: الرعب المقدّس!

سأل زوربا بلهفة: «هل تستطيع الإجابة؟»

حاولتُ أن أجعل رفيقي يفهم ما عنيتُ بالرعب المقدس.

«نحن ديدان صغيرة، يا زوربا، ديدان صغيرة جدا على ورقة صغيرة في شجرة ضخمة. هذه الورقة الصغيرة هي الأرض. الأوراق الأخرى هي النجوم التي تراها تتحرّك في الليل. نشقّ طريقنا على هذه الورقة الصغيرة ونفحصها بلهفة وحرص. نشمّها؛ تفوح منها رائحة طيّبة أو كريهة. نتذوّقها فنجدها قابلة للأكل. ندوسها فتئنّ وتصيح ككائن حيّ.

يصل بعض الرجال - الأكثر جرأة- إلى حافة الورقة. ومن هناك نطلّ، ونحدّق في العماء. نرتجف. ونخمّن أية هاوية مرعبة تكمن تحتنا. وفي المسافة نستطيع أن نسمع حفيف الأوراق الأخرى في شجرتنا الهائلة، نشعر بالنسغ يصعد من الجذور إلى ورقتنا فتنتفخ قلوبنا. مُطلّين هكذا على الهاوية نبدأ بالارتعاد، بكل أجسادنا... وبكل أرواحنا. ومن صميم تلك اللحظة يبدأ...»

توقّفتُ. أردت أن أقول: «من صميم تلك اللحظة يبدأ الشعر»، ولكن زوربا لن يفهم. توقفت.

سألني زوربا بصوت متلهّف: «ما الذي يبدأ؟ لماذا توقّفت؟»

«... يبدأ الخطر الكبير، يا زوربا. يصاب البعض بالدوار فيهذون، يخاف آخرون؛ يحاولون العثور على جواب كي يثبّتوا قلوبهم، ويقولون: يا إلهي!.. بينما ينظر آخرون من حافة الورقة ذاتها إلى الهاوية بهدوء وشجاعة ويقولون: نحبّ هذا!»

فكّر زوربا وقتا طويلا. كان يجهد كي يفهم. وأخيرا قال:

twitter @baghdad_library

«أفكّر في الموت كلّ ثانية. أنظر إليه دون خوف. ولكنني لا أقول أبدا إنّني أحبّه. كلاّ، لا أحبّه إطلاقا! لست موافقا!»

وصمت، لكنّه سرعان ما عاود الانفجار:

«كلاّ، لستُ أنا الذي يسلم عنقه لكلب الجحيم «شارون» كخروف ويقول: اذبحني، يا سيد «شارون» من فضلك: أريد أن أذهب مباشرة إلى الجنة!»

أصغيتُ إلى زوربا حائرا. من المعلّم الذي حاول أن يعلّم تلاميذه أن يفعلوا طوعا ما يأمر به القانون؟ أن يقولوا نعم للضرورة ويغيّروا المحتوم إلى شيء أنجزوه بإرادتهم الحرّة؟ ربّما هذه هي الطريقة الإنسانية الوحيدة للخلاص. إنّها طريقة مثيرة للشفقة، لكن لا وجود لأخرى.

ولكن ماذا عن التمرّد؟ قفزة الإنسان الدونكيشوتية لقهر الضرورة وجعل القوانين الخارجية تنسجم مع قوانين الروح الداخلية، لإنكار كلّ ما هو موجود وخلق عالم جديد أرقى وأنقى وأكثر أخلاقية من هذا العالم، وفق قوانين قلب الإنسان، المناقضة لقوانين الطبيعة اللاإنسانية.

نظر زوربا إليّ، وحين عرف أنني لا أملك المزيد كي أقوله له، حمل القفص بحرص كي لا يوقظ الببغاء، وضعه قرب رأسه وتمدّد على الحصى. ثمّ قال:

«عمتَ مساء أيّها الرئيس. هذا يكفي».

هبّت ريح جنوبية قويّة قادمة من إفريقيا. ريح من تلك التي تجعل كلّ شيء ينمو وينتفخ، الخضار والفاكهة والصدور الكريتية. شعرتُ بها على جبيني وشفتيَّ وعنقي؛ وكان عقلي يطقطق وهو ينتفخ مثل ثمرة.

لم أستطع النوم ولم أرغب في ذلك حتّى. لم أفكر في أي شيء. فقط شعرت بشيء ما، ينضج داخلي في هذا الليل الدافئ. عشتُ بوضوح تجربة أكثر إدهاشا: رأيتُ نفسي أتغيّر. شيء ما... شيء من ذاك الذي لا يحدث عادة إلاّ في أعماق أحشائنا الأكثر غموضا، كان هذه المرّة

يحصل في العراء، جليّا أمام عينيّ. وأنا جالس على الشاطئ، أراقب حدوث هذه المعجزة.

استُنزفت النجوم وراق أديم السماء، وإزاء هذه الخلفيّة من النّور تجلّت الجبال والأشجار والنّوارس كما لو أنّ ريشة ماهرة رسمتها ببراعة.

كان النهار يتألّق.

□ □ □

مرّتْ عدة أيام. نضجت الحنطة وانحنت السنابل مثقلة بالحبّ. الزيزان على أشجار الزيتون تنشر الغبطة، وحشرات الضّوء تطنّ غارقة في النّور المحموم. ومن البحر كان البخار يتصاعد.

كان زوربا يمضي فجر كلّ يوم إلى الجبل صامتا. فقد شارف إنشاء المصعد على الانتهاء. إذ ثُبّتت الدعامات كلُّها، ومُدّت الحبال وعُلّقت البكرات. وعند الغسق عاد زوربا من العمل منهكا. أشعل النار، حضّر وجبة العشاء، وأكلنا. حرصنا على ألاّ نثير العفاريت النائمة فينا: الموت والخوف؛ لم نتحدّث أبدا عن الأرملة، أو عن السيّدة هورتانز أو الله. كنا فقط ننظر إلى البحر صامتين.

أمام صمت زوربا، تحرّكت في داخلي من جديد الأسئلة الأبدية عديمة الجدوى. مرّة أخرى يمتلأ صدري بالألم. ما هذا العالم؟ تساءلتُ. ما هو هدفه وبأية طريقة نستطيع المساعدة كي نحقّقه أثناء حيواتنا العابرة؟ حسَبَ زوربا، فإنّ هدف الإنسان والمادة هو خلق المتعة،غير أنّ آخرين يقولون إنّ الهدف هو خلق الروح، وهذا يؤدّي إلى النتيجة نفسها حتى وإن تغيّرت زاوية النظر. ولكن لماذا؟ ومن أجل ماذا؟ وحين يتحلّل الجسد، هل يتبقى أيّ شيء ممّا ندعوه روحا أم هو يفنى تماما؟ ماذا لو أنّ رغبتنا النهمة في الخلود، لا تنشأ من حقيقة كوننا خالدين، بل من حقيقة أخرى، هي أننا أثناء اللّحظة القصيرة التي نتنفّس فيها، نكون دون أن ننتبه في خدمة شيء ما خالد؟

twitter @baghdad_library

نهضتُ في أحد الأيام واغتسلتُ، بدا لي وكأنّ الأرض نهضت أيضا وأنهتْ غُسلها. وتألّقت وكأنها خُلقت من جديد. ذهبتُ إلى القرية. كان البحر الأزرق اللازورديّ على يساري ثابتا، وفي المدى الممتدّ على يميني تألّقت حقول القمح، كجيش يُشهر حرابه الذهبيّة. عبرتُ تينة الآنسة المكسوة أوراقا خضراء وثمارَ تين صغيرة، أسرعتُ متجاوزا حديقة الأرملة دون أن ألتفت. دخلتُ القرية. صار الفندق الصغير مهجورا الآن. تخلّعت أبوابه ونوافذه، حتّى غدت الكلاب تدخل إلى فنائه وتخرج منه على هواها، أقفرت الغرف ولم يبق في حجرة المرحومة شيء: لا سرير ولا صندوق ولا كراسيَ؛ لا شيء سوى كرة صوف حمراء وخُفّ ممزّق بكعب متآكل، مرميّ في إحدى زوايا الغرفة، ما يزال محافظا بإخلاص على شكل قدم صاحبته. بدا لي، ذلك الخُفّ البائس، أكثر تعاطفا من الرّوح البشرية، إذ هو لم ينس بعدُ القدَم الحبيبة وعذاباتها.

تأخرتُ في العودة. كان زوربا قد أشعل النار في الموقد وشرع في الطّبخ. وما إن رفع عينيه كي يحيّيني حتّى عرف على الفور أين كنت. قطّب جبينه، وبعد أيام عديدة من الصمت، فتح قفل قلبه في ذلك المساء وتحدّث.

«كلّ مرّة أعاني أيّها الرئيس»، قال وكأنه يريد تبرير ما فعله. «مع كلّ حزن جديد ينشطر قلبي قطعتين، لكنّه من فرط ما أثخن بالجراح والندوب سابقا، بات قادرا على إعادة إلصاق نفسه ثانية في لمح البصر فيتماسك سريعا ولا يُرى الجرح. أنا مغطّى بالجراح المندملة أيّها الرئيس، لذلك باستطاعتي الوقوف طويلا».

قلتُ بنبرة أفلتت من حلقي بوحشية: «لقد نسيتَ المسكينة بوبولينا بسرعة يا زوربا».

امتعض زوربا ورفع صوته صائحا:

«طريق جديد، وخطط جديدة! لقد توقّفتُ عن التفكير طوال الوقت في ما حدث البارحة. وعزفت عن سؤال نفسي ما الذي سيحدث غدا.

ولا آبه إلاّ بما يحدث اليوم، وفي هذه اللحظة. أقول: ما الذي تفعله في هذه اللحظة يا زوربا؟ أنا نائم. حسنا، نم جيدا. ما الذي تفعله في هذه اللحظة يا زوربا؟ أنا أعمل. حسنا، اعمل جيدا. ما الذي تفعله في هذه اللحظة يا زوربا؟ أنا أقبّل امرأة. حسنا، قبّلها جيدا، يا زوربا! وانس كلّ ما تبقّى وأنت تفعل هذا؛ لا يوجد شيء آخر على الأرض، سوى هي وأنت! هيّا، واصل الأمر!»

وتابع بعد لحظات:

«حين كانت بوبولينا على قيد الحياة، لم يقدّم لها أيّ كانافارو ما قدّمه لها العجوز زوربا من متعة. أتريد أن تعرف لماذا؟ لأنّ كلّ من هم على شاكلة كانافارو في العالم كانوا حين يقبّلونها يفكّرون إمّا بأساطيلهم، أو بالملك، أو بكريت، أو براياتهم وتزييناتهم أو بزوجاتهم. ولكنني كنت أنسى كلّ شيء آخر، وكانت تعرف هذا، العاهرة العجوز. دعني أخبرك بهذا يا صديقي المثقّف: لا توجد متعة للمرأة أكبر من هذه. إنّ المرأة الحقيقية - والآن استمع لهذا لعلّه ينفعك- تتمتّع باللّذة التي تمنحها للرّجل أكثر من تمتّعها باللّذة التي تأخذها منه».

انحنى قليلا كي يغذّي النار ببعض الحطب وصمت.

نظرتُ إليه وكنت في غاية السعادة. شعرتُ بأنّ هذه الدقائق على هذا الشاطئ المهجور بسيطة ولكنّها غنيّة بالقيمة الإنسانيّة العميقة. وكانت وجبتنا كلّ مساء تشبه اليخنات التي يعدّها البحارة حين ينزلون إلى شاطئ مهجور، وجبة أساسها السمك والمحار والبصل والكثير من الفلفل؛ طيبة أكثر من أي طبق آخر ولا مثيل لها في تغذية روح الإنسان. هناك، على حافة العالم، كنا مثل ناجين من تحطّم سفينة.

قال زوربا ملاحقا قطار أفكاره: «غدا سيبدأ خطّنا بالعمل. لن أبقى أسيرا على الأرض؛ أنا مخلوق الجوّ. أستطيع أن أحسّ بالبكرات على كتفيّ!»

twitter @baghdad_library

«أتتذكّر الطُعم الذي رميته لي في مطعم بيرايوس كي تجعلني أعلق؟ سألته. ادّعيت أنك تستطيع إعداد أروع أنواع الحساء وصادف أن هذا أكثر ما أحبّ. كيف عرفت؟»

هزّ زوربا رأسه بشيء من الاحتقار:

«لا أعرف أيها الرئيس. هذا ما خطر في رأسي وقتها. فالطريقة التي كنت تجلس بها في زاوية المقهى هادئا ومتحفّظا ومنحنيا فوق كتاب مذهّب الأطراف. أشعرتني بأنّك تحبّ الحساء فحسب، لا أعرف، هذا كلّ شيء. هكذا خطر لي الأمر؛ ولا أفهم كيف ولماذا!»

توقّف فجأة، ومال إلى الأمام مصغيا. وقال:

«اصمت. ثمّتَ شخص قادم».

سمعنا وقع خطوات سريعة ولُهاث شخص ما يركض. وفجأة ظهر في ضوء ألسنة اللّهب المرتعش راهب ممزّق الرداء ، عاري الرأس، بلحية حمراء وشارب صغير، تفوح منه رائحة البارافين القوية.

فصاح زوربا وقد عرفه: «ها! أهلا بك أيها الأب زكريا! ما الذي جعلك على هذه الحالة؟»

وقع الراهب على الأرض قرب النار. وذقنه يرتعش. فمال زوربا نحوه وغمز بعينه مستوضحا.

فأجاب الراهب: «نعم».

صاح زوربا: «برافو، أيّها الراهب! مؤكّد الآن أنّك ستذهب إلى الفردوس؛ لن تُحرم منه. وستكون في يدك صفيحة من البارافين حين تدخل!»

تمتم الراهب وهو يرسم علامة الصليب: «آمين!»

«كيف حدث الأمر؟ ومتى فعلتها؟ هيّا أخبرنا».

«رأيت الملاك الرّئيس «ميكائيل» أيّها الأخ كانافارو وهو الّذي أصدر الأمر. اسمع كيف جرى كلّ شيء: كنت في المطبخ أقشّر بعض الفاصولياء

بينما كان الرّهبان يؤدّون صلاة الغروب، كنت بمفردي، الباب مغلق وكلّ شيء هادئ تماما... استطعت سماع الطّيور وهي تغرّد في الخارج، وبدت لي وقتها كالملائكة. لقد حضّرتُ كلّ شيء وبقيت أنتظر الإشارة... اشتريت صفيحة بارافين وخبّأتها في الكنيسة، عند المقبرة، تحت الطّاولة المقدّسة كي يباركها الملاك الرّئيس «ميكائيل».

وهكذا كنت وأنا أقشّر الفاصولياء أفكّر في دخول الفردوس. قلت في نفسي: «أيها المسيح، أنا أيضا أستحقّ مملكة السماوات، ولأجل ذلك أنا مستعدّ لتقشير الفاصولياء إلى الأبد في مطابخ الجنّة». هذا ما كنت أفكّر فيه والدّموع تبلّل وجهي. فجأة سمعتُ رفرفة أجنحة فوقي. فهمتُ الأمر على الفور، أحنيتُ رأسي وأنا أرتجف من الخوف. ثم سمعتُ صوتا: ارفع بصرك يا زكريا ولا تخش شيئا. ولكنني كنت أرتجف بشدّة حتى سقطتُ على الأرض. ردّد الصوت مرّة أخرى: ارفع بصرك يا زكريا! فنظرتُ إلى الأعلى ويا لهول ما رأيت: كان الباب مفتوحا وعلى العتبة وقف الملاك الرئيس ميكائيل، كما هو مرسوم على باب المعبد تماما، إنه نفسه تماما؛ بأجنحة سوداء، وخُفّ أحمر وهالة ذهبية؛ ولكن بدلا من السيف كان يحمل مشعلا. قال: مرحبا يا زكريا! أنا خادم الله، أجبته. ما الذي تأمر به؟ قال: خذ المشعل الملتهب وليكن الله معك. مددتُ يدي وشعرت براحة كفي تحترق. ولكنّ الملاك كان قد اختفى. كان كلّ ما رأيته هو خيط من النار يشقّ السماء، كشهاب عابر».

مسح الراهب العرق عن وجهه. كان قد شحب تماما وأخذت أسنانه تصطكّ كما لو أنّه مصاب بالحمّى.

قال زوربا: «هيّا. اصمد يا زكريا. ما الذي حدث؟»

«في تلك اللحظة تماما كان الرهبان عائدين من صلاة الغروب متوجّهين نحو حجرة الطعام. حين عبر رئيس الدير رفسني كما لو أنني كلب فضحك الرهبان كلّهم. لم أتفوّه ببنت شفة. فبعد زيارة الملاك

twitter @baghdad_library

الرئيس كان الجوّ ما يزال يعبق برائحة الكبريت، ولكن لم يشمّها أيّ منهم. قال لي المشرف على الطعام: ألا تريد أن تأكل يا زكريا؟ لكنّني لم أتفوه بكلمة واحدة.

قال ديميتريوس اللوطي إنّ طعام الملائكة يكفيني فضحك الرهبان مرة أخرى. وهكذا نهضت وذهبتُ إلى المقبرة. سجدتُ أمام الملاك الرئيس... شعرتُ لساعات طويلة بقدمه الثقيلة فوق عنقي. مرّ الوقت كالبرق. هكذا تمرّ الساعات والقرون في الفردوس. وحلّ منتصف الليل. كان الهدوء مخيّما. والرهبان قد أووا إلى أسرّتهم. فنهضتُ، ورسمتُ علامة الصليب ثمّ تقدّمت إلى قدم الملاك وقبّلتها. «سيُقضى عليهم»، قلتُ. أخرجتُ صفيحة البارافين، فتحتها، حشوتُ ردائي بالخرق وذهبت.

كانت ليلة سوداء كالحبر. لا قمرَ في سمائها. وكان الدير مظلما، كالجحيم. دخلتُ إلى فنائه، صعدتُ الدرج الذي يؤدي إلى غرفة رئيس الدير. رششتُ الباب والنوافذ والجدران بالبارافين. ثم ركضتُ إلى حجرة ديميتريوس وبعدها سكبتُ البارافين على الحجرات كلّها وعلى البهو الخشبي أيضا. إثر ذلك ذهبتُ إلى الكنيسة، أخذت شمعة من المصباح المعلّق أمام تمثال يسوع وأشعلتُ النار».

فقد الراهب نفَسَهُ، فتوقّف. كانت عيناه تتوقّدان بلهب داخليّ.

وصاح، راسما علامة الصليب: «المجد لله! المجد لله! لقد اشتعل الدير كلّه، وبعد لحظات تعالتْ ألسنة اللّهب كالجحيم! فصحتُ بأعلى صوتي ثم هربت بأقصى سرعة ممكنة. ركضت و ركضت، وأنا أسمع الأجراس تُقرع والرهبان يصيحون... وتابعت ركضي...

بزغ النهار فاختبأتُ في الغابة. كنت أرتجف. أشرقتْ الشمس وسمعتُ الرهبان يبحثون عني في الغابة. لكن الله أرسل ضبابا كي يخفيني عن أعينهم. وعند الغروب، سمعتُ صوتا يأمرني: اذهبْ إلى البحر. فقلتُ: أَرْشدْني أيها الملاك! أرشدني! وانطلقت. لم أعرف أيّ طريق أسلكُ، لكنّ

الملاك وجّهني، تارة بوميض برق وطورا بطائر أسود على شجرة أو عبر ممرّ ينحدر من الجبال. ركضتُ وراءه قدر استطاعتي، واضعا يقيني الكليّ فيه. إنّ عطاءه غزير، وكما ترى! ها قد عثرتُ عليك يا عزيزي كانافارو! لقد نجوت».

لم يتفوّه زوربا بأيّ كلمة، وعلتْ وجهه ابتسامة واسعة آسرة، من زاويتيّ فمه إلى أذنيه المشعرتين كأذني الحمار.

كان العشاء جاهزا فحمل القدر من على النّار. وسأل:

«ما هو طعام الملائكة يا زكريا؟»

أجاب الكاهن وهو يرسم علامة الصليب: «الروح!»

«الروح؟ بتعبير آخر، الريح؟ هذا لا يغذّي الإنسان؛ تعال وكلْ بعض الخبز وحساء السمك وقطعة من اللحم أو اثنتين، سترمّم نفسك ثانية. لقد قمتَ بعمل جيّد! تعال كلْ!»

قال الراهب: «لا أشعر بالجوع».

«زكريا ليس جائعا، ولكن ماذا عن جوزف؟ أليس جائعا؟»

أجاب الراهب بصوت منخفض، وكأنه يكشف سرّا عميقا: «لقد احترق جوزف، اللعنة على روحه! لقد احترق! الحمد للرب!»

صاح زوربا ضاحكا: «احترق! كيف؟ متى؟ هل رأيته يحترق؟»

«يا أخ كانافارو، لقد احترق في الثانية التي أشعلتُ فيها الشمعة من مصباح يسوع. رأيته بأمّ عينيّ يخرج من فمي كشريط أسود بأحرف من نار. سقط لهب الشمعة عليه فالتفّ كثعبان، لكنه احترق حتى صار رمادا. يا للراحة! الحمد للرب! أشعر بأنني دخلتُ الجنة مسبقا!»

ونهض من جانب النار، حيث كان ملتفّا، وقال:

«سأذهب وأنام على شاطئ البحر. هذا ما أُمرتُ بفعله».

سار مبتعدا على حافة الماء واختفى في سواد الليل.

قلت: «أنت مسؤول عنه يا زوربا. إذا عثر عليه الرهبان سيُقضى عليه».

twitter @baghdad_library

«لن يعثروا عليه. لا تقلق، أيّها الرئيس. أعرف هذا النوع من اللعب جيدا: غدا في الصباح الباكر سأحلق له وأمنحه ثيابا بشريّة وأضعه على ظهر سفينة. لا عليك، فالأمر لا يدعو إلى القلق. هل الطّعام طيّب؟ كلْ خبز الإنسان واستمتعْ به، ولا تشغل ذهنك بكل ما تبقّى!»

أكل زوربا بشهية مفتوحة، شرب ومسح شاربه. والآن هو يرغب في التحدّث.

قال: «هل لاحظتَ أيها الرئيس؟ لقد مات شيطانه. والآن هو فارغ، المسكين، فارغ بشكل كامل. لقد انتهى! سيكون كأي شخص آخر من الآن فصاعدا».

فكّر للحظة أو لحظتين.

«أتظنّ أيّها الرئيس أنّ شيطانه كان...؟»

أجبته: «بالطبع، إن فكرة حرق الدير قد استحوذت عليه؛ وبعد أن أحرقه هدأ. تلك الفكرة أرادت أن تأكل اللحم وتشرب النبيذ وتنضج وتتحول إلى فعل. لا يحتاج زكريا الآخر إلى لحم أو نبيذ. لقد أنضجه الصيام».

قلّب زوربا هذا الكلام في ذهنه.

«وحقّ السّماء، أظنّ أنك على صواب، أيها الرئيس! يُخيّل إليّ أن لدي خمسة شياطين أو ستّة في داخلي!»

«كلّنا لدينا بعض الشياطين يا زوربا، فلا تقلق. وكلما زاد عددها، كان أفضل. ولكنّ الأمر الأساسيّ هو أنّها يجب أن تسعى كلّها من أجل الغاية نفسها، حتى ولو اختلفت طرقها في ذلك».

بدا وكأنّ هذه الكلمات أثّرتْ عميقا في زوربا. فدفن رأسه الكبير بين ركبتيه وفكّر.

وأخيرا سألني، رافعا عينيه إليّ: «أيّة غاية؟»

«كيف أعرف يا زوربا؟ أنت تطرح أسئلة صعبة. كيف أستطيع شرح ذلك؟»

«قلها ببساطة فحسب، كي أفهم. فحتّى الآن تركتُ شياطيني تفعل ما تريد، وتسلك أيّ طريق تحبّ ولهذا يتّهمني بعض الأشخاص بالكذب بينما يقول آخرون إنّني صادق، ويظنّ البعض الآخر أنني مجنون وغيرهم يقولون إنني حكيم كسليمان. أنا كلّ هذه الأمور وأكثر من ذلك، أنا سَلطَة روسية حقيقيّة. ولهذا ساعدني كي أفهم الأمر بوضوح أيّها الرئيس... أية غاية؟»

«أعتقد يا زوربا، ويمكن أن أكون مخطئا في هذا، أنّ هناك ثلاثة أنواع من الرجال: أولئك الذي يجعلون هدفهم أن يحيوا حياتهم كما يقولون، أن يأكلوا ويشربوا ويمارسوا الجنس ويغتنوا ويصبحوا مشاهير؛ ثم يأتي أولئك الذي يجعلون هدفهم أن يكرّسوا حياتهم من أجل كلّ البشر. يشعرون أن كل البشر واحد ويحاولون تنويرهم، ويحبونهم قدر استطاعتهم ويحسنون إليهم. وأخيرا، ثمّتَ الذين يصبُون إلى الوجود المطلق فيتماهون مع الكون أجمع: مع كل شيء؛ البشر، الحيوانات، النباتات، الكواكب...؛ لسنا إلاّ كلاّ واحدا، كل المخلوقات من جوهر واحد، تنخرط في الصراع المرعب نفسه، أي صراع؟... تحويل المادة إلى روح».

حكّ زوربا رأسه.

«جمجمتي متيبّسة أيها الرئيس، لا أفهم هذه الأمور بسهولة... آه لو تستطيع تحويل كلماتك هذه إلى رقصة، عندها سأفهم حتما».

عضضتُ شفتي في ذهول. كلّ تلك الأفكار اليائسة، لو أستطيع فقط أن أعبّر عنها بالرقص! لكن كيف وقد صار العجز إلاهي؟! أنا لم أحسن الحياة.

«أو لو كان بوسعك أيّها الرئيس أن تشرح لي كلّ هذا في قصّة.. كما كان يفعل جارنا حسين آغا. كان ناسكا تركيّا عجوزا، مدقع الفقر، لا زوجة له ولا أولاد، ملابسه مهترئة، ولكنّها تشعّ نظافة. كان يغسلها

twitter @baghdad_library

بنفسه، ويطبخ لنفسه، ويشطف الأرض، ومساء يأتي لزيارتنا. فيجلس في الفناء مع جدتي وبعض النساء العجائز الأخريات ويحيك الجوارب.

وكما سبق وقلت كان حسين آغا قدّيسا. في أحد الأيام أجلسني على ركبته ووضع يده على رأسي وكأنه يهبني بركته. وقال لي: يا ألكسيس، سأبوح لك بسرّ. أنت صغير ولهذا لن تفهمه الآن، لكنّك ستفهمه حين تكبر. أصغ، أيها الصغير: لا طبقات السماوات السبع ولا طبقات الأرض السبع تكفي لاحتواء الله؛ ولكنّ قلب الإنسان يمكن أن يسعه. ولهذا حاذر يا أليكسيس -ولتكن بركتي معك- حاذر أن تجرح يوما قلب إنسان!»

أصغيتُ إلى زوربا صامتا. تمنّيتُ أن أكون قادرا على غلق فمي إلى أن تبلغ الفكرة المجردة ذروتها وتصبح قصة! ولكن الشعراء العظام فحسب يصلون إلى نقطة كهذه، أو ربّما تصل إليها الشعوب بعد قرون من الجهد الصامت.

نهض زوربا. وقال:

«سأذهب لأرى ما يصنعه راهبنا مضرم النيران، وأغطّيه ببطانية كي لا يصاب بالرّشح. سآخذ مقصّا، أيضا، قد أحتاج إليه. لن يكون عملا من المرتبة الأولى ولكن...».

غادر وهو يضحك سالكا الطريق الحافّ بالبحر، حاملا المقص والبطانية. بينما كان القمر متمترسا في السماء ناشرا على الأرض ضوءا شاحبا كوجوه المرضى.

وحيدا قرب النار الذّاوية، وزنتُ كلمات زوربا. كانت غنيّة بالمعاني تفوح منها رائحة الأرض الدافئة. وكأنّها تصّاعد من القاع، من أعماق كينونته دون أن تفقد حرارتها الإنسانيّة. أمّا كلماتي فقد كانت مصنوعة من الورق. إنها تنزل من رأسي، ونادرا ما تلطّخها قطرة دم. ولو كانت لها أيّة قيمة فإنها ستدين بها إلى قطرة الدم تلك.

مستلقيا على بطني، كنت أنبش الرّماد منقّبا عن جمرات دافئة حين

عاد زوربا فجأة، وقف يتأمّلني صامتا وذراعاه تتدليان بارتخاء على جانبيه، ثمّ لم يلبث أن قال بصوت أجش:

«حافظ على رباطة جأشك أيها الرئيس...»

قفزتُ.

فتابع قائلا: «لقد مات الراهب».

«مات؟»

«عثرتُ عليه ممدّدا على صخرة. والضوء الساطع لاكتمال القمر يغطّي وجهه. جثوت على ركبتيّ وبدأت أحلق لحيته وبقايا شاربه. واصلت القصّ، فلم يتحرّك. أثارني الأمر وبدأت أقص شعر رأسه؛ لا بد أنني أزلت رطل شعر عن وجهه. ثم حين رأيته هكذا، حليقا كخروف، ضحكت بشكل هستيري! قلت يا سيّد زكريا! صحتُ، هززته وأنا أضحك قائلا: استيقظ كي ترى المعجزة التي اجترحتها العذراء المقدسة! استيقظ عليك اللعنة! لكنّ المسكين بقي جامدا! قلتُ في نفسي: إنه ما كان ليموت هكذا. فتحتُ رداءه وكشفت عن صدره وجسستُ نبضه فلم أسمع شيئا، لا شيء مطلقا. لقد تعطّلت الآلة!»

استعاد زوربا ثقته وهو يتحدث. لقد رجّه الموت لوهلة، ولكنّه سرعان ما حبسه في مكانه الملائم.

«والآن ماذا سأفعل، أيها الرئيس؟ أعتقد أننا يجب أن نحرقه. إن من يقتل الآخرين بالبارافين يجب أن يهلك بالبارافين. ألا يوجد شيء من هذا القبيل في الإنجيل؟ أتعرف أنّه بثيابه تلك، المتصلبة من القذارة ومع قليل من البارافين سيشتعل كيهوذا في الخميس المقدّس!»

قلتُ مرتاحا: «افعل ما تشاء».

استغرق زوربا في تأمّل عميق. وأخيرا قال:

«هنالك أمر مزعج. إن أضرمت فيه النار فستشتعل ثيابه كمشعل، أمّا هو فمجرّد جلد وعظم، هذا المسكين! وكونه نحيلا هكذا، فسوف

twitter @baghdad_library

يستغرق وقتا طويلا كي يستحيل رمادا بعد إحراقه إذ لا توجد فيه ذرّة شحم كي تساعد النار».

وأضاف هازّا رأسه:

«إذا كان الله الرّحيم موجودا، ألا تعتقد أنّه كان توقّع كلّ هذا، وخلقه بدينا، مكتنزا بالشحم حتّى ينقذنا من هذه الورطة؟ ما رأيك؟»

«لا تزجّ بي في هذا العمل مطلقا. افعل ما تريد، ولكن بسرعة».

«سيكون أفضل شيء هو أن تحصل معجزة من نوع ما! لا بدّ أن يصدّق الرهبان أنّ الله تحوّل إلى حلاّق، حلق له ثمّ أماته كي يعاقبه على الأذى الذي ألحقه بالدير».

هزّ رأسه.

«ولكن أية معجزة؟ أية معجزة؟ هذا ما ننتظره منك، يا زوربا!»

كان الهلال على وشك الاختفاء وراء الأفق أرجوانيا بلون النحاس المصقول.

شعرتُ بالتعب فذهبتُ إلى النوم. وحين استيقظت فجرا رأيت زوربا حذوي يعدّ القهوة. كان شاحبا بعينين محمرّتين ومنتفختين من الأرق. ولكنّ شفتيه الغليظتين كشفتي تيس لبستا ابتسامة ماكرة.

«لم أنم أيها الرئيس، كان لديّ بعض العمل كي أقوم به».

«أيّ عمل هذا أيّها النّذل؟»

«كنتُ أقوم بمعجزة».

ضحك ووضع إصبعه على شفتيه.«لن أخبرك! غدا حفل تدشين المصعد. كلّ تلك الخنازير السمينة ستكون موجودة كي تقدم بركاتها؛ وعندها سيعرفون ما المعجزة الجديدة التي قامت بها عذراء الانتقام؛ عظيمة القوّة!»

قدّم لي القهوة قائلا:

«أتعلم، سأكون رئيس دير جيدا لو افتتحتَ ديرا، أراهنك على أنّ

الأديرة الأخرى ستُقفر كلّها وتضطرّ إلى غلق أبوابها بعد أن أستحوذ على زبائنها كلّهم. أهي الدموع ما تريد؟ ليس هناك مشكل، إسفنجة صغيرة مبلّلة خلف الأيقونات وسيبكي القديسون بإرادتهم. أتريد أصوات الرعد؟ لا مانع أيضا، سأخبّئ آلة تحت المائدة المقدّسة فتصدر ضجّة مصمّة. تريد أشباحا؟ سأكلّف اثنين من رهباني الأوفياء بالطواف ليلا على سطح الدير ملتحفين بالأغطية. وكل عام سأجمع حشدا من العرج والعميان والمشلولين في عيد نعمتِها وفي اليوم التالي أشفيهم وأعيد إليهم النّور وأنهضهم على أقدامهم كي يرقصوا من أجل مجدها!

«لماذا تهزأ بالأمر أيّها الرئيس؟ كان لدي عمّ عثر على بغل على شفا الموت. تُرك في الجبال كي ينفق. فأخذه معه إلى البيت. كان يقوده كل صباح إلى المرعى وفي المساء يعود به إلى البيت. كان سكان القرية يصيحون به حين يعبر: «أنت يا هارالامبوس! ما الذي تظن نفسك فاعلا بهذا البغل الهرم العاجز؟» وكان عمي يجيب: «إنه مصنع الروث الخاص بي». حسنا، أيّها الرئيس، إنّ الدير سيكون بين يديّ مصنعا للمعجزات!»

twitter @baghdad_library

-25-

لن أنسى مساء الأول من أيّار ما حييت. كان المصعد جاهزا؛ لمعت الدعامات والأربطة والبكرات في ضوء شمس الصباح. تكوّمت الجذوع الضخمة من أشجار الصنوبر على قمّة الجبل أكواما أكواما فيما وقف العمّال إلى جانبها في انتظار إشارة تثبيتها بالحبال وإنزالها إلى البحر.

خفقت راية يونانية كبيرة مرفرفة على قمّة الدعامة عند نقطة الانطلاق على سفح الجبل ورفرفت أخرى مشابهة في الأسفل قرب البحر. وأمام الكوخ، وضع زوربا برميل نبيذ صغيرا وثبّت قفص الببغاء على صخرة رابطا إيّاه في وتد. بينما انشغل العمّال إلى جانبه بشيّ خروف سمين على سفّود. وبعد طقوس المباركة والتدشين، كان على الضيوف أن يشربوا كأسا ويتمنّوا لنا النجاح.

«أشعر وكأنّي أرى سيّدته مكانه» تمتم زوربا، ناظرا بولع إلى الببغاء. أخذ حفنة من الفول السوداني من جيبه وقدّمها له.

كان يرتدي أفضل ثياب لديه: قميصا أبيض غير مزرّر، سترة خضراء، سروالا بنّيا وحذاء مطّاطيا جميلا. فضلا عن ذلك، جدّد صبغ شاربه بعد أن كاد يفقد ألقه.

ومثل نبيل عظيم يحسن وفادة أنداده، سارع إلى استقبال وجهاء القرية حين وصلوا، شارحا لهم كيفيّة عمل المصعد، وأيّ فائدة سيقدّم للريف، وكيف ساعدته العذراء المقدّسة،بنعمتها اللانهائية، وبحكمتها في التنفيذ التامّ لهذا المشروع.

قال: «إنّه قطعة عظيمة من العمل الهندسي. عليكم فقط أن تعثروا على المنحدر الملائم، و هو ما يحتاج إلى بعض الاستنباط! كدت أستنفد

twitter @baghdad_library

ملكاتي في بعض الأشهر، ولكن بلا طائل. من الواضح أنّ ذهن الإنسان يعجز وحده عن مثل هذه الأعمال العظيمة، من هنا تأتي الحاجة إلى عون إلاهي... حسنا، لقد شاهدتني العذراء المقدّسة ألحّ جاهدا على إتمام الأمر، فأشفقت عليّ وقالت: زوربا المسكين، إنّه ليس شخصا سيّئا، هو يقوم بكلّ هذا طالبا الخير للقرية، لهذا سأذهب وأمدّ له يد العون. ثمّ، كانت المعجزة!...»

توقّف زوربا كي يرسم علامة الصليب ثلاث مرات متعاقبة.

«آه أيتها المعجزة! في إحدى الليالي وأثناء نومي جاءتني امرأة تلتحف السواد. كانت العذراءَ المقدّسة. جاءت وهي تحمل في يدها أنموذجا مصغّرا للمصعد، ليس أكبر من هذا. قالت: لقد أحضرتُ لك خطّة التّنفيذ يا زوربا؛ لقد أتتك من السماء. هذا هو المنحدر الذي تحتاجه، وهنا بركاتي! واختفت! استيقظتُ مجفلا، بادرت إلى المكان الذي كنتُ أختبر فيه أفكاري، احزروا ماذا رأيت؟ رأيت السّلك قائما بذاته في انحدار ملائم. كان ذلك بفعل يد العذراء المقدّسة. ورائحة أزهار البلْسمينة التي فاحت منه، هي الدّليل والبرهان».

كان كوندوماليو يفتح فمه هامّا بطرح سؤال حين عبر الممرّ الجبليّ الوعر خمسة رهبان يمتطون بغالا. وأمامهم راهب سادس يحمل صليبا خشبيا كبيرا على كتفيه، يركض ويصيح. حاولنا جاهدين أن نعرف ما الذي يقول ولكننا لم ننجح في ذلك.

استطعنا سماع التراتيل. كان الرهبان يلوّحون بأذرعهم في الجوّ، راسمين إشارة الصليب، وكانت حوافر بغالهم تصدر الشرر من الأحجار.

أدركَنا الراهب السّاعي على قدميه والعرق ينبجس من وجهه. رفع صليبه عاليا. وصاح:

«أيّها المسيحيّون! لقد حدثت معجزة! إن الآباء يحملون العذراء الأكثر قداسة! فخرّوا راكعين واعبدوها!»

ركض القرويون والوجهاء والعمّال في اضطراب وأحاطوا بالراهب ورسموا إشارة الصليب. وقفتُ جانبا. نظر إليّ زوربا، وعيناه تلمعان.

قال: «اقترب أيضا أيها الرئيس. اقترب كي تسمع عن معجزة العذراء الأكثر قداسة».

وبدأ الراهب يروي قصته مستعجلا ولاهثا:

«اركعوا على ركبكم أيها المسيحيون! وأصغوا إلى هذه المعجزة الإلهية! أنصتوا أيّها المسيحيّون! لقد تلبّس الشيطان بروح الملعون زكريا وجعله منذ يومين يرشّ الدير المقدس بالبارافين. رأينا النار في منتصف الليل فخرجنا من أسرّتنا بسرعة كبيرة؛ كان كلّ شيء يشتعل: الكنيسة والأروقة والحجرات. قرعنا جرس الدير وصحنا طالبين النجدة من العذراء المنتقمة. واندفعنا إلى النار بأباريق وسطول من الماء! وفي الصباح الباكر انطفأت النار بفضل نعمتها المقدسّة!

ذهبنا إلى المصلى وركعنا على ركبنا أمام الأيقونة المجترحة للمعجزات صائحين: يا عذراء الانتقام المقدّسة! أشهري رمحك واقتلي المذنب! ثم اجتمعنا مرة أخرى في الفناء ولاحظنا أن زكريا، أي يهوذا، كان غائبا. إذن هو من أشعل النار! لا بد أنه هو! صحنا واندفعنا وراءه. بحثنا طول النهار لكننا لم نعثر عليه؛ ثم بحثنا الليل كلّه، دون جدوى. ولكن اليوم حين بزغ الفجر، ذهبنا مرة أخرى إلى الكنيسة، فاحزروا ماذا رأينا يا إخوة؟ معجزة هائلة! كان زكريا يستلقي ميتا عند قدم الأيقونة المقدّسة، وعلى نصل رمحها بقعة دم كبيرة!»

صاح القرويون مذعورين: ارحمنا يا يسوع!

أضاف الراهب وهو يبتلع ريقه: «ليس هذا كلّ شيء. حين انحنينا كي نرفع الملعون زكريا وقفنا مرعوبين؛ إذ أنّ العذراء قد حلقتْ له شعره وشاربه ولحيته ككاهن كاثوليكي!»

مسيطرا على ضحكي بصعوبة كبيرة، التفتُّ إلى زوربا وقلت بصوت

twitter @baghdad_library

منخفض: «يا لك من نذل!»

لكنه كان يراقب الراهب، وعيناه متّسعتان من الدهشة، راسما علامة الصليب بانفعال كبير طوال الوقت، كي يظهر دهشته الكاملة، وهو يتمتم: «كم أنت عظيمٌ أيّها الإله و ما أروع أعمالك!».

في هذه اللحظة وصل الرهبان وترجّلوا عن بغالهم. كان المضيف يحمل الأيقونة بين ذراعيه؛ تسلّق صاعدا الصخرة، واندفع الجميع كي يسجدوا أمام العذراء مجترحة المعجزات. وفي الخلف كان ديمتريوس يجمع الصدقات في صينيّة ويرشّ رؤوس القرويين الصلبة بماء الورد. وحوله انتصب ثلاثة رهبان، أيديهم معقودة على بطونهم، ووجوههم تغشيها حبّات كبيرة من العرَق وهم ينشدون التراتيل.

«سنأخذها في موكب حول قرى كريت»، قال ديميتريوس السمين، «كي يتاح للمؤمنين أن يركعوا لقداستها ويقدّموا عطاياهم. نحتاج إلى المال، إلى الكثير من المال، كي نرمّم الدير المقدس...»

دمدم زوربا: «الخنازير. سوف يستغلون هذا الأمر من أجل شيء آخر».

ذهب إلى رئيس الدير وقال له:

«أيها الأب المقدس، كل شيء جاهز للحفل. لتبارك العذراء المقدسة عملك!»

كانت الشمس قد علتْ السماء، وكان الجوّ حارّا، وكأنّ الظلال قد انقرضت والنسمات انتحرت على أبواب قريتنا. وقف الرهبان حول الدعامة التي تحمل الراية. مسحوا جباههم بأكمامهم العريضة وبدؤوا يرتّلون صلاة «التشييد».

«إلهنا! يا إلهنا! اجعل هذا الاختراع يستند إلى صخر صلب كي لا تؤثر فيه الريح ولا الماء...»، غمسوا مرشّة الماء المقدّس في الإناء النحاسي ورشّوا الأشياء والناس: الدعامة والحبال والبكرات وزوربا وأنا وأخيرا

الفلاحين والعمال والبحر.

وبعد ذلك رفعوا الأيقونة بحذر كبير وكأنّهم يرفعون امرأة مريضة، قرّبوها من الببغاء، وتحلّقوا حولها. في الجهة المقابلة وقف وجهاء القرية، وفي الوسط زوربا. أمّا أنا فانسحبت ببطء نحو البحر وانتظرت.

كان الخطّ سيجرّب بثلاثة جذوع: الثالوث المقدس. مع ذلك أضيف جذع رابع دليلا على الاعتراف بجميل عذراء الانتقام المقدسة.

رسم الرهبان والقرويون والعمّال إشارة الصليب.

«باسم الثالوث المقدس والعذراء»، تمتموا.

وبقفزة واحدة كان زوربا عند الدعامة الأولى، شدّ الحبل وأنزل العلم. كانت هذه إشارة للرجال المنتظرين على قمة الجبل. تراجع المشاهدون كلّهم إلى الخلف ونظروا نحو القمّة.

وصاح رئيس الدير: «باسم الأب!»

كان من المستحيل وصف ما حدث عندئذ. كان وقع الكارثة علينا كالصاعقة. لم نكد نملك الوقت كي نهرب. تأرجح المصعد كلّه، وكما يندفع الشيطان نحو قلب مطمئنّ، انطلق جذع الصنوبر الذي شدّه العمّال بالحبال. تطاير الشرر، وحلّقت شظايا خشب كبيرة في الجوّ، وحين بلغ الجذع القاع بعد بضع ثوان كان قد استحال قطعة خشب متفحّمة.

نظرَ إليّ زوربا نظرة بائسة. تراجع الرهبان والقرويّون باحتراس وبدأت البغال المقيدة تثبُ. وانهار ديميتريوس السمين لاهثا.

تمتم، مرعوبا: «ليرْحمني الله!»

رفع زوربا يده. وقال بثقة:

«ليس الأمر بذي بال، غالبا ما يحدث هذا مع الجذع الأوّل. الآن ستعمل الآلة... انظروا!»

رفع الراية، أعطى الإشارة ثانية، ثم ركض بعيدا.

وصاح رئيس الدير بصوت مرتجف: «والابن!»

twitter @baghdad_library

أُرسل الجذع الثاني. ارتجّت الدعامات، تسارع الجذع، قافزا كدلفين، واندفع مباشرة نحونا. لكنّه لم يبتعد كثيرا، تحطّم عند منتصف المسافة أسفل المنحدر.

قال زوربا وهو يعضّ شفته: «إلى الجحيم! إنّ هذا الميل البغيض ليس دقيقا كما ينبغي!»

قفز إلى الدعامة من أجل المحاولة الثالثة، ولوّح بالراية مرّة أخرى بحركات غاضبة حتّى بدت الراية نفسها متشنّجة.

وقال رئيس الدير متلعثما رافعا رداءه باستعداد: «والروح القدس!»

كان الجذع الثالث ضخما. فما إن أُطلق من القمّة حتى سُمعتْ ضجّة هائلة.

«انبطحوا، إكراما للّه!» قال زوربا وهو يندفع هاربا.

رمى الرهبان أنفسهم على الأرض وهرب القرويون بأقصى سرعة لديهم.

قام الجذع بقفزة واحدة، سقط إلى الخلف على الأربطة، أطلق زخة من الشرر وقبل أن نستطيع رؤية ما حدث، تهاوى تاركا الجبل والشاطئ ليغوص في البحر مخلّفا بخّة هائلة من الزبد.

كانت الدعامات تهتزّ بطريقة مرعبة جدّا وكان عدد منها قد مال مسبقا. حتّى أنّ البغال مزّقت قيودها وهربتْ.

إلاّ أنّ زوربا صاح فينا وقد تداخل في صوته الإصرار والانهيار:

«لا تجزعوا! لا شيء يدعو إلى القلق! ستعمل الآلة الآن بالفعل، وهكذا نستطيع أن نقوم ببداية ملائمة!»

رفع الراية مرة أخرى. شعرنا كم كان يائسا، وكنا متلهّفين كي نشهد نهاية الأمر.

وقال رئيس الدير متلعثما وهو يجري نحو الصخور: «وباسم عذراء الانتقام المقدسة!»

أطلق الجذع الرابع طقطقة مخيفة تردّد صداها مرتين في الجوّ وانهارت الدعامات كلّها، واحدة بعد أخرى، كعلبة من ورق اللعب.

وصاح القرويون والعمال والرهبان وهم يهربون: «الرحمة يا يسوع!»

جرحتْ شظيّة طائرة ديميتريوس في فخذه وكانت أخرى على بعد شعرة من اقتلاع عين رئيس الدير. اختفى القرويون. كانت العذراء وحدها منتصبة على صخرتها، تحمل رمحا في يدها وهي تنظر إلى الرجال في الأسفل بعين باردة حادة. وإلى جانبها، كان الببغاء يرتجف في حال أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، وريشاته الخضراء منتصبة على جسمه كأشواك القنفذ.

أمسك الرهبان بالعذراء، ثبّتوها بأذرعهم، ساعدوا ديميتريوس على النهوض، وهو يئنّ من الألم، جمعوا بغالهم، ركبوها، وانسحبوا مذعورين، كان القرويّ المسؤول على الشّواء قد ترك الخروف من شدّة ذعره فبدأ اللّحم يحترق.

صاح زوربا بقلق وهو يركض نحو السفّود: «سيحترق الخروف ويستحيل رمادا!»

جلستُ إلى جانبه. لم يكن هناك أحد آخر على الشاطئ، كنا وحدنا تماما. استدار نحوي ونظر إلي نظرة ملتبسة مترددة. لم يكن يعرف ردّة فعلي تجاه هذه الكارثة، ولا يدرك النّهايات المحتملة لهذه المغامرة.

أخرج السكين، انحنى فوق الخروف مرة أخرى، تذوّقه ثمّ أنزله على الفور من على النار ونصبه في سفّود على جذع شجرة.

قال: » لقد شوي كما ينبغي أيّها الرئيس! أتريد أن تأكل قطعة؟»

قلتُ: «أحضر الخبز والنبيذ أيضا فأنا جائع».

أسرع زوربا إلى البرميل، دحرجه وقرّبه من الخروف، أحضر رغيف خبز أبيض وكأسين. أخذ كلٌّ منا سكّينا، قطعنا شريحتين من اللحم، وبعض الخبز وشرعنا نأكل.

twitter @baghdad_library

«انظر كم هو طيّب أيّها الرئيس. إنّه يذوب في الفم! لا يوجد هنا مراع خصبة كما ترى، فالحيوانات تأكل أعشابا جافة طيلة الوقت، لهذا فإنّ لحمها طيب. لا أذكر سوى مرة واحدة في حياتي أكلتُ فيها لحما غضّا كهذا. كانت في ذلك الوقت الذي طرزتُ فيه أيقونة القدّيسة بشعراتي وارتديتها كتعويذة... ولكن تلك قصة قديمة...»

«هيا! قصّها عليّ!»

«إنها قصة قديمة يا رئيس! هوس يوناني، هوس مجنون!»

«تابعْ يا زوربا، أحبّ سماعك وأنت تنسج قصصك».

«حسنا، إليك بها. لقد حاصرنا البلغار، في ذلك المساء، وكان باستطاعتنا رؤيتهم حولنا يشعلون النار على منحدرات الجبال. وكي يخيفونا بدؤوا بقرع الصنوج والعواء كقطيع من الذئاب. لا بدّ أنهم كانوا ثلاثمائة. أمّا نحن فثمانية وعشرون، وكان روفاس قائدنا. لينقذ الله روحه حيّا أو ميتا، فقد كان شخصا رائعا حقّا! قال: «هيا يا زوربا! ضع الخروف في السفّود». فقلت: «سيكون أفضل أكثر لو طبخناه في حفرة في الأرض يا قبطان». فأجاب: «اشوه بأية طريقة تريد، ولكن أسرعْ لأننا نتضوّر جوعا». وهكذا حفرنا حفرة، وضعنا الخروف فيها، فرشنا طبقة من الفحم حوله؛ ثم أخرجنا الخبز من جرابات المؤونة وجلسنا حول النار. قال زعيمنا: «قد يكون هذا آخر خروف نأكله! هل يشعر أي منكم بالخوف؟» فضحكنا جميعا. لا أحد منّا تنازل وأجابه. أخرجنا آنيتنا المصنوعة من اليقطين وقلنا: «نخبك يا زعيم. يجب أن تكون طلقات جيدة كي تصيبنا!» شربنا وواصلنا الشرب ثم أخرجنا الخروف من الحفرة. آه! يا له من لحم ضأن أيها القائد! حين أفكّر فيه يسيل لعابي! لقد ذاب كالحلويات التركية. عجّلنا كلنا بغرز أسناننا فيه دون تأخير. قال الزعيم: «لم أذق لحما أطيب منه طيلة حياتي. ليحفظنا الله!» وجرع كأس نبيذه دفعة واحدة، وهو الذي لم يعرف الشّرب أبدا طوال حياته، ثمّ

أمر: «أنشد أغنية كليفتية. فأولئك الأشخاص هناك يعوون كالذئاب أمّا نحن فسنغنّي كالرجال. لنبدأ بالعجوز ديموس». شربنا بسرعة، عاودنا ملء الكؤوس وشربنا من جديد. ثم بدأنا الأغنية. تصاعدت الأصوات أقوى فأقوى، صدحت مدوّية وتردّد صداها عبر الوهاد:

« ولقد كنتُ قاطع طريق كليفتي

لمدة أربعين عاما أيها الرفاق!»...

غنّينا بصوت مرتفع وإرادة صلبة. قال القبطان: «حسنا، ليساعدنا الله! هذه هي العزيمة! والآن يا ألكسيس، انظر إلى ظهر الخروف هناك... ما الذي يقوله؟» انحنيتُ فوق النار وبدأت أسلخ ظهر الخروف بمديتي. صحت: «لا أرى أيَّ قبور يا قبطان ولا أيّ موتى. سننجو مرة أخرى يا رفاق!» قال زعيمنا الذي لم يكن قد مرّ وقت طويل على زواجه: « ليسمع الله منك. ويجعلني أنجب ولدا فحسب! ولا آبه ما سيحدث بعد هذا!».

قطع زوربا لنفسه قطعة كبيرة من حول الكليتين.

قال: «كان ذلك الخروف رائعا، ولكن هذا البائس لا يخسر أية نقطة أمامه؛ إنه جيد أيضا!»

قلت: «اسكب المزيد من النبيذ يا زوربا. املأ الكأسين وسنفرغهما ثانية».

قرعنا الكؤوس وتذوقنا الخمرة، خمرة كريتية رائعة، بلون قان، كدم الأرنب البريّ. حين تشربها تشعر بأنك متوحد مع دم الأرض نفسها وتصبح غولا من نوع ما. تطفح شرايينك بالقوة، وقلبك بالطيبة! إذا كنتَ حملا تتحول إلى أسد، تنسى تفاهة الحياة وصغائرها، وتُسقط قيودك كلّها، تلتحم بالإنسان والحيوان وبالله فتشعر أنك متوحّد مع الكون.

صحتُ: «انظرْ إلى ظهر هذا الخروف واقرأ ما يقوله. هيا، يا زوربا!»

twitter @baghdad_library

نزع قطع الظهر بعناية كبيرة وسلخه بسكينه وحمله إلى الضوء وحدق فيه ببطء.

قال: «كل شيء رائع. سنعيش ألف عام، أيّها الرئيس؛ لدينا قلوب من الفولاذ!»

انحنى وفحص الظهر مرة ثانية في ضوء النار.

قال: «أرى رحلة، رحلة طويلة. في نهايتها منزل كبير له أبواب كثيرة. لا بدّ أنه عاصمةُ مملكةٍ ما، أيّها الرئيس... أو ديرٌ سأكون بوابه وأقوم بالتهريب كما قلنا؟»

«اسكبْ بعض الخمرة يا زوربا، واترك نبوءاتك. سأخبرك ما هو هذا المنزل الكبير ذو الأبواب الكثيرة: إنها الأرض وقبورها كلّها، يا زوربا. هذه نهاية الرحلة الطويلة. نخبك أيها النذل!»

«نخبك يا رئيس! إن الحظ أعمى كما يقولون. لا يستطيع أن يرى إلى أين يذهب فيصطدم ببعض العابرين... والناس الذين يصيبهم ندعوهم المحظوظين! حسنا! ليذهب الحظ إلى الجحيم إذا كان هكذا. نحن لا نريده يا رئيس، أليس كذلك؟»

«لا نحتاج إليه يا زوربا! نخبك!»

شربنا، قضينا على الخروف، وصار العالم أكثر خفّة. بدا البحر سعيدا وتأرجحت الأرض كظهر سفينة، بينما سار نورسان على الحصى وهما يثرثران ككائنين بشريين.

نهضتُ واقفا. وقلت: «هيّا يا زوربا. علّمني الرقص!»

قفز زوربا على قدميه، وتألّق وجهه.

«تريد أن ترقص،أيّها الرئيس؟ تريد أن ترقص؟ رائع! تعال هنا!»

«لننطلق إذن يا زوربا! لقد تغيّرتْ حياتي! لنقم بذلك!»

«بداية سأعلّمك الزمبكيكو. إنها رقصة عسكرية عنيفة؛ كنا نرقصها دوما أيّام كنتُ متطوّعا في المقاومة قبل الذهاب إلى المعركة».

نزع حذاءه وجواربه الأرجوانية ولم يترك سوى قميصه. ولكنه ظلّ يشعر بالحرّ فخلعه هو أيضا.

وأمرني قائلا: «راقبْ قدميَّ، أيّها الرئيس، راقب!»

رفع قدمه، لمس الأرض بخفّة بأصابع قدميه، ثم رفع القدم الأخرى؛ تشابكت الخطوات بعنف، ومتعة، ورددت الأرض الصدى مثل طبل. وبعد ذلك هزّني من كتفي. وقال:

«والآن يا ولدي، سنعيدها معا!»

ألقينا أنفسنا في الرقصة. أرشدني زوربا، صحّح حركاتي بجدّية وصبر وبكثير من اللطف. تشجّعتُ وشعرتُ بقلبي يحلّق كطائر.

«جيّد! أنت أعجوبة!»، قال زوربا مصفّقا بيديه كي يحدّد الإيقاع. «جيّد أيها الشاب! إلى الجحيم بالحبر والورق! إلى الجحيم بالربح والبضائع! إلى الجحيم بالمناجم والعمال والأديرة! والآن تستطيع يا ولدي أن ترقص أيضا ولقد تعلّمت لغتي، فما من شيء سنعجز عن البوح به!»

قفز على الحصى بقدميه الحافيتين وصفّق بيديه.

قال: «لديّ أكوام من الأشياء التي ينبغي أن أقولها لك أيّها الرئيس. لم أحبّ أحدا من قبل بقدر ما أحببتك. لديّ مئات الأشياء كي أقولها، ولكن لساني لا يستطيع التلفظ بها. ولهذا سأرقصُها لك! تنحَّ جانبا حتّى لا أصدمك! إلى الأمام، هوب! هوب!»

قفز في الجوّ فتحوّلت قدماه وذراعاه إلى أجنحة. وحين رمى نفسه محلّقا وخلفه تلك اللّوحة الرّائعة من البحر والسماء، بدا كملاك عجوز في حالة تمرّد. وهو يرقص كانت رقصته مليئة بالتحدّي والإصرار. بدا وكأنه يتحدّى من في السماء: «ما الذي تقدر أن تفعله لي أيها الجبار؟ لا تستطيع أن تفعل لي شيئا عدا أن تقتلني. حسنا، اقتلني، لا أكترث! لقد نفّستُ عن غيظي، وقلتُ كلَّ ما أريد قوله؛ كان لدي وقت للرقص... ولم أعد في حاجة إليك بعد الآن!»

twitter @baghdad_library

وأنا أراقب زوربا وهو يرقص، فهمتُ للمرة الأولى الجهود الخيالية التي يبذلها الإنسان للتغلّب على ثقله. أعجبتُ بقدرة زوربا على المقاومة، وبرشاقته ومشيته الفخورة. كانت خطواته الخفيفة والعنيفة تكتب على الرمال تاريخ البشرية الشيطانيّ.

توقّفَ، تأمّلَ المصعد المنهار وقد تحوّل إلى حطام. كانت الشمس تميل إلى الغروب، والظلال تطول، التفتَ إليّ وبإيماءة هي من صميم شخصه، غطى شاربه براحة كفّه.

وقال: «آه أيّها الرئيس، هل رأيتَ زخّات الشّرر التي أطلقها هذا اللّعين؟»

انفجرنا ضاحكين.

رمى زوربا نفسه عليّ، عانقني وقبّلني.

وقال برقّة: «أيضحكك هذا أيضا؟ أتضحك أيضا أيّها الرئيس؟ مرحى، مرحى يا فتى!»

مهتزّين من الضحك، تصارعنا بمرح لبعض الوقت. ثم، سقطنا على الأرض فتمدّدنا على الحصى ونمنا وكلّ منّا يتوسّد ذراع الآخر.

□ □ □

استيقظتُ في الفجر وسرتُ بسرعة على امتداد الشاطئ نحو القرية؛ كان قلبي ينطّ في صدري. نادرا ما شعرتُ بمتعة كاملة كهذه طيلة حياتي. لم تكن متعة عادية، كانت سامية، عبثية وغير قابلة للتبرير. ليس ذلك فحسب، بل مضادة لأي تبرير. في هذه المرة خسرتُ كلّ شيء: نقودي ورجالي والخط والعجلات؛ شيّدنا مرفأ صغيرا ولكن ليس لدينا الآن ما نصدّره. ضاع كلّ شيء.

في تلك اللحظة تماما غمرني إحساس غير متوقّع بالخلاص. كما لو أنّني في متاهة الضرورة القاسية والمظلمة، اكتشفت الحريّة وهي تلعبُ بسعادة في إحدى الزوايا، ورحت ألعب معها.

أيّ متعة تلك التي يعيشها الإنسان حين تعاكسه الظروف ويجد نفسه في اختبار حقيقيّ لمدى قدرته على الصّبر والشجاعة! عدوّ لامرئي مطلق القوة يدعوه بعضُهم الله وبعضُهم الآخر الشيطان، يبدو وكأنه يندفع إلينا كي يدمّرنا؛ ولكننا لا نُدمّر.

وفي كلّ مرة ينتصر داخلنا الإنسان الحقيقيّ، على الرغم من أننا مهزومون بشكل كامل في الخارج، نشعر نحن بني البشر بكبرياء ومتعة غير قابلتين للوصف، تحوّلان الكارثة الخارجية إلى سعادة مطلقة لا تهتزّ في الأعماق.

أذكر شيئا قاله لي زوربا في إحدى المرات:

«في إحدى الليالي وعلى جبل مقدوني غمرته الثلوج هبّتْ ريح عنيفة. هزّت الكوخ الصغير الذي أوينا إليه وحاولتْ أن تقلبه. ولكنني دعمتهُ وقوّيتهُ. كنتُ أجلسُ وحيدا قرب النار، أضحك من الريح وأهزأ بها. «لن تدخلي إلى كوخي الصغير يا أخيّتي! لن أفتح لك الباب. لن تطفئي ناري؛ ولن تقلبي كوخي!»

بكلمات زوربا القليلة صرت قادرا على تحديد ما ينبغي أن يفعله البشر وأيّة صرخة يجب أن يطلقوها حين يواجهون الضرورة القوية العمياء.

سرت بسرعة على طول الشاطئ، متحدّثا مع العدوّ اللامرئيّ. صحتُ: «لن تدخُلَ روحي! لن أفتحَ لك الباب! لن تُطفئَ ناري؛ لن تستطيع قهري!»

لم تكن الشمس قد ظهرتْ فوق الجبال بعد. الألوان تلعب في السماء وعلى المياه: زرقاء وخضراء، وردية وقزحيّة؛ وفي داخل البلاد، بين أشجار الزيتون، كانت طيور صغيرة تستيقظ وتغرّد، وقد أسكرها ضوء الصباح.

سرتُ على حافة الماء كي أودّع هذا الشاطئ المنعزل، كي أنقشه في ذهني وأحمله معي بعيدا.

عرفتُ الكثير من الفرح والمتعة على هذا الشاطئ. العيش مع زوربا زاد قلبي اتّساعا؛ بضع كلمات منه كانت تكفي لحمل الهدوء إلى روحي.

twitter @baghdad_library

فهذا الرجل، بغريزته المعصومة، ونظرته البدائية الشّبيهة بنظرة نسر، سلك طرقا مختصرة واثقة دون أن يفقد نَفَسَهُ، وصلَ إلى قمة الجهد وذهب إلى أبعد من ذلك.

مرت مجموعة، من الرجال والنساء، تحمل سلال الطعام وزجاجات النبيذ الكبيرة. كانوا ذاهبين إلى الحديقة للاحتفال بالأول من أيار. غنّتْ صبيّة بصوت عذب كمياه الربيع. ثمّ مرّت بقربي فتاة صغيرة ناهدة الصّدر بشكل مبكّر وهي تلهث، وسارعت لتسلّق صخرة مرتفعة، بينما كان يركض خلفها رجل شاحب أسود اللحية وعلى وجهه ملامح الغضب.

صاح بصوت أجش: «انزلي، انزلي...»

ولكن الفتاة، ذات الخدين الملتهبين، رفعت ذراعيها، عقدتهما خلف رأسها وأرجحت بلطف جسدها المعرّق وغنّت:

أخبرني بضحكة، أخبرني بصرخة
أخبرني أنك لا تحبني
فما الذي يهمّني؟

«انزلي، انزلي...!» كان الرجل الملتحي يصيح، وكان بصوته الأجش متوسلا ومهدِّدا في آن. وفورا قفز وأمسكها من قدمها وشدّها بوحشية. بكتْ وكأنها تنتظر فقط هذه الإيماءة الوحشية كي تريح مشاعرها.

هيّجت هذه المتعة المفاجئة عواطفي وحفّزت خطواتي فتسارعت. تذكرت بوبولينا العجوز. استطعتُ أن أشاهدها كما عرفتها سمينة معطّرة ومتخمة بالقبل. كانت تستلقي تحت الأرض. لا بد أنها انتفخت مسبقا وصار لونها أخضر. لا بد أن جلدها تشقّق ونزّت سوائل جسدها والديدان تزحف فوقها الآن.

هززتُ رأسي من الرعب. أحيانا، تصبح الأرض شفّافة فترينا حاكمنا المطلق، الدويدة، وهو يعمل ليلَ نهارٍ في مصنعه تحت الأرض.

ولكننا نبعد أعيننا بسرعة، لأن الإنسان يستطيع تحمّل كلّ شيء عدا مشهد تلك الدودة البيضاء الصغيرة.

حين دخلتُ القرية صادفت ساعي البريد على أهبة النفخ في بوقه.

قال وهو يقدّم لي ظرفا أزرق: «ثمّتَ رسالة لك أيها الرئيس!»

قفزتُ فرحا حين تعرفت إلى الكتابة الرشيقة. أسرعتُ عبر الأشجار، حتى بلغت حقل الزيتون، فتحتُ الرسالة بلهفة. كانت موجزة ومكتوبة بسرعة. فقرأتها على الفور.

لقد وصلنا إلى حدود جورجيا؛ تخلّصنا من الأكراد ومن غيرهم أيضا. عرفتُ أخيرا معنى السّعادة الحقّ. ولا سيّما الآن بعد أن جرّبتُ البداهة القديمة: السعادة هي القيام بواجبك، وكلما كان الواجب أصعب كانت السعادة أعظم.

ستصل هذه الكائنات المطرودة والمحتضرة إلى باتم، ولقد تلقّيتُ لتوّي برقية تقول إنّ السفن الأولى تلوح في الأفق.

إن هؤلاء الآلاف من اليونانيين الأذكياء المجدّين، مع زوجاتهم ذوات الأرداف العريضة وأطفالهم ذوي الأعين النارية، سينقلون حالا إلى مقدونيا وثريث. سوف نضخّ دما جديدا في شرايين اليونان القديمة.

لقد أرهقتُ نفسي نوعا ما، أعترف بذلك، ولكن ماذا يهم؟ لقد قاتلنا يا سيدي العزيز، ولقد ربحنا. إذن، أنا سعيد.

خبأتُ الرسالة وأسرعت. كنت سعيدا أيضا. سلكت المسار المنحدر صاعدا الجبل، فاركا غصن زعتر عذب الرائحة بأصابعي. كان الظّهر يقترب وظليّ الأسود يتكاثف عند قدمي. كان هناك عوسق يضرب بجناحيه في سرعة فائقة حتى ليبدو ساكنا، وحجل أفزعته خطواتي فاندفع من الدغل وحلّق في الجوّ بطيرانه الطبيعيّ.

كنتُ سعيدا. لو كان في وسعي الغناء بصوت مرتفع لفعلت عساي أريح مشاعري، لكنّي لم أستطع سوى إطلاق صيحات عمياء. ما الذي يحدث

twitter @baghdad_library

لك؟ سألتُ نفسي بسخرية. هل كنتَ وطنيًا متحمّسا جدًا آنذاك، دون أن تعلم أم هو حبّك لصديقك ليس إلاّ؟ ألا تشعر بالعار! سيطرٌ على نفسك واهدأ!

ولكنّ الفرح طوّقني وواصلتُ طريقي وأنا أصيح. سمعتُ صوتَ أجراس الماعز، وبعد قليل ظهرت على الصخور عنزات سوداء وبنّية ورمادية، وهي تسبح في العرق تحت الشمس. يتقدّمها تيس رافعا عنقه بتصلّب ونتانته تملأ الجوّ.

قفز راعي الماعز من على صخرة وهو يصفّر لي واضعا أصابعه في فمه.

«مرحبا يا أخي! إلى أين أنت ذاهب؟ من عساك تطارد؟»

أجبته مواصلا التسلّق: «لديّ عمل ملحّ أقوم به!»

«توقّف لحظة. تعال واشربْ حليب الماعز كي تنعش نفسك!» صاح الراعي قافزا من صخرة إلى أخرى.

صحتُ به، غير راغب في أن أخسر متعتي بالوقوف معه : «قلتُ لك لديّ شيء ملحّ أقوم به».

قال الراعي بنبرة متألمة: «هل تعني أنك تزدري حليبي؟ اذهب إذن، وليحالفك الحظ!»

وضع أصابعه في فمه ثانية وصفّر فتبعته العنزات والكلاب ليختفوا جميعا وراء الصخور.

وصلتُ بعد برهة إلى قمّة الجبل. وعلى الفور، هدأت نفسي وكأنّ بلوغ القمّة هو ما كنت أصبو إليه. تمدّدت على صخرة في الظلّ، ونظرتُ إلى السهل والبحر البعيدين. تنفّستُ بعمق؛ كان الجوّ عابقا بعطر المريمية والزعتر.

وقفتُ، جمعتُ بعض المريمية، صنعتُ مخدّة واستلقيت مرة أخرى. كنتُ متعبا. فأغمضتُ عيني.

للحظة حلّق ذهني إلى تلك الهضاب البعيدة المرتفعة المغطّاة بالثلوج. حاولتُ أن أتخيّل مجموعة الرجال والنساء والماشية وهي تشق طريقها نحو الشمال، وصديقي يسير في المقدمة ككبش على رأس قطيع. ولكن في الحال تشوّش ذهني وشعرتُ برغبة في النوم لا تقاوم.

حاولت أن أتجنّبه. لم أرغب في الاستسلام للنوم ففتحتُ عينيَّ. كان هناك غراب، قد حطّ أمامي على صخرة، فوق قمّة الجبل تماما. لمعتْ ريشاته السوداء الضاربة إلى الزرقة في ضوء الشمس وميّزتُ بوضوح منقاره الأصفر الكبير. فتعكّر مزاجي؛ لقد تشاءمت من هذا الطائر نذير الشرّ. التقطتُ حجرا ورميته به، فنشر جناحيه بهدوء وبطء وكأنّه يتعمّد استفزازي.

أطبقت عينيّ مرة أخرى، غير قادر على المقاومة أكثر، فانهال عليّ النعاس دفعة واحدة كالصّاعقة.

لم يمض على نومي أكثر من بضع ثوان حتّى أطلقتُ صرخة وانتفضت جزعا. كان الغراب في تلك اللحظة يمرُّ فوق رأسي. اتكأت على الصخرة مرتجفا. حلم عنيف اخترقَ ذهني كالرّمح.

رأيتُ نفسي في أثينا، أسير وحيدا في شارع هيرميس. كانت الشمس تتلظّى، والشارع مقفرا والحوانيت كلّها مغلقة، إنّها العزلة التامّة. حين عبرتُ كنيسة كابنيكاريا رأيتُ صديقي يجري نحوي من جهة ساحة الدستور شاحبا ولاهثا. كان يتبع رجلا باسقا ونحيلا، يسير بخطوات عملاق. وكان صديقي يرتدي الزيّ الدبلوماسي الوقور. رآني فصاح من بعيد، بنبرة متهدّجة:

«مرحبا، ما الذي تفعله في هذه الأيام؟ لم أرك منذ قرون. تعال وزرني الليلة، سنتبادل الحديث».

«أين؟» صحتُ بدوري، بصوت مرتفع، كما لو أن صديقي في مكان قصيّ وعليّ أن أرفع صوتي إلى أقصى حدّ كي يصل إليه.

twitter @baghdad_library

«ساحة الكونكورد، هذا المساء، في مقهى نبع الجنّة».

أجبته: «جيدا! سأكون هناك!»

قال بنبرة توبيخ: «تقول إنك ستكون هناك، لكنك لن تذهب».

صحت: «سأذهب بالتأكيد. إليك بيدي!»

«أنا مستعجل».

«لماذا أنت مستعجل؟ أعطني يدك!»

مدّ يده وفجأة انفصل ذراعه عن كتفه وطار في الجوّ قابضا على يدي. أرعبتني هذه المصافحة المشبعة بالألم فاستيقظت هلعا وأنا أصرخ.

كانت تلك هي اللحظة التي اكتشفتُ فيها الغراب يحلق فوق رأسي. بدا وكأن شفتيّ تنفثان السمّ.

استدرتُ نحو الشرق، مثبّتا عينيّ إلى الأفق وكأنني أرغب في أن أخترق المسافة وأرى... كنتُ على يقين من أن صديقي في خطر. ناديته ثلاث مرات:

«ستافريداكي! ستافريداكي! ستافريداكي!»

كما لو أنني أريد أن أشجّعه. ولكن صوتي ضاع أمامي بعد بضعة أمتار وتلاشى في الجوّ.

اندفعت مباشرة نازلا عبر المسار الجبلي، علّ التعب ينسيني الألم. صارع دماغي عبثا كي يفكّ شيفرة تلك الرسائل الغامضة التي كثيرا ما نجحت في اختراق الجسد والوصول إلى الروح. وفي أعماق كياني، تملّكني يقينٌ غريبٌ، يقين بدائيّ يتجاوز حدود العقل، وملأني رعبا. إنّه اليقين نفسه الذي تشعر به حيوانات كالخراف والجرذان قبل حصول الزلزال. استيقظتْ في داخلي أرواح البشر الأوائل على الأرض، تماما كما كانت قبل أن تفارق كليّا هذا الكون؛ حين كانت تتحسّس الحقيقة في تجلّ واضح، دون تأثير العقل الذي يشوّهها.

وتمتمتُ: «إنه في خطر! إنه في خطر! سيموت! ربما لا يدرك هو نفسه هذا، ولكنني أعرف، أنا متأكّد من ذلك...»

ركضتُ نازلا الممر الجبلي، تعثّرتُ بكومة من الأحجار، بعثرتها، سقطتُ على الأرض، قفزتُ ثانية بيدين مخدوشتين ورجلين نازفتين. كان قميصي قد تمزّق، حاولت أن أهدّئ من روعي لكنّي ظللت أكرّر:

«سيموت! سيموت!» قلتُ، وأنا أشعر بحرقة في الفؤاد.

كم هو بائس هذا الإنسان؛ يدّعي أنّه قد شيّد حصنا عظيما حول وجوده الهيّن الهشّ، يلوذ به علّه يعثر على شيء من الاستقرار والأمن، والقليل من السعادة. كلّ شيء يجب أن يتبع المسار المألوف، «الروتين المقدّس»، ويطيع تعاليمه الآمنة والبسيطة. وداخل حيّزه المحصّن ضدّ الهجمات الوحشية للمجهول، لا يمكن تحدّي يقينياته التافهة، الزاحفة مثل أم أربع وأربعين. ثمّتَ عدوّ واحد لا يُقهر، مخيف ومكروه بشكل قاتل: اليقين الأكبر. والآن، اخترق اليقين الأكبر أسواري وهو على كامل الاستعداد للإطاحة بروحي.

حين وصلتُ إلى شاطئنا، توقفت لحظة لألتقط أنفاسي. بدوت وكأنّي وصلتُ إلى خطّ دفاعاتي الثاني متماسكا. وقلت في نفسي: إنّ تلك الرسائل كلّها تولد من قلقنا الداخليّ، وأثناء نومنا تتجلى رمزا ساطعا. ولكنّنا نحن أنفسنا من يخلقها... بدأت الطمأنينة تسكب شيئا من الدفء في قلبي. كان العقل يدعو القلب إلى الانضباط، ضامّا جناحي ذلك الخفّاش الغريب الخافق أبدا، محاصرا إيّاه كي لا يطير مرة أخرى.

حين وصلتُ إلى الكوخ، كنتُ أسخر من حماقتي. شعرتُ بالعار من أن عقلي قد وقع فريسة الذعر بسهولة. تدحرجت عائدا إلى واقع الحياة اليومية، فبادر إليّ الجوع والظمأ، ومن ورائهما الإعياء. كانت الجراح التي سبّبتها الأحجار تؤلمني بشدّة. رغم ذلك شعر قلبي بالسّكينة: فالعدوّ المريع الذي اخترق الأسوار قد هُزم عند خط الدفاع الثاني المتمترس حول روحي.

twitter @baghdad_library

-26-

انتهى كلُّ شيء. جمع زوربا الحبال والأدوات والدواليب الصغيرة وقطع الحديد والخشب، وكوّمها على الشّاطئ في انتظار أن يأتي المركب ليحملها.

قلت: «هذه هدية لك ، يا زوربا. إنها كلها لك. حظا جيدا!»

ابتلع زوربا ريقه كما لو أنه يحاول أن يحبس البكاء.

وقال: «هل أنت راحل؟ إلى أين أنت ذاهب أيّها الرئيس؟»

«سأغادر البلاد، يا زوربا. إن العنزة الهرمة داخلي ما يزال لديها الكثير من الأوراق كي تمضغها».

«ألم تتعلم أفضل من هذا بعد أيّها الرئيس؟»

«بلى يا زوربا، بمعيّتك. ولكنني مازلت أقتفي أثرك؛ سأفعل بكتبي ما فعلته بسلال الكرز. سآكل الكثير من الورق، إلى أن يقزّزني. سأتقيّؤه كلّه ثم أتخلّص منه إلى الأبد».

«وأيّ حال سأكون عليه دون رفقتك، يا رئيس؟»

«لا تبتئس يا زوربا، سنلتقي ثانية، ومن يعرف، إن قوة الإنسان هائلة! ربّما في أحد الأيام ننفّذ خطّتنا العظيمة؛ نبني ديرا خاصا بنا؛ وتكون أنت البواب، يا زوربا، فتحمل المفاتيح الكبيرة كي تفتح البوابة وتغلقها مثل القديس بطرس...»

كان زوربا، يجلس على الأرض وظهره إلى حائط الكوخ، وهو يملأ الكأس تلو الأخرى، في صمت أعمى، بلا انقطاع.

خيّم اللّيل، ونفد عشاؤنا. بينما كنّا نتجرّع الخمرة ونتبادل آخر الكلمات. فغدًا، في الصباح الباكر، سنفترق.

قال زوربا وهو يفتل شاربه ويشرب: «نعم!، نعم... نعم، نعم...»

فوقنا، كان اللّيل مُضاءً بالنجوم؛ وفي داخلنا، كانت قلوبنا التوّاقة إلى

twitter @baghdad_library

الراحة ما تزال مضطربة.

قلتُ بيني وبين نفسي: ودّعه وداعا أبديّا. انظرْ إليه مليّا؛ فزوربا لن يرتسم في عينيك بعد الآن أبدا سوى ذكرى!

كان في وسعي أن أرمي بنفسي على صدره العجوز وأبكي، ولكنني شعرتُ بالخجل. حاولتُ أن أضحك كي أخفي عواطفي، لكنني لم أستطع. تملّكتني حرقة في الفؤاد وغصّة في الحلق.

نظرتُ إلى زوربا وهو يمدّ عنقه كأحد الجوارح ويشرب بصمت. راقبتهُ وفكرت في الحياة، كم هي لغز محيّر. فالناس يلتقون ويفترقون كأوراق تعصف بها الريح؛ تحاول عيناك عبثا الحفاظ بصورة الوجه، الجسد أو ملامح الشخص الذي أحببت؛ وفي بضع سنوات لا يصبح بوسعك أن تتذكر حتّى إن كانت عيناه زرقاوين أو سوداوين.

لا بدّ أن الروح الإنسانية مصنوعة من النحاس؛ لا بدّ أنها مصنوعة من الفولاذ! صحتُ بيني وبين نفسي. وليس فقط من الهواء!

كان زوربا يشرب، ورأسه الكبير منتصب، بلا حراك. بدا وكأنه يصغي لخطوات تقترب في الليل أو ينسحب إلى الأعماق القصوى لكينونته.

«ما الذي تفكّر فيه يا زوربا؟»

«ما الذي أفكّر فيه، أيها الرئيس؟ لا شيء. لا شيء! لم أكن أفكّر في أيّ شيء».

وبعد لحظة أو لحظتين، ملأ كأسه من جديد وقال:

«نخبك أيّها الرئيس!»

قرعنا كأسينا. كان كلٌّ منّا يعرف أن شعورا مريرا بالحزن لا يمكن أن يستمرّ طويلا. يجب أن نبكي أو نثمل، أو نبدأ الرقص كالمجانين.

واقترحت: «اعزفْ يا زوربا!»

«ألم أقل لك سابقا أيّها الرئيس؟ يحتاج السنتور إلى قلب سعيد. سأعزف بعد شهر أو ربما بعد شهرين. كيف لي أن أعرف؟ ثم بعد ذلك

سأغنّي عن صديقين افترقا إلى الأبد».

صحتُ مرعوبا: «إلى الأبد!». كانت هذه الكلمة التي لا شفاء منها تتردّد في داخلي، ولكن لم أتوقّع سماعها تُلفظ بصوت مرتفع. شعرتُ بالخوف.

«إلى الأبد!» كرّر زوربا وهو يبتلع ريقه بصعوبة. «إنّ ما قلتَهُ عن اللقاء ثانية، وبناء الدير، ليس إلاّ عزاء مقيتا وكأنّني رجل مريض تحاول شحذ همّته للوقوف على قدميه. وأنا لا أقبل ذلك، ولا أريده. هل نحن ضعفاء كالنساء كي نحتاج إلى مواساة كهذه؟ بالطبع لا... لذلك أقولها: «إلى الأبد!»

قلتُ مرعوبا من حبّ زوربا اليائس لي: «ربما سأبقى هنا معك... أو ربما أذهب معك بعيدا، لا أدري، فأنا حرّ.».

هزّ زوربا رأسه ساخرا وقال: «كلا. لستَ حرّا. إن الخيط الذي يشدّك أكثر طولا من خيوط الآخرين. هذا كل شيء. خيطك طويل أيّها الرئيس؛ تجيء وتروح، وتعتقد أنك حرّ، ولكنّك لن تقطعه أبدا. وحين لا يقطع الناس ذلك الحبل...»

قلتُ متحدّيا، لأن كلمات زوربا لامستْ جرحا لم يندمل في داخلي وآلمتني،: «سأقطعه ذات يوم».

«إن هذا صعب أيها الرئيس، بالغ الصعوبة. تحتاج إلى لمسة حماقة كي تفعل ذلك؛ حماقة، أتفهم؟ يجب أن تجازف بكل شيء! ولكنّ عقلك المتماسك سيظلّ يحصل على أفضل ما فيك. إن رأس الإنسان كالبقّال؛ يقوم بالحسابات: دفعتُ كذا وربحتُ كذا وهذا يعني ربحا قدره كذا أو خسارة قدرها كذا! إن العقل بقّال حريص؛ لا يجازف أبدا بكل ما لديه، دائما يحافظ على احتياطيّ ما. لا يقطع الخيط أبدا، بل يتعلّق به بشدة، الوغد! إذا انزلق الحبل من قبضته فإن العقل، ذلك الشيطان البائس، يضيع وينتهي! ولكن إذا لم يقطع الإنسان الخيط، فأخبرني، أي طعم سيكون للحياة؟ سيكون حتما بنكهة البابونَج الجّاف، أمّا الروم فله طعم

twitter @baghdad_library

يجعلك ترى الحياة كلّها مقلوبة رأسا على عقب!»

صمتَ، سكب المزيدا من النبيذ، ثم بدأ يتحدّث من جديد:

«يجب أن تسامحني أيّها الرئيس. أنا مجرّد ريفيّ جلف. تعلق الكلمات بين أسناني كما يعلق الطين بحذائي. لا أستطيع أن أخرج جملا وإطراءات جميلة. لا أستطيع فحسب. ولكنك تفهم هذا، أليس كذلك؟».

أفرغَ كأسه ونظر إليَّ.

صاح وكأنه امتلأ فجأة بالغضب: «أنت تفهم! أنت تفهم! ولهذا لن تحصل على أيّ طمأنينة أبدا. عليك ألاّ تفهم كي تكون سعيدا! ما الذي تفتقر إليه؟ أنت شابّ، تملك النقود، والصحّة، أنت شخص جيّد، لا شيء يعوزك. لا شيء سوى أمر واحد: هو الحماقة! وحين يكون هذا مفقودا أيها الرئيس، حسنا...»

هزّ رأسه الكبير وصمتَ مرة أخرى.

أجهشت بالبكاء. كان كلُّ ما قاله زوربا صحيحا. حين كنتُ طفلا كنتُ مليئا بالدوافع المجنونة، والرغبات الخارقة، ولم أكن مكتفيا بالعالم. تدريجيا، ومع مرور الوقت، صرتُ أكثر رصانة. وضعتُ حدودا، فصلتُ الممكن عن المستحيل، والإنسانيّ عن الإلهيّ، وأمسكتُ طائرتي الورقية بإحكام، كي لا تهرب.

عبَر السماءَ شهابٌ ضخم. اهتزّ زوربا وثبّت عينيه في الفضاء كما لو أنه يرى نجما يحترق للمرة الأولى في حياته.

سألني: «هل رأيتَ ذلك الشهاب؟»

«نعم». قلت له

وصمتنا.

فجأة مدّ زوربا عنقه المهزول، ملأ صدره وأطلق صرخة وحشية يائسة. وفي الحال تحوّلت الصرخة إلى كلام بشري، ومن أعماق وجود زوربا صعد لحن قديم ورتيب، مليء بالحزن والعزلة. انشطر قلبُ الأرض

وعمّ الفضاءَ سمٌّ شرقيّ مُغو بعذوبته. شعرتُ داخلي أنّ الأنسجة التي ما تزال تشدّني إلى الطّيبة والأمل تتآكل حتى انقطعت:

أمانْ... أمانْ...!

صحراء ورمال رائعة على مدى البصر. يرتجف الهواء، ورديّا، أزرق، أصفر؛ ينفجر صدغاك. تُطلق الروح صرختها الوحشية وتبتهجُ

إذ لا تجيبها صرخة. اغرورقتْ عيناي بالدموع.

وطائرا حجل بسيقان حمراء ينشدان على الهضبة

يا طائريْ الحجل رجاء توقّفا عن الغناء! يكفيني ما بي من وجع.

أمانْ! أمانْ!

وصمت زوربا. مسح عرق جبينه بحركات حادة من أصابعه، ثمّ مال إلى الأمام وحدّق في الأرض.

سألته بعد وهلة: «ما هذه الأغنية التركية يا زوربا؟»

«إنها أغنية الحادي. الأغنية التي ينشدها في الصحراء. لم أغنّها منذ سنين ولا أعرف كيف خطرت لي على بال؟. ولكن فقط الآن...»

ورفع رأسه، ونظر إليّ.. كان صوته متحشرجا وحنجرته جافة.

قال: «أيها الرئيس، حان وقت نومك. عليك أن تبكّر غدا إذا كنت ستلحق بالسفينة إلى كانديا. عمتَ مساء!»

قلتُ: «لا أشعر بالنعاس. سأسهر معك. هذه آخر ليلة لنا معا».

«لهذا السبب يجب أن ننهيها بسرعة!» قالها، قالبا كأسه الفارغ إشارة إلى عدم الرغبة في مواصلة الشرب ثمّ أضاف معلّقا:

هكذا مثلما يفعل الرجال الحقيقيون حين يقلعون عن التّدخين وشرب النّبيذ ولعب الورق دفعة واحدة.. لقد كان والدي واحدا من هؤلاء. كان بطلا حقيقيا...لا تنظر إليّ، أنا فقط نسمة هواء منه، لا أصل إلى كاحليه. إنه يشبه أولئك اليونانيين القدامى الذين يتحدثون عنهم طوال

twitter @baghdad_library

الوقت. رجل يكاد يسحق عظامك حين يصافحك. أنا أستطيع أن أتحدث بين فينة وأخرى، أمّا أبي فكان يزأر، ويصهل ويغنّي، نادرا ما خرجتْ كلمة إنسانية من بين شفتيه.

حسنا، لقد كان يمارس الرذائل كلّها، ولكنه كان يقطعها بضربة سيف. مثلا، كان يبدو وهو يدخّن السجائر كالمدخنة تماما. وفي صباح أحد الأيام نهض وذهب إلى الحقل كي يفلحه. وصل، اتكأ على السياج، ودفع يده في حزامه بحثا عن علبة تبغه ليلفّ سيجارة قبل أن يشرع في العمل، أخرج علبته فوجدها فارغة. كان قد نسيَ أن يملأها قبل أن يغادر المنزل. فسال الزبد من فمه غضبا، زأر، ثم هرع نحو القرية. لقد تغلّب ولُعه بالتدخين على عقله. ولكن فجأة -وكما قلت لك مرارا يظلّ الإنسان لغزا- توقّف، لقد باغته إحساس بالعار، فأخرج علبة التبغ، ومزّقها بأسنانه، ثم رماها على الأرض وبصق عليها. وجأر: قذارة! قذارة! عاهرة قذرة!

ومنذ تلك الساعة، إلى نهاية أيامه، لم يضع سيجارة بين شفتيه.

«هذه هي الطريقة التي يتصرف بها الرجال الحقيقيون، أيها الرئيس! عمت مساء!»

نهض وسار على امتداد الشاطئ. دون أن يلتف. ذهب إلى حافة الماء وتمدّد هنالك على الحصى.

لم أره أبدا مرة ثانية. جاء البغّال قبل أن يصيح الديك. ركبت السرج وغادرتُ. يمكن أن أكون مخطئا، ولكنّني أشك بأن زوربا اختبأ في مكان ما كي يراقبني وأنا أرحل، رغم أنه لم يركض كي يقول كلمات الوداع المعتادة، فنحزن ونبكي، نتصافح ونلوّح بالمناديل ونتبادل العهود كالآخرين.

كان فراقنا سريعا كضربة سيف.

وصلتني في كانديا برقية. أمسكتها بيدين مرتجفتين ونظرت إليها لبعض الوقت قبل أن أفتحها. كنت أعرف محتواها. استطعتُ أن أرى

بيقين مريع عدد الكلمات، وحتى عدد الأحرف التي احتوتها.

استحوذت عليّ رغبة في تمزيق البرقية دون فتحها. لماذا أقرؤها بما أنني أعرف محتواها؟ ولكننا لم نعد نؤمن بأرواحنا، للأسف! فذلك البقّال الأبديّ الذي نسمّيه العقل، يضحك من الروح، كما نضحكُ نحن بدورنا من العرّافات اللواتي يقرأن الطالع. أو من النساء العجائز غريبات الأطوار. وهكذا فتحت البرقية. كانت قادمة من تفليس. رقصت الحروف للحظة أمام عينيّ، لم أستطع أن أميّز أية كلمة منها. ولكنها هدأت ببطء فقرأت:

لقد توفيّ ستافريداكي بعد ظهر أمس من الالتهاب الرئويّ ذاته.

مرّتْ خمس سنوات، خمس سنوات طويلة من الرعب، انطلق فيها الزمن جامحا، وانضمّتْ الحدود الجغرافية إلى الرقصة، توسّعتْ الحدود القومية وتقلّصتْ مثل الأكورديونات. حملتني العاصفة أنا وزوربا بعيدا؛ رغم أنّني كنتُ أتلقّى منه، بين فينة وأخرى، في السنوات الثلاث الأولى، بطاقة بريدية موجزة.

وصلتني واحدة من جبل أثوث؛ بطاقة عليها صورة العذراء، حارسة البوابات، بعينيها الكبيرتين الحزينتين وذقنها الحادّ المصمّم. تحت العذراء كتب زوربا بقلم حبره السميك والثقيل الذي كان دوما يخدش الورق:

«لا فرصة للقيام بالعمل هنا، أيها الرئيس! إنّ الرهبان هنا يفلّون براغيثهم! أنا راحل!»

بعد بضعة أيام وصلتني بطاقة أخرى:

«لا أستطيع أن أدور حول كل تلك الأديرة حاملا الببغاء في يدي مثل عارض متنقل. أهديته إلى راهب طريف علّم شحرورا أن يلفظ عبارة «المجد لك يا يسوع» بشكل جميل. إنّ الشيطان الصغير يسبّح كراهب حقيقيّ؛ يصدمك سماعه. سيعلّم ببغاءنا المسكين التّلفّظ أيضا. آه! بعد كلّ تلك الأمور التي رآها هذا الطائر الوغد في حياته! ها هو الآن يصبح أبا مقدّسا!

twitter @baghdad_library

أتمنى لك التوفيق. الأب أليكسيوس، الناسك المقدس».

وبعد ستة أشهر أو سبعة، تلقّيت بطاقة من رومانيا تُظهر امرأة عامرة الصدر وهي ترتدي فستانا مفتوح الجيب.

ما أزال على قيد الحياة، أنا آكل حساء الذرة الروماني. أعمل في مناجم النفط. صرت متسخا ومنتنا كجرذ في بالوعة. ولكن من يكترث؟ تستطيع أن تجد هنا الكثير مما يرغب فيه قلبك ومعدتك. جنّة حقيقة للأنذال العجائز من أمثالي. أتفهم، أيّها الرئيس؟ حياة رائعة... كثير من الأصدقاء الجميلين والحبيبات الرّائعات مدرجون في الصفقة أيضا، فالحمد لله!

ألكيسيس زوربا، جرذ البالوعة

مرّ عامان. وتلقّيتُ بطاقة أخرى، وهذه المرة من صربيا.

ما أزال حيّا. البرد هنا جحيمٌ لا يُطاق، ولهذا فقد اضطررت إلى الزواج. اقلب وسترى وجهها: قطعة رائعة من المادة الأنثوية. هي سمينة قليلا في الوسط لأنها تُعدّ لي زوربا صغيرا. وأنا أقف إلى جانبها مرتديا البدلة التي منحتها لي، وخاتم الزفاف الذي تراه في إصبعي، هو للعجوز بوبولينا - لا شيء مستحيل! ليبارك الله بقاياها! اسم هذه المرأة لايوبا. إنّ المعطف ذا الياقة المنسوجة من فرو الثعالب الذي أرتديه هو جزء من مهر زوجتي. قدّمت لي أيضا مهرا وسبعة خنازير وهي كمية جيدة! لديها ولدان من زوجها الأول، آه.. نسيتُ أن أخبرك بأنها أرملة، كما نسيت بأن أخبرك بأنّي عثرتُ على منجم للنحاس في جبل قريب من هنا. ونجحتُ أيضا في إغراء رأسماليّ آخر، والآن أنا أحيا برفاه مثل باشا.

أليكسيس زوربا

الأرمل السابق

على ظهر البطاقة كانت هناك صورة لزوربا متأنّقا في ثياب عريس،

بقبعة من الفراء ومعطف جديد طويل حاملا عصا قصيرة. وعلى ذراعه تتّكئ امرأة سلافية جميلة لا يزيد عمرها على الخامسة والعشرين، مهرة بريّة بوَركين مكتنزين وصدر ممتلئ، كانت ترتدي حذاءً عاليا وهو ما منحها هيئة امرأة مغرية وخبيثة. وتحت الصورة بعض كلمات بخطّ زوربا الشبيه بخربشة الأطفال:

«أنا زوربا، وذلك هو العمل الذي لا ينتهي: النساء، وهو يحمل هذه المرة اسم لايوبا».

كنتُ طوال تلك الأعوام أسافر إلى خارج البلاد. فأنا أيضا كان لدي عملي الذي لا ينتهي، ولكن ليس له صدر ممتلئ ولا معطف جديد ولا خنازير كي يمنحها لي.

«جاءتني برقية في أحد الأيام وأنا في برلين: لقد عثرتُ على حجر أخضر رائع. تعال فورا. زوربا».

كان هذا وقت المجاعة الكبيرة في ألمانيا. وقد هبط المارك إلى درجة تدفعك إلى حمل مليون منه في حقيبة كي تشتري شيئا بسيطا كطابع بريدي مثلا. المجاعة والبرد والملابس المهترئة والأحذية المليئة بالثقوب في كلّ مكان، حتّى الخدود الألمانية المتورّدة باتت شاحبة. وإذا ما هبّ أضعف نسيم كنت ترى الناس يسقطون في الشارع كالأوراق. كانت الأمهات يقدّمن لأبنائهنّ قطع مطاط كي يمضغوها ويتوقّفوا عن البكاء. وفي الليل كانت الشرطة تحرس الجسور عبر النهر لمنع الأمهات من الانتحار، وأطفالهن بين أيديهن، دفعا للشقاء بأي طريقة.

كان الشتاء وكان الثلج. في الغرفة التي تلي غرفتي حاول أستاذ ألماني مختص في اللغات الشرقية أن يدفّئ نفسه عبر حمل فرشاة كبيرة في يده، مقلّدا طريقة الشرق الأقصى الصّعبة؛ فرأس الفرشاة والكوع المرفوع وقلب الكاتب يجب أن يشكّلوا مثلّثا. فراح ينسخ بعض القصائد الصينية القديمة أو بعض الحكم لكونفشيوس.

twitter @baghdad_library

وكان يقول لي بقناعة: «بعد بضع لحظات، يبدأ العرق بالتدفّق مني. وهكذا أشعر بالدفء».

وسط أيام قاسية كهذه تلقّيتُ برقية زوربا. كنتُ غاضبًا في البداية. فبينما كان ملايين البشر يغوصون في الانحطاط لأنهم لا يملكون قطعة خبز كي يغذوا أجسادهم وأرواحهم، تأتيني برقية تطلب منّي أن أنطلق وأسافر آلاف الأميال كي أشاهد حجرا أخضر جميلا! إلى الجحيم بالجمال! إنه لا يملك قلبا ولا يأبه مثقال ذرة بالمعاناة البشرية!

ولكن سرعان ما تملّكني الرعب: تبخّر غضبي وبدأتُ أدركُ أنّ قلبي يستجيب إلى إغراء زوربا اللاإنساني. كان ثمّتَ طائر بريٌّ في داخلي يخفق بجناحيه ويطلب الذهاب.

ولكنّني لم أذهب. لم أجرؤ مرّة أخرى. لم أطعْ الصخب الإلهي والبدائي في داخلي؛ أصغيتُ إلى صوت المنطق البشري البارد المعتدل. وهكذا تناولتُ قلمي وكتبتُ إلى زوربا كي أشرح له فأجابني:

أنت مع احترامي لك كاتب تافه أيها الرئيس. كان في وسعك أيضا أن تشاهد حجرا أخضر جميلا على الأقل مرة في حياتك، أيها المسكين، ولم تشاهده. أحيانا حين لا يكون لديّ عمل، أطرح هذا السؤال على نفسي: أهناك فعلا جحيم أم لا؟ ولكن أمس، حين وصلتْ رسالتك ،قلت: لا بدّ أنّ هناك جحيما ،ما في ذلك شكّ ،وإلاّ أين سيوضع الكتّاب السفسافون أمثالك!

لم يكتب لي زوربا أبدا منذ ذلك الوقت، إذ فصلتنا أحداث أكثر رعبا. واصل العالم تعثره وتخبّطه كرجل ثمل. وفُتحتْ الأرض فابتلعت الصداقات والاهتمامات الشخصية.

كثيرا ما تحدثتُ إلى أصدقائي عن هذا الشخص العظيم. أُعجبنا بقدرته الثابتة على التأثير في الآخرين بكل ثقة واندفاع، ذلك الرجل الأمّي يحدث فينا ما يعجز عنه العقل. كان يحفر أعمقَ ليحلّق أعلى. فزوربا يصعد بقفزة واحدة مرتفعات روحية تستغرق منّا سنوات من

الوجع والتّيه. كنا نقول: إنّ زوربا شخص عظيم! وحين يتخطّى تلك المرتفعات كنا ننعته بالجنون.

وهكذا مرَّ الوقتُ، وسمّم ذكرياتي بعذوبة. ظلٌّ آخر، لصديقي، سقط أيضا عبر الروح. ولم يفارقني أبدا لأنّني أنا نفسي لم أرغب في تركه.

لكنني لم أحدّث أيّ إنسان عن هذا الظلّ. كنتُ أحادثه سرّا، وبفضله تصالحت مع الموت. صار لدي جسري السرّي إلى الضفّة الأخرى. حين عبرت روح صديقي الجسر، شعرتُ بوهنها وشحوبها؛ كانت وكأنّها من شدّة تصدّعها لم تعد قادرة حتى على مصافحتي.

أحيانا كنت أفكّر متوجّسا في أنّ صديقي لم يمتلك من الوقت على الأرض ما يكفي ليحوّل عبوديّة الجسد إلى حرّية أو لينمّي روحه ويقوّيها كي لا يحاصرها الذّعر فتفنى في اللّحظة النّهائية الحاسمة. فكّرت في الوقت غربما لم يسعفه أيضا كي يخلّد ما كان فيه مُمكِنَ التخليد.

ولكنه بين الفينة والأخرى، كان يستعيد قواه. هل هذا ما كان حقا أم أنّ حنوّ الذّاكرة هو ما ألبسه رداء الشباب وعافاه حتى كدت أسمع وقع خطواته صاعدة الدرج؟

في الشتاء المنصرم قمتُ بالحج إلى جبال الإنجادين بمفردي، كنت قد زرتها سابقا رفقة صديقي وقضّينا وقتا ممتعا مع امرأة أحببناها معا.

كنتُ نائما في الفندق نفسه الذي كنا ننزل فيه. وكان ضوء القمر ينسكب عبر النافذة المفتوحة فأشعرُ بروح الجبال تنزلق إلى ذهني ساحبة وراءها أشجار الصنوبر المغطاة بالثلج والليل الهادئ بقتامته.

شعرتُ بسعادة لا تُوصف، تراءى لي النوم بحرا شفّافا مسالما وعميقا في آن، سحبني إلى حضنه وهدهدني فاستسلمت له سعيدا لا أحرّك ساكنا..؛ فيما كانت حواسّي متيقّظة ومرهفة حتى أنه لو مرت سفينة فوق سطح الماء، على بعد ألف ميل، لجرحني عبورها.

فجأة عبرني ظلٌّ. عرفتُ من كان. جاء صوته مليئا بالعتاب:

twitter @baghdad_library

« أتنام؟»

أجبتُ بالنبرة نفسها:

«جعلتني أنتظرك؛ لم أسمع صوتك لشهور. أين كنتَ تتجوّل؟»

«كنت معك طوال الوقت، لكنك نسيتني. لست أملك دوما القوة كي أنادي، أما أنت فيبدو أنّك تريد هجري. أعلم أن ضوء القمر جميل، كذلك الأشجار التي يغطّيها الثلج، والحياة على الأرض عموما. ولكن أرجو أن لا تنساني!»

«أنا لا أنساك؛ أنت تعرفٍ هذا جيّدا. في اليوم الأول الذي تركتني فيه، تسلقت جبالا وحشية عَلّي أُرهق جسدي، وأمضيتُ لياليَ من الأرق أفكّر فيك. ألّفت القصائد عساي أقتل في مشاعري أشياء أو أحيي أشياء... لكنها أتت قصائد بائسة لم تستطع حتى أن تعيد الألم إلى مكانه. وهذا مطلع واحدة منها:

وأنت تعبر المسلك الوعر رفقة الموت

أعجبتني قامتك وأذهلتني مرونته...

كنتما كبجعتين بريّتين تستيقظان فجرا وتفترقان.

وفي قصيدة أخرى لم تكتمل هي الأخرى:

أطبق أسنانك أيها المحبوب كي لا تطير روحك بعيدا!

ثمّ ابتسم بمرارة، وأحنى وجهه فوقي فارتجفتُ حين رأيتُ شحوبه. حدّق فيّ لوقت طويل بنظرات جوفاء من عينين كانتا تتألّقان هنا ذات يوم ولم تغدوا الآن سوى كرتين صغيرتين من تراب.

قلت: «بماذا تفكّر؟ لِمَ لا تقول شيئا ما؟»

مرّة أخرى تدفّق صوته كتنهيدة بعيدة:

«آه! ما الّذي يمكن أن يبقى لروح طالما كان العالم بالنسبة إليها أضيق من خرم إبرة! بضعة أشعار لشخص آخر، سطور مبعثرة ومبتورة - لا تكاد تشكّل رباعية كاملة! أروح وأغدو على الأرض، أزور أولئك الذين كانوا أعزّاء عليَّ، فأجد قلوبهم الآن مغلقة. أنّى لي أن أدخل؟ وكيف أستطيع أن أبعث نفسي إلى الحياة؟ طريقي باتت دائريّة وكأنّني كلب

يحوم حول منزل موصد الأبواب. آه لو أستطيع فقط أن أعيش حرّا فلا أتشبّث كالغريق بأجسادكم النابضة دفئا وحياة!»

نزلت الدموع من محجريه؛ فتحولت كرتا التراب إلى طين.صار صوته أكثر قوة في الحال. وقال:

«إن أعظم متعة منحتها لي كانت ذات حفلة في زوريخ. أتذكُر؟

رفعتَ كأسك كي تشرب نخبي. أتذكُرُ هذا؟ كان هناك شخص آخر معنا...»

فأجبت: «نعم، أذكر ذلك الشخص الذي كنا ندعوه سيدتنا الكريمة...»

كنا صامتين وكأن قرونا قد مرّت منذ ذلك الوقت! زوريخ! والثلج يتساقط في الخارج؛ كنا ثلاثة في رفقة الأزهار الموضوعة على الطاولة.

سأل الظلّ، بسخرية مضمرة: «فيم تفكّر يا معلّم؟»

«في بعض الأشياء، في كل شيء...»

«أنا أفكّر في كلماتك الأخيرة. عندما رفعتَ كأسك وقلتَ بصوت مرتجف: يا صديقي العزيز، حين كنتَ طفلا كان جدك العجوز يجلسك على ركبته وهو يضع على الأخرى قيثارته الكريتية ثم يشرع في عزف بعض ألحان الباليكاريا. الليلة أشرب نخبك راجيا أن يكون مصيرك جلوسا أبديا على ركبتي الله!»

«لقد استجاب الله لدعواتك سريعا!»

صحتُ: «وما المهمّ؟ إنّ الحبّ أقوى من الموت».

ابتسم ثانية بمرارة، لكنّه لم يقل أي شيء. شعرتُ بجسده يتحلّل في الظلام، ويغدو نحيبا، تنهيدة، ضحكة ساخرة.

بقي طعم الموت على شفتيّ لأيام. ولكن قلبي ارتاح. دخل «شارون» حياتي بوجه مألوف ومحبوب، كصديق يأتي كي يزورك وينتظر بصبر في زاوية إلى أن تنهي عملك.

لكن ظلّ زوربا كان دوما يحوّم حولي والغيرة تستبدّ به.

twitter @baghdad_library

في إحدى الليالي كنتُ وحيدا في منزلي قرب البحر في جزيرة أيجينا. كنتُ أشعر بالسعادة. نافذتي المطلّة على البحر مفتوحة، منها يتسرّب ضوء القمر، والبحر يتنهّد مغتبطا، هو أيضا. بينما كان جسدي المنهك من السباحة ينام بعمق.

وفجأة، قبل الفجر تماما ، ووسط تلك السعادة كلّها، ظهر زوربا في حلمي. لا أستطيع أن أتذكّر ما قاله أو سبب مجيئه. ولكن حين استيقظتُ كان قلبي على وشك التحطّم. دونما سبب، اغرورقت عيناي بالدموع. وتملّكتني رغبة لا تقاوم في إعادة تدوين الحياة التي عشناها سويّة على ساحل كريت، أن أقود ذاكرتي إلى العمل وأجمع كلّ الأقوال والصيحات والإيماءات والدموع والرقصات التي بعثرها زوربا في ذهني كي أنقذها.

كانت هذه الرغبة عنيفة جدا، حتّى أنّني خفت أن أرى فيها علامة احتضار زوربا في مكان ما على الأرض. فقد كنت أشعر دائما بروحي متوحّدة مع روحه بقوّة إلى حدّ يستحيل معه أن تموت إحداهما دون أن تهتزّ الأخرى وتصرخ من الألم.

للحظة ترددت في جمع ذكرياتي كلّها عن زوربا والتعبير عنها بكلمات. استحوذ عليّ رعبٌ طفوليٌّ. فقلتُ في نفسي: إذا فعلتُ هذا، يعني أن زوربا هو حقّا يعاني من خطر الموت. يجب أن أقاتل ضدّ اليد الغامضة التي تبدو أنها تحثّ يدي.

قاومتُ لمدة يومين، ثلاثة أيام، فأسبوع. شغلتُ نفسي بكتابة أخرى، قمتُ بنزهات طوال النهار وقرأتُ كثيرا. كانت هذه هي الخدع التي وظّفتها كي أبعد الحضور اللامرئيّ. ولكنّ قلقلا ذابحا على زوربا غزا ذهني وطوّقني من كلّ الجهات.

كنتُ في أحد الأيام جالسا على سطح منزلي قرب البحر. كان الوقت ظهرا والشمس تتلظّى، بينما رحت أحدّق إلى سفوح السلامين الأنيقة والعارية أمامي. وفجأة، وقد حثّتني تلك اليد الإلهية، أخذتُ ورقة،

وتمددتُ على بلاط السطح المحرق وبدأت أسجّل أقوال زوربا وأفعاله.

كتبتُ بعنف واندفاع كي أعيد الماضي إلى الحياة، محاولا أن أتذكّر زوربا وأبعثه كما كان تماما. شعرتُ أنه إذا اختفى سيكون ذلك خطئي، وعملتُ ليلَ نهارٍ كي أرسم صورة كاملة قدر الإمكان عن صديقي القديم.

عملت كسحَرَة القبائل البدائية في أفريقيا حين كانوا يرسمون على جدران الكهوف، الأسلافَ الذين شاهدوهم في أحلامهم، جاهدين كي يجعلوهم مليئين بالحياة قدر الإمكان حتى تستطيع أرواح الأسلاف التعرّف إلى أجسادها في الصورة وتتوحّد بها.

وبعد بضعة أسابيع كانت أسطورة زوربا الذهبيّة قد اكتملت.

في ذلك اليوم عند نهاية الأصيل، كنت أجلس على السطح ثانية، وأنظر إلى البحر مغمورا بالطمأنينة والفرح وكأنّ عبئا ثقيلا قد أزيح عن كاهلي. وأنا أحمل المخطوط المكتمل في حضني، مثلما تحمل امرأة طفلها المولود حديثا.

كانت الشمس المحمرّة تغرب خلف جبال البيلوبونيز فيما كانت الفتاة الفلاحة الصغيرة سولا المسؤولة عن إحضار بريدي من البلدة، تصعد إلى السطح، لتمدّ إليّ رسالة وتركض مبتعدة... ففهمت، أو هكذا خُيّل إليّ، لأنني حين فتحتُ الرسالة وقرأتها، لم أنتصب لأطلق صرخة، ولم يذهلني الرعب. ففي تلك اللّحظة المحدّدة التي وضعت فيها المخطوط المكتمل في حضني، ورحت أنظر إلى البحر ملتحما بالشمس الغاربة كنتُ على يقين أنّني سأتلقى هذه الرسالة.

وبهدوء، ودون عجلة، قرأتُها. كانت من القرية القريبة من سكوبليج في صربيا، ومكتوبة بلغة ألمانية رديئة:

أنا معلّم هذه القرية وأكتب لك لأبلغك النبأ المحزن: إنّ أليكسيس زوربا، مالك منجم النحاس هنا، قد توفي يوم الأحد الماضي عند الساعة السادسة مساءً. وأثناء احتضاره، ناداني وقال لي: «اسمعْ أيها المعلّم.

twitter @baghdad_library

لديّ صديق في اليونان. حين أموت اكتبْ له أنّني كنتُ أفكر فيه حتى آخر لحظة من حياتي وأنا محتفظ بكامل مداركي. وأخبره أنه مهما اقترفت من حماقات، فإنني غير نادم. أخبره أنني آمل أن يكون على ما يرام وأنه آن الأوان بالنسبة إليه كي يُظهر بعض التعقّل.

أصغِ، فقط دقيقة أخرى. إذا جاء كاهن كي يأخذ اعترافي ويقدم لي سرّ القرِبان المقدس، فاطلب منه أن يرحل بسرعة وأن يمنحني لعنته! لقد قمتُ بأكوام وأكوام من القذارات في حياتي، ولكنني لم آخذ كفايتي. لأنّ رجالا مثلي يجب أن يعيشوا ألف عام. عمتَ مساءً!»

كانت هذه كلماته الأخيرة. وبعد ذلك اتكأ على وسادته، ورمى الأغطية إلى الخلف محاولا النهوض. ركضنا كي نمنعه، أنا وزوجته لايوبا، مع عدد من الجيران الأقوياء. ولكنه دفعنا بقوة جانبا، قفز من السرير وذهب إلى النافذة. وهناك، أمسك بالإطار، ونظر إلى الجبال البعيدة، وأغمض عينيه وبدأ يضحك، ثم صهل كحصان. وهكذا، في هذه الوقفة، وأظفاره مغروزة في إطار النافذة، جاءه الموت.

طلبت مني زوجته لايوبا أن أكتب لك وأرسل تحياتها. فقد كان المرحوم يتحدث عنك دوما، كما تقول، وأوصى بأن يعطى سنتوره لك بعد وفاته كي يساعدك على تذكره.

تتوسل إليك الأرملة، إذا حدث ومررت بقريتنا، أن تكون ودودا بما يكفي كي تمضي الليلة في منزلها، وأن تأخذ السنتور معك حين ترحل في الصباح.

ألف راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

حديقة الصخور

المؤلّف: نيكوس كازنتزاكي
البلد: اليونان
ترجمة: أسامة إسبر

من الصعب أن تحدّد من هو كازنتزاكي في رواية «حديقة الصخور».. فهو هنا كل وجوهه المتعدّدة وما أكثرها.. الرّوائيّ يكتب حكايته، والشاعر ينظم قصيدته، والمسافر يدوّن مذكّرات رحلاته، والفيلسوف يتأمّل العالم وذاته، والسّياسيّ يلاحظ انهيار العالم وأكاذيب الإيديولوجيا ..

لقد تأثّر كازنتزاكي بنيتشة وبرغسون وماركس. فكره مزيج من كلّ تلك الفلسفات وفي روحه تمزّق متجانس بين السماويّ والوضعيّ وخارجهما، بين حكمة الشرق الأقصى مختزلة في بوذا والكثير من مسيحيّة الغرب وعلمانيّة الشّيوعيّين في العالم .. لا يقلقه تناقضه، بل يرى في ذلك عمق الوجود الإنسانيّ وخُلاصة مأساته وخلاصه ..

على امتداد صفحات الرّواية تطالعنا المدن و الوجوه في رحلة لا تنتهي بين عشرات الأماكن ومئات البشر .. لا شيء من ذلك يهمّ فعلا بقدر ما تهمّ التّجربة من ورائها والحكمة من وجودها..

ظافر ناجي

twitter @baghdad_library

ساعي بريد نيرودا

المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

هي حقًّا رواية بطعم الفاكهة، تبدؤها فإذا أنت متورّط فيها حدّ المتعة، تنال من كلّ حواسّك وتسحبك من عالمك إلى عالمها فلا تستطيع لها تركا ولا منها فكاكا قبل أن تقرأ الجملة الأخيرة .. رواية شحيحة الشخصيّات قليلة الأحداث يمكن تلخيصها في كلمة «نيرودا» وهو ممدّد على فراش المرض ردّا على ساعي بريده «ماريو خيمينث» وهو يسأله عمّا يشعر.. فيجيبه بكلّ بساطة وعمق: «أشعر بأنّي أحتضر. وباستثناء ذلك ليس هناك ما هو خطير».

أيّة مفارقة أجمل من لعبة اللغة توحي وتسخر وتمكر؟ لغة هي النّسيج واللّباس والرّائحة والالتباس. تلتبس عليك الأحداث فلا تعرف ما الواقع وما الخيال وما السّحر. وتلتبس عليك الشّخوص والشخصيّات والأشخاص فتتساءل: من البطل؟ ولا جواب .. كلّهم أبطال ولا بطل.

نحن إزاء رواية علامة في تاريخ الأدب العالميّ. علامة تنساب المتعة مع سطورها كخدر الحبّ في العروق لذلك فهي تكره القارئ العاديّ وتنشد قارئا عاشقا شبقا لا ينتهي من الصفحة حتّى يستزيد إلى أن يفقد الوعي... أي يسترجعه.

ظافر ناجي

الساعة الخامسة والعشرون

المؤلّف: قُسطنطين جيورجيو
البلد: رومانيا
ترجمة: فائز كم نقش

إنّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السردية الباعثة على أسئلة جذرية حول مصير الإنسان المأسَوِيّ، فعالم الرواية الافتراضي متاهة يتعذّر أن ينجو منها أحد. وعلى النقيض من معظم الأعمال السردية حيث يختل توازن الأحداث ثم يعاد في النهاية؛ فإن نسق الاختلال يتعمّق بمرور الزمن، ولا يعود إلى سابق عهده أبدا.

رواية تتجلّى فيها أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقيّة والمآسي الشكسبيريّة، ومجمل الأعمال التي انصبّ اهتمامها على مصير الإنسان، لذلك فهي تنتسب إلى سلالة الآداب السرديّة الرفيعة الخالدة.

ولعلّ القرّاء يشاطرونني الرأي القائل إنّ كثيرا من الروايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربما شبه مستحيلة، وقليلا منها يدمغ الذاكرة بختمه الأبدي، ومن ذلك القليل النادر، في ما أحسب، رواية «الساعة الخامسة والعشرون»

د. عبد الله إبراهيم

أحدثت هذه الرواية ضجّة في أوروبا كلّها لم يحدثها كتاب مماثل من قبل، فترجمت إلى أكثر من 40 لغة وأعيد طبعها في فرنسا وحدها 78 طبعة، أمّا في شرقنا العربيّ فقد حظيت بتقريظ واف، فقال بعضهم فيها: «إنّها أفضل كتاب صدر بعد جمهوريّة أفلاطون» وقال آخرون: «لم يسبق لكاتب أن نجح في هزّ مشاعر جماهير العالم كلّه نجاح مؤلّف هذا الكتاب»

فائز كم نقش

twitter @baghdad_library

انقطاعات الموت

المؤلّف: خوزيه ساراماغو
البلد: البرتغال
ترجمة: صالح علماني

هذه الرّواية لا تنظر في عينيك، لا تواجهك، بل تنظر معك في الخلفيّة حيث تحدث الأشياء الأكثر قذارة وعنفا. تُنير تلك المنطقة المخفيّة السّوداء المُخيفة، لا تواجهك عينا لعين، وما حاجتها إلى ذلك؟ بل تفتح عينيك لترى الغامض والمدنّس والمرفوض، وتكشف بشاعة حياة الكائن البشري الّذي يمعن في التّظاهر بنقائه وصدقه وبراءة عنصره. نصّ ينتزعك من ذاتك، يخترقك في لين وشاعرية، محترما كلّ قناعاتك، قبل أن يطيح بها هازئا ضاحكا.

يجعل ساراماغو الوحش الذّي يقيم في أعماقك يظهر ويفتح جناحي شروره ويمارس في العلن وضاعته وخسّته. تتساءل وأنت تقرأ: من أين يأتي ساراماغو بكلّ هذه القدرة على التّحقير من شأن الكائن؟ كيف يتسنّى له العصف بكلّ إرث المواضعات التّافهة والمشترك القيمي القائم على الكذب؟ كيف يسيطر على هذا الحشد من الأفكار ويسيّر عمارته السّرديّة بهذه السلاسة والحذق؟

يطرح الكتاب أسئلة لا حصر لها في علاقتنا بالزّمن. إنّنا نموت دائما في الأخير.. ماذا لو توقّف الموت عن قتلنا؟ ما معنى الموت أصلا؟ ولماذا نموت؟

بعد القراءة أنتَ لستَ الشّخصَ الذّي كُنتَهُ، كُنتَ تعرف قبل القراءة أنّ الموت والحياة شقيقان، لكنّك لم تكن تستشعر المأساة والكارثة في غياب الموت مرّة واحدة وإلى الأبد. كنت تعرف أنّك مُستغَلّ، ولكن وأنت تقرأ ستعرف أنّك كنت دائما نهبا لأنذال سرقوك باسم الله وباسم القيم وباسم الموت أيضا، ومارسوا ضدّك نذالاتهم كلّها. بعد القراءة تتيقّظ النّمرة التّي علّموها النّوم في أعماقك، تنبت لها في الظّلمة أنياب ومخالب.. وتنقضّ.

نصر سامي

آخذك وأحملك بعيدا

المؤلف: نيكولو أمانيتي
البلد: إيطاليا
ترجمة: معاوية عبد المجيد

بهذا العمل الصادر في مطلع الألفيّة الثالثة، استردّت الرواية الإيطاليّة حيويّتها على يدي نيكولو أمانيتي، مُفتتحةً عصرا جديدا من السرد لا هاجس له غير التغلغل في أعماق الحياة الحديثة والاكتواء بأسئلتها .

رواية معاصرةٌ، الشبابُ موضوعها وسؤالها ومنتهاها، تتكلّم بلغتهم وتروي حياتهم وتُعلي من أصواتهم المكتومة خلف جدار الصّمت. إنّها رواية جيل جديد بقي خارج اهتمام الأدب وصار وجوده مزعجا ولكنّه حقيقة كالشمس. ماهي أحلام هذا الجيل؟ ماهي هواجسه وتطلّعاته؟ ذلك ما تتكفّل بمحاولة الإجابة عنه هذه الرواية، ولكنّها محاولة لا تخمد الأسئلة بل تولّدها وتطرحها عارية في وجه العالم بلا حذلقة لغويّة. تسمّي الأشياء الجديدة بلغة جديدة، ولا تمرّ بل تبقى حاضرة فينا حتّى تجبرنا مباشرة على النظر، مثلما تتّخذ الفتاة الجميلة في عتبة الرواية القمر مرآة إلى أن يقول لها: «أنت جميلة... أنت جميلة...»

كيف انتقل بنا أمانيتي من منطقة الخيال إلى صميم الواقع؟ كيف قوّض المسافة بينهما بكلّ براعة ويسر؟ وكيف استدرج شخصيّاته إلى النطق ولم ينطق على لسانها؟ ذلك أيضا ما تتكفّل بإبرازه هذه الرواية بلغة متوهّجة حيّة تمزج بين الكوميديا والتراجيديا، بين القسوة والبراءة في ثلاثة أيّام هي كلّ عمر أحداث الرواية ولكنّها تعتصر حياة بأسرها، تأخذنا وتحملنا بعيدا.

لمع نجم الكاتب بعد هذه الرواية التي حصدت العديد من الجوائز، وتمّت ترجمتها إلى 21 لغة وباعت ملايين النسخ.

الناشر

twitter @baghdad_library

مِيتّتان لرجل واحد

المؤلّف: جورج أمادو
البلد: البرازيل
ترجمة: عبد الجليل العربي

كيف يمكن لرجل في الخمسين من العمر أن يهجر العائلة والبيت ومعارفه القدامى، أن يهجر عادات حياة بأكملها، ليتشرد في الشوارع ويسكر في الحانات الرخيصة، ويمارس الدعارة، أن يعيش متسخا، ملتحيا، يسكن في حظيرة وينام على فراش بائس؟ .

خبر موته مثّل فاجعة المدينة ومأساتها.

وإذا كانت رغبة العائلة، هي دفن «جواكيم سواريس دا كونيا» صاحب كنية، «كينكاس هدير الماء»، بطريقة محترمة، فقد كان لأصدقاء عمره رأي آخر.

لذلك لم يجئ الأصدقاء الأربعة لإلقاء النظرة الأخيرة على جثمان صديقهم العزيز فحسب، و إنما، لتصحيح خطإ في رواية موته حين لم يقتنعوا بأن كينكاس «ملك مشردي باهيا» الذي أقسم ألا يموت إلا بين الأمواج يمكن أن يلقى حتفه، هكذا، على سرير رث في غرفته في طوباو. ومن هنا سيعيدون تشكيل الحكاية من جديد.

تُرجمت هذه الرواية إلى 50 لغة وأجمع النقّاد على أنّها تمثّل رغم قِصَرِها تحفة أمادو النادرة طوال مسيرته الحافلة بالإصدارات.

الناشر

المرجومة

المؤلّف: فريدون صاحبجام
البلد: إيران
ترجمة: وليد سليمان

«ثريا مانوتشهري» ليست مجرّد شخصيّة روائيّة من نسج الخيال، إنّما امرأة من لحم ودم، كائن بشريّ جرّدته يد المجتمع من كلّ شيء وقضت عليه بالموت رجما، لا لشيء إلاّ لأنّ زوجها أراد التخلّص منها فاتهمها بالخيانة.

هي دليل إدانة آخر يرفعه الروائيّ والصحفيّ الإيراني «فرايدون صاحبجام» في وجه نظام الخميني الّذي أصدر ضدّه حكما بالإعدام سنة 1979 بسبب نقده المستمرّ له، ولكنّ الكاتب المقيم في باريس تمكّن رغم ذلك في فيفري 1987 من التسلّل خفية إلى بلده الأصليّ لمتابعة وقائع تنفيذ حكم بالرجم حتى الموت ضد «ثريا مانوتشهري» المتّهمة ظلما بخيانة زوجها.

وهكذا يتحول الكاتب شاهد عيان على جريمة بشعة في حق امرأة انتهكت إنسانيتها، ولفّها الصمت، امرأة تآمر عليها مجتمع بأسره،حتّى والدُها الذي أجبر على إلقاء الحجر الأول في عمليّة الرجم.

لقد تم تحويل هذه الرواية التي ترجمت إلى 30 لغة إلى شريط سينمائي ناجح بعنوان «رجم ثريا» وأخرجه قرش نوراسته سنة 2008.

الناشر

تموت المرأة لكن المجتمع لا يتوقف عن رجم نفسه، رجم هويته وتركيبته ومعناه.

هذه رواية كبيرة، وعملٌ عظيم، وكتابةٌ يُستحى منها..

عبد الله ثابت

twitter @baghdad_library

الحب في زمن الكوليرا

المؤلّف: غابريال غارسيا ماركيز
البلد: كولمبيا
ترجمة: صالح علماني

هل أصغينا مرّة واحدة إلى صوت الحبّ المتغلغل في بلبال الواقع وفوضاه، هل حدّقنا في وجهه وهو يقاوم آخرَ العُمر على حافّة الهاوية؟ ذلك ما تتكفّل بمعالجته رواية «الحبّ في زمن الكوليرا»: أن نحبّ زمن الحرب والأوبئة، أن نجعل من وباء الكوليرا مبرّرا لإنزال الركّاب من الباخرة حتّى يخلو المكان النّهريّ للعاشقين وهما في السبعين من عمرهما بعد أن عاشا ماضيهما منفصلين، ها هما يعودان بعد عقود ليستعيدا حبّهما المراهق يتحدّيان به الموت شبقيْن، عاشقيْن، وكأنّهما في البرزخ ..

قصّة حبّ طويلة بمئات الشخصيّات تنتهي صفحاتها بعاشقين اثنين على متن باخرة في رحلة لا تنتهي ذهابا وإيّابا... قصّة وطن تمزّقه الحروب والأوبئة تتحوّل بقدرة قادر إلى حكاية حبّ أسطوري.. رواية تستند إلى التاريخ دون أن تقع في شراكه بل تحوّله إلى مادّة للتأمّل في الحبّ وفي الوجود الإنساني.. ها هنا يصير الحبّ ترياقا لكلّ الآفات بدءا بفعل الزّمن وانتهاء بالأحداث والتاريخ.. رواية ظاهرها بطلاها فلورنتينو أريثا وفرمينيا داثا تجري في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات العشرين في أمريكا الاّتينيّة... لكنها رواية الإنسانيّة في كلّ الأزمان وفي كلّ الأمكنة ..

ما الإنسان بلا حبّ؟ وهل عاشت الإنسانية زمنا بلا كوليرا؟؟؟ أبدا... فقط سنقول إنّ لكلّ زمان وباءَهُ وآفتَهُ ولا دواء للإنسان غير المقاومة العاشقة ...

ظافر ناجي

عرس الشاعر

المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

إنه عراب السرد الشيلي بلا منازع.

هذا المجنون الآسر الذي بعث فينا النشوة بروايته المذهلة «ساعي بريد نيرودا» هو الوحيد الذي يجعلني أتوقف بعد قراءة أي عمل له عن أي قراءة أخرى، إنه قادر أن يختزل البحر في موجة والربيع في باقة من الأزهار والسحر كلّه في رواية، وعلى يديه غدت جزيرة «جيما» المعزولة عن العالم، البدائية بالنسبة إلى بعضنا، جزيرةً حية، ترتعش.

في هذه الرواية تشعر بطعم الدم، والنبيذ، وزيت الزيتون، والسمك المشوي، طعم الخيبة، وألم الهزيمة، ويقين النهايات..

رواية تشنف سمعك بالسخرية والبذاءات، والشعر، وصهيل الثورات، والأغنيات. تهزك بمشاهد الذبح والرقص، والمجون، والسراويل المتسخة بالشراب وكلّ ما يجعل الحياة هنا لا في مكان آخر..

طاهر الزهراني

قصّة حبّ أسطوريّة قوامها المكيدة والسخرية، نظرة ذكيّة وتهكّميّة إلى أوروبا ما قبل الحرب العالميّة الأولى، ولكنّها في الوقت نفسه تأريخ لسلالة من المهاجرين الّذين وصلوا إلى الشيلي في بداية القرن العشرين.

تُرجمت هذه الرواية إلى 32 لغة وفازت في فرنسا سنة 2001 بجائزة ميديسيس لأفضل رواية أجنبيّة في العالم.

الناشر

twitter @baghdad_library

الحب والظلال

المؤلّف: إيزابيل الليندي
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

أنت في ورطة الآن، كلّ ما يُمكنك فعلُه هو التقدّم والاندهاش، ثمّ التقدّم والاندهاش. والتشويق؟ التشويق مُرّ في «الحبّ والظلال». كلّ لحظة فيها هي نهاية ممكنة، لكنّ البداية لا تنتهي. بداية أبديّة تتسّع دوائرها فتنمو الأحداث وتكبر الشخصيات ويبقى السرد طفلا ليكون خارج الظلال، محافظا على براءته. أوليست البراءة هي ما يقاوم العاشقان من أجله؟

ما دفنه التاريخ تنبش عنه إيزابيل الليندي بألم خانق يكاد يقطع أنفاس الرواية في كل لحظة، وبأمل خالق يضخّ الحياةً في عالم كامل ينشأ على حافة الهاوية، تروي من خلاله إيزابيل الليندي تلك المرحلة العمياء من تاريخ الشيلي.. لذلك فإنّ رواية «الحب والظلال» لا يمكن أن تنتهي، فهي تتحرّك في الذاكرة كما في النسيان، أو لنقل هي محاولة «لنسيان ما لا ينسى».

أنور اليزيدي

هذه قصة رجل وامرأة، أحب كلاهُما الآخرَ بكل جوارحه، لينجوا بذلك من حياة مبتذلة. وقد حملت القصة في ذاكرتي بحرص كي لا يبليها الزمن. والآن، في ليالي هذا المكان الصامتة، استطعت روايتها أخيرًا. لقد فعلت هذا من أجلهما، ومن أجل آخرين أودعوني حيواتهم قائلين: «خذي، اكتبي كي لا تمحوه الريح».

إيزابيل الليّندي

قلب كلب

المؤلّف: ميخائيل بولغاكوف
البلد: روسيا
ترجمة: أشرف القرقني

يقدّم ميخائيل بولغاكوف رسما استباقيّا لظلال الكارثة قبل اكتمالها، تلك التي ستلفّ الشّعب الرّوسيّ لأكثر من خمسين سنة.

وبقدرة هائلة على اختزال المتعدّد والمتشعّب في شبكة رمزيّة بسيطة ونافذة، يتمكّن هذا الكاتب الاستثنائيّ من ضيافة الشّعب الرّوسيّ برمّته داخل جسم «كلبٍ صالح»، يتعرّض لمسخ قسريّ عبر إقحام الأعضاء الأكثر حساسيّة لإنسانٍ ميّت في جسده...كلّ ذلك في لغة بسيطة ناقدة، تجعل من السّخرية الحصن الأخير الذي تنطلق منه كلّ حركة مقاومة واستعادة للإنسانيّ العميق من براثن اليوتوبيا الشيوعيّة الفجّة التي قضت على الإنسانيّ تحت شعار خلاصه.

هذه الرواية صوت مضادّ مكتوم لم نستمع إليه لأنّه جعل هاجسه فضح الانتهازيين بعد الثورة بشكل يجمع بين العجائبيّة والواقعيّة الفجّة، محبوكتين في نسيج السّخرية اللاّذعة. نشرت بعض فصولها على حلقات في الجريدة، ولكنّ ستالين سرعان ما تفطّن إلى خطورتها فانتفض إزاءها وجها لوجه، يُصادرها ويجوّع صاحبها لتبقى كاللّغم الممنوع الاقتراب منه أو مجرّد الإشارة إليه طوال 62 سنة، بدءا من سنة 1925 إلى سنة 1987 تاريخ صدورها لأوّل مرّة، أي بعد وفاة صاحبها بـ 33 سنة. ولكنّ نشرها كان كافيا لولوجها عالم الرّوائع الأدبيّة التي لا تنسى وانتشال صاحبها من سطوة النسيان لتضعه على مصاف كبار الكتّاب في العالم.

إنّها رواية تشييع الإنسان الجديد الذي بشّرت به الثورة الشيوعيّة إلى مثواه الأخير.

twitter @baghdad_library

يصدر قريبا

أيّام قوس قزح

المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

وردّدت الجبال الصدى

المؤلّف: خالد حسيني
البلد: أفغانستان
ترجمة: منير العليمي

النفق

المؤلّف: إرناستو ساباتو
البلد: الأرجنتين
ترجمة: منير العليمي

رصيف الأزهار ما عاد يجيب

المؤلّف: مالك حدّاد
البلد: الجزائر
ترجمة: عبير مكي

لمواكبة جميع إصداراتنا، تابعوا صفحتنا

على تويتر: MascilianaE@
وعلى الفايسبوك: Masciliana Editions

«لقد أربكتني هذه القصّة كثيرا. يوم قرأتها شعرت بشيء من الغبطة والحزن معا. كنت أريد أن أحبَّ رجلا كهذا... أو أكتب رواية كهذه، ولم يكن ذلك ممكنا، ولهذا ستطاردني هذه القصّة حتّى أشفى منها بطريقة أو بأخرى.»

أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

زوربا... شخصيّة ورمز... توقّف عن أن يكون وجها وقسماتٍ ليَصيرَ علامةً... علامة بكلّ مفهومها التأويليَ... إحالة تقود إلى إحالة لِتَدُلَّ على إحالة.. وتتواصل السلسلة...

شخصيّة فاضت على كلّ حدّ وهربت من سجن الرواية على رحابته لتُصبح رمزا للمهمّشين، للّذين يتعلّمون من الحياة. فيلسوفا يعلّم الفيلسوف، حكمتُه خبراتُ المعيش ومعترك الوجود الإنسانيّ... رقصة زوربا انتهت دستورا ورؤية للكون، رؤية تسخر من المعارف المتطاولة على الدنيا، المتعالية على الأرض. وتثور على وضعٍ تكون فيه إمّا خادما أو مخدوما... تكسر كلّ قالب لتأتيك في كلّ لحظة بدرس جديد مُلخّصه: لاشيء يعلو على صوت الحياة الصاخب...

ظافر ناجي

9 789938 833164

مسكيلياني

twitter @baghdad_library